

المنظمة العربية للترجمة

أندريه مارتينه

وظيفة الألسن ودينامييتها

ترجمة

نادر سراج

بدعم من مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

توزيع: مركز دراسات الوحدة العربية

المنظمة العربية للترجمة

أندريه مارتينه

وظيفة الألسن وديناميتها

ترجمة

نادر سراج

بمنعم من مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

الفهرسة أثناء النشر - إهداء المنظمة العربية للترجمة
مارتينيه، أندريه

وظيفة الألسن وديناميتها/ أندريه مارتييه؛ ترجمة نادر سراج.

446 ص. - (لسانيات ومعاجم)

بيبلوغرافيا: ص 429 - 436.

يشتمل على فهرس.

ISBN 978-9953-0-1647-4

1. اللغة - علم. 2. فقه اللغة المقارن. أ. العنوان. ب. سراج، نادر
(مترجم). ج. السلسلة.

410

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة
عن اتجاهات تبناها المنظمة العربية للترجمة»

Martinet, André

Fonction et dynamique des langues

© Armand Colin Editeur, Paris, 1989.

© جميع حقوق الترجمة العربية والنشر محفوظة حصراً لـ:

المنظمة العربية للترجمة



بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص. ب: 5996 - 113

الحمراء - بيروت 2090 1103 - لبنان

هاتف: 753031 - 753024 (9611) / فاكس: 753032 (9611)

e-mail: info@aot.org.lb - http://www.aot.org.lb

توزيع: مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص. ب: 6001 - 113

الحمراء - بيروت 2407 2034 - لبنان

تلفون: 750084 - 750085 - 750086 (9611)

برقياً: «معرربي» - بيروت / فاكس: 750088 (9611)

e-mail: info@caus.org.lb - Web Site: http://www.caus.org.lb

الطبعة الأولى: بيروت، كانون الأول (ديسمبر) 2009

المحتويات

9	استهلال
17	مقدمة المترجم
43	مقدمة المؤلف للترجمة العربية
47	مقدمة الكتاب
51	الفصل الأول: اللسانيات الوظيفية
53	1.1 - نحو مقارنة اختيارية - استنباطية للسانيات
88	2.1 - وظيفة وملاءمة تواصلية
115	3.1 - المتكلم يواجه التطور
129	4.1 - من التزامنية الدينامية إلى التعاقبية
142	5.1 - وجهة النظر الوظيفية في النحو
165	الفصل الثاني: تعلم الكلام وتعلم القراءة
166	1.2 - لسان منطوق ولسان مكتوب
181	2.2 - الولد يتكلم
184	1.2.2 - الفرقرة
185	2.2.2 - الثغفة
186	3.2.2 - المصاداة

187	4.2.2 - «الكلمة الأولى»
188	5.2.2 - الانبناء ان
192	3.2 - ألفباء الألفونيك
198	4.2 - الألفونيك والأهل
209	5.2 - الألفونيك والكتابة اليابانية
215	الفصل الثالث: تباين اللغات وضروب استعمالها
216	1.3 - تعدّد اللغات
234	2.3 - نحو لسان مشترك
255	الفصل الرابع: الوحدات التمييزية
256	1.4 - ما لا يدخل في نطاق الفونولوجيا
256	1.1.4 - علم أصوات وفونولوجيا
259	2.1.4 - فونولوجيا وعلم صرف
260	3.1.4 - التناويات
264	4.1.4 - تناويات وتحييدات
265	5.1.4 - إنتاجية
267	6.1.4 - تقلّب
270	2.4 - الوظيفة والتقطيع في النغمة
275	1.2.4 - النغمات
277	2.2.4 - النبر
279	3.2.4 - التحميم
283	الفصل الخامس: الوحدات البليغة
285	1.5 - ما العمل بـ «الكلمة»؟
299	2.5 - حول السيليم

307	3.5 - المونيمية المركبة
326	4.5 - هل ينبغي التخلي عن مفهوم الفاعل؟
332	5.5 - فاعل حقيقي أو مفعول به
332	1.5.5 - رصيدان لغويان
336	2.5.5 - بناء توافقي وبناء مفعولي
345	الفصل السادس: المعنى
346	1.6 - لسان ما والعالم
359	2.6 - ما علينا أن نفهم من «التضمين»؟
377	الثبت التعريفي
387	ثبت المصطلحات عربي - فرنسي
407	ثبت المصطلحات فرنسي - عربي
429	المراجع
437	الفهرس

استهلال

«ليس المقصود ترجمة نصّ وَحَسْبُ، فالأهمّ من ذلك
هو أن نسمي كي ننفذ إلى روح هذا النصّ».

المشرق أدريان بارثيليبي

A. Barthélemy (1889)

في إطار الجهد الاستعماري للأفكار والمزلفات اللسانية
الكلاسيكية، تعتمد كبريات دور النشر الغربية والمراكز والهيئات
العلمية المهيمنة بشؤون التأليف والترجمة والنشر، إلى تشذيب بعض
أمهات الكتب وتنقيحها، وتعيد طباعتها مزيّدة ومنقّحة ومزوّدة
بمسارد مفصلة ويثبت للمفاهيم، وتصدرها بحلّة جديدة.

وضمن هذا الشوْج، وافقت المنظمة العربية للترجمة،
مشكورة، على إصدار ترجمتي العربية الثانية لآخر مؤلفات العالم
اللساني المعروف أنطويه مارتينه وظيفة الألسن وديناميتها، الذي سبق
لي أن مرّيته، وأصدرته في العام 1996 دار المنتخب العربي في
بيروت.

أبدأ بالاعتراف بأنّ شهادتي «مجروحة» في مارتينه، وتياره
الوظيفي، ونتاجه الفكري، ومجلته (*la linguistique*)، وجمعيته

العلمية (الجمعية الدولية للسانيات الوظيفية) (Société internationale de linguistique fonctionnelle SILF)، التي انتسبت إليها منذ العام 1982، والتي تضم زملاءه وطلابه ومريديه، المؤلفة عقولهم، وقلوبهم بالطبع، والمتحمزة جهودهم لاكتناء الحقيقة اللغوية المعيشية، ورصد الوقائع اللغوية بواقعية متناهية، دون الإمساك عن اختيار بعضها باسم المبادئ الجمالية أو الأخلاقية. وتأسيساً على ذلك، التزموا الدراسة العلمية لتوصيف لغاتهم الأم، ودراسة مختلف الظواهر اللغوية الاجتماعية في ضوء تعاليم المدرسة اللسانية الوظيفية التي ارتضوا العمل وفق «مبادئ»⁽¹⁾ رائدها، وتطبيق تعاليمها في دراساتهم الميدانية. وبعدما صقلوا معارفهم اللسانية، أقبلوا على توصيف واقعهم اللغوي واستقراء آليات وكيفيات تواصلهم اليومي، وانصرفوا من ثم للدراسة إستراتيجية التخاطب، انطلاقاً من مقاربتهم العلمية لشؤون اللغة الإنسانية وشجونها، التي لا تنتهي فصولاً. هذه المقاربة تتطلب معاناة فائقة الدقة للنتاجات اللغوية لأعضاء الجماعة اللغوية الواحدة، وهي تحترم مبدأ الحراك اللغوي المتناهم، والعاكس لزخم الحراك الاجتماعي. وهذا التزام دينامي في رصد تطور الاحتياجات التواصلية لمستخدمي اللغة، بناء على تطور أحوالهم المعيشية، بشهد على تجاربهم الإنسانية، ويحتضن في آن معالم اجتماعهم الثقافي، ويبلور رؤيتهم لذواتهم وللآخر وللمعالم من حولهم.

وللحقيقة أقول، وقبل أن أترك المجال للمقارئ الكريم كي يطلع على مضمون مقدمتي: إن معرفتي الوثيقة وصداقتي لأندريه مارتينه، الأستاذ والعالم والإنسان، توطدت على مدى ما يتوف على العقدين من الزمن. فالكوة المعرفية التي تفتحت بفضل، لدي ولدى المئات

André Martinet, *Éléments de linguistique générale*, Armand Colin; 349 (1)

(Paris: A. Colin, 1960).

من طلابه العرب والأجانب على مقاعد الدراسة السورية في خريف العام 1979⁽²⁾، أثمرت وعياً بأهمية اللغة في تشكّل الهوية الثقافية، والتزاماً بمدرسته اللسانية ود «المبادئ» التي صاغها عقله النير وشكّلت ثمرة تدريسه سنوات خمساً في السوربون. كما أفضت هذه العلاقة إلى نسج مشاعر ود واحترام مع هذا المعلم والزميل الذي يستحق بجدارته سمة «تواضع العلماء» التي نفتقدها بأسى لدى العديد من «أبناء جلدتنا».

والمرء يُعرف ويُذكر عادةً برفاق الدرب وبأبناء المهنة الواحدة، لذا استعيد هنا المقولة الرائجة عن صديقه وزميله جورج مونان (Georges Mounin) الذي توقف عند ردود الفعل المتباينة إزاء رواج مؤلفات مارتينه، فقال فيها: «من بين من يعرفون مارتينه هناك من لم يقرأ سوى مبادئ اللسانيات العامة (*Éléments de linguistique générale*)، وهناك أيضاً من قرأوا اقتصاد التغيرات الصوتية (*Économie des changements phonétiques*) فقط». ونتمنى لقرائنا العرب، ممن فاتهم الاطلاع على هذين المرجعين، أن يستدركوا هذا النقص ويشفعوه بقراءة هذه الترجمة العربية المنقحة والمزودة لآخر إنتاجه العلمي؛ وظيفة الألسن وديناميتها.

ندعو إذاً القارئ العربي المهتم إلى الاستزادة من معارف هذا الرائد اللساني وعلومه، وهو من سعى على الدوام إلى إتباع التعاليم النظرية بالعمل التطبيقي، وبالوصف الفونولوجي تحديداً، لذلك استطاع، وعلى مديات عديدة، وفي بيئات لغوية شديدة الاختلاف

(2) تابعت خلال الأعوام 1979، 1980 و1981 حلفتين دراسيتين تخصصيتين تُدارهما مارتينه في «المدرسة التطبيقية للدراسات العليا» (IV section) في السوربون: الأولى: «Les principes fondamentaux de la syntaxe fonctionnelle» والأخيرة: «Socio-linguistique».

والخصوصية (الفرنسية والأميركية والألمانية والدانماركية، ناهيك بالعربية جزئياً، والتي توقف فيها عند فونيم «الجيم»⁽³⁾ الذي لفت اهتمامه في المنظومة الفونولوجية للسان الضاد)، أن يطور مبادئ نظريته ويصوغ آليات ومنظومات للدراسة الوصفية للألسن. وللحقيقة، أثارت فونولوجيا لغة الضاد فضول مارتينه، فتوقف ملياً عند بعض مسائلها، ففي سعيه إلى فهم جذليات الدينامية التي تعرفها الفونيمات، ومنها الفونيم «جيم» في العربية، كتب بحثاً بعنوان «التفوير العفوي للصامت /g/ في العربية»⁽⁴⁾، وأعاد نشره في كتاب تطور الألسن وإعادة البناء⁽⁵⁾.

ولا نغفل في هذا المجال بلورة مارتينه لمبدأ «التزامية الدينامية» (synchronie dynamique)، الذي يسمح بدراسة التغير اللاحق بالوحدات في زمن معين، وفق المبدأ القائل بأن لساناً ما يتغير في كل اللحظات لأنه يعمل، بمعنى: يشتغل⁽⁶⁾.

مارتينه لم يكن صاحب نظرية فحسب، بل كان المعلم والموجه، وقد تعلمنا منه الرحابة الفكرية، والمواءمة بين الأفكار المبتكرة والقدرات الكامنة لدينا والظروف التي نعيشها، ونتيح لنا

(3) انظر: Nader Saeed: *Dialogue des langues: Réflexions de deux linguistes*.

fonctionnalistes: André Martinet et Henriette Walter (Paris: L'Harmattan, 2003), p. 35-51.

وحوار اللغات مدخلاً إلى تبسيط المفاهيم اللسانية الوظيفية (بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2007)، ص 55-67.

André Martinet, «La palatalisation «importante» de g en arabe», *B.S.L.*, (4) no. 54, pp. 90-102.

André Martinet, *Évolution des langues et reconstruction* (Paris: PUF, (5) 1975), pp. 233-261.

André Martinet, «La synchronie dynamique», *La Linguistique*, vol. 26, (6) no. 2 (1990), p. 13.

إمكانات التحقيق الميداني، والملاحظة العلمية، وجمع المعطيات، والتصنيف، والتحليل فالاستقراء. لذا، نرقد معه أن لساناً ما هو بمعنى ما الإطار الذي تنتظم داخله تجربة أعضاء البيئة الاجتماعية الواحدة برمتهم. إن ما ينتظره المجتمع من الباحث اللساني ليس أن يصف تجارب الأشخاص المتكلمين فحسب، بل الطريقة التي تنتظم فيها هذه التجارب وفق بنى اللغة ومصادرها المستخدمة، والأهم من ذلك كله أن يكون لهذه البنى والمصادر انعكاس عميق على الطريقة التي يبدي من خلالها مستخدم اللغة ردة فعله على العالم الذي يحيط به. ولن يصح الأمر إلا عن طريق معاينتنا للسان بوصفه أداة للتواصل بإمكانها استخراج كل ما يميزها عن سائر أشكال اللغة الإنسانية⁽⁷⁾.

وفي ضوء ما سبق نقول: لم يفتّ مارتينه أبداً أي فرصة أكاديمية لتحفيز طلابه على الاهتمام بمسائل اللغة الإنسانية ورصد معالم الدينامية في الوصف التزامني للالسن. فنشاطه التدريسي أتاح له المجال كي يضع نتائج أبحاثه في متناول اللسانيين الشباب الذين استقبلهم على مقاعد السوربون والمدرسة التطبيقية للدراسات العليا، وجعل بتصرفهم أداة علمية كفيلة بدراسة وصفية تزامنية لالسنهم الوطنية. ولم يخرج كاتب هذه السطور عن هذا النطاق، فدرس مخبئته العربية المدينية في بيروت (1979 - 1981) في ضوء المنهج الوظيفي⁽⁸⁾، وأنجز دراسات ميدانية ذات منحى لساني اجتماعي (لغة الشباب، خطاب الرشوة، صورتنا المرأة والرجل في الموروث الثقافي

André Martinet, «Se soumettre à l'épreuve des faits», *La Linguistique*, (7)

vol. 19, no. 1 (1983), pp. 3-12.

Nader Saeed, *Étude Sociolinguistique du parler arabe de Moursaythé* (8)

(Beirut: Département des publications de l'université libanaise, 1997).

... إلخ)، أو فونولوجي وقيمي (axiologie) (العقد، البيت، الجماعة)، كما رصد تطور المَتحَكِّية العربية المدنية في بيروت خلال العقدين المنصرمين، فضلاً عن رصد ظهور بواجر «لهجة بيضاء» آخذة في التبلور تؤسس لإستراتيجية تُخاطب مستجلة لدى الأجيال الشابة.

ما ننتهي إليه في هذا الاستهلال هو أن إخراج هذه الطبعة الثانية إلى النور، بعناية مشكورة من المنظمة العربية للترجمة وفريق عملها الذي نشمّن جهوده، يؤكد أن «وظيفة» مارتينه تماسكت وواصلت تقدمها، مؤكدة أنها لسانيات الألسن المتحققة، لسانيات العرف والواقع المعيش، الذي لا نزال نخرف من حورده على الرغم من تجني بعضهم وتشكيكه باستمرارية هذه المدرسة في إذكاء روح البحث العلمي في أوروبا وفي بيئاتنا العربية. فما أقدمت عليه دار باريسية مرموقة ومنظمة عربية واعدة من قراءة استعادية لمؤلفين تأسيسيين لهذا العلم الفرنسي في غضون ستين، سيؤكد بما لا يقبل الشك أن اللسانيات بخير، وأن مجتمعنا العلمي العربي يستزيد هذا النوع من الترجمات لأمّهات الكتب. وهو في المحضلة قادر على الاختيار، وعلى تمييز الغث من السمين، وتفضيل الجيد على الردي، ورغد مكتبتنا العربية بما ينفع الناس، ويمكث في العقول، ويلهم الباحثين الشبان احتذاء دروب البحث العلمي خدمةً لإنساننا العربي من مكة إلى طنجة.



وختاماً أرجي الشكر العميم لكل من ساعد على إخراج هذه الترجمة في حلتها الجديدة، وأخص بالشكر أسرة «المنظمة العربية للترجمة». ولا أنسى أفضال رفيقة دربي وشريكة حياتي هدى، التي

وقد كنت في ظروف عمل مثالية لإنجاز هذه الصيغة المتقنة والمزينة لترجمة آخر مؤلفات معلمي أندريه مارتينه، قالشكر مضاعف لها ولابنتي سارة وثريا، اللتين أظهرتا صبراً جميلاً على كثرة انشغالاتي اللسانية وعلى أبحاثي التي لا تنهي فصولاً!

كما أتوجه بالشكر إلى الباحثة السيميائية السيدة جان مارتينه (Jeanne Martinet)، زوجة أندريه مارتينه، التي تجمعني بها علاقات زمالة وود وتقدير، وأذكرها بكل خير، فقد كان لي معها ومع زوجها جولات حوار وصولات نقاش في فرنسا وفي أغلب العواصم التي استضافت الحلقات الدراسية الدولية للسانيات الوظيفية. هذه الحوارات والنقاشات المستفيضة حول شؤون اللغة الإنسانية والسنة المتعينة، بما فيها لساننا العربي، نشرتها على حلقات في دوريات وصحف عربية تعميمًا لفائدة مبتغاة. ويعود الفضل لهذه الحوارات في تطوير رؤيتي للمسألة اللغوية عموماً، فضلاً عن إثراء تجربتي اللسانية، واستيعابي بشكل أفضل مبادئ النظرية الوظيفية وعلمي بمقتضى تعاليمها خدمةً وبحثاً في مسائل لسان الضاد.

وأياً تكن القيمة المضافة للتأملات النظرية والتطبيقات العملية التي يخرج بها قارئ هذه الترجمة العربية، فتفتنني الحقيقة أن أختتم بالقول إن اللغة شكلت لي على الدوام الوسط الجاري الذي أسقط حياتي المهنية والاجتماعية في شركه. فاللسانيات تخطت كونها اختصاصاً أكاديمياً أو عملاً جامعياً أو مصدرًا من مصادر رزقي، لتسبي بالنسبة إلي، بعد ربع قرن أو يزيد، إطار عمل وأداة تحليل علمي ومجالاً خصياً للبحث والترجمة والتأليف، وقبل ذلك كله منهجاً وظيفياً، بكل ما للمصطلح من معنى، لحياة خصبة وحافلة سعت قدر الإمكان لنقل «عدواها» المثيرة والمحيية إلى جمهوري الأقرب، أي طاليتي وطلابي الجامعيين وإلى المحيطين

بي من أهلي ومعارف وأصدقاء وزملاء عمل باتوا، من خلال
معاشتهم لي ومواكبتهم لنشاطي، لسانين «بالقوة» أو لسانين «عن
بعد»¹

ناصر صراج

بيروت في 27/7/2009

مقدمة المترجم

يتزامن صدور هذه الطبعة الثانية للترجمة العربية لكتاب وظيفة
الأسن وديناميتها⁽¹⁾ (*Fonction et dynamique des langues*)، آخر
المؤلفات الأكاديمية⁽²⁾ للمالم اللساني الفرنسي المعروف أندريه
مارتينيه (André Martinet) (1908 - 1999)، مع صدور الطبعة
الخامسة لمؤلفه اللساني، التأسيسي المنحى والذائع الشهرة، مبادئ
اللغويات العامة (*Éléments de linguistique générale*). إذ صدرت
الطبعة الأخيرة منه في العام 2008 عن دار أرماني كرلان (Armand
Colin)، التي سبق لها أن أصدرت الطبقات الأربع السابقة⁽³⁾ (1960،
1970، 1980، 1986). وهنا يحد ذاته مؤشر إضافي للمكانة الخاصة
التي تتبوأها اللغويات الوظيفية، لسانيات العُرف والواقع، التي

(1) André Martinet, *Fonctions et dynamique des langues* (Paris: Armand

Colin, 1989).

(2) أصدر مارتييه في العام 1993 سيرته الذاتية المنحى بمنوان مذكرات لحي:

عيش اللغات: André Martinet, *Mémoires d'un linguiste: vivre les langues* (Paris: Quai Voltaire, 1993).

(3) الطبقات الأربع الأولى صدرت - بالتشارك - عن منشورات (Armand Colin

Masson)، في حين صدرت الخامسة مترجمة عن دار (Armand Colin).

تظهرت معالمها على مدى خمسة عقود ونيف على يدي مارتيه وزملائه وطلابه.

إن هذا النزوع لإعادة قراءة التعاليم الوظيفية في ضوء تطور النظرية الأم يؤكد من جهة أخرى القيمة النوعية لهذه المدرسة اللسانية، باعتبارها إرثاً معرفياً يراكم مراحل تطور هذا التيار العلمي، فضلاً عن مراكمته حقاً من الجهود العلمية المبذولة من قبل مارتيه وزملائه وطلابه منذ ستينيات القرن الماضي وصولاً إلى مطلع الألفية الثالثة.

لقد رغبنا في أن نستهلّ مقدمتنا لهذه الطبعة المزيّدة والمنقحة لترجمتنا العربية لكتاب وظيفة الألسن وديناميتها بالكلام عن كتاب مبادئ اللسانيات العامة، الذي اعتبره مؤلفه «مبسّطاً»، في حين وُصف الكتاب الذي بين أيدينا وظيفته الألسن بأنه «يشكل مدخلاً أكثر مباشرة»، لجهة سهولة بلوغ أهدافه التوضيحية بالمقارنة مع المبادئ، الذي عرض مارتيه من خلاله على المجتمع العلمي مبادئ نظريته في متين وأربع وعشرين صفحة امتازت بإيجاز لغتها ووضوح أفكارها على الوجه الأكمل، وأمت بذلك اللبنة الأساسية في اللسانيات الوظيفية.

وللإضافة على أهمية كتاب المبادئ في المسارين الفكري والنالفي لمارتيه، نشير إلى أنه اعتُبر على مدى عقود خمسة ألباء اللسانيات العامة وكتابها الأوحى غير المقتس. فقد بسط مارتيه من خلال فصول ستة معالم هذا العلم المستجد، بلغة سهلة ومبينة.

ريادته في عرض المبادئ العامة للسانيات الوظيفية بأسلوب التهل الممتنع، جعلت من كتابه التأسيسي هنا نصّاً مرجعياً لا

يمكن تفاديه أو التغاضي عن وجوده لكل من يرغب في الاطلاع على اللسانيات، أو تعميق معارفه في الطريقة التي تشتغل فيها اللغات، أو يمكن أن تدرك أو تفهم من خلالها⁽⁴⁾. في السياق نفسه، نلفت إلى أن أرمان كولان (الناشر)، الذي اعتنى بإخراج مؤلفات مارتينه إلى النور، أشار إلى مارتينه في كل من الطبعتين: الأولى (1960)، باعتباره القائد الذي لا جدال فيه للمدرسة الوظيفية في اللسانيات، والثانية (1970)، بوصفه أحد القادة المسلم بهم لعلم الفونولوجيا. هاتان الصفتان العلميتان المتكاملتان جعلتا كتاب المبادئ يندرج في المكتبتين العلمية واللسانية باعتباره أحد أهم كلاسيكيات اللسانيات، والمدخل الهام للغة واللسان على حد سواء.

اعتبر مارتينه المبادئ كتاباً مبسطاً، في حين نظر إليه بعض النقاد بوصفه «نموذجاً للوضوح في البيان... وكتاباً نموذجياً ومثالياً لأجيال من الطلاب الجامعيين». والرأي الأخير ساقه العالم اللساني السيميائي ميشال أزييفيه⁽⁵⁾ (Michel Arrivé) في معرض رثائه لمارتينه.



ومن باب التذكير نقول: إن بواكير علم اللسانيات ظهرت خلال القرن المنصرم على يد العالم اللساني السويسري فوديناند دي سوسير (Ferdinand de Saussure) (1857 - 1913)، فقد نشر طلابه في العام 1916، أي بعد وفاته، محاضراته التي قُدمها في جامعة جنيف (1906 - 1912)، في كتاب حمل اسم دروس في اللسانيات العامة (*Cours de linguistique générale*). هذه الدروس، التي أعيدت صياغتها، أرسيت

(4) انظر: استهلال الطبعة الخامسة لكتاب André Martinet, *Éléments de*

linguistique générale, Armand Colin; 349 (Paris: A. Colin, 1960), p. 15.

(5) Michel Arrivé, «La Mort d'André Martinet», *le Monde*, 16/8/1999.

شروط قيام لسانيات محضّة، منزّهة ومميّزة عن الفونولوجيا، فضلاً عن أسس علم بنيوي للمعنى.

وللحقيقة، وبما أننا في معرض الكلام عن سوسير «معلم جنيف»، ومارتينيه «اللسانيّ مدى الحياة»، وانطلاقاً من مبدأ تكامل الحلقات المعرفية، نذكر أنّ الآراء والتعاليم التي حفلت بها الدروس بنى عليها لسانيون مُبرّزون جازوا بعد سوسير وطوّروا مفاهيمه، ومنهم أندريه مارتينه، الذي أكّد حضوره اللسانيّ وتميّزه المفهوميّ من خلال كتاب مبادئ اللسانيات العامة الذي أصدره مطلع الستينيات، والذي يحلّ في المرتبة الثانية بعد الدروس لـ سوسير⁽⁶⁾. هذان الكتابان المرجعان تُرجما إلى عددٍ من اللغات الحيّة، بما فيها العربية⁽⁷⁾.

وبما أننا في صدد الكلام عن علّامين مرموقين في عالم اللسانيات الأوروبية، ونعني سوسير ومارتينيه، نشير إلى أن مارتينه كان متوافقاً مع سوسير في العديد من جوانب تفكيره، ربما أكثر من تلك التي جمعتها بأوتو ياسبرسن⁽⁸⁾ (Otto Jespersen)، فقد عرف ياسبرسن بشكل وثيق، بدليل ترجمته⁽⁹⁾ لكتابه (Langage) (لندن

(6) فقرة أوردها في المقالة التذكيرية التي نشرها في الحياة، 15/5/2007، حول كتاب ميشال أزييه: Michel Arrivé, *À la recherche de Ferdinand de Saussure* (Paris: PUF, 2007).

وقد أعاد مترجم الكتاب د. محمد خير البقاعي إدراج مقالتي هذه في مقدمته (ص 13-17) للترجمة العربية للكتاب، الصادرة عن دار الكتاب الجديد المتحدة في بيروت، في العام 2009، والتي قمت بمراجعتها.

(7) ترجم البقاعي إلى العربية د. أحمد الحموي، وأشرف عليها د. عبد الرحمن الحاج صالح ود. فهد عكّام، وصدرت ضمن منشورات وزارة التعليم العالي، دمشق 1994 - 1995.

(8) أحد كبار العلماء اللسانيّين الناطليين (1860 - 1943)، عُرف بأعماله باللسان التبرية وباللغات والنظريات اللسانية (نقد تصوّر القانون الصوتي الكل).

(9) قصّدت مسودة هذه الترجمة خلال الاضطرابات التي تراكمت مع الحرب، ولم تطبع أبداً، وقد تمت الترجمة لاحقاً، كما سيرد في القلعة.

(1922)، وهو يعترف⁽¹⁰⁾ بأنه «لم يقرأ اللغويين لـ سوسير بكاملها إلا بعدما كان قد تأثر بصورة واضحة، إن لم يكن بعمق، باللساني ياسيرسن». وتقل زوجته السيدة جان عنه «أن تفكيره اللساني كان قد تطور جداً قبل أن يقيم صلات مباشرة مع سوسير». ويختصر علاقتهما بالقول: «أعتبر نفسي سوسيري في كثير من النقاط»⁽¹¹⁾.

وللحقيقة، إن الفترات الزمنية التي تُنشر خلالها المؤلفات التأسيسية لكبار الكتاب ولرواد التيارات الفكرية واللسانية، تؤذن بتطور فكري أو بنضوج نظري يواكب انتهاء مراحل وتبلج أخرى مفصلية في مسار هؤلاء الكتاب والرواد، ناهيك بتضافر الظروف والأحوال الثقافية الاجتماعية المؤاتية لنشر مبادئهم في صفوف الجمهور، فعودة مارتينه مثلاً إلى فرنسا في العام 1955، وتسميته لتبواً كرسي اللسانيات العامة، تضافرتا للابذان بانطلاق مرحلة المؤلفات المرموقة. والشهرة التي أصابها كتابه التأسيسي، الصادر بالفرنسية والمترجم إلى أكثر من سبعة عشر لساناً، جعلته في المركز الأول بين نظرائه الفرنسيين، وبخاصة كتاب مسائل اللسانيات العامة (*Problèmes de linguistique générale*)، الذي أصدره إميل بنفنيست (Emile Benveniste) وترجم إلى سبعة ألسن، كما يشير أزيغيه في المقال المذكور أعلاه.

وكان علينا انتظار العام 1960 كي نشيّن الفكرة الأولى لمقارنته موضوع الوحدات البليغة، تلك التي تشكل الانبناء الأول في نظرية الانبناء المزدوج (*double articulation*)، التي نعتبر إحدى دعائم رؤيته الفونولوجية لمنظومة اللغة الإنسانية.

(10) وفق ما كتبت زوجته الياخته السيميائية السبعة جان في مقال غير نهائي وغير منشور بعنوان *Saussure et Martinet* زودتا به.

(11) Martinet, *Mémoires d'un linguiste, vivre les langues*, p. 294.

وهنا نستطيعُ القراءة عذراً لفتح قوسين وتستعيد ملامح من الفترة التي تلت عودته من الولايات المتحدة الأميركية (1946 - 1955)، فقد كان لها كبيرُ أثرٍ على تطور رؤيته للغة عموماً وللألسن المتحققة تحديداً. كما أنها مكنته من تحديد أفضل لنظريته الفونولوجية، التي تتوضح معالمها أكثر فأكثر في كتاب وظيفته الألسن وديناميتها. وإذا تتبعنا الوقائع المدونة نستنتج أنَّ مارتينه دُعي صيف 1946 إلى نيويورك⁽¹²⁾ بهدف الإسهام باستنباط لغة عالمية إضافية، من خلال لجنة شارك فيها أوتو ياسبرسن وإدوار سابير (Edwar Sapir). وقد تابعت أعمال هذه اللجنة في نيويورك تحت إشرافه من عام 1946 وحتى عام 1949، وكان قد ألقى في عام 1946 سلسلة محاضرات (ظهرت في ما بعد في كتاب تحت عنوان الفونولوجيا: علم الأصوات الوظيفي *Phonology as Functional Phonemics*)، وعندما أصبح عضواً في مجلس مديري «الجمعية الدولية لعلم الأصوات» (L'Association de phonétique International «A. P. (»)، وعرض عليه في الحقبة ذاتها منصب في جامعة كولومبيا في نيويورك، حيث عُيِّن «أستاذاً متفرغاً» ورئيساً لقسم اللسانيات فيها. وكذلك أصبح، بدءاً من العام 1947، مديراً لتحرير مجلة (Word)⁽¹³⁾ التي أسسها جاكوبسون عام 1946 في إطار «المدرسة الحرة للفروس العليا»، في نيويورك.

بقي مارتينه حتى عام 1955 في نيويورك، حيث مارس تعليم اللسانيات العامة والنحو المقارن لجمهور كبير من المهتمين،

(12) وجهت الدعوة من قبل «جمعية اللغة الدولية للمستنيطة» (International Auxiliary Language Association I. A. L. A.) التي أسسها أليس موريس (Alice Morris).

(13) مجلة تعنى باللسانيات وتصدر في نيويورك.

مختصاً كثيراً من الحماسة والحيوية لإصدار مجلة (*Word*) التي جعل منها مجلة ذات مستوى راقٍ. وفي هذه الحقبة أيضاً، عمّق مارتينه تفكيره حول موضوع التطور الصوتي الذي أوصله في ما بعد إلى نشر مؤلف حول علم الأصوات التاريخي بعنوان *اقتصاد التغيرات الصوتية* (¹⁴ *Économie des changements phonétiques*).

وقد استعمل مارتينه في هذا المؤلف، ومن دون أن يرد أبحاث علماء لغة الأكثر تقليدية، كلّ المعطيات التي تراكمت بأناة من قبل هؤلاء، وذلك بعد توضيحها وترتيبها على ضوء نظريته الفونولوجية، وقد أذى نشر هذا المؤلف عام 1955 إلى حصوله على شهرة عالمية⁽¹⁵⁾. وبعد عودته إلى فرنسا عام 1955، سُمّي أستاذاً لللسانيات العامة في السوربون، كما أنشأت المدرسة التطبيقية للدراسات العليا إدارة للدراسات اللسانية البنيوية من أجله عام 1957.

ونختم هذه الفقرة بالإشارة إلى أن العام 2005 شهد صدور طبعة ثانية مزيّدة ومنقّحة لهذا الكتاب من قبل مارتينه نفسه، أعدها قبل وفاته وصدرت بعناية زوجته السيدة جانّ. وقد نشرتُ مقالة نقدية نوّهت فيها بأهمية الكتاب، وتكريماً لجهدهما العلمي.

انصرف مارتينه إلى مهنتي التدريس الجامعي والثأليف، وانشغاله في القيام بنشاطات مهنية، وتحديدأ أكاديمية، وانغماسه في الأبحاث العلمية، لم تثبه عن الالتفات إلى تاجات زملائه ومعاصريه من اللسانيين المرموقين، فهو لم يغبط زملاءه حقهم. ومن باب

(14) André Martinet, *Économie des changements phonétiques, traité de phonologie diachronique* (Bern: A. Francke, 1955).

(15) حوار العرب، العدد ■ (تشرين الأول/أكتوبر 2005).

نشمين الجهود العلمية المبذولة من قبلهم، واعترافاً منه بأهمية نتائجهم اللسانية باعتبارها تراكُم معارف إنسانية لاقتة تتضمن آراء لسانية جديرة بالتعميم، فقد ساهم في كتابة تحليلات لكتب ومقالات نقدية عن بعض المؤلفات الهامة التي استوقفتها، وتتمثل على ذلك بما كتبه عن هيلمسليف. من ناحية أخرى، لم يقتض الإيجاء أو التشجيع على القيام بترجمات لكتب لسانية مرموقة، نذكر منها على سبيل المثال ترجمة الدروس لـ سوسير من قبل وايد باسكن (Wade Baskin) إلى الإنجليزية، وترجمة كتاب مبادئ الفونولوجيا⁽¹⁶⁾ لـ نيكولا تروبتسكوي (Troubetzkoy) إلى الفرنسية من قبل جان كونتينو (Jean Cantineau)، مصدرة بمقدمة كتبها مارتينه.

في ختام هذه المقدمة⁽¹⁷⁾ يؤكد مارتينه على ريادة تروبتسكوي ورؤيته اللسانية، معتبراً أن عرضة الجوهرية هذا يبقى أهم مؤلف ذي طابع تلقيني للفونولوجيا، فهو يتوجه في آن واحد إلى الذين لا يبحثون في مضامينه سوى عن مبدأ للوصف، كما يتوجه أيضاً إلى اللسانيين الحقيقيين الذين يجدون غايتهم في هذا النوع الدراسي الجديد، أي المنهج الذي بإمكانه أن يقودهم إلى تأسيس علم لغات حقيقي. وهذا ما يلد إليه مارتينه في مختلف مراحل همزه الأكاديمي المديد الذي انطلق في خواتيم الألف الثاني، مخلفاً ثلاثين⁽¹⁸⁾ مؤلفاً أكاديمياً، أتبعها بمذكراته الصادرة في العام 1993⁽¹⁹⁾.

III. S. Troubetzkoy, *Principes de phonologie*, traduit par J. Cantineau, (16) tradition de l'humanisme, 7 (Paris: Klincksieck, 1976).

Ibid., p. xi.

(17)

Martinet, *Mémoires d'un linguiste, vivre les langues*, pp. 367-373.

(18)

(19) ذكر فيها اثنين من معارفه في الشرق الأوسط: الأب سليم عبو، الذي أشرف

على أطروحة وكتب هذه الأطروحة.

ولا يفوتنا أن نذكر أيضاً ترجمة كتاب ياسبرسن (*Language*)،
الذي حمل عنواناً جديداً هو **طبيعة اللغات وتطورها وأصلها**⁽²⁰⁾،
(باريس 1976)، التي قام بها ل. دهان (L. Dahan) وأ. هام.
(A. Hamm). يعلم هذا الكتاب القارئ - بشكل مفيد - تاريخ
اللسانيات وأسلوب تلقين اللغة للطفل، وكلها خطوات كانت له اليد
الطولى في المبادرة إلى تحقيقها، في ضوء سعيه إلى تعميق ثقافة
اللسانيات - وضعاً أو ترجمة - في صفوف الأجيال الشابة، من طلاب
جامعيين وباحثين وأساتذة لغات حية.

وخارج هذا السياق وهذه الأسماء اللوامع في دنيا اللسانيات،
وبتواضع قلبي، أذكر هنا أنه شجعتني على تعريب كتابه **وظيفة الألسن**
(الذي بين أيدينا) خلال لقاء لي معه في شهر أيلول/ سبتمبر من
العام 1990، لما توشم فيه من آراء مستجدة رغب في إطلاع القراء
العرب عليها.

وعلى الرغم من تأثره جزئياً بأفكار سابقيه، أو مجايله الذين
نسنت له الفرصة للاطلاع على آرائهم، فقد سعى مارتييه إلى ترسيخ
استقلاليته الفكرية، وعبر عن ذلك في مقالة بعنوان «في خط
مستقيم»⁽²¹⁾ (*En droite ligne*) بالقول إنه يمتنر لأنه طوّر أفكاره
ومبادئه، وكان في آن واحد ذا قابلية محدودة للتلقي عمّن سبقه أو
جايله. وحتى عندما قرأ الكبار - أمثال - موشير على سبيل المثال، كان

Otto Jespersen. *Nature, évolution et origines de langage*, traduit de (20)
l'anglais par L. Dahan et A. Hamm; préface d'André Martinet (Paris: Payot,
1976).

André Martinet, *En droite ligne, Die Deutsche Bibliothek - C. I. P.* - (21)
Einheitsaufnahme. Wege in der Sprachwissenschaft: vierundvierzig autobiographische
Berichte; Festschrift für Mario Wandruszka, Hrg. Von Hans - Martin Gauger
und Wolfgang Pöckl (Tübingen: Narr, 1991).

يقوم على الدوام بهذه القراءات، محدداً بغيطة النقاط التي يجد فيها نفسه يتوافق وإياهم حول وجهات النظر تجاه مسائل اللغة الإنسانية، أو حيث كان بمقتوره أن يتابع آراء هؤلاء الكبار، بهدف توسعة أفقه لا إقلاق أفكاره أو إثارتها، ويستشهد على ذلك بالقول إنه منذ ذلك بدا له التفرع الثنائي السوسيري «لغة - كلام» خطراً في لادقته الكلية، لذا نراه يستغرق وقتاً طويلاً كي يستبعده بطريقة متأنية.

ويتابع الكلام عن رفاق الدرب، فيشير إلى أنه استفاد كثيراً من ترجمته لكتاب ياسبرسن، ولكن الخلافات مع نصه لم تكن نادرة، إن على الصعيد النظري أو لجهة التجارب المختلفة التي تتميز عن تجاربه الخاصة.

بعد هذا العرض المختضب الذي تناول نبذاً من سيرة المؤلف وبعضاً من مؤلفاته التأسيسية ذات الطابع الكلاسيكي، وبعد استعراض نماذج لمختلف العلاقات والمواقف التي جمعتها بـ «زملاء» المهنة الواحدة، سنسعى كي نضع القارئ العربي في الأجواء العامة لهذه المدرسة اللسانية التي أودع مارتينه آخر مؤلفاته العلمية وظيفة الألسن وديناميتها زبدة عمله فيها، النظري منه والتطبيقي. ولم نجد أفضل من استعادة أفكار وآراء سابقة للمؤلف والتعليق عليها، والإضافة متى أوجبت الحاجة مزيداً من الإيضاح والتوقف، بغية تسهيل مهام المهتمين والراغبين في التعرف عن كثر على أفكار هذا الرائد اللساني الذي اختط طريقه في عوالم اللغة، وتميز برؤيوية سنسعى السطور التالية إلى تبيان معالمها.



في ماهية اللسانيات الوظيفية

الكتاب الذي نقدته للقراء معرباً ومنقحاً، يتمحور حول تصور مارتينه لمفهوم الرؤية الوظيفية للوقائع اللغوية، فضلاً عن التطبيقات

العملية لهذا المفهوم. لذا لم ترَ بداً من توضيح هذا المفهوم، من خلال العودة إلى أدبيات مارتينه في هذا المجال وإلى صوابق زملاء آخرين له يعيد إليهم الفضل ويناقش آراءهم ويصوّب البعض منها ويناقض بعضاً آخر. في كل الأحوال، هو يسعى إلى تمييز مفاهيمه وتحديد حقول تطبيقاته لهذا المفهوم الأثير في مساره، الأكاديمي منه والتأليفي.

وفي إطار تعريف المبادئ التي قامت عليها نظريته اللسانية، يحدّد أندريه مارتينه في مقالة له بعنوان «ماهية اللسانيات الوظيفية»⁽²²⁾، القيمة التي تمتلكها كلمة «وظيفة» بالنسبة إلى أعضاء «الجمعية الدولية لللسانيات الوظيفية»⁽²³⁾ (Société internationale de linguistique fonctionnelle SILF) ويستهل تعريفه مشدداً على المعنى الأساسي لهذه الكلمة: «الدور الذي يضطلع به اللسان في

(22) André Martinet, «Qu'est-ce que la linguistique fonctionnelle?»,

Université Estadual Paulista, vol. 38 (1994), pp. 11-18.

(23) جمعية دولية تهدف إلى جمع لومصر اللسانيين والباحثين الذين يطبقون في دراساتهم اللغوية مبادئ اللسانيات الوظيفية. ومن مهمات الجمعية تنسيق الأبحاث وتعميم النتائج التي يتوصل إليها اللسانيون الوظيفيون المنتمون لكل البلدان، كما لمختلف المدارس والتيارات، وذلك من خلال إصدار مجلة اللسانيات (La Linguistique) (باريس) التي تأسست عام 1986، والتي اعتُمدت رسمياً كلسان حال الجمعية ابتداء من عام 1977. إضافة إلى ذلك تأخذ الجمعية المبادرة في عقد أيام دراسية، وفي تنظيم حلقات دراسية دولية سنوية تطبع فاعمالها بمساعدة الجامعات المستضيفة. تتخذ الجمعية من «الكلية التطبيقية للدراسات العليا» السوربون مركزاً دائماً لها.

ومن باب العلم بالقشي، نشير إلى أن الحلقة الدراسية الدولية الأولى التي عقدتها (SILF) كانت في العام 1974 (فروتينغ - هولندا). وعلى مدى خمس وثلاثين سنة عقدت اثنتان وثلاثون حلقة في عشرين بلداً فرنكوفونياً وإنجلوسكوتياً، والحلقة الثالثة والثلاثون عقدت صيف العام 2009 في مدينة مينك (روسيا البيضاء). وتكريماً لؤسها أندريه مارتينه، نظمت الجمعية في ربيع العام 2008 لقاء تكريمياً بعنوان (Rencontre André Martinet).

نقل التجربة البشرية». وتأسيساً على ذلك، يشرح انتماء اللسانيات إلى «علوم الثقافات»، الأمر الذي يسوّغ تخطي اللجوء إلى الاستبطان (l'introspection) وتحديد ما هو «ملائم» في هذا العلم، إنها برأيه الملازمة التواصلية (la pertinence communicative). ويعرض في السياق عينه تحديد اللسان ما (une langue) - وليس للسان (la langue) - بوصفه «أداة تواصل مزدوجة الانتماء»، مع الأخذ بعين الاعتبار أن هذا المفهوم ينبغي أن يعمل بمثابة شرط كي يمكننا أن نعين ما هو «لسان ما»، وما الذي يفرقه عن الألسن الأخرى، ومنهياً إلى محاولة إدراج عناصر ليست بالضرورة مؤلفة أو جوهرية في هذا التحديد. هذه الرؤية الوظيفية تفضي بالوظيفيين - برأيه - إلى عدم التماس فروع دراسية جديدة مثل: عملية القول، والدرائعية، وعلم اللسانيات الاجتماعية (Sociolinguistique).

وقبل أن نستمر في عرض مبادئ الوظيفية وتعاليمها، بلسان مارتينه، لا بأس من التذكير بأهمية استخدام مفهوم «الوظيفية»، لذا نتوقف عند العالم اللساني لويس هيلمسليف⁽²⁴⁾ (Louis Hjelmslev)، المنظر المؤثر في مجاليه وزملائه (مارتينه على ميل المثال)، والذي يمكن اعتباره رائد السيميائية العملية، فقد وصف نظريته اللغوية، أو لغاوتة⁽²⁵⁾ (glosématique)، بأنها لسانيات وظيفية، حيث كانت هوية الوحدات المشتجة تتميز جزاء توافقاتها لا جزاء مادتها الصوتية أو

(24) عالم لساني دنماركي وأحد مؤسسي المدرسة اللسانية الفلوسوفية (1899 - 1965). تأسس مع العالم فيغو براندال (Viggo Brøndal) «محلّة كوينهاغن اللغوية» في العام 1931.

(25) يعود أصل هذه الكلمة إلى (glossa) التي تعني بالإغريقية «اللسان»، وأول من استعملها لويس هيلمسليف وتعتبر «اللغوة» أو النظرية اللسانية التي نادى بها هيلمسليف، أن اللغة غاية بقاتها وليست وسيلة، وهي مدرسة بتبوية أكثر منها تجريدية؛ نشأت في =

الدلالية. والحقيقة أنه حينما وصف علماء الفونولوجيا الأوائل علمهم بأنه «وظيفي وينيوي»، فقد كان بإمكانهم أن يحثوا لاحقيهم على احتذاء المدرب المعتمد من قبل هيلمليف، وهذا الأخير نفسه هو الذي ألح دائماً على ما كان في مذهبه يقابل ما في مذهبهم.

وبالعودة إلى إسهام مارتينه في هذا المجال، فهو يعتبر في المحصلة أن مفردة «وظيفي» لا تملك في أعرف اللسانيين وممارساتهم معنى إلا بالرجوع للدور الذي ينهض به اللسان، بالنسبة إلى البشر، في نقل خبراتهم بعضهم لبعض، فلغة الإنسانية وظيفية أساسية هي «تأمين التواصل بين مختلف مستخدميها وفي إطار المجتمع الذي ينتمون - وتنتمي اللغة إليه»، وهذه الوظيفة تؤديها الألسن على اختلاف بناها على الرغم من التباينات الحاصلة بينها. من هنا نفهم أهمية مفهوم «الوظيفة» الذي رغب مارتينه في أن يتوج به عنوان مساره الأكاديمي أساساً، ومؤلفه هذا، أي وظيفة الألسن وديناميتها.

نتجاوز هذا العرض التفصيلي واللازم لمعنى مصطلح «وظيفي» في المسار العلمي لـ مارتينه، لنعالج بعض مواقفه من تعاليم «معلم جنيف» فرديناند دي سوسير. إن أسبقية المنطوق على المكتوب التي نادى بها سوسير تستوقفه، ولكن آراءه الأخرى تستدعي منه نقاشاً منهجياً ننقل هنا بعضاً منه للإضاءة على العلاقة العلمية التي جمعت بينهما.

* كويتهاغن كرثة فعل على حلقة براغ. لكنها حافظت على مساهمتها الأساسية وأطلقت عليها اسم «الامتثال» (La commutation)، واضعة لآلة جانباً، الأمر الذي أبقدها إمكانية إدراكها الحقيقة.

من الصحيح أن مارتينه يرى أن علينا الانطلاق من معاناة الاتصال بواسطة اللغة، وبالتأكيد في شكلها الأولي المنطوق. وهنا يعيد الفضل إلى فرديناند دي سوسير، معتبراً أننا ندين له بالكثير. ولكنه يضيف أن علينا تجاوزه بتصميم، حيث كان قد بقي أسير النظرة التقليدية التي يملت بموجبها السلوك الإنساني، في جزء كبير منه، من قوانين الطبيعة، والتي تنص على أن دراسته مستعينة بالضرورة بـ «الاستبطان» (introspection). وفي هذا المحور بالذات، يلتفت النظر إلى ضرورة حث اللسانيين على التمييز بين «علوم الطبيعة» التي تعمل بواسطة معاناة الأحداث التي تمكن معابنتها مباشرة على أنها متميزة عن الشخص المعاني، و«العلوم الإنسانية» التي تتضمن معاناة الشخص المعاني بنفسه، أي «الاستبطان» في الواقع.

وبما أن اللغة الإنسانية وألسنها المتحققة هي بيت القصيد في هذه التعاليم الممهدة، فهو يخلص إلى أن نزوعنا لتعزير وحدة العلم بعيداً عن تنوع مواضيع الدراسة، يفترض بنا أن نقابل اللغة الإنسانية بـ «علوم الطبيعة» من جهة، حيث تقوم المعاناة على ما ندركه بوصفه ثوابت الكون الذي يحيط بنا، و بـ «علوم الثقافات» التي تسعى إلى معاناة الأحداث التي تتغير في الزمان والمكان من جهة أخرى، لأنها تقوم على سلوك كل كائن حي منذ أن يتطور في بيئة معينة تكيفه بعد ولادته. وهنا بالذات يشرك لقراءه أن يتبينوا الرب العلموي الذي تسلكه اللغة الإنسانية وألسنها المتحققة.



ثنائية سوسير (اللغة/الكلام) تستوقفه، لذا يعتبر أن سوسير وصف جيداً دورة الكلام، ولكنه كي لا يشد في الختام سوى على الأجزاء التي لا يسهل بلوغها مباشرة، والتي يعزوها إلى «اللسان»، مع أداة التعريف، كما لو أنه سيتمثل مع حقيقة متماثلة بشكل

أساسي في كل الثقافات حيث تُمارس اللغة، مقابل لامتناه من ضروب ما تشير إليه بلزده على أنه «الكلام».

تمييزه الجوهرى بين «السان ما» و«اللسان» أوصله من خلال تفكير علمي دقيق إلى ملاحظة أن ما ينبغي البحث عنه هو في ما يختلف فيه لسان كل متحدث اجتماعي عن سواه من الأكسن الأخرى. وبعدما عيّن إطار البحث، حدّد طريقة العمل المطلوبة، والمتمثلة بمعاينة كل السمات التي يمكن بلوغها مباشرة، والعائدة لدورة الكلام التي علينا الإحاطة بها. والمسألة ليست بهذه السهولة، فمقابل اللامتناهي من ضروب الأقوال الممكن ملاحظتها، تماماً كما مقابل اللامتناهي من السمات الممكن ملاحظتها في الوقائع الطبيعية، يعتبر مارتينه أننا نحتاج إلى مبدأ يقودنا في مجال اختيار السمات التي علينا الاحتفاظ بها في كل مرحلة من مراحل معابنتنا. ويصل بنا إلى لبّ المسألة، وهو أن الخيار المطلوب هو ذلك العائد لـ «الملاءمة»⁽²⁶⁾. ويشدّد على هذا المبدأ، ملاحظاً أنه أكان بيناً أم لا، فهو يوجه تأسيس كل العلوم، اتصلت بالطبيعة أم بالثقافات. ويخلص إلى التأكيد على أن علينا في اللسانيات أن نتوافق على اختيار «الملاءمة» التي ستسمح لنا بتحديد ما ينبغي أن يسترعى قبل سواه انتباهنا من بين مظاهر اللغة الإنسانية على اختلافها وتنوعها.

ونتوقف بعض الشيء لنشرح كيفية إدراك مارتينه هذا المفهوم الذي يشكل الخيط الموصل في نظريته اللسانية، معرّجين على «حلقة براغ اللغوية»⁽²⁷⁾ (Cercle linguistique de Prague)، التي تأثر

(26) Relevanz بالألمانية، Relevanz بالإنجليزية، وPertinence بالفرنسية.

(27) تأسست حلقة براغ اللغوية في شهر تشرين الأول/ أكتوبر من سنة 1926، وقد امتد نشاطها حتى مرحلة الحرب العالمية الثانية. شاركت فيها مجموعة كبيرة من اللسانيين التشيكيين والفرنسيين، إضافة إلى اللسانيين الروس: جاكوسون، وترويتسكوي وكارسفكيچ.

بتعاليمها وبأعلامها بشكل غير مباشر، وأكد من خلال كتابه الوصف الفونولوجي (*La description phonologique*) على أنه كان الوحيد الذي أنجز وصفاً فونولوجياً كاملاً، بعكس أعضاء «الحلقة» ونظرائهم في قيينا، الذين لم يولوا هذا الأمر عنايتهم. ويخص بالذكر منهم نروبينسكوي، الذي أخذ عليه استغراقه في عرض عام للنظرية الفونولوجية، الأمر الذي لم يدع له الوقت ولا الجهد اللازمين للقيام بدراسة وصفية تطبيقية.



في عام 1933، تعرّف الطالب الشاب مارتين إلى أعمال «حلقة براغ اللغوية» (T. C. L. P.)، من خلال متابعته الحلقات الدراسية التي كان ينظمها عالم فقه اللغة المقارن فرنان موشيه⁽²⁸⁾ (Fernand Mossé) في المدرسة التطبيقية للدراسات العليا (École pratique des hautes études E. P. H. E.) في باريس. وتبعاً لأقواله الخاصة، فقد واثق إحساساً مبكراً - قبل عشر سنوات ونصف السنة - بمفهوم الملاءمة (pertinence) في اللسانيات، ذلك الذي تركّزت عليه مجمل نظريته الوظيفية في ما بعد.

والملاءمة تعريفاً هي الخاصية التي تسمح لفونيم، أو عنصر فونولوجي، بأن يضمن وظيفة تمييزية في لسان معين، وذلك بتناقضها مع الوحدات الأخرى ذات المستوى نفسه. وتتغي خاصية الملاءمة عندما تفقد الوحدة المذكورة هذه الوظيفة التمييزية. وكان مارتين، في الواقع، قد طبق مفهوم «الملاءمة» هذا على أعماله دون

- وقد قامت منهجية الحلقة حل مفهوم يقضي بأن اللغة ينبغي أن تدرس كنظام له وظيفة وقيمة عقدتان (التصير والتواصل)، وله بالتالي وسائل معينة لتأدية هذه الغاية.
(28) عالم فقه لغة مقارن وأستاذ مادة اللغة الإنجليزية.

أن يوضحه حقيقة، وذلك قبل أن يستخدم هذا التعبير لترجم مفهوم (Revelanz) المرادف الألماني لكلمة (Pertinence)، والمستنبط من قبل عُضْوِي الحلقة: بيهلر⁽²⁹⁾ (Bühler) وترويتسكوي⁽³⁰⁾ (Tronbetzkoy) في براغ. وقد أدرك مارتينه، بدءاً من المراسلة التي قامت بينه وبين هذا الأخير، التماثل بين مفاهيمه الخاصة وتلك العائدة لحلقة براغ. وقد دعاه ترويتسكوي لاحقاً إلى الكتابة في المجلة التشيكية سلوفو أسلوفسنوست (Slovo Aslověsnost)، وإلى نشر مقالات في «أعمال» الحلقة.



بعدما توقفنا عند مفهوم «الملاءمة»، اللبنة الأساسية في نظريته اللسانية، ننتقل إلى مفهوم آخر يتردد في أبحاثه، بما في ذلك هذا المؤلف بالذات، ونعني به «الاشتغالية» (fonctionnement) الذي يتلازم في كتاباته مع المفهوم السابق ذكره.

لمزيد من الإيضاح، يفضّل مارتينه كيفيات اشتغال اللسان قائلاً: يفرض كل لسان نفسه إفاً تماماً في اشتغاليته، كما في تطوره كأداة نقل للتجربة. ويفية وصفه بطريقة مناسبة، سينبغي في كل أداة وعلى كل صعيد، إبراز ما يسهم حالاً في نقل التجربة. إنها إذاً «الملاءمة التواصلية» التي ينبغي أن توجه اللساني على الدوام. وكما لا يبقى في المجال النظري أو التوجيهي البحث، يتابع القول بأن أداة التحليل، الموضوعية لهذه الغاية بتصوّف الباحث اللساني، هي العملية المسماة «الاستبدال» (commutation)، أي تقريب مختلف قطعات القول لتحديد «الوحدات البليغة الدنيا، المونيمات» في فترة

(29) عضو «حلقة براغ اللغوية».

(30) عالم لساني روسي، من مؤسسي «حلقة براغ اللغوية».

أولى، و«الوحدات التمييزية، الفونيمات» في فترة ثانية.

وهذا كله مختصر في التحديد الذي يعتمد له «السان ما» (وليس أبداً «اللسان»)، ويضخته إحدى فصول كتابه الذي نحن بصلحه. وهذا ما نستطيع أن نسقيه في الواقع «شرطاً وتوافقاً»، ونقيمه مع أولئك الذين سيخلقوننا. وهالك التحديد:

«إن لساناً ما هو أداة لنقل التجربة الإنسانية، وهذه الأخيرة تُحلل بموجبه، ويشكل مختلف في كل متحد اجتماعي، إلى تنابع مونيما، أي إلى عناصر بليغة (significatives) دنيا هي المونيما، تحمل معنى وشكلاً صوتياً. وهذه الأخيرة قابلة بدورها للتحليل إلى وحدات تمييزية (distinctives) متتابعة، هي الفونيمات». هذا إذا ما هو لازم وواف لتوصيف لسان ما وفق الرؤية الوظيفية.

هذه الرؤية الوظيفية للوقائع اللغوية، الموجهة بواسطة العملية الاستبدالية، تسمح لنا إذا بتأسيس تراتبية، بين الوقائع الملاحظة، لا تستبعد في النهاية أيّاً من إشارات العملية اللغوية، أكان المقصود ردة فعل كل من الأشخاص المتورطين في السيورة التواصلية، جزاء تجاربه عن العالم، بما فيها اللسان المعنى، أم الشروط التي يقوم ضمنها التبادل اللغوي. وهنا يستنتج مارتينيه أنه لا طائل إذا من التماسنا فرعاً دراسياً جديداً، أفغيناه «فعل القول» (énonciation) أم «الذرائعية» (pragmatique).

وهو لا يفتأ يذكر القراء أن ما ينبغي ألا نغفله هو أن المعرفة التي يملكها المرء المتكلم عن العالم لا تقف عند حدود ما يمكن أن يتبينه أو يوضحه بواسطة اللسان. لقد عرف الإنسان كيف يماثل جيداً الأشياء التي تحيط به قبل أن يعزو إليها اسماً ما، ومن الجلي أن سيورته العقلية ليست مشروطة دوماً بمعرفته مفردات اللغة. ولا يمكن له «اللسانيات» أن تختلط مع «المعرفية»، فليها كل منفعة

للتمييز بين هذين المجالين، أي أن تعني ما يفرقهما وما يقرب بينهما.



وفي عرضه المفصل والمبسط للكلمات المفتاح التي تستظم
تعاليم نظريته، لا يفوته التوقف عند التضارب أو التهاقت ذي الطابع
الاصطلاحي الذي يشوب بعض الكتابات اللسانية. فيلفت مثلاً إلى
أن النزوع الحالي للكلام عن «علم اللغة» بدلاً من «اللغات»،
بصفة المفرد، لا يتج فقط عن رغبة كثير من الباحثين في إبراز نتائج
بحثهم، ولكنه ينتج بخاصة عن الاعتقاد الراسخ بأن الواجب الأول
لـ «النبوي» ينص على استنتاج النموذج الأشد إغراء والأكثر جنةً عن
طريق التنظير. ويلاحظ هنا أن البعض لم يكتوثر فعلياً بمجابهة
نموذجهم بالأكسن الخاصة، فقد كان سهلاً إلى حد كبير أن نتجاهل
كثرة الوقائع الممكنة ملاحظتها وتعقيدها، ونمثل على ذلك بالقول
إننا حيث تعرضنا للمخطر بدا لنا بسرعة أنه، وبغية التوفيق بين
النموذج وحقيقة الوقائع، كان علينا إعادة طرح المسألة بواسطة
مفردات مغايرة لتلك المائدة للنبويين «أصحاب النزوات». ويتوقف
عند رواج مصطلح «لسانيات اجتماعية» في الكتابات والمؤلفات
الحديثة، فيتساءل مستنكراً كيف حدث أن باحثين كانوا يستشهدون،
بطريقة صريحة وواضحة تقريباً، بـ «سوسير»، أمكنهم أن يعدوا هذه
«التبينات» اللفوية، دون أن يتذكروا بلا انقطاع «أن اللمة هي فعل
مجتمعي»، لدرجة أنه كان عليهم من ثم الامتناع بـ «علم اللسانيات
الاجتماعية» كي يهتدوا إلى طريقهم؟



وفي ختام عرضه هذا لماهية اللسانيات الوظيفية، وهي في
الحقيقة محور مؤلفه الأخير الذي نحن بصدده، يتوقف عند مفهومَي
«التزامية» و«التعاقية» الأساسيين في التعاليم السوسيرية، فيلاحظ أننا

حيث بقينا أوفياء بدقة للرسالة السوتيرية - التضاد بين «التزامية» و«التعاقبية» - ، خلطنا بالطبع بين «التزامية» و«السكونية» (statisme) . وبالأستاذ إلى مبدأ «اشتغالية» اللغة ومبدأ «الملاءمة التواصلية» اللذين ينادي بهما، ينه إلى أننا ظللنا نَحْمِي البصيرة لواقع مقاده أن كل حالة لغوية كانت بالفعل، وبلا انقطاع، في طور النمو، لدرجة أن أي لسان لم يكن بإمكانه أن يعمل أو يشتغل دون أن يتلاءم باستمرار مع احتياجات مستخدميه. ويتابع قائلاً أنه لن يكون بإمكاننا أن ندرك شيئاً عن بنية اللغة إذا ما أغفلنا أن الطفل يفهم بحدته دون أن يتماثل استخدام اللغوي مع استخدامها. ثم يبسط فكرته، مضيفاً أن هذا يعني أن «وصفاً التزامياً» يتضمن أن نسجل لكل نقطة مناطق التغير التي لا تمنع التواصل من أن يقوم. كما يعني هذا أيضاً أن «الاشتغالية التزامية» لا يمكن أن تُسجل وتوصف إلا إذا تأكدنا من التغيرات القائمة بين الأجيال وفي الطبقات الاجتماعية الموجودة.

ويخلص إلى أنه لا حاجة البتة إذاً إلى أن ن عزل علم لسانيات اجتماعية سيضع جانباً وقائع التطور الخاضعة للتبئين (structuration) الاقتصادي - الثقافي للمجتمع، بل علينا بالأحرى معاينة الوقائع ببساطة ودون موقف قبلي آخر سوى استخدام اللغة لنقل تجربتنا. وهذا هو باختصار لب النظرية اللسانية الوظيفية التي ينظمها كتاب وظيفة الألسن وديناميتها الذي أصدره منذ عقدين من الزمن، ولا يزال لتاريخه مرجعاً من المراجع الكلاسيكية المعتمدة لقراءة مبادئ اللسانيات الوظيفية في صيغتها الفرنسية وفي بصماتها المارتينية.

وها نحن نصوغها بلغة الضاد ونضعها مجلداً، وبعد مرور عقد على وفاة مارتينه، يتصرف القارئ العربي المهتم، وبقى بذلك أوفياء للمدرسة التي عرفنا ولا نزال من معينها، وسعينا إلى نشر مبادئها في

صفوف جمهورنا اللبناني تحديداً، والعربي عموماً. ولا يفوتنا ختاماً أن نذكر أننا في اللحظات التي تنتهي فيها إلى نتائج ملموسة بعد تحقيق ميداني لغوي، وتخالجنا عندها مشاعر الراحة والغبطة، لإدراكنا أننا اكتشفنا جديداً في عوالم اللغة، أو لاحظنا ظاهرة لسانية اجتماعية، كان يكفيها أن نعود إلى مارتينه ليضمن قلبنا، ونفطن إلى أن ما صادفناه خلال بحثنا الدائب عن الحقيقة اللغوية المعبوسة ومعايشتنا للاختلافات اللسانية في البيئة اللغوية عينها، مندرج في كتاباته ومتوافق مع أفكاره ومنظريه في رؤيته للغة الإنسانية وألسنها المتحفة، بما فيها لسان الضاد .



في موقوفات العمل الترجمي

ثمة موقوفات احترفت طريقي - كما هو حال كل مترجم - فحذت عنها ولا حرج، فالمشاكل التي عانيت، والموقوفات التي جابهت خلال عملي، تشكل جزءاً لا يتجزأ من عذة العمل وطبيعته، والشكوى منها واجبة، لأنني أراها عناصر تحفيز لا تثبط. وقد سبقني زملاء كثيرون إلى الأسهاب في استعراضها، وحتى في وضع الحلول، أو عرض الاقتراحات لها. ولكنني ألفتُ إلى أن الباحثين والمؤلفين في العلوم الإنسانية الحديثة، وعلى رأسها اللسانيات، يعانون في مجال الترجمة إلى لساننا العربي من جملة مشاكل معروفة، نعاظم الحديث عنها، ولكنني أحيلُ في هذا المجال إلى الآراء القيمة التي أثبتها الأستاذ أحمد مختار عمر في مقالة «المصطلح اللساني العربي وضبط المنهجية»⁽³¹⁾، التي تلخص أهم الإشكاليات

(31) أحمد مختار عمر، «المصطلح اللساني العربي وضبط المنهجية»، عالم الفكر، العدد 3 (تشرين الأول/أكتوبر - كانون الأول/ديسمبر 1989)، ص 9 - 24.

المصطلحية التي تعرض للساكنين وللباحثين العرب في هذا الفرع الدراسي الحديث. ولم يكتفِ الكاتب باستعراض واقع المصطلح اللساني العربي، بل أكد أن ضبط اللسانيات يتم عن طريق ضبط مصطلحاتها. ومن هنا القبيل سعى خطوات ستاً، آملاً في أن يتم الاتفاق على الخطوط الرئيسية بين العلماء في حال تعمّر فرض منهجية إجبارية عليهم.



في المعاجم والمصطلحات

استعنت بشكل أساسي بالمعاجم الآتية للمصطلحات اللسانية المتعددة اللغة:

- 1 - المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات (إنجليزي - فرنسي - عربي)، إصدار المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (ألكسو) - مكتب تنسيق التعريب، الدار البيضاء، 2002.
- 2 - معجم اللسانيات الحديثة (إنجليزي - عربي)، تأليف سامي عياد حنا، كريم زكي حسام الدين، ونجيب جريس، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت 1997.
- 3 - معجم المصطلحات اللغوية (إنجليزي - عربي)، تأليف الدكتور رمزي بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، 1990.
- 4 - معجم علم اللغة النظري (إنجليزي - عربي)، وضع الدكتور محمد علي الخولي، مكتبة لبنان، 1982.
- 5 - معجم اللسانية، وضع الدكتور بسام بركة، منشورات جروس - برس، طرابلس - لبنان، 1985.

6 - قاموس اللسانيات (عربي - فرنسي، فرنسي - عربي) وضع الدكتور عبد السلام المسني، الدار العربية للكتاب، 1984.

ولكن معجم المصطلحات اللغوية ومعجم علم اللغة النظري كانا خير معين لي في عملي، لما وقراء من وضوح ومباشرة في تعيين المصطلح العربي المناسب لمقابل الأجنبي، فضلاً عن شرح هذا المصطلح، وتحديد مفهومه، وإثبات استشهادات من العربية أو من الإنجليزية على حسن وصحة استخدامه، فاستحقّ واضعاها شكري وتقديري.

أما المنهجية التي اتبعتها في استخدامي المصطلحات فتتلخص بالآتي:

1 - أثبت مصطلحي «لغة» و«لسان» كلّا في سياقه، إذ إن نظرية مارتينه تقوم أساساً على التمييز بينهما وظيفاً ودلالةً، فاستخدمت كلمة «لسان» بمعنى (Langue)، و«لغة إنسانية» بمعنى (Langage humain). وهما مصطلحان مشيران في قاموس مارتينه، فالأول خاص ويريد به اللغة المتحققة والتمثّلة، والثاني عام، ويقصد منه اللغة بشموليتها وعالمية سماتها وخصائصها.

2 - الالتزام بمقابل واحد للمصطلح الفرنسي، مثل: «إنشاء مزدوج» (double articulation)، «إشراط» (conditionnement)، «تركيب» (syntagme)، «تمتدّد دلالات» (polysémie)، و«تقلب» (fluctuation).

3 - ابتكار واستخدام اللفظ المعرّب «سيليم» (syllemme)، نسجاً على منوال الاصطلاحية الوظيفية التي تستخدم فونيم (وحدة

تمييزية دنيا لا قيمة يليغة لها) (phonème)، ومونيم (وحدة دنيا
تتضمن على شكل «دال» وعلى معنى «ملول» (monème)، ولكيم
(وحدة معجمية) (lexème)، وذلك لوضوح العلاقة اللفظية بين هذه
المصطلحات وشيوعها لدى اللسانيين وعالمية استخدامها عموماً.

4 - استخدام ألفاظ معربة عند الضرورة توخياً للتسهيل
والتبسيط، مثل: «باتوا» (patois)، «أزغة» (argot/jargon)، «أزغوي»
(argotique)، «الفونيك» (alfonic).

5 - ذكر المصطلح الأجنبي، والفرنسي تحديداً، ومقابلته
العربي، وشرحه وتحديد مفهومه في الحاشية، مثل: «نأثيل»
(étymologie)، «لهجة فرعية» (idiôme)، «عرقية مركزية»
(ethnocentrisme)، «اصطلاح ريفي» (provincianisme).

6 - تعريب مصطلح مبتكر من قبل ملابنه وغير مثبت في أي
معجم معروف من قبلي، وهو (confixation) بـ «اتلاف عناصر»،
وقد يعيب البعض عليّ لكونه ثنائياً، ولكنني لم أجد مقابلاً أفضل.

7 - إثبات المصطلحات الأكثر شيوعاً والأسهل فهماً، مثل
«التزامية» و«التعاقبية» و«علم الأصوات» و«التضمين» و«الاعتباطية»
و«العلاقة» و«الذال» و«الملول» و«البديل» و«الفرب»... إلخ.

8 - اعتماد الصيغة المعربة «فونولوجيا» مقابل (phonologie)،
بحكم تداولها من قبل أغلب اللسانيين العرب.

9 - تفضيل مصطلح عربي على آخر، رغم عدم ارتباطه مباشرة
بالمصطلح المفتاح. وأورد مثلاً على ذلك كلمة «وظيفة» (fonction)
ومشتقاتها أو مشتقاتها: «وظيفي» (صفة) (fonctionnel)، «وظيفاني»
(fonctionnaliste)، «عنصر وظيفي» (un fonctionnel)، «الوظيفية» (le

(fonctionnalisme، و«وظيفوي» (نصير الوظيفية) (fonctionnaire).
أما مقابل (fonctionnement)، فقد فضّلتُ على مصطلح «وظّافة»
استخدام مصطلح «اشتغالية»، الذي بقي بالمعنى، رغم أن «وظّافة»
أقرب صرفياً واشتقاقاً إلى وظيفة. وقد استثمرتُ في حينه العلامة
الشيخ عبد الله العلايلي، فأبدى استحسانه.

نادر سراج

بيروت في 4/8/2009

مقدمة المؤلف للترجمة العربية(*)

إن رسالة اللساني بالنسبة إلى من لا يتقن سوى لسان واحد تعلمه منذ نعومة أظفاره بحكم اتصاله مع محيطه، لن يكون لها كبير معنى. لماذا نميز الشيء الذي نتكلم عنه من الكلمة التي نستخدم للدلالة عليه؟ لقد اتخذ العالم بالنسبة إلى كل منّا شكلاً، أولاً بأول، حينما تعلمنا أن نسمي فيه كلاً من مكوناته. إن الأشياء تتمثل إذاً في الأسماء التي نسبها عليها. أن نبداً بالتشكيك في هذا الأمر يعني الطعن في حسن اشتغالية اللغة؟ لماذا السعي إلى الفصل بين المعنى والشكل، والتذكير بأنه كي نستطيع أن نقوم بالاتصال كان علينا أن نتعلم أن نمثل كل واقع تجريبي، كل شيء مُدرك، مع الناتج الصوتي، الذي لم يكن يملك بطبيعته شيئاً مشتركاً معه؟ وهنا، وبعد فرديناند دي سوشير، نشير إلى اعتبارية العلامة، السمة الأساسية للغة الإنسانية التي ينبغي بلا انقطاع أن نذكر بأن أولئك الذين يدعون بأنهم لاسانيون، سيتزعمون باستمرار إلى نسيانها: فكل كائن من جنسنا

[إن الهوامش المشار إليها بأرقام تسلسلية هي من وضع المؤلف، أما المشار إليها بعلامة (*) فهي من وضع المترجم].

(*) كتب المؤلف هذه المقدمة خصيصاً لترجمة العربية.

سيحقق، في إطار المتحد الاجتماعي الذي يشب فيه من خلال
سيرورة ثقافية، التماثل بين الشيء واسمه، من دون أن يكون الاسم،
وأحياناً الشيء، ممنوحين من الطبيعة. وتفهم كفاية أن الإنسانية
استطاعت خلال آلاف السنوات الاستغناء عن رسالة اللسانين. لم
يكن بإمكان هذه الرسالة أن تؤثر باشتغالية التواصل في عالم انتهت
العقبات التي كان يمكن أن تنتج فيه عن تنوع الألسن، بإزالة تلك
الأكثر ضعفاً. وحينما يعقب تقارب ناتج عن توسعة عدد مجموعات
تباعداً لغوياً ما، ناجماً عن استرخاء الاحتكاكات، فالتفوق السياسي
أو الاقتصادي يفضي بسرعة إلى تقليص مخيمات السكان الخاضعين
لهذا المقدار من اللهجات الفرعية المحترقة. وليس بمقدور أولئك
الذين يمارسونها غير الانتفاع من معائلتها باستخدامات الطبقات
الحاكمة، ومن هنا إسقاطها بما هي مخيمات متميزة، والنخلي عنها
في آخر المطاف بلا شرط لمصلحة اللسان المهين.

هل بإمكاننا القول بلا ريب إن كل هذا يبقى القاعدة في العالم
المعاصر، حتى ولو تحققت هذه السيرورات على نطاق واسع جداً.
إن الألسن الوطنية الواسعة الانتشار تتابع فرض نفسها حيث تكون
هي ألسن الدولة والتعليم، وحتى حينما تكون معرضة لضغط لسان
من بينها يميل إلى فرض نفسه على الصعيد العالمي. ومع ذلك، يمي
سكان اليوم كانوا في ما مضى مستمرين، أصالتهم شيئاً فشيئاً،
ويظهرون الرغبة في أن يروا لهجتهم الفرعية تصل إلى منزلة اللسان
المستخدم في كل ظروف الحياة، ويشج عن هذا الأمر مواقف ثنائية
لغوية واعية يعرف المشاركون فيها، عن طريق التجربة، أن شيئاً معيماً
قابل لأن يتلقى، وفق اللسان المستخدم، تسميتين مختلفتين
صحيحتين جداً، الواحدة كما الأخرى. منذ هذا اليوم، يصبح الشيء
واسمه أمرين مختلفين. وفضلاً عن ذلك، فالشكل المكتوب الدائم

للكلمة، يأتي لتقوية استقلاليتها تجاه معناها ومرجعها، ويصبح لسان ما إذا حقيقة مستقلة ينبغي دراستها في اشتغاليتها كما في صيرورتها. إن شروط هذه الاشتغالية وصيغ هذا التطور هي ما سعيينا إلى تلخيصها في هذا الكتاب.

إنني محتمل لـ نادر سراج، الذي كان قد عرض في السابق اللسانيات الوظيفية للجمهور اللبناني المثقف، والذي رغب في القيام بترجمة عربية لكتابي هذا. أمل أن تلمس هذه الترجمة قِراءة نُبها، يجدون فيها إجابات على الأسئلة التي يطرحونها حول طبيعة اللسان ومصيرها في عالم اليوم، حتى ولو لم تُقارَب هنا مباشرة مسائل التواصل التي تواجهها المتحدات الاجتماعية المعاصرة الناطقة بالعربية.

أنثويه ملرتيه

مقدمة الكتاب

ترد في هذا الكتاب نصوص مجموعة نُشرت على الأغلب في الخارج، إما بالفرنسية أو بالإنجليزية أو بالإسبانية ولكنها تُقدّم مترجمة في الصفحات التالية، وما ظهر من هذه النصوص في فرنسا كان قد صدر سابقاً - ما عدا بعض الاستثناءات - على شكل نشرات أو مصلّفات ذات توزيع محدود. إن نصّين من هذه النصوص لم ينشرا، حتى يومنا هذا، إلا في هذا الكتاب للمرة الأولى. ويبدو لنا أن المجموع بشكل تقديماً شبة متكامل لنظرية وتطبيقات لغويين تطوّرا خلال الستين سنة الأخيرة، بادئ ذي بدء في براغ، ومن ثم في باريس ونيويورك، ولكنها لم يشرا كثير اهتمام على تعدد الأماكن التي صدرا فيها. ويمكن لهذا المجموع أن يُستخدم تمهيداً لتقديم أكثر تفصيلاً، مثلاً لكتاب اقتصاد التغيرات الصوتية^(*) (*Économie des changements phonétiques*)، الذي نشر في مدينة برن عام 1955 ضمن منشورات فرانك، وكتاب النحو العام (*Syntaxe générale*)،

(*) أعلنت جان أندريه مارتيه إصدار هذا الكتاب في حلة جديدة في العام 2005 في 290 صفحة من الحجم الوسط، وصدر عن منشورات (Maisonneuve & Larose)، وقد نشرت مقالة عنه في جوار العرب، المجلد 11 (تشرين الأول/أكتوبر 2005).

المصادر عام 1985 في سلسلة الكتاب الحالي نفسها، أو أعمال مؤلفين آخرين أتيت على ذكرهم في الصفحات التالية. ولقد جمعت هذه النصوص في فصول ستة، سبق كل واحد منها بتوطئة.

لتبشير إبراز المبادئ العامة التي تضم المقاربة الوظيفية والدنيوية للغة الإنسانية:

أولى هذه المبادئ هي الواقعية الأساسية التي تتضمنها تلك المقاربة، تليها أولية معابقتها الوقائع معابنة يوجهها اتقاؤنا للعلامة التواصلية، وأخيراً تجاوز شكليّة ضيقة، وذلك بالتعريف إلى واقع مفاده أن إشباع الاحتياجات يعرض كلّ بنية لتوترات تطرحها دوماً للبحث ثانية. سنعمد بعد ذلك إلى معالجة موضوع تعلم الطفل للسان - منطوقاً أو مكتوباً - العائد للمتحدث الاجتماعي الذي يعيش فيه، ومن ثمّ سندرس المسائل التي يطرحها تعايش منظمات اجتماعية مختلفة، يلي ذلك اختبار اتبناء العبارات وحدات تمييزية وبلغية، إضافة إلى لمحة عن الصعوبات التي يطرحها تطابق المعنى العائد لهذه الأخيرة.

وقد يكون من المستحسن أن ننبّه القارئ الحديث العهد بأن اللسانيات الوظيفية تبدو كأنها تناقض غالباً ما هو مقبول ومتعارف عليه. ففي شأن اللسان، ترسخت لدينا العادة في أن تبدو معايير من خلال استعمالنا صيغة: «لا نقل كذا... بل قل كذا...»، فمعلمو المدارس ومدوّنو الأحداث اليومية، الذين اعتبروا طويلاً الوحيدين المؤهلين لقول الكلمة الفصل في هذا المجال، يتمسكون بشكل أساسي بانتقاد الأشكال التي يستخدمها المواطن العادي (المتوسط) بشكل طبيعي، وذلك باسم الاستعمال الجيد. أما اللساني الوظيفي فهو لا ينتقد أحداً، إنه يكشف ببساطة ما سمعه فعلياً، إذا توخينا حسن الإصغاء، أكان هذا الشيء «صحيحاً» أم لا. هذه الأشكال التي تظهر خارج مقلماتها وبعيداً عن سياقاتها، يمكن أن

تصدم. والخلاصات التي نخرج بها تبدو أحياناً جارية، لدرجة أن القارئ قد يظن أنه أخطأ القراءة. إن كاتب هذه السطور عرف معاناة من هذا النوع : ففي مقالة له تُرجمت إلى اللسان التشيكي، عمد المترجم بشكل مطرد إلى استباق كل من التأكيدات الواردة في النص بنفي، لغرض ما يدت له تلك التأكيدات معيبة. وقد أعيد بالطبع تصحيح المعنى الأصلي في التجارب المطبعية.

نتوقع، والحالة هذه، أن يضطرب كثيرون من أولئك الذين سيفتحون دفتي هذا الكتاب، وذلك بسبب بعض الاثباتات التي سيقعون عليها. إننا نرغب في ألا يغتاضوا أبداً تجاه ما سيبدو لهم تناقضاً - طرح مسألة وجود الكلمة للبحث على سبيل المثال - بل ليتابعوا القراءة حتى اللحظة التي ستبرز فيها كل التضمينات التي كانت تظهر لهم قبل بمثابة أكلوبة. ترى هل سيقنعون في النهاية؟ إن ذلك غير مؤكد، ولكنهم سينتفعون منها، على الأقل لإظهار الفروق الفردية للاعتبار الذي يعقلونه بإكبار لحراس التقليد.

الفصل الأول

اللسانيات الوظيفية

اخترنا هنا، كي تقدّم السمات الهامة لللسانيات الوظيفية، إعادة نشر محاضرتين ألقيتا خلال شهر تشرين الأول/ أكتوبر 1980 في المدرسة العليا للآلسن الأجنبية التابعة لجامعة اسطنبول، تحت إشراف البروفسور برك ياردار (Berke Yarder). وقد نشر البروفسور ياردار المحاضرتين ضمن كتيب بعنوان لسانيات وسميائية وظيفيتان (*Linguistique et sémiologie fonctionnelles*)، وأتبعمهما بمقدمة وبمحاضرتين لـ جان مارتينه (Jeanne Martinet)، تعالجان السيميائية من خلال علاقتها باللسانيات وبالآفنون. إن النصين المستعادين ها هنا أعيد تشكيلهما انطلاقاً من تسجيلات، واعتقد أننا حسناً فعلنا بالاحتفاظ بالأصل الشفهي، ذلك الذي استطاع الحاضرون التجاوب معه. هذا الجمهور المثني والمطلع جداً، طلب توضيحات، كما سيظهر لنا في المناقشات التي متلي، الأمر الذي دعا المحاضر إلى تفصيل عدة نقاط. وقد بدا مفيداً أن ندرج هنا بعضاً من منعطفات المناقشات.

إن إحدى النقاط التي يباين فيها البحث الحالي للنظرية والتطبيق الوظيفيين الأبحاث السابقة، يتمثل في الالاحاح على رؤية دينامية للوقائع، فتحن عندما تبحث في مؤسسة كاللسان، من وجهة نظر

وظيفتها واشتغاليتها، ليس بمقدورنا أن نتجرت من واقع أنها تسعى إلى إشباع احتياجات ما، وأنه إذا تغيرت هذه الاحتياجات على مر الزمن، فليس بمقدور هذه المؤسسة أن تتوانى عن التلاؤم في تغطيتها. ومثلما تتجدد، في الواقع، احتياجات متحد اجتماعي ما باستمرار - حتى ولو أمكن لتواتر هذا التجدد أن يتبدل حسب العصور -، فإننا سنقدم رؤية غير دقيقة إذا لم نأخذ هذا الأمر في الحسبان. وإذا كان «النيوتون»، وفق العادة الجارية في الستينيات والسبعينيات، قد صنعوا من البنية تصوراً سكونياً مطلقاً، فمرّد ذلك إلى أنهم كانوا قد أخطأوا في قراءة اللسانيين الذين اعتقدوا أنهم استلهموا منهم^(٥). نحن نفهم أن بعضاً من بين اللسانيين قد قام برذات فعل، من خلال الإلحاح على ضرورة عدم إغفال، حتى في التقديمات المحض تزامنية، أن الحقيقة هي في حركة دائبة. إن الصورة التي نقلها للسان ما ينبغي أن لا تخون هذه الدينامية الدائمة. وإذا كان مستخدمو اللسان لا يحون هذه الحقيقة، فهذا عائد إلى أن التواصل كي يقوم فمن الضروري أن يفضلوا الطرف باستمرار عنه: إننا نقبل كل شيء من غير حزن أن نفكر فيه، من مثل كلمات وأشكال لا نستعملها إطلاقاً، فكل لسان إذا يخضع لتطور دائم، ولكن هذا لا يعني أبداً أن علينا أن نخلط بين وصف اللسان في حركيته، وبين ذلك العائد للسرورات المتابعة التي أدت، على سبيل المثال، إلى تغيير الفرنسية واللاتينية المحكية في بلاد الغال إلى لسان جديد. إن رؤية دينامية للاشتغالات تسمح بفهم أفضل للباحث على الانتقالات التي أوصلت إلى هذه النتيجة. ولكن ينبغي أن نحافظ على التمييز بين التزامية الدينامية، حيث نعزل السمات المتابعة، تلك التي

(٥) أكد مارتينيه على هذا الرأي مستشهداً بـ ليفي سترأوس، الذي استلهم من جاكوبسون في الحوار الذي أجريته معه في أيلول/سبتمبر 1990، باريس ونشر في مجلة الفكر العربي، المجلد 66 (تشرين الأول/أكتوبر - كانون الأول/ديسمبر 1991)، ص 218.

تغص النظر في النهاية عنها كي نبرز نظاماً متوسطاً، والنظرة التعااقبية الشاملة التي تلي تطور لسان ما على مر العصور. هذا ما يفصله القسمان الثالث والرابع.

كان يمكن للقسم الخامس، المختص لتقديم الوقائع النحوية، أن يندرج في الفصل الخامس المختص بالوحدات التمييزية، ولكننا قدّرنا أنه يتموضع في مستوى من العمومية تسوّغ مجيئه قبل أقسام الكتاب المختصة للمظاهر المختصة بدراسة اللغة الإنسانية. وقد عُرض هذا البحث في تموز/ يوليو 1982، في الحلقة الدولية للسانيات الوظيفية المنعقدة في مدينة فريبورغ بألمانيا، وقد أدرج هو والنقاش الذي تلاه في أعمال الحلقة المذكورة. ومنجد بحثاً أكثر تفصيلاً للمسائل التي طرحت هنا في النحو العام (*Syntaxe générale*)، بقلم أندريه مارتينه، والصادر ضمن منشورات أرمان كولان (Armand Colin) في باريس عام 1985.

1.1 - نحو مقارنة اختيارية - استنباطية للسانيات⁽¹⁾

يبدو لي أن ما يكبح تقدم البحث اللغوي المعاصر، هو الاعتقاد الشائع جداً، والذي مفاده أن لا شيء يمكن أن يحدث في هذا الميدان، من دون أن نقيم عليه في كل لحظة المفترضات الإستمولوجية. ومن فرط ما تساءلنا عن المبادئ التي ينبغي علينا العمل بمقتضاها، فقد تمثّل إنجازنا على الأغلب بقدر قليل من العمل الحقيقي. لقد رُوجنا في أوساط اللسانيين للرؤية القائلة أنه لا معايير للوقائع مشروعة إلا ضمن إطار نظري معين مسبقاً، للدرجة أن كل باحث يحترم نفسه قدر أنه ينبغي عليه، وقبل كل شيء، أن

(1) نشرت في: *Linguistique et sémiologie fonctionnelles*, Istanbul, pp. 13-30.

يشكل الإطار الخاص به، الأمر الذي يعنى كل جهده ولا يدع له سوى قليل من الوقت يخصصه للمعاينة نفسها.

متأثرين ببضعة مكتسبات في الفيزياء المعاصرة، حين انطلقنا من فرضية أثبتتها الملاحظة في ما بعد، ظن كثير من اللسانيين أنه ينبغي لهم أن ينسجوا على العنوال نفسه في ما يتعلق بعملهم. وقد عمدوا إلى ذلك دون أن يسعوا، ربما بشكل كافٍ، إلى معرفة هل الشروط التي تتوفر لهم كانت هي نفسها التي للفيزياء «الابنشتاينية»، أو بالأحرى لتلك العائلة لفيزياء كلاسيكية، أكثر بساطة، وأكثر مباشرة، وأكثر بدائية، فيزياء نصف فيها الوقائع حسب علامة ما. في الواقع، سيطرح السؤال على الشكل التالي: «هل باستطاعتنا أن نؤسس اللسانيات على معاينة معطيات للكلام وللنصرفات الإنسانية المترابطة الممكنة معاينتها، أم ينبغي أن نقدم، في المنطلق، فرضية تصبح بالضرورة ذات قيمة نفسية، وذلك بالنسبة إلى ما سنشير إليه على أنه اللسان (La langue). وأكد على أداة التعريف («ال» لسان) «La» (Langue). وسترون أنني من جهتي أستخدم أداة التنكير: «une» (langue) (لسان ما).

وعندما نقدم فرضية مماثلة علينا أن نفترض أن المعاينة ستصل يوماً إلى تأكيدها أو إلى إبطالها. ثرى حين يصار إلى تقديم هذه الفرضية، ألن تنصرف كإطار للمعاينة، لدرجة أن ما يمكن أن يطلها لن يدرك أبداً، أو أن إدراكه يمكن أن يزول بواسطة ألفاظ نجعل الفرضية ممكنة الدمج بالنظرية؟ وهنا ما استتجنه مراراً خلال المقود الأخيرة. وفي إطار شرطي - استباطي جدي، فإننا نؤقر بالضرورة كل الفرص لما تقتضيه هذه الفرضية، وذلك على حساب كل ما يمكن أن يعارضها. وحيث إننا، انطلاقاً من الفرضية، ننتهي إلى صنع الآلات، يمكن لفقدان الاشتغالية أن يطفى في الفرضية أو أن يطلها.

وإذا سمحتم لي بإدخال مفردة حديثة بعض الشيء: «فقدان اشتغالية الآلات» (dysfonctionnement des machines)، وبصورة أخرى، إذا لم تعمل الآلات أبداً، فالتظرية يمكن أن تُستبعد. ليس القصد أبداً في الشأن اللغوي أن نصنع آلات ما، إننا نستخدم أحياناً آلات في نطاق عملنا، لا يمكن للتطبيقات أن تبطل النظرية اللسانية إلا بعد استحقاق طويل الأجل، وذلك حين يُحتمل ألا تكون هذه الفرضية مجارية لأذواق العصر. وأسفاه! فالدرجة تلعب بهذا الصدد دوراً ملحوظاً، والبعض الذي يوافقني الرأي يرغب فعلاً في التقليل من أهميتها.

إن هذه الاعتبارات العامة هي التي دفعتنا، في نطاق اللسانيات الوظيفية، إلى إقصاء الفرضية حيث هي ضرورية. ينبغي ألا نخدع أنفسنا بمفردة اللسانيات العمومية هذه. لقد كنا بهذا الصدد على صلة بحقول مختلفة لحد ما. وإذا كان المقصود لسانية وصفية، فنحن بمواجهة شيء هو «السان ما» (une Langue). لاحظوا أنني ألح من جديد على استعمال أداة التكثير. لقد كنا على صلة بلسان ما يمكننا معاينته مباشرة، ونحن نملك حالياً الأداة التي تفسح لنا في المجال للقيام بمعاينة صحيحة، وضمن هذه الشروط، نحن لا نرى أبداً الحاجة إلى الفرضية. ولكن ثمة حقولاً أخرى للسانيات حيث الفرضية ضرورية، وهذا على سبيل المثال ضمن ما دعونا به «اللسانيات التاريخية»، ففي اللسانيات التاريخية نكون على صلة بظواهر نستنتج منها بضع نتائج، وعندما نسمي إلى فهم ما أفضى بنا إلى النتائج، نمجز غالباً عن تحديد، بالمعاينة، السوابق التي سببت التطور.

وضمن هذه الشروط فنحن نُدفعُ إلى القيام بفرضيات. إننا نُدفعُ كذلك إلى القيام بفرضيات عندما نفترض - وعلى صعيد أكثر عمومية، وعلى صعيد نظرية التطور اللغوي تحديداً - قيام بضعة

عوامل وبضعة إشرائط للتطور. لنأخذ كمثال على ذلك نظرية المردود الوظيفي، النظرية التي يُحدّد في ضوءها تطور نظام لغوي من خلال أهمية محققة لبضعة تضادات في هذا اللسان، أهمية يمكن أن تتمن بواسطة مفردات إحصائية مثل: تواتر استخدام تضاد فونولوجي ما. ولدينا في هذا الشأن فرضية سيحدّد المردود الوظيفي - أي الأهمية الناشئة لتضاد ما في حالة لغوية معينة - بقاءها أو استبعادها. ومعلوم جيداً - وهذا ما يغفل عنه كثير من الأشخاص - أن ما هو مائل هنا ليس إلا واحداً من عناصر الاشتغالية، ثمة عشرون آخر علينا أخذها في الحسبان، وليس علينا أن نطرح فرضية المردود الوظيفي، بسبب أنها لا تتحقق في إحدى الحالات. ثمة تكييفات عديدة، والعوامل التي يمكن إسنادها إلى المردود الوظيفي لم ترجع تجاه إشرائط أشد وأقوى.

ومن الضروري في هذه الحقول أن نقدم فرضيات، وأن نجدد - في نطاق الإمكانيات المتوفرة - في تحقيقها، وفي تثبيت الحدود التي يمكن لفرضية ما في إطارها أن تفضي إلى شرح للوقائع. إنني مفتتح، من جهتي، بأن فرضية المردود الوظيفي هي فرضية مشروعة، لأنها مثبتة في كل مكان، حيث لا يقوم تعارض على فرضها. ويعتبر التطور الذي أصاب فونولوجيا اللسان الفرنسي المعاصر حقلاً يلعب فيه تحديداً المردود الوظيفي دوراً هاماً، وإذا كان الذين طوّروا نظرية المردود الوظيفي هذه هم على الأغلب فرنسيين، فمرة ذلك إلى أنهم استندوا إلى الشجرة المباشرة التي نأقت لهم عن لسانهم، حيث استنتجوا أن تمييزات غير ذات قيمة بالنسبة إلى اشتغالية اللسان تختفي، بينما تبقى تمييزات من النمط نفسه، ولكنها تكتسب - على العكس من سابقاتها - أهمية فائقة.

أنتم تعلمون أن التضاد المعروف في الفرنسية بين الصائتين /ε/ و /œ/،

أو التضاد بين *du/moi*، إذا لم يختلف بعد (مازلنا إلى الآن نسمع تلفظات *l'ère*) فهو لم يعد ساري المفعول في باريس. إنني أميّز حتى الآن بين *è* و *é* لأنني ريفي. ولو كنت باريسياً بالولادة، لما قمت بهذا الأمر إطلاقاً. وتجاه التضاد بين *è* و *é*، يثبت آخر بصعوبة بين *è/é*، وهو من نفس النمط فيزيائياً. ولكنه مع ذلك يثبت بإحكام، وذلك لأنه يستخدم لتمييز عدد كبير جداً من العناصر المعجمية أو النحوية بعضها عن بعض.

ولكن فلندع حقل التطور اللغوي ولنعد إلى ذلك الذي كان، خلال سنوات عديدة، الحقل المفضل للساكنين: الوصف التزامني. ولنذكر بشكل عابر أن اللسانيات كانت في ما مضى تستلني التقديمات التزامنية. لقد تركنا ذلك لواضعي النحو. إن الثورة الكبرى للسانيات البنيوية تمثلت تحديداً في التشديد على وصف الألسن. وفي ما يتعلق بالوصف، فإننا نمثلك حالياً معيار الاستبدال، ذلك الذي يعتبر الاكتشاف الكبير للحركة الفونولوجية. ومفردة «الاستبدال» نفسها اقترحت من قبل اللساني لويس هيلمسليف (Louis Hjelmslev)، ولكن الأمر كان قد برز قبله، ذلك أن مدرسة براغ هي المسؤولة عن برهنة العملية الاستبدالية بوصفها الأساس للمعانية اللغوية. تقضي العملية الاستبدالية بتقريب العبارات اللغوية التي ليست كذلك في واقع الحياة، وعلى هذا الأساس، فهي تقضي كذلك بالتأكد من أهمية عدة تمييزات إضافة إلى الملاءمة ونقيضها، تمثل في أن نقيم على أساس الاستبدال نراتبية للوقائع اللغوية التي لم تكن تتوفر لأسلافنا إلى حد كبير. إن العملية الاستبدالية هي التي تتيح لنا مقارنة الوقائع اللغوية دونما حاجة للجوء إلى الفرضية والاستبطان. إنه لأمر طبيعي أن يصلح الاستبطان دائماً في التطبيق، ولكنه لم يعد يعتبر أبداً بعثابة برهان،

فالبرهان الذي يحمله الاستبدال، بواقع أن تغييراً متمثلاً بالتقريب بين عيارتين يفضي إلى اختلاف في الرسالة، لا يستدعي حذم اللساني، ولكن بالأحرى معاينة سلوك المتكلمين.

لدينا بتصرفنا إذاً هذه الأداة النفيسة، الضرورية للاستبدال كي نقوم بالانتخاب في الواقع الفيزيائي الذي يظهره لنا الكلام. وليس الموضوع هو أن نقوم بجمع للوقائع دون الاستناد إلى مبادئ موجهة، أي بشكل استقرائي. وباستطاعتنا أن نقول لأنفسنا: «إننا لسانيون، ونحن نملك الوسائل لمعاينة اللسان، سنقوم إذاً بمعاينة الألسن وجمع الوقائع». وعلى كل، فاستناداً إلى هذه الأسس الاختبارية لحد ما، نخاطر في أن نخلص إلى عمومية وقائع معينة، لأننا ببساطة وقعنا عليها ثانية في لسانين أو ثلاثة ألسن. وهذا خطر معتبر جداً، فكل اللسانيين معرّضون، في لحظة معينة، كي يستخلصوا بسرعة كبيرة، ويستقرئوا من معانياتهم توجهاً للعمومية.

إنها واحدة من مآسي اللسانيات المعاصرة حيث لم نعد نقنصر على الألسن الواسعة الانتشار.

قبل قيام لسانيات علمية، لم تكن نهتم مطلقاً إلا بالألسن الواسعة الانتشار. وكذلك قمنا عندما كنا ندرس علم اللهجات، كان ذلك بفرض تفسير ما يحدث في هذه الألسن. عندما بدأ جول جيلبيرون (Jules Gilliéron) وآخرون غيره دراسة علم اللهجات وتنظيم أطالس لغوية، لم يكن مرّة ذلك الاهتمام بوجه خاص بـ «الباتوا»^(*) (patois) الفرنسية، ولكن لاعتقادنا بأننا سنجد، من خلال دراسة الباتوات الفرنسيات، تفسيرات لظواهر تطور الألسن

(*) لهجة إقليمية ريفية.

الرومانية^(*) الواسعة الانتشار، والفرنسية، والإيطالية والإسبانية، والتي كانت غير مفسّرة لحينها. وقد توافق مجيء اللسانيات المعاصرة والبنوية مع قيام نظرية مخالفة بعض الشيء للمشكلة. إننا نهتم بالألسن، بكل الألسن، بذواتها ولذواتها.

والصيغة هذه مدرجة في ختام كتاب دروس اللسانيات العامة (*Cours de linguistique générale*) لـ فرديناند دو سوسير (Ferdinand de Saussure). إننا نهتم بلسان ما بذاته ولذاته، وليس لأنه حامل لثقافة معينة. إن دراسة لهجة ما إذاً، من وجهة نظر لسانية بحصر المعنى، مشوّقة تماماً كدراسة لسان واسع الانتشار. ونحن منذ أولينا الألسن الكبرى اهتمامنا، بوجه عام، اهتملنا الاستقراء منهجاً، منتقلين من دراسة مجموعة من الوقائع اللغوية - في الألسن التي درسناها - إلى تعميم ما استخلصناه عنها. إن نظرية الكليات اللغوية، التي تأكدتم من رواجها قد قامت بالضبط على أسس استقرائية، على الرغم من أن الأشخاص الذين يمارسون هذه النظرية ينقضون الاستقراء مع ذلك. ومن المؤكد أن هذه النظرية ذات أساس استقرائي إلى درجة وجوب طرحها جانباً من قبل أولئك الذين يظنون أننا لا يمكن أن نحسن شيئاً إلا إذا اتبعنا المنهج الاستنباطي.

وماذا نستخلص وجوب اتخاذ الطريقة الاستنباطية وسيلة في عملنا، فلن يكون بإمكاننا أن نتق تمام الثقة في ممايتنا الوقائع، لأنها بالضرورة محدودة في ألسن معينة. وأنا لا أعلم كم هي الألسن الموجودة في عالم اليوم. وإذا رغبتا في الأخذ بعين الاعتبار التوقعات

(*) *Romans*: صفة تطلق على مجموعة اللغات التي تحدثت من اللغة اللاتينية في

أوروبا.

القرعية لهذه الألسن كلاً على حدة، فهناك منها الألف. إلى ذلك، ثمة ألسن قد اختفت دون أن تترك آثاراً تذكر. كما ينبغي التفكير في الألسن التي لم تظهر بعد. ومن ثم، إذا أردنا أن نغطي مجموع الوقائع اللغوية لما أتيج لنا أن نتصرف أو نعمل عن طريق الاستفراء. يفترض بنا في لحظة معينة أن نعتد الاستنباط، وذلك انطلاقاً من أسس معينة. وكما نحدد هذه الأسس، نرى هل يجب علينا القيام بفرضيات كما يروم منا البعض ذلك؟ مطلقاً. إن علينا أن نؤسس استنباطاً على أساس تجريبي، على أساس المعاينة. وما علينا القيام به، هو أن نتق على ما ينبغي أن يشتمل عليه موضوع ما كي يمكننا أن نسميه لساناً ما. واعتقد أن أغلب اللسانيين يمكن أن يتفقوا على ما هو ضروري ولازم لكي يكون ثمة لسان ما. وهذا التعريف هو ما يعود للسان ما. وأنا ألتج كثيراً على واقع أنني أقول (لسان ما) ولا أقول (ال لسان). ليس ثمة شيء نستطيع أن نشير إليه على أنه «ال لسان». إن اللسان غير موجود على الإطلاق. هناك اللغة الإنسانية، وهذه الأخيرة تتمثل في الألسن، بصيغة الجمع. إن الموضوع الذي يجب علينا دراسته، هو لسان ما، une langue.

تختلف الألسن بعضها عن بعض. وهذا الاختلاف هو بالتحديد أحد العناصر التي علينا دمجها في تعريفنا للسان ما. ومن خلال هذا التعريف، فنحن ملزمون بالتسليم بوجود برج بابل، أي ألسن مختلفة. وهو واقع أساسي. وإذا تابعت الدراسة اللغوية، فتدرك جيداً أنه ليس بمقدور لسان ما أن يثبت على حاله عبر الزمن، فهو يتطور لا محالة. إن بمقدور الألسن أن تتقارب بالتأکید، ولكن التباعدات اضطرارية، وعليها أن تُضمَّن إذاً في تعريفنا للسان. وعندما يصعب التعريف معطى، يمكننا العمل بطريقة استنباطية، دون أن ننشغل بمعرفة إذا ما كانت السمات التي يقدرونا أن نستنبطها من تعريفنا

مؤكدة بشكل حقيقي في موضوع ما. اعتقد أن هذا الأمر محتم. وأنا ألتج عليه كثيراً، لأنه يصدم البعض. إننا تقدم أنفسنا على أننا اختاريون، ومع ذلك، وفي لحظة معينة، نقرر أنه انطلاقاً من هذا الأساس الاختباري فإن استنباطاتنا ستؤدي بنا إلى أن نطرح احتمالية وجود سمات لغوية ليس علينا أن نشغل بمعرفة إذا ما كانت توجد في موضع ما أم لا. عندما تكون إزاء لسان ما، ولا يحيط عقلك بكل الاحتمالات، التي يوفرها لك تعريفك للغة الإنسانية، فانت ستخاطر، وعلى أساس القياسات التي ستخطر في ذهنك، في أن تطابق بين أشياء مختلفة للغاية، فنحن نعمل جميعاً بواسطة مفردات تقليدية مثل: اسم، صفة، فعل، وهي جميعها كلمات توافق - في الألسن التي نعرفها بشكل جيد - وقائع موجودة، حقيقية، وبيّنة، ويمكن التحقق منها. ونحن نسمى إلى الاعتقاد بأنها ذات طابع عالمي. وعلى الأساس نفسه للترجمات التي سنقوم بها للسان المدروس، عبر اللسان الذي نستخدمه في دراستنا، فإننا سنفترض فيه - براحة بال - وجود هذه التصنيفات. والحق يقال، فهذا ما ينبغي علينا تعجبه، بأي ثمن. إن لنموذجنا الاستنباطي مزية تهينتنا للتعامل مع البنى الأكثر اختلافاً.

وإذا انتهيت من قلبي هذا، فما أنا أصل إلى التعريف الذي اقترحه لكم للسان ما. هو ليس بجديد، ويمكننا الوقوع عليه في كتابي مبادئ اللسانيات العامة (*Éléments de linguistique générale*). لقد عرضته منذ ما يقرب من عشرين عاماً. وقد ضيّرت فيه كلمة، سأعطينها لكم سريعاً: «إن لساناً ما هو أداة للتواصل تُحلّل الخبرة الإنسانية من خلالها بطريقة تختلف من لسان إلى آخر، في كل متحد اجتماعي، تُحلّل إلى وحدات ذات مضمون دلالي وتعبير صوتي...» (وحول هذه النقطة بالذات تختلف رؤيتي الحالية عن تلك العائدة

للعام 1960. لقد استخضمت آنذاك لفظة صوتي^(*) (phonique)، وأفضل اليوم لفظة «تصويتي» (vocale) بدلاً منها. مستقولون لي إن الأمر متيلان. هذا صحيح، إنه كذلك، ولكن لفظة «تصويتي» تملك تقسيمات حضورية من الأهمية بمكان أن نقرّ بها). المونيمات، هذا التعبير الصوتي، ينتمي بدوره وحدات تمييزية ومتابعة هي الفونيمات. وعدد هذه الفونيمات محدود في كل لسان، وهي تختلف أيضاً من حيث النوع والعلاقات المتبادلة في ما بينها من لسان إلى آخر. إنها صياغة طويلة، ولكنني أعتقد أن ليس بمقدوري حذف شيء منها. لقد لاحظتم كم يتمتع هذا التعريف بشيء من التشاكلية (= التماثل المورفيمي). من هنا، أريد القول بأنني لا أبحث على الإطلاق في إثبات تولّد في جزأي المبار (الجزء الأول الذي يعالج الوحدات البليغة = المونيمات، والثاني الذي يعالج الوحدات التمييزية = الفونيمات). إن التشاكلية هي - كما تعلمون - في أساس غلوسماتيكية، أو لغارة (la glomématique) لويس هيلمسليف بمخططيها، اللذين ينبغي علينا أن نسترجع في كل منها الظواهر عينها. وهنا، ننتهي بلا قيد ولا شرط إلى المطابقة بين أشياء لا يجدر بنا أن نضعها على نفس الصعيد، لأنها مختلفة للغاية، ولأننا سنستدرج، في حالة إلحاحنا على التشاكلية، إلى إضفاء أهمية متساوية لسيمات هي عوارض من جهة وناسيمات للوابع غير المنقطع من جهة أخرى.

سأستعيد مفردات هذا التعريف واحدةً واحدةً:

(*) في الطبعة الخامسة لكتاب مبادئ اللسانيات العامة (Éléments de linguistique générale) الصادرة في تشرين الأول/أكتوبر 2008 عن دار أرماد كولان (Armand Colin)، يرد في الصفحة 44 مصطلح phonique في التعريف المعتمد للغة؛ أي ذلك الذي أدرجه مارتنه في الطبقات الأربع لكتابه والتي صدرت تباعاً خلال الأعوام 1960، 1970، 1980 و1996.

أداة تواصل:

لقد أخذوا عليّ استخدامي لهذا المصطلح، مبيّنين أن استخدامي له مجازي. أقول والحالة هذه: «الأداة» تعني لمعظم الناس مطرقة، أو منشاراً، ولا يمكن أن يسمّى لساناً ما «أداة»، إنه أكثر تعقيداً بكثير من ذلك. إنني أعترف عن طيب خاطر بأن هناك توسعاً مجازياً لاستعمال مصطلح «أداة». أما «تواصل»، فهي بدورها مصطلح ملتبس قليلاً. ثمة وسائط تواصل هي: المحافلات الكهربائية والأونوبيسات والقطارات، وعلينا بالطبع أن نحدّد بدقة أن «تواصل» هنا تتضمن آلات التواصل الإبلاني.

... الخبرة الإنسانية من خلالها...

إن خبرة تتطلب بدورها تفسيراً، وقد ترقّدت هنا في استعمال مصطلح خبرة. لقد وهيت وأعيه أيضاً بوصفة سمة إنجليزية. لقد درّست لمدة عشرة أعوام في أميركا، وكنت في عام 1960، بغدّ شبه متأثر بتدريسي في أميركا. لا جرم في أن مفردة «تجربة» في الفرنسية لا تستقصي أبداً وكلّياً القيمة التي أسبغها عليها هنا، والأحرى القول إن مصطلح خبرة الإنجليزي هو الذي يوافق ما أرغب تحديداً في قوله. إن التجربة الإنسانية هي كل ما يمكن أن يشعر به المرء ويدركه. وهذه التجربة لا نهمنا نحن اللسانين، إلا في نطاق قدرتنا على نقلها. ويمكن لها أن تجذب - وسوف تفعل - اهتمام باحثين آخرين، العالم النفسي والعالم الإثنولوجي. وينبغي كذلك أن تجذب اهتمام الفيزيائي أيضاً. اتفقنا، فدروس الفيزياء، أو علم الطبيعة كما يقال في الألمانية، موجودة بمعزل عنا، ومفروضة من الطبيعة، منظوراً إليها من خلال عيون الإنسان. إنها طبيعة تفرض الملاءمات الإنسانية فيها. التجربة الإنسانية، مساوية إذاً للعالم، ما نطلق عليه العالم، أي العالم الذي نعيشه. ونحن لسنا على يقين أن تجربتنا عن

العالم هي العالم بما هو عالم. ولكن العالم بما هو عالم مفهوم فلسفي ينبغي ألا يسترعي انتباهنا.

والميل إلى الفلسفة ينبغي ألا يقودنا إلى الاعتقاد بأننا على صلة بالفلسفة حينما نمارس اللسانيات بوصفنا لسانيين، فالفلسفة تبحث العالم بما هو عالم، ولكن العلم لا يهتم بالعالم بما هو عالم، إنه يهتم بالعالم كما هو مُدرك، العالم الناشئ عن تجربتنا. واللسانيات لا تشكل استثناء لهذه القاعدة. إن التجربة الإنسانية هي ما يهمنا، وما ننطلق بدءاً منه، ولكنها التجربة الإنسانية، كما يمكن أن ننقل من خلالها بضعة عناصر إلى الآخرين. وعندما نقول «نقل تجربة بواسطة اللسان»، فلا يعني ذلك أن علينا أن نأخذ الأمر بالمعنى الحرفي، فنحن لا ننقل التجربة أبداً. إن نقل التجربة يتضمن - في حال إصابتنا بصداخ في الرأس - أننا ننقل صداخ الرأس إلى الآخرين. ومن حسن الحظ أننا لا نستطيع القيام بهذا الأمر. ليس بعداً إن نقل التجربة إذاً جزئي بالضرورة. هناك بالتأكيد أشخاص يرغبون في نقل خبراتهم كلها. وهؤلاء الأشخاص يسمّون الشعراء. وهم الذين يسعون إلى نقل ما عاشوه من تجربتهم على الأقل، إن لم يكن بإمكانهم نقل التجربة برمتها، فالشاعر إذا عانى، فإنه سيرغب في نقل معاناته إليكم، ذلك أن المثل الأعلى بالنسبة إليه يكمن في انسجامكم معه. الانسجام يعني «المعاناة مع الآخرين». وفي الامتثال العادي للغة الإنسانية. نكتفي بالقيام بتقريبات في عملية التواصل. وهذا لا يعني أن ترتبط دراسة الشعر بطبيعة خاطر بحقل اللسانيات. إننا ندع الشعر للسبائيين، ولكننا لن نفهم الوقائع الشعرية إلا عبر اللسانيات.

ولكي ننقل هذه التجربة الإنسانية بواسطة اللسان، علينا أن نعلم إلى تحليلها، وهذا التحليل سيتم وفق ابتداء خاص بكل لسان. وستكون لكل لسان صيغته لتحليل التجربة. وثمة مثل بسيط جداً،

فحيث تقول في الفرنسية: «اجتاز النهر سباحة» (il a traversé la rivière à la nage)، تقول في الإنجليزية: «إنه يسبح عبر النهر» (he swam across the river). إن تنظيم العبارة مختلف كلياً. إننا لا نحلل التجربة أبداً بالطريقة عينها، فالتجربة هي نفسها، ولكن في حال كان مستمعي ناطقين بالإنجليزية، فسأقولها لهم بلسانهم، وإذا كانوا ناطقين بالفرنسية فسأقولها لهم بلسانهم أيضاً، متكلماً والحالة هذه، في كل مرة بلسان مختلف كلياً عن الآخر. وما هو فعل في لسان ما، يستحيل ظرفاً في اللسان الثاني... إلخ، ولو قاربنا بين اللسانين التركي والفرنسي، لأمكننا من دون شك أن نفع على كثير من المماثلة.

«تُحلَّل... بطريقة تختلف من لسان إلى آخر، في كل متحد اجتماعي...»:

«متحد اجتماعي» هو مصطلح ملتبس عمداً، فهو مما يصعب حصره. ونأتي لحظة في الدراسة اللغوية تطرح فيها التساؤلات: ما المتحد الاجتماعي؟ أين يبدأ؟ أين ينتهي؟ ومن المؤكد أننا عاجزون عن الإجابة عليها. ستقولون لي إن المتحد الاجتماعي هو عبارة عن أشخاص يتفاهمون في ما بينهم بلا ريب، ولكن ثقة أشخاص لا يتفاهمون من الوهلة الأولى. إذا نقلتم فلاحاً دانماركياً إلى النرويج، فهو في فترة أولى لن يفهم أبداً ما يقال له، ولكن بعد مضي يومين، سيفهم الآخرين ويفهمهم. تُرى أتواجه المتحد الاجتماعي نفسه؟ نعم ولا. لا، لأن للنرويج لوناً معيناً على الخلطة، كما إن للدانمارك لوناً آخر. علينا والحالة هذه، أن نقرر أن المقصود متحدان اجتماعيان مختلفان. ولكن أين تبدأ الثنائية اللهجية في فرنسا نفسها؟ ها هنا مسألة لم يطرحها أناس مثل جيليرون، الذي وضع أطلساً لغوياً لفرنسا. أوفد جيليرون رجلاً يدعى إدمونت (Edmont) على دراجة

إلى عدة نقاط محدّدة سلفاً. كان إدمونت في منطقة فريار لو بويستون (Verrières le Buisson) التي تبعد عشرة كيلومترات عن باريس، حيث وجد فيها راوياً لغوياً فسّأله: «كيف تقول طاولة؟»، أجابه الآخر: «طاولة». لم يكن الراوي اللغوي يتكلم في تلك الناحية مثلما يتكلم الناس في باريس، ولكنه كان يعتقد أنه يتكلم في تلك الناحية مثلما يتكلم الناس في باريس، ولكنه كان يعتقد أنه يتكلم الفرنسية. وليس ثمة سبب لكي ننكر القيمة الفرنسية على الفرنسية المنطوقة من قبل راوي إدمونت في فريار لو بويستون. ولكن عندما وصل إدمونت إلى غاسكونيا (Gasconne)، خاطب بالفرنسية الراوي اللغوي الذي ردّ عليه، بالفرنسية: «نعم، صباح الخير، هل الحال على ما يرام؟ جيد جداً، نعم، هل بإمكانك أن تقوم بدور الراوي اللغوي؟»، - «بالتأكيد يا سيدي» (بالفرنسية). ومن ثمّ، وفي لحظة معينة، يسأل إدمونت: «كيف تقول طاولة؟»، ويقدم الآخر الشكل الغاسكوني للمفردة. وهذا ما كان يغيه إدمونت. ولكن ترى أين تقوم الحدود بين موقف فريار لو بويستون وبين ذلك العائد لغاسكونيا. أتمّ تفتحون الأطلس اللغوي لـ جيليرون، وتبحثون فيه عن الحدود التي تقوم بين الأشخاص أحاديي اللغة وبين الآخرين ثنائييها، ليس ثمة حدود. أين يبدأ إذا المتحد الاجتماعي الفرنسي؟ وأين ينتهي؟

... إلى وحدات ذات مضمون دلالي ونمير صوتي:

أعود إليها، هذه الوحدات هي وحدات مزدوجة الوجه، وهي تدعى «علامات» في المصطلحية السوسيرية، والمونيم هو العلامة ذات المحدث الأدنى. لاحظوا أنه بالنسبة إلى هذه العلامات ذات المحدث الأدنى، أنا لا أقول أبداً إنها متتابعة. والمليّن يقترون من بينكم التقديمات المتولزية جيداً كان باستطاعتهم أن يُصدموا للدقي الواعية في إبراز تقديم مختلف للآتياء مونيمات، وفونيمات. أنا لم أقل إن

المونيمات متتابعة، لأنها ليست بالفعل كذلك دوماً، فعندما أقول: «يجب أن أفعل» (il faut que je fasse)، قد يُسأل (أين يقع فعل العمل (faire) في صيغة (fasse) «أفعل»؟)، و(أين تقع الصيغة الاحتمالية (subjunctif)؟)، ولكن من بإمكانه الإجابة؟ إن الأمر صعب. عندما أقول في الإنجليزية: (he sang) (هو غنى)، أين يقع العنصر الذي يعني «غنى» (chanter)؟ وأين يقع العنصر الذي يتضمن صيغة الماضي (le prétérit)؟ يمكننا من دون شك تشريحها، ولكن أين تكمن التتابعية (successivité) حتى هذه اللحظة؟ إذا لفظت بالعربية مفردة «مكتوب» ((هو) + مكتوب)^(*)، أين المونيمات هنا؟ أين اسم المفعول؟ وأين الجذر؟ وهذا الأخير نحن نعرفه، ولكن كل شيء ممتزج. وليس ثمة تنبؤية مونيمات.

«... مضمون دلالي وتعبير نصوتي...»

«دلالي» يعني أن ثمة إحالة إلى الواقع المُذكر، وهذا ما دعاه سوسير بـ «المدلول» (le signifié). ولدينا مقابله «تعبير نصوتي». ولكن لماذا «نصوتي» بدل «صوتي»؟ إن الأخير أكثر اتساعاً، وهو يعني صوتاً إجمالاً، وبصورة عامة يعني صوتاً يعود للغة الإنسانية، ولكن الأمر ليس دائماً بَيّناً. أما «نصوتي»، فهو أكثر دقة، ويُرجع إلى التشويش الناشئ عن التذبذبات المزماريّة.

«... ينبي بدوره...»

«بدوره» تذكر أن ثمة نطقاً سابقاً، ولكنه نطق لم أشأ أن ألج على طابعه التتابعي.

(*) يقصد ملابته أن كلمة «مكتوب» تتضمن عنصرين معاً: أولاً الصيغة الصرفية (اسم مفعول من كتب «مكتوب»)، وثانياً الضمير «هو» المضمّن في الصيغة نفسها.

«... إلى وحدات تمييزية ومتابعة...»:

«تمييزية» تعني العناصر التي تسمح بتمييز المونيمات تماماً، أي الوحدات البليغة، بعضها عن بعض، ولكن يجدر بنا أن ننظر في ما يتضمنه هذا الأمر: إنه يتضمن أن فونيماً في المعنى المستخدم هنا ليس أبداً «الفونيم» المعتاد للمؤلفين الأميركيين الذي يتداولون فونيمات فوقطعية «suprasegmental phonemes» هي: التنغيم، النغمات... إلخ، أي السمات التي تتخلص من عملية التقطيع إلى فونيمات. عندما أقول «متابعة»، فأنا استبعد «الفونيمات الفوقطعية». «الفونيمات» تعني لي «الفونيمات القطعية» «segmental phonemes».

«... وعدد هذه الفونيمات محدود في كل لسان...»:

إننا هنا أيضاً خاضعون لما سنسميه «لغة»، فلو قلت لي فجأة: «كم فونيماً في الفرنسية؟»، سأجيب «في أيها؟»، «تلك التي لدي أم تلك التي لدى امرأتي؟»، فأنا أمتلك من جهتي ستة وثلاثين منها، أما هي، فتكتفي باثنين وثلاثين. أنا أميز بين /a/ و /ə/ (*)، وهي لا تفعل أبداً. وصدقاً لا حاجة لذلك. إذا كان هذا الأمر يضجركم فلا تقوموا به.

وهنا يستوقفك بضعة لسانين: «هل أنت واثق تمام الثقة من أننا نعلم تماماً عدد الفونيمات التي نمتلكها؟». في الواقع، ثقة لحظات لا نكون فيها على ثقة من ذلك، ذلك لأنني بين مبني الـ 24 والـ 34 عاماً فقدت بضعة تميزات فونولوجية في الفرنسية، فلو طرحتم عليّ السؤال (أين كنت منها وأنت في الثلاثين؟) لربما كنتُ مشدداً. ومع ذلك، فهذا لا يعني أبداً أن علينا أن نطرح المسألة القائمة ذاتها

(*) يقصد ملوثيته أنه يميز بين الصائت الأمامي المقروح [a] كما في القرعة الفرنسية *parce* (تلك)، وبين الصائت الخلفي [ə] كما في القرعة *parce* (عجين).

للفونيمات، مع احتمال الاعتراف أن هناك في بعض الحالات انطماسات وحالات محددة.

«... تختلف أيضاً من حيث النوع والعلاقات المتبادلة... من لسان إلى آخر...»:

الفونيمات التي تمتلكها من لسان إلى آخر ليست واحدة، ولا يحق لك القول إن الفونيم /p/ قائم في اللسانين الفرنسي والتركي، فلدينا فونيم /p/ في التركية وآخر في الفرنسية، ومرّد ذلك إلى أن كل فونيم يتحدّد بالنسبة إلى غيره من الفونيمات تبعاً للتضادات المثبتة داخل النظام، ولو لم تكن هذه التضادات هي نفسها، فنحن نواجه فونيمات مختلفة، فالنوع والعلاقات المتبادلة ستختلف إذاً من لسان إلى آخر. يتضمن هذا التعريف تقديم ما دعوته بالانبناء اللغوي المزدوج: انبناء أول للتجربة إلى فونيمات، وانبناء للشكل المدرك للمونيمات إلى فونيمات متناهية. لماذا تُظهر الألسن البشرية انبناء مزدوجاً؟ لأنها بسيطة، مبدئياً، السُنُّ بمختصر القول، فالإنسانية قد وجدت على هذا النحو، بامتلاكها أداة تسمح مبدئياً بقول كل شيء، قول كل شيء! مع كل التحديدات التي أشرت إليها منذ قليل، فإنفاذ التجربة ليس طبعاً مستوفى بتاتاً، ولكنه ينبغي أن يسمح حتماً بإنفاذ أي تجربة كانت. وبالطبع، فالتجارب الإنسانية لامتناهية، ونتج عن ذلك أن هذا الانبناء المزدوج هو ضرورة إحصائية. ويجدر بناء من حيث السبب، أن نتج لامتناهياً من الرسائل المتميزة، ويفضل أعضائنا، كما هي عليه، ويفضل قدرتنا على إدراك التمييزات مثلما هي عليه، سنصبح مهتمين بإصدار لامتناه من الصرخات والدمدمات المميزة لكل نموذج من التجارب. فلتقابل بين حالتي البشر والغريبان: هناك في لغة الغريبان عند محدّد من الصرخات، صرخات مميزة جداً تعني: «انتبه! هذا خطر!»، «انتبه! الخطر يظهر من فوق»، «انتبه!

الخطر يظهر من تحت»، انتبه! هذا» أو «انتبه! ذلك». إننا نواجه هنا جدول صرخات. ولندون من دون توقف أن الغربان جميعها لا تمتلك الجدول نفسه. بمقدورنا الافتراض أن أميركا، التي درست فيها هذه المسألة، تعرف نوعين من الغربان: واحداً مستورداً من أوروبا وآخر محلياً، ومن هنا ظهور الاختلافات. إن للغربان أداة تواصل لن نسميها لساناً، ذلك لأننا نعتبر أن لساناً ما هو الذي ينبغي بشكل مزدوج، ونحن لا نسجل هنا أي انبناء. أما وقد فرض ذلك، فلنفترض أن الغراب ووجهه بخطر ذي طبيعة غير متوقعة. ماذا بإمكانه أن يفعل؟ لا شيء، بوسع - لأنه لا يستطيع أن يتصرف بوجه آخر - إطلاق صرخة تشير إلى خطري ما أمكنه مطابقتها بخطر آخر اعتبره سابقاً.

إن تفوق الإنسان على الغراب يُعزى إلى أن الإنسان قادر على الجمع بين صرختين مختلفتين، وعلى تفريد واحدة من الأخرى (أو الثانية من الأولى، ولا طائل في أمر ترتيبهما، فهذا عائد إلى الألسن). وهذا ما نطلق عليه معاينة التجربة. إن معاينة هذه التجربة في نطاق ما، هي من دون ريب أصلية، وربما تجعل التواصل ملتبساً، فلنفترض أن غرابنا أطلق صرختين بالتتالي ليفرق الأولى عن الثانية، هل نعتقد أن غراباً آخر سيفهم؟ لكي نفهم، ينبغي أن نوجد، إذا صح القول، القاسم المشترك للصرختين. الشاعر هو الذي يسعى إلى التفریب بين صرختين، إنه يدرج معاً كلمات لم يعتد الناس وضعها في سياق واحد، خشية ألا تفهم. إذا قرأتم قصيدة بجدر بكم أن تجهودوا أنفسكم قليلاً لكي تتبينوا ما تتضمنه التقريبات غير المتوقعة.

وعندما يجد الإنسان نفسه إزاء تجربة جليظة، فإن بمقدوره أن يحاول نقلها، وهذا ما يتيح الانبناء الأول، وهنا في الحقيقة ما

يخلق اللغة الإنسانية. واللغة الإنسانية لغة يمكنها التلاؤم. إن مفتاح تقدم البشرية هو في هذه الإمكانية التي نملكها في خلق صرخة جديدة بتنسيقنا صرختين سابقتين. وأياً كان اكتشاف ما، فهو يقضي بتقريب شيتين لم يُقَرَّبَا قط، أو كلمتين، وكما نكون أكثر دقة، مونيمين لم يُقَرَّبَا واحدهما من الآخر قط.

ويبدو الانبناء الثاني أقل إثارة وخصوصية للبشرية، رغم أنه يكون قطعاً كذلك، وربما أكثر من الانبناء الأول. على كل حال، من يقول لنا إن الغريبان لا تستطيع الجمع بين صرختين؟ إن الانبناء الثاني، انبناء الشكل المُدرك للمونيم إلى وحدات متتابعة، إلى فونيمات، هو بدوره في غاية الأهمية. إنه الضمانة لشبكات الدوال. إنه الضمانة على أن قيمة المونيم لن تؤثر في الشكل المُدرك الذي نسبغه عليه. وعندما تقول «ريح»، «زَدَمَ»، «زَقَضَ»^(*)، فلديك بدماء عادة نطقية (فونيم) هي /ر/. ولا يقال إنك حتماً تلفظها بطريقة متطابقة في كل الحالات، فهناك السياق الذي يؤثر ولكنها دائماً العادة النطقية /ر/. إن النتاج المُدرك لهذه العادة النطقية سيعدل حتماً في بضع حالات، فإذا قلت: «الريح تمصف هذا الصباح»، من الممكن أن تبدل قليلاً الـ /ر/ الخاصة بك، ولكن هذا الأمر لن يصبح مطلقاً، فأنت ستقع دائماً في المرة التالية على /ر/ عادية، أي على الفونيم /ر/. وبعبارة أخرى، إن قيمة العلامة لن تبدل هذا الدال بطريقة نهائية. وإذا أمكن لشكل الدال أن يتغير من جزء القيمة التي يسبغها المرء في كل لحظة على المدلول، فإننا سننتهي إلى سديم. وسنتعرض للإدراكات أكثر بكثير من تلك التي نصادفها في الحياة

(*) استعمل المؤلف في الأصل مفردات «evoluir», «venir», «event» التي تبدأ

بالصامت «v» وقد استبدلت بها مفردات أخرى عربية أكثر تلاؤماً.

اليومية. وعلى الرغم من جودة هذه الأداة التي هي اللغة الإنسانية،
فنحن نعلم جيداً أننا لا نتقاهم على ما يرام في بعض الأحيان.

إن هذا التعريف الذي أصوغه للغة الإنسانية هو إفاً لازم
وكاف، «لازم» بمعنى أن أي سمة لو اُندرجت أو ضُمّنت فيه،
فغالبها سيُعني أن التعريف لا يقصد به لسان ما هاهنا.

توضيح: يذكرونني غالباً بأنني أخطئ في الإلحاح على الطابع
الصوتي، لأن هناك ألسناً لم نعد نتكلمها. لا شك في هذا، ولكن
هذه الألسن، هذه الأشكال المكتوبة التي نعرفها عنها، تحمل أثر
الطابع الصوتي^(*)، فالطابع الصوتي للسان يحدّد خطية الكلام.
وخطية الكلام تتضمن النحو. والنحو هو الذي يتيح لنا إخضاع
الخطية. وتتضمن خطية الكلام أن عناصر التجربة جميعها التي تشكل
كلاً إجمالياً ستجزأ إلى عناصر متتابعة. ولكن كي نفهم هذا الكل
الذي تولفه هذه العناصر المتتابعة، ينبغي عليها أن تُربط ثانية بعضها
ببعض. وهنا بالضبط يوجد النحو، فالنحو ليس بحدّ ذاته تتابع
العناصر في السلسلة. إنه دراسة السبل التي تقع عليها في كل لسان،
والأيلة لربط عنصر بآخر بغية توضيح الطيمة الصحيحة لعلاقتها.

ويتضمن تحديدنا كذلك أن الموضوع الذي لن يُظهر الانبناء
الثاني لن يحدّ لساناً، إذ ينبغي توفر الانبناءين الأول والثاني. بالإضافة
إلى ذلك، ينبغي أن يكون الانبناء الثاني ذا طابع تصويتي، لأن هذا
الطابع التصويتي - الاستهلاكي تحليلاً - ، وفي حال لم يحدّ اللسان
منطوقاً، سيتضمن خطية النص، أي تتابع مونيّمات تعترض الإدراك

(*) إن هذا الرأي ليس دقيقاً تماماً، خصوصاً في ما يتعلق باللسان العربي؛ ذلك أن

الرموز الكتابية العربية لا تستطيع أن تعكس التلوينات الصوتية - كالنبر والتنغيم - التي من
شأنها نقل صورة دقيقة عن الطريقة المصنعة في النطق عند العرب.

الإجمالي للتجربة وتقاومه. وينبغي أن نفتتح بأن التجربة نفسها ليست مجزأة إلى قطع (شذرات) تكون مجملة ونجزتها إلى قطع، في اللحظة التي يتوجب فيها إعطاؤها شكلاً لغوياً، تجزئها إلى قطع مختلفة حسبما يكون الشكل اللغوي، تركيا أو فرنسياً، إنجليزياً أو صينياً.

لقد أوردنا أن هذا التعريف كافٍ، وهذا يعني أنه لو صادفنا سمة لا تندرج فيه، فلا شيء يمنع أن نكون إزاء لسان ما، فإذا صادفت على سبيل المثال لساناً لا يفرق بين الأفعال والأسماء، فلا يحق لك القول بأنه ليس لساناً، إذ لا شيء في تعريفنا يتضمن أن لساناً ما ينبغي أن يميز الأفعال من الأسماء. لقد صادفنا ألسناً لا تميز فيها بين الفعل والاسم، ولكننا لم نكن نجرؤ على الاعتراف بهذا الواقع لو لم نكن قد عملنا بالطريقة الاستنباطية التي يتأها هنا. وإذا كان لواقعية مماثلة أن تقوت المراقب، فذلك لأنه يترجم بلسانه العبارات المنطوقة «اللسان» المدروس. ويحدث في لسان من هذا النموذج أن قطعة (segment) قد تُرجمت إلى «اليد» في مقام معين، تترجم بواسطة عبارة «هو يأخذ» في موضع آخر، نحن معنادون في الفرنسية والإنجليزية أن نتخذ أفعال وأسماء الشكل نفسه، كـ: (la table) «الطاولة» و (je table) «أنا أعتمد على»، وكـ: (je mesure) «أنا أقيس» و (la mesure) «القياس»^(*). ولكن الانتقال من طبقة إلى أخرى هو نتاج مسلك قديم في الاشتقاق يتواصل من خلال استبداله السابقة الجديدة باللاحقة المنعدمة: فتميز الاسم من الفعل في الإنجليزية القديمة (fisc-fiscian) يؤول إلى الإنجليزية الحديثة (a fish-to) (a fisch). وفي الواقع، فنحن نؤول إلى معانيسات من طبقة إلى أخرى.

(*) المثال متواتر في العربية حول هذه الظاهرة الاشتقاقية مثل: الأكل وأكل، الدرس

وفزسر - - - إلخ.

ليس المقصود هو المشتركات اللفظية، بل إن المقصود هو الشكل نفسه بقيم دلالية مختلفة، يحددها السياق، لقد عرض كلود تشيخوف (Claude Tchekhoff)، أحد زملائنا، في أطروحته لساناً من المجموعة الميلانيزية^(*) (Mélânésie) حيث لا تميز فعلياً بين الأسماء والأفعال. إننا نلاحظ جيداً، عند دراستنا بضعة السن أميركية، كيف يمكن للسان مماثل أن يعمل. لديكم، على سبيل المثال، السن أميركية، كيف نصادف فيها ما ينبغي أن نسميه أفعالاً، ذلك أنها تتضمن مبدأ الفعلية، أي ما يخضع له الفعل من إعراب - أقول نصادف «طريق» و«غابة» و«بحيرة» و«شجرة» التي تتوافق تماماً مع مظاهر مثل «أكل» أو «جزى». وبخلاف ذلك، فإن «رجالاً» و«سلة» و«بيتاً» تمتلك تصريفات اسمية. ويعني كل ذلك أن الأهمية التي يسبغها البعض، اليوم، على الموقع الخاص بالفعل والفاعل والمفعول هي - من وجهة نظر اللسانيات العامة - مثيرة للسخرية تماماً. من يبلغنا أن لساناً ما يملك بالضرورة فاعلين ومفعولات وأفعالاً؟ هناك طوائف من الألسن لا تملكها، ومنها السن معروفة كالباسك (مثلاً)، فإذا كنت من سكان باريس وركبت القطار، فستصل بعد ذلك بساعات إلى مجال لا يملك فيه الناس لا مفاعيل ولا مفعولات. إن ما سنصادفه هناك هو محدد ما من دون ميزة شكلية يمكن أن يماثل إما فاعلنا أو مفعولنا، وأحياناً سنصادف محدداً آخر هو عامل الفعل الحقيقي (في صيغة المجهول)... إن البنى النحوية ليست مثوقة أبعد مما هو متضمن في تعريفنا، فمن

(*) السن منتشرة وسط المحيط الهادي شمال شرق أستراليا وتنتمي إلى العائلة اللانوية البرونزية. ومن صفات هذه الألسن أنها تستعمل أربعة أعداد للاسم هي الفرد والثني والثلاث والجمع. انظر: معجم علم اللغة النظري (إنجليزي - عربي)، محمد علي الخولي (بيروت: مكتبة لبنان، 1982)، ص 167.

الواضح أنه لو كنت مقتنعاً أن هناك، في كل لسان، بالضرورة، فعلاً وفاعلاً ومفعولاً، ولو وُضعت إزاء اللسان الباسكي، فإنك ستسعى إلى إقرار أن ما يُترجم إلى فاعل في الفرنسية أو في الإسبانية هو الفاعل، وأن ما يترجم إلى مفعول في الفرنسية أو الإسبانية هو المفعول. إننا أحرار في القيام بما نشاء وأيضاً في أن نستخدم النحو الروماني في ما يخص الباسكية.

لقد أخذ عليّ أنني لم ألحظ في تعريف أن اللسان هو أداة الفكر. وجوابي هو أن هذا الأمر متضمن فيه، وذلك لدى التنويه بانبثاق التجربة. والفكر هو تنظيم للتجربة. وتظهر ردة فعل ثانية لآخرين يعتبرون أن خطية الكلام ليست واقعاً لغوياً. وهؤلاء أسأل: لم تقوم حاجة للنحو إذا لم تكن بالضغط لتأسيس التجربة بدءاً من خطية ما.

فلنفترض أننا نملك بدل لسان ما لوحاً أسود وسيلة للاتصال، فسنستخلص بسهولة من الخطية. ولكي نبليغ (جملة) «الرجل قتل الأسد»، سنرسم سهماً أو بندقية، ثم أسداً قبالتهم. ويمكن أن يكون الأسد لجهة اليمين أو لجهة اليسار، من فوق أو من تحت. والذين سينظرون إلى الرسم سيرون ربما الأسد قبل رؤيتهم السهم، أو السهم قبل الأسد، أو ربما الكل معاً: الرجل والسهم والأسد. ليس ثمة أي إلزام لنا لنضع لخطية ما، فالخطية تتعلق بالطبيعة الصوتية للرسالة، وليس بمقدورنا أن ننشج، بواسطة الجهاز الصوتي، في الوقت عينه، كل الوحدات التي نحتاجها.

مع ذلك، فالمأخذ الأكثر تواتراً الذي وجه إليّ هو أنني لم أدخل التنعيم في تحديدي للمقمة، جوابي هو أنه مندرج فيه: فتحن لا يمكننا استخدام الصوت دون أن نعلم إلى ذبذبة الأوتار الصوتية.

ولما كانت هذه الأوتار، حال تلقبها، تتذبذب بتواتر متغير، فإننا نحصل بالضرورة على منحنى تناغمي. هذا هو الشيء المهم، ولكن ينبغي أن نعرف كيف نستبط، فالتنظيم، ضمناً كان أو بينياً، هو شديد الهامشية من وجهة النظر اللغوية. إنه يسمي إلى نظام سيميائي مواز للكلام. وبهذا فتحن تفهمه بشكل أفضل. إنه إشارة صوتية. ولما كانت هذه الإشارة تحدث، في كل لسان، بواسطة المزمار، فإننا ننسبها ببراعة إلى اللسان وما نرى إليه في الواقع، هو إحدى تلك الترابطات الثابتة التي تقع عليها في اللغة، والتي من واجبنا مطابقتها بواسطة تحليل ما. لا يتضمن تعريفي هذا تنويعاً ولا تضميناً لوجود الكلمة. إن مصطلح الكلمة لا يظهر أبداً. وسكوتنا عن هذه النقطة يعني أنه لا حاجة بنا لكي نطرح وجود زمرة مونييمات تتوافق مع ما يماثل التقليديون على أنه «كلمات». إذا رغبتنا في الاحتفاظ بهذا المصطلح لتعيين بضعة مقاطع من الكلام، تتطابق في بضعة السن، فيمكننا القيام بذلك. ولكن هنا لن يظل متيناً إلى اللسانيات العامة. إنها اللسانيات المختصة بكل لسان. لاحظوا من جهة أخرى، أننا لا ننوّه أبداً - في التعريف - بوجود أبواب مختلفة من المونييمات، مثل باب المونييمات النحوية المقابلة للمونييمات المعجمية. إن التجربة التي نملكها عن الاحتياجات التواصلية للبشرية تحثنا على الاعتقاد بأننا سنقع على تمييزات نوعية لبعض المونييمات بقيمة نحوية، فبعض المونييمات ستأخذ قيمة هامة جداً: فمفرد سيتضمن «حركة ابتعاد» وآخر «حركة اقتراب». وهذه كانت في ما مضى، في الفرنسية، قيمة حرفي الجر: (de) «من» و (à) «إلى». ولكن تمييزاً بين نحوي ومعجمي لا يدخل في التعريف، ولا في ما يمكن استنباطه منه. إننا نفهم بالطبع أن تقوم في عديد من الألسن مصطلحات تدل على حالات أو أحداث، وتقوم من جهة ثانية، مصطلحات تدل على سلوك آخر وتوافقات أخرى، وتشير إلى مواضيع أو إلى مفاهيم ما.

ولكن ليس من المستحيل أن نصوغ تعريفاً دلاليًا للأفعال والأسماء،
للتركية أو للفرنسية، فـ «سباق الخيل» و«جري الحصان» هو الأمر
نفسه. هي التجربة نفسها! فلو قلت «جري الحصان» فأنت لا تربط
هذه التجربة بغيرها، ولو قلت «سباق الخيل»، فإنها التجربة نفسها،
ولكنك تنهياً لربط هذا القول بعناصر أخرى. هذا كل ما في الأمر.
أين الاختلاف الدلالي إذا؟ نحن في اللسانيات الوظيفية لا نتكلم أبداً
عن اختلاف دلالي، بل نقول إن ثمة توافقات مختلفة للأسماء
والأفعال.

هناك الأفعال والأسماء، لأننا نرغب في أن يجاز لنا التعبير عن
الأشياء عينها في عدد من السياقات على غير ما هو قائم في سياقات
أخرى.

ما يمكن استبقاؤه من المناقشة

جواباً على مستمع، السيد يوسل (Yücel) الذي قدر أن جملة
«... تُحلَّل بطريقة مختلفة في كل لسان» تفيد أننا تكلمنا عن «الـ»
لسان)، وليس عن (السان ما):

إذا قلت «كل لسان»، فهذا لأنني أُمَيِّز لساناً من آخر، من السنة
آخر. ولا أرى أبداً ما يوافق هذا «الـ» لسان. كيف يكون «الـ»
لسان؟ إنني لا أعلم عنه شيئاً. «الـ» لسان لا أعرفه. لسان ما، نعم!
أنا أعترف لكوني بمثل هذه الواقعية، فأنا أهتم بالواقعية وأحمد عليها،
ولكنني فعلاً واقعي. ينبغي عليّ معرفة أين يوجد هذا «الـ» لسان.
لسان ما، أنا أعرف المقصود، «الـ» لسان، أنا لا أعرف أبداً ما
المقصود.

شخصياً، أنا استبعد التقابل السوسيري بين لسان/ كلام. إننا
نواجه ظاهرة مُدركة هي الكلام، إضافة إلى سلوك الكائنات الحية
التي تتبادل الكلام. وهنا عنصر مُدرك يجدر بنا الانطلاق بدءاً منه.

والاستبطان ليس مسلكاً جديراً بالاحترام في البحث العلمي. لقد حظينا باعتلاك أداة الاستبدال التي تسمح لنا بتحليل هذه العبارات التي جمعناها في الكلام. ليس ثقة اللسان والكلام. ثقة الكلام، ومن ثم العناصر التي لها في الكلام ملاءمة للسان موضوع البحث. هذه العناصر التي تمتلك ملاءمة لا تمتلك ملاءمة للغة الإنسانية كلها، إن لها ملاءمة للسان مخصص. إن التمييز الذي يمكن إقامته بين الصائتين /v/ و /y/ في الفرنسية أو التركية، هو تمييز يصلح للفرنسية وللتركية. وهذا لا يعني أن هذه الأصوات ليست موجودة في غير السن: ففي الروسية، مثلاً، لديك أصوات [v] وأصوات [u]، ولكنها تماثل الفونيم نفسه، وانطلاقاً من اللحظة التي نطبق فيها على موضوعنا، أي الكلام وردات فعل الكائنات الحية إزاءه، مسلك الاستبدال، فإننا نفع مباشرة، لا على وقائع عمومية، بل على وقائع تميز لساناً خاصاً.



أجيب عن سؤال مستعصي، السيدة بايراف (Payrav)، التي أشارت بأنه لو كانت في فعل (*fasse*) (فعل) وحدثان: معجمية ونحوية، فسيمكننا أن نلاحظ بطريقة مماثلة أن في كلمة (*poussin*) (صوص) وحدثين دلالتين.

إن لدينا فعلاً الإمكانيّة لتفسير كلمة (صوص) على أنها مماثلة على صعيد المعنى لـ: (*poule*) (دجاجة) + (*jeune*) (فتية). ولكن إذا كانت (*fasse*) تماثل اختياريين متميزين (*faire*)^(*) (فعل) و (*subjonctif*) (صيغة النصب)، فإن كلمة (صوص) تماثل اختياريّاً وحيداً، وهذا ما سيكون عليه أيضاً حال (*poulet*) (فرخ الدجاجة)،

(*) صيغة النصب لفعل (*Faire*).

الذي يحفظ مع ذلك على تحليل شكلي إلى : *et - e) + poul*
 بعلامتين متميزتين. إننا لا نستطيع الكلام عن مزيج دوال لموئعين
 اثنين إلا في حال تركيب (*syntagme*) مثل (*fasse*)، لا في حال موئيم
 مثل صوص (*poussin*)، أو موئيم مركب مثل فرخ الدجاجة (*poulet*)
 عناصرهما جامدة.



وجواباً على المستمعة نفسها، التي ذكرت أن صيغة النصب في
 (*il faut qu'il fasse*) (ينبغي أن يفعل)، على سبيل المثال، قد
 اقتضاها السياق :

إنها مسألة صيغة التمني في الفرنسية. هل صيغة النصب موئيم
 أم لا ؟

الجواب: نعم، إنها موئيم، لأنني أستطيع أن أقول: «إنني
 أبحث عن منزل ذي مصاريع خضراء» (*a des volets verts* ...)
 و«أبحث عن منزل كان ذا مصاريع خضراء» (*ait des volets* ...
verts). بإمكانني إذاً أن أقوم بالاستبدال. ثمة بضعة مقامات من هذا
 النوع، حيث بإمكاننا عند الاقتضاء أن نقوم بالاستبدال. إننا نكثر من
 استخدام صيغة النصب، وذلك مرده أن أغلب الأفعال لا تميز بين
 هذه الصيغة وبين الصيغة الإخبارية (*indicative*). إننا ستحير جداً لو
 تعين علينا أن نعتمدها للإفهام. سيقول أغلب الناس: «إنني أبحث
 عن منزل سيكون ذا مصاريع خضراء» (*aurait des volets verts* ...).
 نستخدم صيغة الشرط لأننا حينئذٍ منطقتن، بسبب أن صيغة الشرط
 هي دائماً متميزة عن الصيغة الإخبارية. ونقع على صيغة الشرط في
 إعلان ما: «أبحث عن رجل ليعمل في حديقتي» (*travaillerait* ...
dans mon jardin)، فهنا لا نستطيع استخدام الصيغة الإخبارية

(travail) «هو يعمل»، لأنها يمكن أن تتضمن أن ثمة في الواقع رجلاً في الحديقة. ولو كان يعمل في الحديقة لأمكنني السعي في طلبه، لعلمي بوجوده هنا. إنك على حق: فصيغة الشرط في الفرنسية تميل في الواقع إلى الزوال كمونيم، هي تميل إلى التحول إلى عنصر محض شكلي.

جواباً على مستمع، السيد إتيك (طاب)، الذي طرح مسألة قيمة الدراسات التقابلية:

إن الناس الذين يتقنون المناهج التقابلية، إنما ينتقلون بالفعل التطبيقات السيئة فيها. أظن أنها قطعاً ضرورية. عندما تكون أنت بصدد تعليم لسان ما، فليس المقصود أبداً أن تقوم بتحليل اللسان الذي تدرسه فحسب، بل عليك الالتفات نحو لسان الأشخاص الذين تقوم بتدريسهم، فلتمثل بشاهد فونولوجي: أنت تعلم الإنجليزية لشخص فرنسي، هناك نبر في الإنجليزية، بمعنى أنك لدى تلفظك بعبارة إنجليزية فسيكون لديك، تلقائياً بروزاً لمقاطع ما، وإذا ما تغاضيت عن هذا البروز فلن يمتك تلفظك إلى الإنجليزية بصلة، والناس لن يفهموك أبداً! بمقدورك أن تقول في الفرنسية (impossible) «مستحيل» بتعليقك أهمية على المقاطع الثلاثة: (im), (pos)، أو (stble)، وهذا يمت دائماً إلى الفرنسية بصلة. ولكن ينبغي ألا نقول /impossible/ (بإبدال الصائت الأصلي /o/ بالصائت المحايد^(*)) لأن ذلك لا يُعد من الفرنسية). ينبغي ألا نقول /travailler/

(*) يعرف مارتينه في مباحثه الصائت المحايد (voyelle neutre) بأنه ذلك الذي نسمعه عندما نتردد في ما نود قوله (heu...heu)! أو في آخر الكلمتين الإنجليزية (ville) والألمانية (gabe). والصائت الذي يميل نحو نطق هذا الصائت يقال له «صائت مركز» (centralisé). انظر: Martinet, *Éléments de linguistique générale*, p. 43.

«عَمِلَ»^(*)، بل بالأحرى /travailler/. بعبارة أخرى، فالفرنسيون لا يعرفون ما هو النبر، فلو عرضت كتابة فونولوجية بالإنجليزية على أشخاص فرنسيين وكنت قد وَسَّمت (مواضع) النبر بواسطة نقطة صغيرة، فلن يلاحظها الفرنسيون أبداً. وكى تتأكد من ملاحظة الفرنسيين للنبر، عليك - على سبيل المثال - أن تكتب (satisfaction) «رَضَى» بواسطة (- Fac -) ضخمة، و(- Sat-) متوسطة، و(- is -) و(- tion -) بحروف في غاية الصغر. سيصادفك، والحالة هذه، شيء من الحظ في أن تفهم من قبل شخص إنجليزي. على الفرنسيين أن يقولوا في أنفسهم «ثمة أمر ما، انتبه! لا يعني أن أستسلم ها هنا! أنتم تعرضون نصاً إنجليزياً على شخص ألماني، وهذا الأخير يمتلك الشروط نفسها التي للإنجليزي: إنه لا يستطيع أن يتلفظ كلمة من دون أن ينبرها. أنت تعرض له كلمة ما، وسيبحث هو عن الموضع المناسب لإحلال النبر. وتكفي نقطة يسيرة لإرشاده إلى ذلك. ليس بمقدوركم على الإطلاق أن تعلموا لساناً ما لشخص ما دون أن تأخذوا بعين الاعتبار سوابقه اللغوية.

والمسألة الهامة بهذا الصدد، هي في معرفة إلى أي حد سيخطئ الشخص الذي يُلَقِّن لساناً ثانياً، لأنه يتكلم بداية لساناً آخر، أم لأن اللسان الذي يتعلمه يوحى بأخطاء، إن الطفل الفرنسي الذي يُلَقِّن الفرنسية يخطئ ابتداءً من سن الرابعة. لماذا في هذه السن بالذات؟ ذلك لأنه يصبح أكثر ذكاءً، ولأنه يسعى بنفسه إلى تأليف جمل، لا لتكرار جمل تنهت إلى سمعه. وهو عندما يؤلف جملة - وإذا كان المقصود قيمة دلالية محكمة التحديد -، فلن يتخيل أن بمقدوره أن يمتلك أشكالاً مختلفة تستعمل حسب السياقات. إنه

(*) أي بإبدال الصائت المحيط [d] بالصائت /a/.

يعرف شكلاً ذا معنى معين، وهو سيستخلصه في كل مرة يكون هذا المعنى - دون غيره - ما يرغب في التعبير عنه. ولكن، فلنتبه إلى أن الأمر لا يجري دائماً على هذا المنوال، ربما في اللسان التركي بشكل أقل منه في السن أخرى، ولكن ثمة ألسناً أكثر تعقيداً، فاللسان الفرنسي - كغيره من الألسن - مليء بالأحاديث في هذا الشأن، واللسان الإنجليزي لا يختلف عن سابقه لجهة أفعاله الشاذة، ففعل مثل (bring) «أأخذ» سيصرفه الولد، بعد أن تُبَيِّنَ إليه سابقاً، حسب النموذج المعروف لوضع شواذات متواترة، مثل (ding) «يغني»، ولكن هذا الفعل، ومن خلال اسم المفعول العائد له (brought)، هو أكثر شواذاً من الشواذات العامة. إنه من الخطر بمكان لولد ما أن يكون في هذا المجال مبكر النضج، فلو كان فرنسياً، فإن له بعض الحظ في أن لا يعتمد على الأشكال الشاذة لفعل التملك (avoir)، والوجود (être)، قبل المرحلة التي سيأتي فيها أن يتكلم بطريقة مستقلة، أي أن يستند في كلامه إلى قياس. لقد عرفت ولداً، هو اليوم أستاذ للفيزياء النووية، كان لغاية سن الثانية عشرة يقول: (J'es grand) بدل (je suis grand) «أنا كبير»، و (J'as faim) بدل (j'ai faim) «أنا جائع». والسبب في ذلك كان يعود إلى أن الأشخاص المتكلمين الثلاثة في الفرنسية المحكية متشابهون، باستثناء أفعال الذهاب (aller)، والوجود (être)، والتملك (avoir)، إضافة إلى صيغة المستقبل (venir). إن هذا الولد، الذي كان قد استدل على هذا الأمر مبكراً جداً، بطريقة لاواعية بالتأكيد، يُخضع الأشكال الشاذة للقياس. لقد مرت فترة كان خلالها كل الأطفال الفرنسيين، وبخاصة الأقل نبوغاً من بينهم، يقولون: (je - j'ira) - (je mangera) (vas)، لأن الأشكال الشاذة (Je vais) «أنا ذاهب»، (j'irai) «سأذهب»، (je mangerai) «سأأكل»، الأقل تواتراً من (je suis) «أنا أكون»، (j'ai) «أنا أملك»، لم يسن لها الوقت كي تتحول إلى عادات.

جواباً على الرئيس، السيد فاردار (Vardar)، الذي طرح مسألة
أساس تجريبي للنظرية:

إن الأمر يبدو لي بديهياً لدرجة أنني، ولفترة طويلة جداً، لم
أشعر بالحاجة إلى قوله. لقد مرت فترة بيّنت خلالها أن ثقة أشخاصاً
لم يتوضح لهم الأمر كفاية. وقد بدا لي مسلماً به أننا، الذين ندّعي
بأننا باحثون، موجودون هنا كي نبرز الحقيقة، أي التجربة التي
يملكها الناس عن العالم، وهذا يبدو لي بديهياً لدرجة أن مفهوم
فرض إطارات معينة مسبقاً على هذه الحقيقة يبدو شذوذاً تاماً.
بإمكاننا أن نفترض، ولكن على هذا الافتراض أن يُدرك دائماً
كافتراض وليس كدليل مؤكد، إن ما نقضته هو الفرضية المصوغة
على أنها الإطار اللازم للبحث. وفي هذه الحالة، فلا شيء على
الإطلاق يمكن أن يبطله، حتى ولو لم يماثل شيئاً ما. إذا كنتم
مقتنعين أنه ينبغي أن يكون كذلك، فأنتم سترونه كذلك. إننا نجد ما
نبحث عنه، حتى ولو كان ما نبحث عنه ليس موجوداً.

جواباً على المستمعة السيدة غوزلسن (Gözelgen) التي سألت
عن موقف الوظيفانيين إزاء معيار اللسان المُخَلَّم:

ليس ثقة معيار واحد في لسان ما، بل ثقة معايير. لو أنك فتاة
صغيرة في سن الثانية عشرة، موجودة في ملعب المدرسة، وأشرت
في أثناء تبادلك الحديث مع زملائك إلى المعلم على أنه (Monsieur
le professeur) «السيد الأستاذ»، فأنت خارج المعيار. إن معيار
ملعب المدرسة هو قول (le prof.)^(*)، وإذا لم تقولي (le prof.) فأنت
شاذة. إنكم تمتلكون من المعايير بقدر ما تمتلكون من البيئات. لو
قلتم، في الحياة اليومية بالفرنسية: [il i ja (de zaki...)] «يوجد...»،

(*) اختصار شائع للفظ (Professeur).

فلستم في نطاق المعيار. إن معيار اللسان الفرنسي هو [ʒa].^(*)

ولكن ثمة معيار آخر هو ذلك الكتابي الذي يتطلب (il-y-a).
وثمة أيضاً معيار آخر، هو معيار المحاضرات الشكلية، التي ليست
على الإطلاق محاضرتي الآن، إذ إن كلامي الحالي هو بالأحرى
مألوف. ثمة بطبيعة الحال ظروف يكون فيها من الشاذ القول
(le prof.) أو [ʒa] بدل من [il i a]. إن إحدى صعوبات تعليم
أن تتركوا جمهوركم جاهلاً بعضها. إذا كنتم بصدد تعليم الفرنسية،
فعليكم في لحظة معينة أن تعلموا الذين تلقنهم هذا اللسان، أنهم
سيسمعون بشكل متواتر [ʒaka] (il n'y a qu'à...) «لا يوجد إلا...»
التي تعادل التعبير الشكلي (on peut se dispenser de toute autre chose que...) «يمكننا أن نمتنع عن كل شيء آخر ما عدا...».

ليس من النادر أن كثيراً من الأشخاص الذين اتقنوا الفرنسية
المعيارية المدرسية فحسب، يصابون بالحيرة لدى وصولهم إلى فرنسا
وسامعهم الفرنسيين يقولون [ʒaka]، فليس المقصود فقط أن نعلم
الأرغة^(**) (l'argot)، والأرغة لا غير، بل المقصود هو أن نهين
الناس لما يسمعون، ما يبقى متميزاً بكثرة عما يستخدمونه.
وبقدر ما تُبقون نطقكم في الفرنسية بطيئاً نسبياً، سيكون من الخطأ
أن تقولوا /ʒaka/ بدل [il ni ʒa ka]. ولكن عندما نتكلم الفرنسية
بطلاقة، وهو ما تفعلين أيها السيدة، فالمسألة ليست في أن نقول:
(il y a)، فنبغي أن نقول (y a)^(***). ليس ثمة - والحالة هذه -

(*) أي بإسقاط شبه الصائت /y/ من الكلام المتلوق.

(**) لهجة فئة اجتماعية.

(***) الاختصار نادر في اللسان العربي، في شكله المكتوب، بسبب طبيعة التكوين
العربي للكلمة العربية المروقة بمقطعيتها. والتل للمروف هو في اختصار تعبر «إل آخره» بـ«إلخ».

معياري، بل معايير، وهذا يعقد العمل. من الأفضل لكم عندما تعلمون الإنجليزية، مثلاً، أن تسمعوا - بضع أسطوانات على الأقل - لأشخاص يتكلمون اللهجة اللندنية (cockney)^(*). حينما وصلت لندن للمرة الأولى، لم أفقه شيئاً على الإطلاق مما قاله لي بواب الفندق، ورغم ذلك فقد كنت أتكلم الإنجليزية جيداً. لم يكن ثمة مشاكل مع أصدقائي الطلاب، ولكن ماذا بإمكانكم أن تفعلوا عندما تلتفظون (to die) «يموت» حينما لا يقال لكم (today) «اليوم»؟

لقد قمنا بجهد في مؤلفنا النحو الوظيفي للفرنسية (Grammaire fonctionnelle du Français) كي نظهر الاستخدامات المختلفة، وأظن أننا أنجزناه من دون ديماغوجية، أي دون أن نسرف بكثرة في إيراد الأشكال المألوفة. وعلى الرغم من ذلك سيصدم كثير من الفرنسيين الذين سيقرواونه.

أنتم تعرفون اسم بول باسي (Paul Passy)، اللساني الفرنسي الذي أورد قضايا ممتازة لم تفقد حق التقدير خلال حياته. لقد كان على درب تأسيس اللسانيات الوظيفية. لم يكن أبوه فريدريك باسي (Frédéric Passy) لسانياً على الإطلاق، بل كان سياسياً، وله اليوم شارع باسمه في ضاحية نايي (Neuilly) الباريسية. أما بول باسي فلا شارع باسمه، لأن الشوارع لا تسمى باسم اللسانيين^(**). كان فريدريك باسي يستقبل بمحبة بالغة أصدقاء ابنه في منزله نايي، وكان في عدادهم لسانيون مثل أوتو ياسبرسن (Otto Jespersen) وهنري

(*) لهجة لندن الكوكنية أو لهجة أفقر أحيائها، انظر: معجم المصطلحات اللغوية (إنجليزي-عربي)، رمزي بعلبكي (بيروت: دار العلم للملايين، 1990)، ص 95.

(**) يشير إلى المسألة نفسها الباحث اللساني الفرنسي ميشال أزييف (Michel Arrivé) في: Michel Arrivé, *À la Recherche de Ferdinand de Saussure* (Paris: PUF, 2007), p. 19. وذلك لدى الكلام عن «شارع دو سوشير» الذي يرتبط باسم نيكولا - تيودور دو سوشير جده فرديناند دو سوشير.

سويت (Henry Sweet) الذي انتزع لنفسه مجداً في علم اللسانيات. يصل أوتو ياسيرسن يوماً إلى منزل فريدريك ياشي ويطرح عليه السؤال: «ما تظن يا سيدي بالناس الذين يقولون إن الحرف /l/ في الضمير (il) «هو»، لا يلفظ مطلقاً في الفرنسية؟ يتعجب ياشي قائلاً: (i savent pas ce qu'i disent) «إن هؤلاء الناس لا يعرفون أبداً ما يقولون» (ولكنه هنا يورد جملة خالية من حروف /l/).



جواباً عن السؤال الذي وجهه إليّ مستمع ويتعلق بعلاقات الفرضية بالحقيقة المرتبة، أذكر بدايةً أن تعريفي ليس فرضية، إنه بديهية أسست على التجربة، وأقدر أن أندادي سيوافقوني الرأي إجمالاً إذا قلتُ إن لساناً ما لم يظهر بهذا المظهر. ويمكن بالتأكيد أن يجري الحديث لتغيير بضع مفردات لهذا التقديم البديهي. لو قابلتُ أناً يقولون لي في ما يخص هذه النقطة أو تلك: «...» أنعتقد حقاً... أنه من الضروري أن نخرج هذا في تعريفنا لماهية لسان ما، سأفكر، وربما سأصل إلى استخلاص أن سمةً مثيلةً هي في الواقع متضمنة في مفردة مثيلة من تعريفي. أستطيع إذاً أن أحوزَ تحديدي. لقد تأسس هذا التعريف على تجربتي كلساني لا غير، تلك التجربة التي كانت كافية جداً منذ المستنبات. ومن دون أن أبالغ القول عن الألسن، فإن لدي معارف عن بنية الكثير منها. ومن ثم، فهذا التقديم البديهي يتأسس على انطباع بأن حدود الإمكانيات اللغوية واسع جداً.

إن حالة الفرضية هي شأنٌ آخر، فلنأخذ تلك التي تمود لأهمية المردود الوظيفي في التطور الفونولوجي. من المحتمل أن إسهام مواد جديدة يقنعني بأن المردود الوظيفي كعامل للتطور اللغوي، هو على نحو واضح أقل أهمية، حتى أنني لم أكن قد سلّمت به. وعندها بالذات سأعقل في اتجاه فرضيتي.

هذه إبانة لفرضية طُعنَ فيها بكثرة، فلنأخذ حالة ناطقي بالعربية يتكلم الفرنسية بطلاقة، ولكنه يبقى أيضاً بعيداً بعض الشيء عن المعيار: سأفكر أن الأخطاء التي اكتشفت لديه، والانحرافات نسبة إلى المعيار، ستتحدد بكثرة بناء على بنية اللغة العربية. أما والحالة هذه، فالبحث المفضل والمحتث لحالة من هذا النوع قد كشف أن تسعين في المئة من الانحرافات هي تلك التي بمقدورنا أن نقع عليها في محكية الأطفال الفرنسيين، أي الأشخاص الذين لم يكونوا قد تأثروا بمعرفة سابقة للسان آخر. لقد دفعتني هذه النتائج إلى تعديل فرضية كان بإمكانني الإتيان بها، وتعود الانحرافات الملاحظة عند شخص أجنبي ما، بعوجها، بشكل أساسي، إلى تأثير اللسان الآخر. ولكنني ألتج على أن تعريفي للسان ما ليس تعريفاً افتراضياً، إنه تعريف بلديهي، الأمر الذي هو في غاية الاختلاف.



جواباً عن السيد هوزلسن (Gözelzen) الذي يرغب في إيجاد نسق كوني، أبعد من ذلك المختص، بكل لسان، يكون هو المعنى:

ما هو المعنى؟ أوافق أنت من كون المعنى كونياً؟ يشكل المعنى بالنسبة إلي الطريقة التي نتظم فيها لكل منا تجربة العالم. من المؤكد أننا نعيش جميعاً في العالم نفسه، ولكن من الواضح أن تجربتنا عن العالم تتعدد عبر صلاتنا بالجزء من العالم الذي عشنا فيه. إن تجاربنا عن العالم مختلفة إذا تلقائياً وأساسياً، ومن المؤكد أن تجربتي عن العالم قريبة جداً من تجربة كثير من الفرنسيين الذين يشعرون بالدرجة ذاتها من الثقافة التي أمتنع بها. وذلك مرتدّ ببساطة إلى أن هؤلاء الناس قد أخضعوا للمراحل التعليمية نفسها، للقراءات نفسها، أي للتجارب نفسها إجمالاً. ولكن هذه التجربة مختلفة تمام الاختلاف عن تجربة فرنسيين آخرين يتكلمون اللسان نفسه الذي أتكلمه، ولو

أنهم سيستدلون في تحليلهم كما في تصوّرهم لها بالبنى الأولية نفسها التي للسان الفرنسي، كما هو حالي. إن الشخص الذي لم يتمتع بالتكوين نفسه، والذي تلقى - على سبيل المثال - ثقافة تقنية أجهلها كلياً، ستكون له بالضرورة نظرة مختلفة للعالم. أنا لا أرى أبداً في هذه الشروط ما يمكن أن يكونه معنى يصبح كونياً. كان لي ولك بالطبع تجارب مختلفة، تتحدد بالنسبة إليك بتعلمك التركية عندما كنت ولداً، وبالنسبة إليّ بتعلمي الفرنسية: أنت تعرف التركية، أنا لا أعرفها أبداً، لقد نشأت في بيئة ليست هي البيئة التي نشأت أنا فيها، لقد مررت بمراحل تعليمية لم تكن أبداً مراحلني، من المؤكد أن لدينا بدءاً اختلافات. ومع ذلك، فما أن تقوم صلات بين الكائنات البشرية حتى يبدأ التقارب، تقارب ينتهي إلى مطابقة (جزئية على الدوام) لطبيعة التجربة، وللإطار الذي تدرك فيه هذه التجربة. وبعبارة أخرى: إن تصوري لما تدعوه معنى هو تصور دينامي. لدينا هنا دينامية تتعدل في كل لحظة، وقد تعدلت ديناميّتي هذا الصباح بالأسئلة التي طرحت عليّ، فهذه هي المرة الأولى التي تطرح عليّ فيها هذه الأسئلة تحديداً. وانطلاقاً من هذا الواقع، فإن طريقتي في إدراك الأمور قد تغيرت. وهذا ما يحدث، وأتضمن حدوثه في محاضرة أو في حلقة دراسية. ونحن هنا تحديداً لكي نفكّرنا، ولكي نرى الأمور بعض الشيء، بوجه آخر.

2.1 - وظيفة وملاءمة نواصلية⁽²⁾

بعد مرور أكثر من قرن على اللسانيات المقارنة التي اعتقد أنها تاريخانية، قدّمت اللسانيات الوصفية نفسها بوصفها تزامنية. وبإيجاز

(2) نُشرت في: *Linguistique et sémiologie fonctionnelles*, Istanbul, pp. 45 - 60.

سوسيري في أوروبا، فُهمت هذه اللسانيات التزامنية على أنها
سكونية. لقد طابقت بين الواقع اللغوي والقطع (coupe) السوسيري
للشجرة. طابقت سوسير بين الترامنية اللغوية والشريحة التي تظهر لدى
قطعنا لشجرة ماء، فنحن نرى الأوعية التي تبدو أمامنا، والدراسة
التزامنية تصبح دراسة سطح شبيه. بالطبع، فإن دراسة مثيلة لا يمكن
إلا أن تكون سكونية بحصر المعنى. وليس الموضوع أن نجيب منها
التشعُّ الذي يسري، بل أن نتحقق ببساطة من وجود الأوعية التي
سرى فيها التشعُّ حين كانت الشجرة تنمو. عندما رغبتنا، على سبيل
المثال، في إقامة أنظمة للفونيمات، قمنا بها بالطبع من خلال دراستنا
العلاقات المتبادلة للفونيمات، إنه الأساس عينه للسانيات البنيوية.
ولكن كل هذه الفونيمات وضعت على الصعيد نفسه، دونما التفات
إلى التواتر أو التوسع الذي تعرفه في المتحد الاجتماعي.

ثمة بالتأكيد، في كثير من الدراسات الفونولوجية، اعتبارات
إحصائية هامة، ولكن النظام وضع في الأصل تبعاً لمبدأ قوامه أن
الفونيم الذي يظهر مرة واحدة في اللسان له الوضع نفسه الذي
للفونيمات الأخرى، حتى ولو أمكن لندرته أن توحى بتقلبه. ولا أظن
أبداً أن بمقدورنا أن نلوم الفونولوجيين الأوائل لأنهم فعلوا كذلك،
لقد كان المفصوّد القيام برد فعل، بدفع التزامنية بعيداً جداً
وبتجديدها. قبل سوسير وبنيتوي (structuralistes) براغ، كان الوصف
التزامني للألسن يعتبر بمثابة تمرين قاصر كلياً، وغير جدير باهتمام
العلماء. في الواقع، وعلى الرغم من تحذيرات فيلهلم فون همبولت
(Wilhelm von Humboldt)، فقد تصرفنا كما لو كان اللسان وضعاً
واقعياً مادياً، نتاجاً، وليس حدثاً. قال همبولت إن اللسان ليس عملاً
(ergon)، أي نتاجاً، ولكنه نشاط (energgia) أي طاقة، شيء ما علينا
تصوره في انتشاره.

أقول ببساطة أكثر، وربما بوضوح أكثر، إنه ليس نتاجاً متناهياً، بل هو نشاط، إنه حدث، لم تفهم رسالة هيبوليت فهماً كلياً لأنه لم يكن دائماً واضحاً. على أي حال، حول هذه النقطة بالذات، وفي القرن العشرين، عندما اهتم الناس باللسان لثقافته وبنائه وفقاً لصيغة دروس (Cours) سوسير، لم نعد نحفظ بهذا المظهر على الإطلاق. ينبغي الاعتراف أنه على الرغم مما مثلته الحركة الفونولوجية، فتأثير صورة الخط بقيت ملحوظة. لماذا نمتلك جميعاً الانطباع بأن اللسان نتاج وليس حدثاً أساسياً؟ لأننا نمثله بشكل نص مكتوب عامة. وكما تتم دراسته، فنحن نثبت ونجمده، لا بواسطة صورة الخط التقليدية، الاملاء، ولكن عندما نوفر له كذلك كتابة فونولوجية تفضي بدقة إلى القطع العرضي لـ سوسير. أمامنا شكل جامد، وهذا يعطيك الانطباع بأننا نعمل بواسطة نتاج متناه. وعلى الأرجح، لم يكن لزاماً علينا أن نلح بشدة كي يعترف مستمعوكم بأن لساناً ما يظهر من خلال الاشتغالية. وقد أظهر سوسير نفسه، الذي ندين له بإبادة المقطع العرضي، اشتغالية اللغة الإنسانية. إنكم تتذكرون على الأرجح الراسمين اللذين يتبادلان الرسائل اللغوية في دروس سوسير. إن اللسان يعمل، وهذه الاشتغالية هي التي تبدو لنا - كوظيفانيين - واجبة الإبراز.

إنني ألتح كي نضفي عمقاً على التزامنية، فهي ليست مسطحة. لدينا انطباع بالسطحية، لأن اللسان الذي نمثل عليه يظهر مكتوباً على سطح (= مستوى). ومع ذلك، ينبغي أن نفهم جيداً أن الاشتغالية اللغوية - كأي اشتغالية - هي نتائج علل ومعلولات. ولكن أغلب الناس لا يستشفون المشكلة، لدى وعيهم إياها على هذا النحو. إنهم يرغبون فوراً في صيغة غائية^(*) (finaliste)، غائية الوقائع.

(*) Finaliste: قائل بمتطلب الغائية الذي يفتر الكون في ضوء الأسباب الغائية.

والكل يعترف بأن المتكلمين، وعلى الأقل في بضع حالات، يتكلمون كي يفهموا الآخرين، وهناك أيضاً أناس يتكلمون في بعض الأحيان كي لا يقولوا شيئاً ما. ولكن لنكن متفائلين، فقد يحدث لنا أن نتكلم أحياناً كي نفهم الآخرين. ونستخلص من ذلك أن في الاستخدام اللغوي غائية (finalité) هي التفاهم المتبادل. وعلى هذا الأساس، ننضاف اعتبارات فلسفية، لا علاقة لها قطعاً برأيي بما يعنينا. لقد حضرت مؤتمر الفونولوجيا (phonologietagung) المنعقد في فيينا بداية صيف 1988. وقد حفل بعدد ملحوظ من المداخلات التي قُدمت على شكل مناقشات فلسفية بحصر المعنى حول غائية اللغة. وقد بدت لي على جانب من البطلان. في الواقع، لو أراد المتكلمون أن يفهموا الآخرين، فذلك مرده أنهم يخضعون لحاجة ما. ليس المقصود أبداً، في أول الأمر، أن نقرر رغبتنا في أن نفهم من قبل الآخرين. لماذا نرغب في أن نفهم؟ لأننا نحتاج إلى أن نفهم. أحياناً تكون الحاجة جلية وأحياناً أخرى تكون أقل جلاءً، ولكننا في كل مرة نرغب أن نفهم فيها يكون ذلك لأننا نحتاج إلى أن نفهم. وبمجرد أن نتكلم عن الحاجة فسُئِرْذ إلى الحتمية بلا شرط: هناك علل ومعلولات.

بعبارة أخرى: هذه المناقشات الفلسفية التي تتنزع بالحتمية تضيق في الماورائيات، ولا تفيدنا مطلقاً في شيء. كل ذلك في الواقع هو مسألة صياغة، فإذا انطلقنا من الرغبة، فالصياغة غائية، وإذا انطلقنا من الحاجة للإشباع، فسنحصل على صياغة حتمية. ولما كان دأب العلم أن يعمل من خلال مفردات حتمية، فأنا أفضل، من جهتي، صياغة حتمية.

غير أننا ينبغي أن نحذر وأن لا نخضع إلى إغراء التبسيط

المفرد للامور: وعندما نتكلم عن علة ما ومعلول ما، فليس المقصود ابدأ علة ما أو معلولاً ما (بالتنكير)، في الحقيقة، ثقة، دائماً، مركَّب عللي ومعلولات، ومن السهل علينا عموماً أن نعزل المعلول، لأنه هو الذي نركز انتباهنا عليه. ويتيح كل معلول عن عدد كبير من علل مختلفة وواقعية، وقد يكون بمقدورنا أن نضع بعضاً منها جانباً تحت اسم «دوافع»، وبضعاً آخر - تقريباً - تحت اسم «جوامد»، يكون ظروفاً. سيكون هناك دافع، هو في حالة اللغة إشباع حاجات المتكلم. وهنا العلة الحتمية لمعلول سيصير إنتاجاً للعبارة اللغوية. ولكن هناك أيضاً أمر آخر: فالاعتبار لن يكون فقط لحاجات التكلم، بل لمعارف الشخص الذي يصغي، فلو رغب المتكلم في إيفاء غاياته، وبمبارات أخرى: لو أراد إشباع حاجته، لوجب على الآخر أن يتعاون، ولوجب عليه فهم ما سيفال، أن إقناعه هو المقصود.

ثمة إذاً دافع في كل تبادل لغوي، وفي بداية كل عبارة، ولكن ربما كانت هناك جملة دوافع كذلك، فنحن حين نتكلم، حتى ولو نوينا الاتصال، يمكن أن تكون لدينا غالباً الرغبة في شفاء غلتنا باستخدامنا اللغة، في هذه اللحظة أنا، إزاء الجمهور الظريف الموجود أمامي، مسرور لأنني أتكلم، وأشعر بالارتياح، لأنني أعبر عما في نفسي، وهذا يكون بغض النظر عن رغبتي في إبلاغكم معلومات ما. اعتقد أنه ينبغي على الأستاذ الجيد أن يحب الكلام، أن يستخدم اللغة بفاعلية، ولحسابه الشخصي، بغض النظر عن الرسالة التي يرغب في تمريرها. أنتم ترون إذاً أن الدوافع ليست سهلة، ومن خلال عرضي ببساطة الدافعين الرئيسيين لكم، فأنا أفرط في اختزال الأمور، فهناك الكثير غيرهما، وهناك الأشد اختلافاً عنهما. ثمة إذاً، دافع أو دوافع مترابطة، ومن ثم، ثمة كميات من

الشروط السابقة الوجود، المستقلة عن الدوافع، والتي تدخل في الحساب.

فلنفترض أنكم شاهدتم حادثاً يقع في الطريق، وصادفتم شخصاً تعرفونه فتقررون إبلاغه بتجربتكم. وتبعاً لدرجة الحميمية التي تربطكم به، وتبعاً لما تعرفونه عن معارفه واهتماماته، فأنتم لن تقضوا حكايبتكم عليه بالطريقة نفسها. ينبغي أولاً أن نعرف ما إذا كان هذا الشخص يتكلم التركية، أو الفرنسية، أو الإنجليزية، أو الألمانية، ومن ثم علينا أن نعرف أيضاً هل يهتم بعلم الميكانيكا، أم أن الموضوع يصيبه بالحمل، وهل هو ذو قلب نبيل وحنون، وسيناثري ويتعاطف مع المصابين، أو ربما سيضطرب... إلخ. على أي حال، وفي حالة اللغة، فمن الواضح أن الدافع الأكثر ثباتاً هو الحاجة للاتصال.

عندما نقول «تواصل»، فنحن لا نحيل بالضرورة إلى عبارات إثباتية. والحاجة للاتصال بالآخرين يمكن أن تتخذ شكل أمر. وغالباً ما تكون حاجة الاتصال الأكثر إلحاحاً هي نفسها التي تنتقل بواسطة الأوامر. ويمكن للحاجة إلى الاستملاء أن تتخذ شكل سؤال أيضاً، وذلك أن نقل تجربة ما يعني إعلام الغير بشيء موجود في داخلنا. أما الحالة هذه، فيستدور كل من الإثبات والأمر والسؤال، كلها أن تكون نقلاً للتجربة.

ومن بين الشروط المحقة، هناك الشروط التي تحدد اختيار أداة الاتصال. ويُعتقد هذا الاختيار لدى الكثير من الأشخاص بسبب عدم معرفتهم إلا بلسان واحد، ولكن هؤلاء يمارسون في الأعم الأغلب مستويات لغوية مختلفة. بناء عليه، سيتعلق الأمر بتحديد أي مستوى سنختار، مع الأخذ بعين الاعتبار بالطبع الجمهور الذي نرغب في الوصول إليه. وتدخل في جملة الشروط شخصية ذلك، أو أولئك

الذين تتوجه إليهم، ومعرفتهم باللسان المستختم. ولكي نعرض التجربة نفسها، فلن تتوجه بالكيفية ذاتها إلى شخص أدرك الجامعة وإلى آخر لم يعرف المدرسة يوماً.

عندما عدت إلى فرنسا بعد غياب عشر سنين في أميركا، قمت في هذا الصدد باستنتاجات يمكن أن تكون ذات فائدة، فلدي انطباع عندما أكون اليوم إزاء شبان فرنسيين دون الخامسة والعشرين، أن باستطاعتي غرض النظر عن الفروقات المتعلقة بمستوى ثقافي معين. بمبارات أخرى: هناك نوع من تأخيد للثقافة، مما يؤدي إلى أنني لا أعنى، لدى توجهي إلى شبان فرنسيين، بتمييز كلامي حسب الطبقات الاجتماعية. عليّ على الأرجح أن أعتبر، بسبب أنهم لن يعرفوا ولن يطابقوا أبداً ما كان بالنسبة إليّ عملة رائجة عندما كنت ولداً. ولكن هناك، فضلاً عن ذلك، كثيراً من الأمور التي يعرفونها والتي لم يكن بمقدوري الإلمام بها في ذلك اللسان. إنني أتحقق من وضع واقعي، نصفه أحياناً، على أنه تعميم للثقافة، ولكنني أصفه بالأحرى على أنه نشر للديمقراطية في المجتمع. كل هذا يوضح، إلى حد ما، شروط استخدام اللسان: إنني أرغب في نقل تجربتي إلى فلان من الناس: ماذا عليّ أن أقول له؟ كيف سأترجمه إليه نظراً إلى ثقافته، وإلى المفردات التي بتصرفه... إلخ؟

بالإضافة إلى ذلك هناك المقام كله، في المعنى الأعم للمفردة، فالمباراة لن تكون ذاتها حسبما نتكلم في الشارع وسط الأوتوبيسات التي نمر حولك في كل برهة، أو لو كنا نتكلم بهدوء في غرفة استقبال منفردين، من دون ضجة، ودون تدخل من أي نوع كان، ودون أي شيء يمكن أن يعكّر تبادل التواصل. الشخص إذاً: إن مجموع الدوافع والشروط الخاصة، الشخصية أو المقامية، ينبغي أن يعدل بالضرورة في اتجاه الطريقة التي ستستخدم بموجبها أداة

التواصل^(*)، اختيار مقدرات لسان ما، اختيار الأشكال النحوية، نقاء، التطق عمومًا، تحسين خاص، كل هذا يمكن أن يبدو مبتذلاً جداً، ولكنني اعتقد أن من الضرورة بمكان التذكير به، فمن دونه لن نفهم أبداً ما هي اشتغالية لسان ما. إنه ليس نتاجاً متناهياً، بل إنه شرط.

إن كل الشروط التي عدتها للتو يمكن، والحالة هذه، أن تتغير من لحظة إلى أخرى، يمكن أن تعدل إذا السلوك اللغوي للمتكلم نفسه؟ ولكن هذه التعديلات عمومًا، لن تؤثر بطريقة دائمة باللسان المستخدم، فصحیح أنه إذا ما توغلنا جداً وتذكرنا صيغة نظرية التواصل، التي تتعلق بموجبيها قيمة المفردة وإبلاغيتها بتواترها، يمكننا القول إنه عندما نستعمل كلمة، مرةً، فنحن نعدل اللسان، لأننا، بهذا الاستعمال عدلنا، بالتأكيد، بطريقة محدودة جداً، تواتر هذه الكلمة^(**). ربما يبدو هذا دعابة، ولكنه ليس كذلك، إننا نعلم جيداً أننا لا نولي اهتماماً لكلمة تُرَدُّ غالباً جداً، وإنه لو أردتم أن تحركوا انتباه الآخرين فسينبغي عليكم إيجاد مفردة أخرى. هناك إذا تعديل لكمية الإبلاغ. ولكن هذا التفسير قابل للانعكاس: ففي مقام آخر، بمقدورنا أن نستخدم هذه الكلمة بإبلاغها الأولي. وواضح مع ذلك أن تعديلاً للمحاجات العامة للمجتمع، وتعديلاً للمستوى الثقافي - وهو ما بينته لكم بصلد شباني الفرنسيين دون الخامسة والعشرين من أعمارهم، كل هذا يمكن أن يعمم التعديلات الإبلاغية التي أشرت إليها للشو. لن يكون هناك مطلقاً واقع متمزك خاص، قابل للانعكاس، يصلح لمقام ولا يصلح له بعد قليل. هذه التعديلات متواترة بوجه خاص، في أحد الاتجاهات عندما يكون المجتمع قد

(*) هي الوسيلة التي يتم بها التواصل.

(**) كثر مارتيه هذا الرأي خلال الحوار الذي أجرته معه، انظر: الفكر العربي،

المجلد 66 (تشرين الأول/أكتوبر - كانون الأول/ديسمبر 1991)، ص 218.

تغير، لأن حاجته تغيرت، لأن الشروط العامة للحياة قد تغيرت. من ذلك، نستنتج ما يمكن أن ندعوه إبدالات لاتراجعية. لن يكون بإمكاننا مطلقاً الرجوع إلى الوراء. بمقدورنا عندئذ القول إن اللسان تغير. عند ذلك، نترك ميدان التزامية كي ندخل ميدان التعاقبية.

إن الواقع الذي نبتغيه، عندما نكون في نطاق التزامية، وهو العمل بدينامية، لا ينبغي أن يعني أننا نستبعد التضاد بين التعاقبية والتزامية، فالتعاقبية تظهر منذ اللحظة التي يقوم فيها إبدال لاتراجعي. وتستغرق الإبدالات وقتاً كي تصبح لاتراجعية كلياً. هوذا مثل: فليكن الصائت /i/ الفرنسي في كلمة (paille) «قش»، على سبيل المثال. إنه ينتج في جزء كبير من تطور ما، انطلاقاً من لام حنكية (-ill-) palatal /j/، مثل (je) في الإيطالية، ومثل (li) في الإسبانية، ومثل /h/ في البرتغالية. يمكننا القول إن التغيير الذي أدى، أو حوّل هذه الـ /j/ إلى /i/ هو اليوم لاتراجعي. في الواقع، نحن لا نتيقن أبداً كيف بمقدورنا أن نحكي هذا الفونيم الذي لا يمكن لفظه من قبل فرنسيي اليوم. إن بإمكان لساني مثلي أن يحدثه، ولكن فرنسياً عادياً لا يقدر كلياً على ذلك. بمقدورنا أن نبرهن أنه لو بحثنا جيداً، لربما أمكننا العثور، في الأقاليم النائية، على فرنسيين يحسنون نطقه. ولكن بإمكاننا غرض النظر عنه، لأن المقصود بالتأكيد بواق وأثار غير قابلة لأن نُقلد مطلقاً.

وبالمقابل، ففي الإسبانية، حيث تحولت /j/ (= ll)، عند العديد من المتكلمين، إلى /z/، يوجد إلى الآن كثير من الأشخاص الذين يحتفظون بالنطق التقليدي، ولن نشهد إمكانية انعكاس الميل إلى تحويل /j/ إلى /z/، فاللاارتدادية ليست إذاً مكتبة.

حالة أخرى يمكن أن نستحوذ على انتباهنا: تحوّل /ki/ السويدية إلى /ti/. وهو اليوم تحوّل لاتراجعي، فالبرهان هو أن السويديين حينما يقترضون كلمة تحتوي /ki/، فهم يحتفظون بـ /ki/. ومن الآن فصاعداً، فالسويدي يملك فونيم /t/ الذين لا تربطه أي

علاقة بـ /k/ . لقد حدث انفصال وظهور لإمكانية جديدة جعلت من تحول الـ /k/ القديمة إلى /tʃ/ واقعاً تاريخياً. وإزاء هذا الانفكاك حدث ترابط. وقد أثبتت الظاهرة نفسها في الدانماركية، حيث يقوم تغوير (palatalisation) لـ /k/ الواقعة قرب كل الصوائت الأمامية. ولفترة طويلة، دُون اسم مدينة كوبنهاغن (københavn) بدل الشكل الحالي (københavn). نحن اليوم نقول /kø.../، ولكن في زمان ماض كنا نلفظ /tʃø.../ . ومع ذلك، فإن هذا التغير بقي قابلاً للانعكاس، واستبعد في نهاية الأمر. ولا يوجد اليوم دانماركي يقول شيئاً مخالفاً لـ /kø.../ إلا في عداد الأشخاص الذين يتكلمون ب لهجات تنمهي باعتبار أنها شيء مغاير للدانماركية الثابتة.

لقد غوّرت أغلب المحركات المتحدثة من اللاتينية الـ /k/ الواقعة قرب الصوائت الأمامية. وقد تمثل النتاج في فرنسا في الـ /tʃ/، كما في (clité) «مدينة» أو (cent) «مئة». ولكن الفرنسية عرفت في ما بعد تغويراً جديداً نتج عنه اليوم الـ /tʃ/ كما في «حصان» (cheval) (>) (caballum) حيث كان الصائت الأول /a/ يلفظ /æ/، أو «صُلب» (échine) / (stino >). وعندما ننظر إلى خرائط الأطالس اللغوية، نستج أن منطقة هامة من شمال فرنسا يبدو أنها لم تتأثر بهذا التغوير الجديد، وهذا يلائم جزءاً من النورماندي والبيكاردي. إلا أننا نعلم أن التغوير كان قد أثر مع ذلك بالبيكاردي، ولكنه ما لبث أن تراجع. لدي نظرية مفادها أن هذا التغوير ذو منشأ فريزي^(*) (frisienne)، فالتسربات الفرنجية الأولى يبدو أنها تحققت مع جيوش كان قوادها من الفرنجة الذين جُندوا - في ما هو اليوم

(*) اللسان الفريزي: أحد الألسن الجرمانية الغربية الدنيا، وهو بذلك ينتمي إلى العائلة الهندو - أوروبية، وهو شديد الشبه بالإنجليزية القديمة، كما إنه مستخدم في شمالي هولندا. انظر: معجم علم اللغة النظري (إنجليزي - عربي)، ص 99.

هولندا - جنوداً فريزيين. وقد تفرنجت هذه الجيوش في ما بعد.
بعبارة أخرى: تنامي عدد الجنود ذوي الأصل الفرنجي وذوي
المحكية الفرنسية، حيث لا يقوم تغوير. وقد حتم هذا تراجعاً للتغوير
بلغ مناطق حيث كثافة الفرنجة هي الأكبر، ولا سيما اليكارد (Picard)
التي كانت على تماس مع المحكيات الجرمانية للفلاندر (Flandre)
والبرايان^(*) (Brabant). أرجو أن تعذروا هذا الخروج التعاقبي عن
الموضوع.

وفي مجال آخر، نصادف في الفرنسية تغيراً لاتراجعياً يتمثل في
استحالة استخدام الأفعال في صيغ فعلية للمعلوم دون إضافة الضمائر
الشخصية إليها. وسبب هذه اللاتراجعية بَيِّن: فلو لم نضع قط
الضمير، فلن نفهم مطلقاً، ذلك أن ضمائر المفرد الثلاثة متطابقة
شفهياً هموماً. ويعني كل هذا في النهاية أن التغيرات اللغوية تنتج عن
اشتغالية اللسان موضوع البحث. أوضح الأمر قائلًا: إن لساناً ما يتغير
لأنه يعمل، وفي المرة الأولى التي استخدمت فيها هذه الصيغة تولد
لدي شعور بارتكاب تناقض، ولكنني مفتتح اليوم بأنها تصلح مئة في
المئة. إنه قطعاً نقيض ما تخيله سابقونا وأكده، فبالنسبة إليهم كان
لسان ما غير ممكن التحديد على نحو باهر. بعد ذلك، ولأسباب
نجهلها، بدأ هذا اللسان بفتة يتشوش بتغيرات وإبدالات. وقد تلت
بعد ذلك فترة قمنا خلالها بمجهود لإصلاح لائحته. كل هذا لا
يستمر أبداً، فاللسان يتغير باستمرار، إنه يتغير ربما بشكل أسرع في
أوقات معينة، لأن المجتمع يتطور بشكل أسرع. وعلى سبيل المثال،
فالتغيرات تتم حالياً بوتيرة عاجلة وعاجلة جداً، لأن التغيرات
الاجتماعية عاجلة. إن إيقاع هذه التغيرات ليس له مقياس مشترك مع
ذلك الذي كان لثلاثين، ولخمس مئة خلت، أما والحالة هذه، فإن

(*) مقاطعة في بلجيكا.

لساناً ما يتغير لأنه يتلاءم باستمرار مع احتياجات مستخدميه، إنه يتغير دون أن يتوقف عن العمل ولأنه ينبغي أن يعمل بشكل جيد. وهذا يعني أن وصفاً تزامنياً، وتزامنياً خالصاً لو رُغِبَ فعلياً في أن يكون مرضياً، يجب أن يأخذ بعين الاعتبار دينامية اللسان.

كيف نقوم بهذا العمل؟ لقد ذكرتُ منذ قليل أنه لو رأينا في اللسان نتاجاً، فهذا مرده بشكل أساسي إلى أننا لكي نعمل على لسان ما، فنحن نسجله ونكتبه كتابةً فونولوجية. كيف نتقضى هذا الحكم السبقي ونعرض للدينامية؟ ليس من السهل أن نعرض لها مباشرة، فعبارة ما بعد ذاتها لا تعطي توجيهاً حول الدينامية، حول التغيرات الجارية. وهنا أيضاً، ينبغي أن نلجأ إلى مجابهة العبارات المختلفة. يمكننا القيام بهذا الأمر بطرق مختلفة. بإمكاننا دراسة استخدامات فرد بذاته خلال فترات مختلفة: سنسجل استخدامات فرد بذاته خلال فترات مختلفة: سنسجل الاستخدامات هذه السنة، والسنة المقبلة، وفي غضون عشر سنين، وسنبين الاختلافات. يمكننا أن تأخذوا عليّ أننا نعتمد إلى ذلك بطريقة تعاقبية. مساجيب بأنها ليست من التعاقبية مادامت التغيرات المثبتة هي تغيرات قابلة للانعكاس. وما دمتم تتحققون من تطور جاري بشكل أن لا شيء يمنع أن يكون بمقدوره الانعكاس، فهاكم مثلاً: كلمة طبيب (*médecin*). تعلمون أن الكلمة كانت في ما مضى تلفظ /med = sɛ/ مع الصائت المحايد /ə/، ومن ثم فقد ضمفت الـ (e muet) (الصائت غير الملفوظ)، فقلنا /medsɛ/، ومن ثم في النهاية قلنا /mɛtsɛ/. وهنا يعني أنه كان هناك توقع تدريجي لهمسية (*sourdité*) الصامت /s/، مؤثراً أولاً بالصائت /ə/، ومن ثم بالصامت /d/ الذي تحول إلى [d]، ومن ثم تحول، متعزاً، إلى الصامت /t/.

في الفترة التي درستُ فيها بانتظام في كلية الآداب بباريس،

تسلّيت بالقيام باستقصاء محدود بين مستمعي: سألتهم إذا كانوا يعتقدون أنهم يتلفظون بكلمة (*médecin*) مع /d/ أو مع /t/. وقد أظهر منحنى بياني موضوع خلال عشر سنين تناقصاً ثابتاً في عدد أولئك الذين ادّعوا التلفظ بـ /d/. وكانت العينة، بأجوبتها السنوية التي فاقت المتتين، كافية لتأكيد قيمة ما للاستقصاء. ولكن كل ذلك قابل للانعكاس. ثقة ردة فعل ممكنة في فترة «تراجع» نعيشها حالياً، حيث نبحت مجدداً الحداثات. ومن الممكن أن تكون قد حدثت عودة إلى تلفظات تستند إلى الرسم الإملائي. لو جددنا اليوم هذا التحقيق الصغير، ألن نتحقق من تراجع، إن لم يكن على الأقل نبطنة؟ لن أهدي رأيي أبداً حتى أوضح ببساطة ما أدعوه إمكانية المعكوسية. مادام هناك أشخاص يتلفظون بـ (*médecin*) بالطريقة التي أتلفظ بها، ومادام هناك أشخاص يحسبون حساب ضبط الكتابة، فشمة إمكانية للعودة إلى الوراء. إن ما يمكننا القيام به إذا بهذه الطريقة، هو السعي إلى تعيين ما إذا كان هناك تطور جارٍ. وبإمكاننا القيام به لدى فرد ما. ولقد تحققت من أنني قمت في سن الرابعة والعشرين باختلافات لم أجد أقوم بها في سن الرابعة والثلاثين، ففي الرابعة والعشرين كنت أميز من حيث الطول بين (*sûr*) «أكيد» و(*sure*) «أكيدة». وبين (*filles*) «ابن بالمعمودية» و(*fillette*) «ابنة بالمعمودية». وفي الرابعة والثلاثين لم يعد هناك أثر لاختلاف نظير. إن الطريقة الأخرى الأكثر بساطة، وربما الأكثر مباشرة في إثبات دينامية اللسان، هي في جمع المعلومات من خلال جمهور متجانس لجهة اللسان المستخفم، ولجهة المستوى الاجتماعي والثقافي. ولكنه متغير لجهة السن. لقد أجريت، مع زميلتي وصديقتي هنرييت فالتر (*Henriette Walter*)، تحقيقاً بمساعدة كثير من الزملاء الشبان، إضافة إلى طلاب متقدمين ورواة لغويين مخلصين، حول التلفظ بالفرنسية. كان لدينا لتاريخه قواميس تتعلق بنطق الفرنسية، ولكن هذه

القواميس كانت تعرض التلغظات دون أن تبين مصدر المعلومة. لو أخذتم واحداً من هذه القواميس وأصغيتهم إلى الفرنسيين وهم يتكلمون، مستحقون فوراً أن نسبة واحد إلى خمسة أشخاص لا يتوافقون رأياً مع نطق القاموس.

في عام 1934، كنت في كوينهاغن وطلب إليّ إلقاء محاضرة في «جمعية دراسات الفرنسية» في جامعة المدينة. ولما كنت آنذاك أقرأ كتاب الرجال ذوو الإرادة الطيبة (*Les hommes de bonne volonté*) لجول رومان (Jules Romains)، فقد عرضتُ لهم محاضرة حول فن جول رومان، تركتُ موضوعها برودة لدى قسم من الحضور. في كل الأحوال، نسيتُ لي أن أقبل لاحقاً اثنين من مستمعي اللذين لم يكونا مهتمين بشغف بما قلته حول جول رومان، بل كانا قد بيّنا خمسة وثمانين خطأً نطقي خلال محاضرتي. وأنتم، من نستمعون إليّ، افعلوها كذلك لو رغبتم. «أخطاء النطق» هذه كانت بالتأكيد تلغظات لا تتوافق أبداً مع تلك التي كانت قد لُفنت لهم في المدرسة، وقلدت من دون شك تلك العائدة لبضعة قواميس. لقد اقترفتُ إذاً خمسة وثمانين «خطأ» في خمس وأربعين دقيقة.

وكي نعرف أي «أخطاء» اقترفتُ الناس، جمعنا معلومات من سبعة عشر راوياً لغوياً. كنا قد نتوقع ستة وعشرين منهم، كعدد حروف الأبجدية، ولكن تخلفات حدثت، فكانوا سبعة عشر. تراوحت الأعمار بين الواحد والعشرين والثمانين ونيف، وكان لدينا عينٌ عمر مناسبة بشكل كافٍ. عرضنا في القاموس تقديماً سكونياً للأحداث: لقد أشرنا فيه بواسطة حرف صغير إلى «مَنْ» (qui) نطق به «ماذا» (quoi)؟. ولكننا لم نستخلص منه أي شأن في ما يتعلق بدينامية اللسان. أما هنرييت فالتير، التي استعادت الوثائق نفسها، فقد أبرزت فيها الدينامية، إنه لأمر سهل جداً، نأخذ الأصغر سناً، ومن

ثم الأكبر سناً، ونرى ما تفعل أغلبية صغار السن وأغلبية كبار السن. تكون الفروقات في بعض الحالات ضعيفة نسبياً وغير بليغة، وفي حالات أخرى، يكون الأمر واضحاً، جلياً ودقيقاً. ثمة وجود لظاهرة من جهة وغياب من جهة أخرى.

دراسة أخرى حققتها إحدى زميلاتنا الشابات، كارولين بيريتز (Caroline Peretz)، حول التلغظات الباريسية، بواسطة عدد كاف جداً من الرواة اللغويين من طبقات اجتماعية مختلفة. لقد توفر لنا هنا توافق لعاملين، أو لثابتين، كما نقول بلطف مبالغ، وانتهينا إلى نتائج هامة جداً. عندما يكون المقصود التباساً فونولوجياً - وأشدد على فونولوجي - فطليعيو التغيير هم سكان الضاحية الشبان، أما أولئك الذين في المؤخرة فإنهم البورجوازيون المستثون. إنه جلي، إنه واضح، وأشدد على حقيقة أن المقصود هو ترك التمييزات الفونولوجية. وهذا لا تكون له مع التحقيقات الصوتية أي علاقة، لأنها بالمقابل تبدو مفروضة من قبل الاستخدامات البورجوازية. التلغظات الزبضية زالت، أو هي في طريق الزوال، وثمة تقابل، والحالة هذه، موسوم جداً، بين التحقيقات الصوتية للطبقات المعروفة بحفظاتها والتي تميل إلى تقلبها، لأن ذلك «يشعرنا بالأفضل» من جهة، وبين القبول اللاوامي للباس محضر بهوء من خلال تقريب لتلفين لا يلحظهما أي كان فعلياً، لأن هذا القبول لا يحدث إلا إذا استبعد أي خطر التباسي، وسكان الضاحية الشبان، الأقل إحاطة من قبل ذويهم، والأقل إنجازاً دراسياً، يكتسبون متأخرين، أكثر فأكثر، التمييزات ذات المنفعة الضئيلة، وفي النهاية هم لا يكتسبون مطلقاً.

باستطاعتنا أن نوضح الأمر أيضاً على مستويات أخرى. إن تجريبي الطويلة نسبياً، نظراً إلى سني، تحتني على التفكير أن هناك

اليوم في المعجم الفرنسي بقايا لا يمكن استعانتها، لم تكن على هذه الحال خلال طفولتي. هناك بالطبع كلمات لم تعد تُسمع أبداً ولن تظهر ثانية مطلقاً. إنه دوماً أقل سهولة أن يكون المرء حازماً في صدد مفردات اللغة، لأن هناك القواميس والأدب، ولأنه طبعاً أن يكون بإمكاننا، بعد قراءة أثر أدبي قديم بعض الشيء، أن نعرض للتداول ثانية مصطلحاً زال من الاستخدام. وهنا بالذات تبدو التعقيدات التي تنشأ عن وجود تواصل ثقافي. فلنأخذ مصطلحاً كـ «الخوذة» (*heuzome*) للإشارة إلى نوع من القنسوات: إنه لا ينتمي أبداً إلى اللغة اليومية، ويمكننا تقريباً القول إنه زال من الفرنسية، ولكنه يبقى ممكن الاستعادة.

اعتقد أنكم تستشفون كيف تعمل المعلومة في صدد دينامية لسان ما: فمصطلح ما يكون لديه وفرة من المعلومات هو مصطلح نادر، ومصطلح ما تقلّ لديه المعلومات هو مصطلح متواتر. هذه العلاقات آلية، ولكن ما هو أقلّ آلية يتمثل في العلاقات التضمينية لهذه المعلومة على شكل الكلمة، عندما تصبح كلمة ما في المعنى الأكثر بساطة للمصطلح متواترة، فالشكل نفسه للكلمة يميل إلى أن يصغر. ليس بمقدوره أن يصغر محتقراً ما دعونه في الماضي «القوانين الصوتية» إن بإمكانه أن يُختزل بطريقة أو بأخرى، ومن البديهي القول إن التلامذة الذين يعيشون باستمرار بحضور أساتذة لن يستخلصوا ثلاثة مقاطع للإشارة إليهم، بل سيقولون (*prof*) بالضرورة، وسيكون هذا الأمر آلياً. ولكن بالمقابل، عندما تصبح الكلمة أكثر ندرة، فهي لن تتعرض للإطالة، إنها متخففي حنف أنفها. ولا أعرف أي مثال حول كلمة قلّت كثافتها وتعزّزت فعلياً. في عهد الثورة الفرنسية، أحيلت مواطنة باريسية إلى المحكمة الثورية، وقد اتهمت بأنها قالت بوجوب «وجود» ملك [rwe]، فدافعت عن

نفسها، مظهرة أن ما اعتبرته ضرورياً ليس أبداً [rwe]، مثل (Capet)،
بل بالأحرى (rouet) «حولات المغزل» اللازم لغزل الصوف. وتعلمون
بأننا كنا في الماضي نقول [rwe] للملك، لم يكن هنا سوى اليازيقي
السوقي يلفظ [rwa].

أود العودة إلى الطريقة التي تنظم بموجيها وثائقنا من وجهة نظر
دينامية. إنه موضوع يختلف قليلاً عن ذلك الذي عالجتُه لتاريخه،
ولكنني لا اعتقد دائماً بإمكانية إعفاء نفسي من أن أقول بضغ كلمات
حول تراتبية الأحداث في اللسانيات الوظيفية. تقوم هذه التراتبية طبعاً
على قاعدة الوظيفة، إنها تلك التي باشرت بإقامة تمييز بين علم
الأصوات والفونولوجيا. هنا، الأمر بسيط وجلي. لديكم ملاءمة
تمييزية تسمح لكم بتوضيح حدث ما، على أنه ينتمي إلى
الفونولوجيا، وما لا يخضع لهذه الملاءمة التمايزية، وما ليس مخبياً
بهذه الملاءمة التمايزية يبقى في ميدان علم الأصوات. ولكننا منفيض
في الأمر إلى ميادين أخرى، مثل ميدان الوحدات المعنوية. إن ما هو
حاسم وملائم في هذا الميدان هو إسهام الوحدة في فهم الرسالة،
أي مدلولها. ومن ناحية أخرى، تقع فيها على عناصر ليست ملائمة
بالنسبة إلى الرسالة: إنها بدائل الشكل العائد لكل وحدة. بعبارة
أخرى: ما إن تكون الوحدات المعنوية (المونيمات) متطابقة، فما هو
ملائم بالنسبة إليها إنما هي قيمتها المدلولة. هناك بالطبع فترات
عديدة في العملية التي ينبغي تنفيذها انطلاقاً من المدونة. هناك فترة
أولى من الضروري خلالها أن نحسب حساب الشكل، لأنه ضامن
وجود المونيم، فليس لبدائله الشكلية أي فائدة بالنسبة إلى الاتصال.
إنها، على العكس، تمثل تعقيداً غير ذي فائدة.

خفوا الحالة المغالية لصيغة المضارع المنصوب الفرنسية
(subjunctif). لماذا لا تصلح صيغة المضارع المنصوب عملياً لشيء.

في الفرنسية؟ لأنها بالطبع ليست مختلفة إلا عرضياً جداً عن الصيغة الفعلية الإخبارية (indicatif)، وبالتالي، ليس بإمكاننا الاعتماد عليها. وسبب هذا يعود بكثرة إلى أن الأطفال كان لديهم، على مر العصور، صعوبات جسيمة لتمييز صيغة المضارع المنصوب من الصيغة الفعلية الإخبارية، لأن أشكالها كانت غالباً شاذة وغير قياسية. وفلما يقوم الأطفال الصغار جداً إلا بالتقليد بطريقة ناقصة للأقوال التي سمعوها. وفي سنٍ لاحقة، يميل الأطفال إلى تشكيل أقوالهم بأنفسهم لأنهم انتهوا بواسطة استبدالات لاواعية إلى استخلاص للمونيمات، ولكنهم حينئذ لا يعلمون أبداً بعد متى ينبغي لهم استعمال هذا الشكل أو ذلك بالنسبة إلى المونيم نفسه: لماذا نقول بعد الضمير الشخصي الأول (Je): (va)، بينما نقول للمعنى نفسه، وبعد الضمير الشخصي الثالث للمذكر (il): (va)؟ سيكون طبعياً أن يمتلك كل رمز دالاً ثابتاً. غير إنه ليس هناك في التطبيق لسان يتحقق ذلك فيه بشكل كامل.

وتقترب الصينية بالتأكيد إلى حدٍ كبير من هذا المثال. والتركيب التي تملك سمعة جيدة في هذا الصدد، تُظهر مع ذلك بدائل للدال. ثرى ألا ينتج ذلك من واقع تناسق الصوائت؟ لقد بدأ الأمر طبعياً للناس الذين كانوا يتكلمون ألسناً هندو - أوروبية، بحيث إننا جعلنا الضرورة فضيلة. عندما أقمنا التقسيم الثلاثي المعروف جيداً بين الألسن التصريفية والألسن الالتصاقية والألسن المازلة، مع تدرج منحدر في هذا الترتيب. كان ذلك ببساطة لأن الناس الذين كانوا يتكلمون ألسناً يقال لها تصريفية، حافظوا، بعرقية^(*) (ethnocentrisme) محضة على افتتانٍ بهذا الركाम المرعب الذين تمثله الإعرابات الهندو - أوروبية.

(*) نزعة في الإنسان لرفع شأن قومه وبلده.

فكروا بما جرى في الألسن الرومانية: إن إعراب الاسم في اللاتينية غير متناسق قطعاً، لدرجة أنه انهيار. وقد تماسك الفعل بشكل أفضل، لأن الأشكال الفعلية كانت نسبياً بسيطة. وحيث لم تكن الأفعال المختلفة موافقةً وجدنا غالباً وسيلة لتوحيد ميزان التصريف، ففي صيغة المستقبل، على سبيل المثال، تم ذلك بواسطة الشكل الجديد المشتمل على الراء (r). وقد حذت الألسن الفردية هذا الحذو، ففي الفرنسية مثلاً، سرعان ما بسطنا إعراب صيغة الاستمرار (l'imparfait). ولكن صيغة الماضي البسيط (le passé simple) بقيت بأشكالها المتغيرة إلى: (a)، وإلى (ai)، وإلى (i)، وإلى (u)، وإلى (in)، لم نعد نعرف كيف نصرفها. وفي كل أطروحات دكتوراه الدولة التي تسنت لي قراءتها، عندما يظن المرشح المسكين نفسه ملزماً باستخدام ماضي بسيط، فهو يحظى ببعض نصيب في الخروج عن المعيار. وحتى بلوغي سن الخامسة والعشرين، لم أكن على معرفة بصيغة الماضي البسيط لفعل (couire) «خاط». ولو كان عليّ أن استخدمه لقلت (couine)، منطلقاً من اسم الفاعل (أو المفعول) (le participe). ولكن والدني الذي تخطيط بكثرة، زودتني بناءً على طلبي بالشكل الثابت (couire). ولا تتأني لنا الفرصة مطلقاً لاستخدام الماضي البسيط لفعل يشير إلى مهنة على شيء قليل من الاعتبارية مثل الخياطة المترية.

أعني به «علم الصرف» (la morphologie) دراسة الانحرافات الشكلية. ومن جهة أخرى، تكمن هنا القيمة الحقيقية لكلمة «علم الصرف»، فلو ظهر علم الصرف عند كلامنا عن اللاتينية، على سبيل المثال، بوصفه دراسة للتصريفات والإعرابات، فهذا يعني ببساطة أننا لم نجد شيئاً أفضل، في اللاتينية وفي اليونانية، لإبراز هذه الانحرافات سوى في إدراجها في ما نسميه الإعرابات والتصريفات.

عند التروى، لا ترى مطلقاً ما يمكننا أن نقوم به بصورة أفضل. لاحظوا أن هنا لا يتضمن أن علم الصرف سيكون دراسة الأحداث النحوية وحسب، علم نحو لاتيني يظهر لكم بحق، في علم الصرف أشكالاً أصلية مكتملة، مثل: (fero)، (tuli)، (latum). علم الصرف هو إذاً بقايا، أو أقفيل، هو اختبار البقايا المتروكة في اللسان من خلال الإشباع الناقص للاحتياجات المتناقضة، والتي منعت ضغوطات التقليد إزالتها من قبل الأجيال المتلاحقة للمتكلمين الشبان.

وبصدد الوحدات البليغة، فإن ما هو أساسي، يتمثل في علم النحو، حيث نجد فعلاً اللسان في عمله، فالنحو هو كيف نعبّر من خطية النص إلى شمولية المعنى. أنتم تفهمون، اعتقد، كم هو مشير للحزن أن نمذج كل شيء لدى استخدامنا المصطلح الكسول لـ «علم تراكيب البنى» (morpho-syntaxe). لا شيء أشد تخالفاً كمثال علمي الصرف (morphologie) والنحو (syntaxe): فمن جهة هناك البقايا، ومن الأخرى هناك الحياة.

نصل الآن إلى مشكلة المعنى. وهنا اعتقد أنه ينبغي التمييز بين فرعين دراسيين، فكما نميز بين علم الأصوات والفونولوجيا، ينبغي علينا التمييز بين «علم الدلالة» وشيء آخر، فالفونولوجيا هي دراسة الوحدات التمييزية التي تتقابل. على صعيد الدلالة، ينبغي أن يتوفر لنا فرع دراسي يعالج القيم الناشئة عن التقابلات. وقد أوجدت مفردة (axiologie) أو «قيمة» انطلاقاً من المفردة اليونانية (axia) التي تعني «قيمة»، فالقيمة هي إذاً دراسة القيم المدلولة التي تتقابل.

وعلى التقيض مما يخاله البعض للوهلة الأولى، فالقيمة لا تصفي علم الدلالة. وسيوضح مثل لكم الفرق: فالزمن الذي ندعوه

في النحو المطروسي الحاضري المركَّب (passé composé)، يوافق نمطين من المقامات، فإذا قلت: *j'ai fini* (أنا أنهيت)، فهذا منجز الحاضر *présent*، ولكن في جملة *j'ai fini hier à cinq heures* (أنهيت بالأمس عند الساعة الخامسة)، فعندي ماضٍ، إن جملة *il est mort* (هو مات) تدل على الحاضر، بينما جملة *il est mort le 12* (هو مات في 12 نيسان/ أبريل) تدل على ماضٍ. والأمر الهام للغاية، هو أنه ليس للمتكلمين الفرنسيين أي فكرة عن ثنائية الماضي المركَّب الفرنسي هذه، فهو الشكل نفسه بالنسبة إليهم. وعندما نظهر لهم الفرق يقولون: «آه، نعم، إنه أمر عجيب، إنه أمر غريب، بالفعل، نعم!» لاحظوا أن الفرنسي ليس منفرداً. وما قلته للتو عن الماضي المركَّب يصحّ بالنسبة إلى المنجز *parfait* اللاتيني: فهو قد كان حاضراً منجزاً وكان ماضياً. لو كان كل ذلك ممكناً، فذلك لأن الحاضر المنجز والماضي القريب *passé proche*، هما، تطبيقاً، الشيء ذاته. وأتمثل على ذلك: ذات صباح، خرجت نحو باب المنزل. سألت زوجتي: هل يبني لي أن أضع قماشاً صوفياً؟ فاجبتها ببساطة «المستترال هذأت» (*le mistral est tombé*) (وتعلمون أن المستترال ريح باردة). أطرح إذاً على نفسي السؤال: ماذا أردت القول هل إن المستترال توقف عن المصنف في برهة معينة خلال الليل، أم أن فكرتي كانت تعني غياب المستترال حالياً؟ كنت عاجزاً عن الجزم، لأن ذلك لم يكن يشكل أي نوع من الأهمية، ولأنني، اعتدت منذ نمومة أطفاري، على أن لا أقوم بتمييزات في هذه الحالة. إن كل الاعتبارات التي سبقت هي دلالية وليست قيمية، فالماضي المركَّب هو وحدة متفردة قيمية. ثمّة مونيم، أشير إليه على أنه المنجز، ويمتلك شكلاً في غاية الدقة^(*)، فالمونيم الفعلي والمونيم المظهري

(*) *insaisissable*: لا يُرى لو لا يقدّر لو لا يُترك.

يتقاسمان - ولا نعلم الكثير عن الكيفية - المركَّب *est tombé* (هدأت). إن تساوق اسم المفعول هو دعاية مبتلة. عن تساوق اسم المفعول مع فعل التملك *avoir* ربما يوافق حقيقة اللاتينية في القرن الثالث لمصرنا. وعندما تقولون^(*) «la lettre que j'ai écrite» المقصود ببساطة هو الصواب أو الرشاد. وعندما قال شيشرون *habeo litteras scriptas*، كان يعني القول: (رسالتي هنا، منجزة، فوق مكتبي) «ma lettre est là terminée sur mon bureau». وهذا سيراوَق في الفرنسية، لَدَيَّ رسالتي مكتوبة، *j'ai ma lettre écrite*، وهو يختلف تماماً عن *j'ai écrit ma lettre (hier soir)* كتبت رسالتي (بالأمس مساءً). ليس ثمة سبب للقيام بتساوق، في الحالة الأخيرة، لأن الماضي المركَّب يشكِّل كلاً مؤلفاً من جذر فعلي ومن موبم منجز. والمعنى يتغير بين منجز الحاضر والماضي.

تلاحظون، عبر الأمثلة التي وردت، أن ثمة إمكانية، بصدد المعنى، للعمل بالقيمية حيث نقابل وحدات موضوعية جيداً، كما للعمل بعلم الدلالة، الميدان الذين ندرس فيه فعلاً التأثيرات المختلفة للمعنى، والتي بإمكاننا أن نبينها لدى الوحدة نفسها. إن المبدأ الذي تستند إليه كل هذه الدرجات هو مبدأ الملاءمة الذي عُرض من قبل كارل بيهلر (Karl Bühler)، في فيينا في العشرينيات، ومبدأ الملاءمة هو الذي تستند إليه اللسانيات الوظيفية كلها. ولكنه هو الذي أشرف أيضاً، لاشعورياً، على قيام كل علوم الطبيعة أو العلوم الإنسانية. يتميز كل علم من خلال اختيار يضع ميزات لمواضيعه، وبدرجة أقل لجهة اختيار هذه المواضيع. ويتأسس كل علم على ملاءمة. ونقدّر،

(*) أي إننا لا نولي موضوع التساوق اهتمامنا، فنسقط بالتالي الصائت *-e-* في آخر

اسم المفعول *-écrit*.

نحن في اللسانيات الوظيفية، أن الملاممة هي الملاممة التواصلية. هذا لا يعني أنه لن يكون بإمكاننا أن ننظر في وقائع اللغة من وجهة نظر ملاممة مغايرة. إنني أتخذ دائماً حالة مغالية ساخرة إلى حد ما. ببساطة، كي أعين جيداً ماذا يمكن أن يكون هذا الأمر. إن بإمكانكم أن تعتبروا الألسن، لا من وجهة نظر الاتصال، ولكن من وجهة نظر استخدامها من قبل مغني الأوبرا. سيتمكنكم إذا القيام بدراسة حيث ستمصفون الألسن تبعاً لقيمتها نسبة إلى مغني الأوبرا. سنحل الإيطالية، بوجه الاحتمال، في أعلى مرتبة. إن للإيطالية خصائص صوتية يبدو أنها معينة، خصوصاً، لمغني الأوبرا: نظام صوائت غني، وعدد من السمات التي ينبغي بدقة تحديدها. بإمكاننا إذا اختيار ملاممة أخرى غير الاتصال، ولن يكون الأمر سخيلاً. ولكن بالطبع ليس هذا النوع من الأمور هو الذي يبدو لنا مهماً من وجهة نظر اللغة. لقد قررنا اعتباطياً أن الملاممة التواصلية هي التي ستهتمنا، ببساطة، لأننا نعلم، على أساس تجربتنا، أنها هي التي تحدد اشغالية اللسان ونظوره.

ما يمكن استنباطه من المناقشة

إلى الرئيس، السيد فاردار (Vardar)، الذي ذكر بأن القيمة كانت قد عُرِضت كدراسة للتضادات في لسان معين، بينما يبحث علم الدلالة في المعنى بشكل عام - كما هو حال الفونولوجيا التي تعالج الوحدات التمييزية للسان مخصوص، بينما يهتم علم الأصوات بأصوات اللغة بشكل عام - والذي سأل إذا ما كان باستطاعتنا أن نبصر في قيمة عامة.

إن بإمكاننا بالطبع التكلم عن قيمة عامة كما عن فونولوجيا عامة، عن مبادئ عامة للقيمة كما نتكلم عن مبادئ عامة

للفونولوجيا. ومن جهة أخرى، ثمة بلا ريب علم دلالة عام حيث تقع على المبادئ التي جلاها واضعو علم الدلالة. وقد سعى علم الدلالة، منذ انطلاقه، بكثرة ملحوظة إلى إيجاد سيورات عامة لتطور المعنى. بطبيعة الحال، لا شيء يمنع من إدخال اعتبارات قيمية في علم الدلالة هذا، أي الاعتبار، من خلال التطور، للعبة التضادات بين المونيمات وبين مفهوم النظام. إنه بعض الشيء الموقف في علم الأصوات. إن مفهوم علم أصوات عام هو أكثر وضوحاً بهذا المعنى لجهة أننا نقع فيه على دراسة طرق النطق الممكنة بغض النظر عن كل لسان خاص. بينما يمكننا بصدد الدلالة القول إن علم الدلالة، هو المالم بأسره، فهو مجمل تجربتنا عن العالم. اعتقد أن ثمة موضعاً لدراسة عامة للسيورات التطورية، فلو بحثنا، على سبيل المثال، في تحديد كيف تحدث تسميات الأشياء. عندما تتوفر أصول كلمات تعود إلى زمن غابر، نتأكد من أن الشيء، غالباً يُسمى وفق إحدى وظائفه: الحجر، مثلاً، هو ما يوقف دولا ب العربة. والأمر كذلك، عندما نراقب الإشارات التي يشكرها الصم والبكم للدلالة على الأشياء، فالبقرة هي ما يُحلب، والإشارة هي تلك التي ليدين تحلبان بالتناوب ضرعين مفترضين. عندما تكلمت عن القيمية، أعطيت الانطباع باستنفاد علم الدلالة. إننا نطلق فكرة جديدة ونشدد بالطبع على ما حصرناه، لا على الباقي. ولكنني اعتقد أنه كما تكلمت عن علم أصوات تمييزي، ذلك الذي دُشن من قبل بيك (pikc) في كتابه (Phonetics)، حيث استعرض كل الإمكانيات النطقية مشيراً إلى تلك المائدة لنفس العضو والتي تميز كفاية كي يمكن استخدامها لقوياً، فكذلك الأمر، يمكن قيام دراسات تتعلق بعلم الدلالة القيمي، يمكنكم، بغض النظر عن كل لسان، أن تطرحوا عدة سمات: أولاً الشخص الذي يتكلم (المتكلم)، الشخص الذي نكلمه (المخاطب) وشخص آخر (الغائب)، إذاً ثلاثة أشخاص. ومن

ثم المفرد والجمع (وكي لا نعتقد، لا أضع المعنى). ستطرحون على أنفسكم من ثم السؤال لمعرفة كم يمكن أن يكون هناك ضمائر فيما لو نفذنا التنظيمات المحتملة؟ لقد قمت بالعمل. ثمة سبعة عشر. ستقولون لي لماذا سبعة عشر؟ لأن «نحن» ليست جمع «أنا»: نحن ليست أنا + أنا، ولكنها أنا + أنت، أنا + هو، أنا + أنت + أنت، أنا + هو + هو، أنا + هو + أنت، أنت، أنا + أنت + أنت، أنا + أنت + أنت + أنت + هو. نفهم هنا أن التكرار للسمة نفسها يوافق «الجمع»، ليس المقصود القيمة بحصر المعنى، لأننا لا نعالج لساناً معيناً، ولكننا نعمل مع ذلك بواسطة كميات ممكنة التقابل.



إلى الرئيس، السيد فاردار، الذي بين الطابع الاستنباطي للعملية وذلك بأن ابتكار مفهوم القياسية سمح بملء، الخانات الشواغر لترسيمه العلوم اللسانية المقدمة في اللسانيات التزامنية⁽³⁾ (*linguistique synchronique*): إننا نعطي لأنفسنا في الواقع نقطة انطلاق، ننكب على تمرين استنباط سيصبح لنا، بشكل أسهل، قبول ببنى غير متوقعة كالتضاد بين عازل أنا + أنت وبين استيعابي أنا + هو. لقد تخيلت التضاد بين علم الدلالة/القيمة انطلاقاً في الواقع من التضاد بين علم الأصوات/الفونولوجيا. وقد عارضني البعض: «لماذا القياسية، علم القيم؟ فالفونيمات أيضاً هي قيم». هذا صحيح، ولكن فلنعترف أننا لدى كلامنا عن القيم، فالقيم التي نعني هي بالأحرى عموماً القيم المدلولة. إن إحدى المآخذ التي وجهت إلى قياسية هو في أن المصطلح مستخدم في الفلسفة. ثمة

André Martinet, *La Linguistique synchronique* (Paris: PUF, 1965), p. 25. (3)

مدرسة فلسفية للدراسة القيم الأخلاقية... إلخ، ليست لها أي علاقة بقيميتنا. ليس هناك أي خطر للبس... لقد كنت مستعداً لتعديل المصطلح فيما لو أظهروا لي آخر يماثله سهولة في الاستعمال. ولكن من الآن، استعمل أناسٌ قيمية، وقد لربطنا بالاستخدام الذي قام به آخرون لمصطلحاتكم. عندما عدت من أميركا عام 1955، فكرت أنه كان من اللازم ابتكار مصطلح: مونيم (*monème*) لتعيين الوحدة الدنيا ذات الدلالة، ولكي أحتد بعدي إزاء المورفيم (*morphème*) البلومفيلدي^(*) (*bloomfieldien*). ولكنني كنت أتوجه إلى فرنسيين، ودون أن أفكر ملياً بترجمات متوقعة، وخشيت أن يكون هؤلاء الفرنسيون قد تأثروا بالمصطلحية التقليدية التي تميز بين المورفيمات أو الوحدات النحوية الدنيا، والمداليل (*sémantèmes*)، أو الوحدات المعجمية. وبما أن هذه المصطلحية بدت أنها تتضمن أن المورفيمات النحوية لا معنى لها، وهذا أمر مخيف، لم أستطع الاحتفاظ بـ «مدلل» (*sémantème*)، واقترحت إذًا (*lexème*) لكسيم / مفردة مجزأة للوحدة المعجمية واحتفظت بمورفيم للوحدة النحوية. لقد احتفظ اللسانيون الذين قاموا بدراسات وصفية تحت إشرافي، ولا سيما العلماء المستشرقين^(**) بهذا التقابل بين مورفيم ولكسيم، وأقاموا عليه تقريباً أساس وصفهم. وقد أزعجني كثيراً هذا الأمر، لأنه من جهتي، فالسنوات مرت متتابعة، ووجدت أنه لا ينبغي التمييز باكراً جداً بين النحو والمعجم، فلم أستخدم مطلقاً «مورفيم». ولكنني بطبيعة الحال، سأنتقد، على مضض، مستشرقين الذين كان لديهم أسباب وجيهة جداً للقيام بما قاموا به: وعندما نكون اختصاصيي لسان عام، تكون لدينا احتياجات مصطلحية خاصة متعلقة

(*) نسبة إلى بلومفيلد.

(**) africaniste: مستشرق (عام بالأكس أو الثقافات الأفريقية).

بالبنية ذاتها للألسن التي تدرس، فنحن نسعى، انطلاقاً من مصطلحية
تعرض عليكم، إلى القيام باختيارات خاصة بتقديم أفضليات،
وبالتأكيد على بعض السمات. انطلاقاً من هذه الملحظة ليس هناك من
تساوق مع الآخرين الذي كانوا قد قاموا بخيارات أخرى، وذلك
لأنهم يعالجون ألسناً مختلفة.

إلى السيد جوكسو (Göksu) الذي سأل ألم يكن مناسباً، في
تعريف اللسان، أن نضيف بعد «فونيمات»، التي تتعلق قيمها
بعلاقاتها المتبادلة، وسأل من ناحية أخرى، إذا كان باستطاعتنا
الكلام عن قيمة أو عن علم دلالة وظيفيين:

فملاً، إن مفهوم القيمة سيكتمل بشكل نافع ما قيل عن
«المحتوى الدلالي». ولكن علينا أيضاً التذكير بأن الفونيمات تشكل
قيماً، الأمر الذي يثقل التعريف ويجعله أقل سهولة بلوغ بالنسبة
إلى المبتدئين: والمقصود بالتأكيد هو قيمة وظيفية، فانتظاً من
الملحظة التي تحدّد فيها أن الملاممة الوظيفية التوافقية هي التي
توجهك في اختياراتك وفي تصنيفاتك، طأت في الميدان الوظيفي.
وتعلمون بأن مصطلح وظيفي استعمل أولاً من قبل لاسني براغ، فهم
قد أظهروا الفونولوجيا كدراسة وظيفية وبنوية. بنوية، نعلم لماذا،
هذا يتضمن ببساطة أن الوحدات يساوي بعضها البعض الآخر من
جزء العلاقات الاستبدالية. وهي وظيفية تحديداً، لأنها تعمل بواسطة
اللامعة. فقط، في تاريخ الفونولوجيا، كان الناس يسمون إلى
التأكيد على بنيوي (structural)، وعندما أشكر هيلمسليف نظريته
الغلوسماتيكية أو اللغوية^(*)، والتي كانت بمثابة اتخاذ موقف بالنسبة
إلى براغ، فإن «بنوي» هي التي زادت قيمتها نهائياً.

(*) دراسة شكل التعبير والمستوى.

إلى السيدة بايراف (Bayrav) التي تساءلت إذا كان التقايل بين
جملتي *il est mort naturellement* (هو مات بشكل طبيعي)،
و *naturellement, it est mort* (طبيعياً، لقد مات) مسألة قيمة:

يبدو لي أن المقصود بالأحري، هو مسألة نحوية، وقد
نوقشت المسألة في كتابنا النحو الوظيفي للفرنسية⁽⁴⁾. طرح السؤال
لمعرفة إذا كان علينا إحداث باين مختلفين على قاعدة التوافقات،
أي النحو، بين الظرف (*soudain*) (فجائي)، والظرف
(*soudainement*) (فجأة)، ذلك أن ما يفرق واحدهما عن الآخر لا
يتخلى صراحة للظروف الأخرى من مثل (*naturellement*) (طبيعياً).
لقد عدلت من إيجاد باين مختلفين على أساس التمييزين: فجائي -
فجأة. لقد حددت ببساطة أنه كان هناك بدائل شكلية. صحيح أنه
بإمكاننا الاختيار بين تقديمين: «ثمة، ظرف يضطلع بالشكل فجائي
أن بالشكل فجأة، حسب السياق الذي يظهر فيه» أو «ثمة طبقة
ظروف تحدد الجملة وأخرى تحدد المسند». لقد فضلت (إذا التقديم
الأول. ليست القيمة الخاصة بـ «فجائي» أو بـ «طبيعياً» هي موضوع
الخلاف، إنها نقطة اعتراضها.

3.1 - المتكلم يواجه التطور⁽⁵⁾

إن كل الذين فكروا طويلاً في ماهية اللغة الإنسانية والألسن قد

(4) *Grammaire fonctionnelle du français*, École normale supérieure de Saint-Clément, centre de recherche et d'étude pour la diffusion du français, sous la direction d'André Martinet; rédaction d'André Martinet et Jeanne Martinet à partir des recherches de Fernand Benoit et Colette Feuillard (Paris: Didier, 1979), parags. 3-44.

«Le Locuteur face à l'évolution», dans: *Special issue of IRAM, on the Occasion of Bertil Malmberg's 60th birthday*, 1973, pp. 103 - 111.

اصطدما بالتناقض الذي يبدو أنه ناشئ من واقع مفاده أن لساناً ما يتغير في كل اللحظات دون أن يتوقف أبداً عن العمل بهدف التواصل. وواضح فعلاً أن تغييرات ما تنضاف يمكن لها أن تؤول إلى جعل اللسان لا يُعرف بسهولة وغير مفهوم: مَنْ يفكر في مطابقة لاتينية شيشرون والفرنسية اليوم، وأي فرنسي سيفهم اللاتينية من دون تدريب سابق؟ ومن جهة أخرى، يبدو أن الإبقاء على التواصل اللغوي يقتضي أن يبقى المتكلمون على توافق حول قواعد النطق والنحو، وحول معنى الكلمات وقيمة توافقاتها.

لقد أمكننا التفكير في إخضاع التناقض بترويحنا أن اللسان يتغير ببطء، بالتدريج، وأن التطور لن يؤثر على الفهم. إنه ليس خطأ، ولكنه لا يصيب قلب المسألة، في الحقيقة، إذا لم يجد المتكلمون أنفسهم وجهاً لوجه مع ما يبدو لهم تغييراً للسان الذي يتكلمون، فمرء ذلك أن التغيير لا يفرض عليهم من الخارج، فهم أنفسهم الفاعلون اللاشعوريون. إن تطور البنى اللغوية لا يفعل سوى أن يعكس تطور احتياجات المستخدمين. ليس ثمة تناقض بين اشتغالية اللسان وتطوره، بل ثمة توافق. وليس تناقضاً القول إن لساناً ما يتغير لأنه يعمل.

حينما يوضع مستخدمو لسانٍ وطني، كالفرنسية، محكّين من قبل أناس ذوي تمركزات اجتماعية أو جغرافية مختلفة لا تتوافق احتياجاتهم بالضرورة، حينما يوضعون، في لسانهم، تجاه حصيلة تغيير ما ليسوا مسؤولين عنه، ويبدو لهم، من هذا الواقع، أمراً غير متوقع، فإنهم لا يقومون بردة فعلٍ تجاهه مثلما يقومون تجاه تجديد ما. إنها ستكون هنا ردة فعل مراقب علمي مترّب على السيطرة على اندفاعاته الأولى. أما المستخدم المتوسط، وحسبما يعتبر نفسه مستسلماً أم لا لمعيار اللسان، فهو سيدين الشكل على أنه لحظة

ريفية^(*) أو سوقية^(**)، أو أنه سيعتبره جديراً بالتقليد. سيكون التعاقب في الزمن إذاً مُدرَكاً بشكل آلي في إطار سلم القيم الاجتماعية.

ويستتبع هذا كله أن ردع كل تجديد من قبل المدرسة، كما من قبل الصفائين والبالغين، يتم على حساب إشباع أولئك الذي جددوا. وفي النطاق حيث يكون أولئك أولاداً، يمكن للقمع أن يبدو مبرراً، ليس فقط للبالغين الرادعين، ولكن لأغلب ضحاياهم، من جرّاء أن الأولاد سيصبحون كذلك يوماً بالغين، ويحكم كونهم أسياد اللعبة، فإنهم سينظمون العالم تبعاً لاحتياجاتهم الخاصة.

ويصدد اللسان، فاحتياجات البالغين تتلاءم تماماً والعادات المكتسبة والمرسّخة جيداً. وفي لسان كالفرنسي، حيث يعبر عن أشخاص (فاعلين) الأفعال بواسطة ضمائر مستقلة، وحيث يُلفظ، طبيعياً، الفعل بالطريقة عينها لدى الأشخاص الثلاثة للمفرد، ليس من المنطقي أن نصرف^(***) (*je suis, tu es, il est*) (أنا، أنت، هو). ولكن العادة ترمّخت جيداً، عند البالغين، في قول *je suis*، حتى صاروا غير قادرين أبداً على استخدام الشكل *'es* محلها. هذا الشكل يرضي تماماً احتياجات بعض الأولاد الذين عرفوا أن يقوموا بردات فعل باكراً جداً إزاء الهوية المطلقة لأشكال المفرد كي لا يتهاونوا في فرض *je suis* (أنا أذهب) تقليداً لما يسمونه.

عندما تقاوم احتياجات المجتدين احتياجات المحافظين، فإن هؤلاء الآخرين عادة هم الذين يبرزون، على الأقل في المجتمعات ذات الإطار المثبت جيداً: فالشكل (*je vas*)، التماثلي لـ (*tu vas, il va*)

(*) provincialisme : اصطلاح لو تعبير ريفي.

(**) vulgarisme : اصطلاح لو تعبير سوقي أو ابتغالي (علمي).

(***) être الكون.

(أنت تذهب، هو يذهب)، المثبت في محكية بضعة بالغين - والذي يجنده ثانية كل جيل من الشبان الفرنسيين - ليس له حالياً أي حظ في أن يفرض نفسه في الاستعمال العام. وفي مجتمع محافظ يقدر ما هو المجتمع الفرنسي المعاصر، لا حظ للتجديدات بالانتشار إلا بطريقة خذاعة. ويصدد مفردات اللغة، فجدة الأمر قلما تجعلنا نقوم بردة فعل تجاه جدة المفردة، إلا إذا كان التكامل اللفظي لهذه المفردة يشكل صعوبة. ويبدو أن التوافقات غير المتوقعة للمفردات التقليدية، والتي غالباً ما تتحقق بتقليد النماذج الأجنبية، لا تصدم طويلاً، كما يدل تعميم عبارات مثل (*la décision interviendra*) (سينخذ القرار) أو (*il a pris des risques*) (هو عَاقَر)، وبما أن مكوناتها متطابقة جيداً والوصلات النحوية فيها صحيحة، فسرعان ما تُكتسب المعاداة الجديدة.

تكون اللعبة هي الأكثر أهمية على صعيد الأشكال وعلى صعيد الفونيمات. وقد مرّ، من دون شك، زمان كان فيه صغار الفرنسيين يحاولون أن يستخدموا، كي يشبهوا احتياجانهم التواصلية، مختلف أشكال فعل (*mouvoir*) (حرّك)، ومثلما يفعله اليوم صغار الإنجليز لأشكال فعل (*move*) المعادل والمطابق اشتقاقياً. ولكن بينما يستطيع هؤلاء الأخيرون القيام بهذا الأمر دون خوف من التعرض للتوبيخ لأنهم لن يخطئوا باتباعهم قياس الأفعال المطردة للسانهم، فسكون لصغار الفرنسيين كل المحفوظ، عند تصريفهم فعل حرّك، في أن لا يشاركوا التقليد في الرأي وأن يروا أنفسهم قد استرعوا للنظام. لقد ضربوا، على مرّ العصور، على إبدال أفعال (*remuer*) (حرّك) و(*déménager*) (نقل) بفعل (*mouvoir*)، وكلها أفعال مطردة لا تطرح أي مسألة إعرابية، ولن تثير أبداً هذا الانقطاع في سيرورة التواصل الذي يمثله التصحيح أو السخرية، والتي يتضاف إليها طبعاً إدلال الولد الذي تسترعيه للنظام.

مع فعل (*émouvoir*) (أثار الشفقة)، كان التطور مختلفاً قليلاً. لم يكن ثمة معادل تقليدي قط لتصريف مطرد. اشتقنا إذاً من الاسم (*émotion*) (انفعال) فعلاً ذا موضوع وحيد (*émotionner*) (أثر في). ولكن هذا الفعل كثر الصفاتيين، فتخلصوا من ورجلته باستعمال أشكال مساعدة، بتصريف الفعل، على سبيل المثال، بصيغة المجهول، أو بالاستعمال المعقد المجهول، أو باستعمال المعقد (*être émouvant*) (كان مؤثراً)، أي، واقعاً، باعتماد الأشكال الثلاثة المتداولة أو المطردة كفاية كي تكون معروفة جيداً *émouvoir, ému et émouvant*. إنه بأجمعه مركّب لأبواب التخلص من الترتيب نفسه الذي سبب زوال الماضي البسيط في الفرنسية المحكية الموحدة، وحصر الماضي المبهم للصيغة الشرطية *imparfait du subjonctif* في استعمالات متكلفة، وحتى معينة. وقد حلت لحظة فاصلة، في تطور الفرنسية، حوالي نهاية القرن الخامس عشر، وذلك عندما زالت الصوامت الختامية من التلفظ الباريسي، وعندما اختلطت صيغ (*dore, tu dore, il dore*) من فعل *dorer* (أذهب)، في المحكية مع صيغ *je dore, tu dors, il dort* من فعل *dormir* (نام). هذا يعني أنه بالنسبة إلى هؤلاء الأشخاص الثلاثة العائدة لحاضر الصيغة الدلالية، والتي تبدو وحدها، في المحكية العامة، كذلك متواترة مثل كل الأشكال الفعلية الأخرى في الصيغ الفعلية للمعلوم. يعني هذا أن التمييز بين التصريفين قد زال. وقد انضاف هذا إلى تطابق، أكثر قدماً سابقاً، للأحقاق العائدة لصيغة المستقبل، ولصيغة النصب، وللماضي المبهم، وللحاضر العائدة للصيغة الشرطية، وأيضاً إلى تعميم للأشكال المنتهية بـ *ez* - والعائدة للشخص الثاني في صيغة الجمع لحاضر الصيغة الدلالية لثلاثة استثناءات (*foites, êtes, dites*). وقد خلصت سيرورة توحيد الإعرابات هذه إلى نتيجة أوحى إلى المستخدمين، وبخاصة إلى المتكلمين الشبان، بأن الشفوذات، في

إعراب الفعل، تتركز حول جنس الكلمة، وأن علامات الإعراب^(*) كانت هي نفسها بالنسبة إلى كل الأفعال. وما أعاق، بالمقابل، تبسيط موازين التصريف، وجود الماضي البسيط والماضي المبهم العائد للصيغة الشرطية، تلك، التي تظهر من فعل لآخر، ختاميات متغيرة إلى (-ai، -as، -ait، -iez، -iez، -iez، -iez، -iez، -iez). ومن دون شك فقد كان هناك غالباً توافق للمصائت الخصوصي لهذه الأزمنة وتلك العائدة لاسم المفعول، بشكل متواتر ومعروف في وقت مبكر. ولكن الوثوق بهذا القياس كان بمثابة التعرض لقول (je battis)، و (je cours) بذل (je cours et je battis)، أي التعرض للتوبيخ أو للسخرية.

وكي نتخلص من مأزقي، في حالة الماضي المبهم للصيغة الشرطية، كان يكفي أن نهمل توافيق الأزمنة، وأن نستبدله بالحاضر من الصيغة نفسها، مما كان يمكن ومما يمكن أيضاً أن يهين بضعة صفاتيين، ولكنه لا يؤثر بالطبع في التواصل. ذلك أن التعميمات الزمنية اللازمة للتطابق الصحيح للرسالة توجد في الجملة الأساسية التي لا تظهر، في الفرنسية المعاصرة، الصيغة الشرطية قطعاً، وكى نتجنب الماضي البسيط والاختيار، الخطر غالباً، لمصائت الخصوصي، يمكننا الاستعانة بالشكل ذي المساعدة (La forme à auxiliaire)، المسمى اليوم «ماضياً مركباً»، فالمنجز القديم هذا، منجز الحاضر (الموجود) حتى هذا اليوم في صيغة (j'ai fait) (أنا أنهيت)، كان يستعمل منذ فترة طويلة بالإحالة إلى وقائع نُظِرَ فيها على أنها حدثت في ماضٍ يمتد حتى اللحظة المعاصرة. وكان يكفي أن يكون هناك حالات لا يمكننا فيها التردد بين صيغتي (j'ai fait... و (j'ai fait... أنا

(*) désinences : علامات الإعراب، وهي العلامات اللاحقة بأواخر الكلمات

خاصة، والدالة على حالة إعرابية

فعلت). . . كي نقترح استخداماً للزمن المركّب، ما إن يبرز شك من جهة الشكل المقبول للماضي البسيط المناظر. إن استعمال الماضي البسيط، اليوم، في المحكية، يكشف المتكلم القروي أو الغريب. وفي الاستخدام الكتابي للساثنين، أسهم مثل أنطوان ميه (Antoine Meillet) في استيعاده. وتشهد حالات الماضي البسيط المغلوطة التي نبينها حتى في أطروحات دكتوراه الدولة، بالصعوبة المتنامية التي يُديها الفرنسيون المتقنون في استخدامهم إياه.

سنلاحظ أن شروط استخدام الزمنين موضوع البحث وقيمتيهما الدلالية مختلفة كلياً، وأن البقايا التي خلفها في الاستخدامات المعاصرة لا تظهر بالضرورة لدى الأشخاص عينهم أو في ظروف تشابهية. بالنسبة إليّ، سيكون لديّ انطباع بأنني أشوه حقيقة نحو الفرنسية باستعمالي، في المحكية، شكلاً من الماضي البسيط. سيكون ثمة خطأ لا أسمى مطلقاً إلى ارتكابه. وبخلاف ذلك، يمكن أن يحدث لي أن استعمل، في الخطاب، ماضياً مبهماً لصيغة الشرطية، إما بصدد الدعاية في الاستخدامات المألوفة، وإما في إنشاء أكثر زفعا، وذلك لأنني أستسلم للكسل العقلي الذي هو أساس ما نسميه توافق الأزمنة. إنها إذاً أسباب محض شكلية تلك التي سببت نفورا متزامناً لكليهما: وأياً من تردد حول شكل الماضي البسيط (*il vint*) (هو جاء) ينبغي أن يتردد حول ذلك العائد لماضي الشرطية المبهم والمتجانس لفظياً (*il vint*). وعلى الصعيد الشكلي، فقد تكاثف الزمان بالبادل، ولما لم يكن مستحيلاً تجنب كليهما، فقد استبعدا من الاستخدام المحدثي والفعال لملايين الناطقين بالفرنسية. إننا بلا ريب نطابقهما في القراءة أو في السمع. ولكن أشخاص المتكلم من نمط (*je donnai*) (أنا أعطيت)، الذي يلتبس في نطق أغلب الأشخاص مع الماضي المبهم (*je donnais*)، أسهمت في

إيجاد لبس في القول بين ماضٍ بسيط وآخر مبهم، الأمر الذي يعني بالنسبة إلينا، في التعليقات الإذاعية للوقائع الرياضية، الاستخدام المتواتر لـ *il marquait un but à quelques secondes de la fin du match* (سَجَل هدفاً قبيل لحظاتٍ قليلةٍ من اختتام المباراة)، ماضٍ صالح لتحديد التأثير المحض والبسيط للمحدث لا لتحديد تزامن ما.

وقد قضى حلٌّ آخرٌ للمسألة المطروحة من خلال تكرار لواحق هذين الزمنين بتوحيدهما بالطبع، وذلك من خلال اتساع نمط واحدٍ على حساب الآخر. وقد كان المرشح الأفضل بلا ريب النمط ذا -i- كما في (*dormir*) (هو نَامَ)، الأكثر تواتراً من النمط ذي -e- كما في (*résolue*) (هو حَلَّ) والأقل نزوة، في نظام صوائته، من ذلك الذي لأفعال صيغة المصدر المنتهية بـ -er، مع تناوباتها -ai، -e، -é- كما في (*donnerai*، *donna*، *donnai*) (من فعل *donner* أعطى). لقد كان بإمكان هذا التطور الملحوظ في حلة أقاليم⁽⁶⁾، وأن يحافظ على الماضي البسيط في الاستعمال العام. ولكننا نفهم لماذا لم يستطع الناس المثقفون، أصحاب التقليد، أن يتقبلوا تشويبات الحقائق المنيقة للاستعمال الذي كان يمكن أن نمثله *je donnais*، *je mangis*. من الثابت أن الصفائية^(*) الصرفية تؤدي، من خلال صدمة معاكسة، إلى إفقار اللسان: لقد كان بإمكان استخدام (*il donnait*) بِذَل (*il*) (*donna*) أن يحاكي عادات بضعة أجيال من المتكلمين، ولكن لم يكن بإمكانه أن يؤثر في شيء بحسن اشتغالية اللسان، فقد كان

(6) «Dans l'Ouest, de la Gironde au Calvados», *l'Atlas linguistique de la France*, vol. 13, fasc. 25, carte 1150. «Quand il rentre», recueillir une bande de passés simples en -i bien conservés, alors que les régions voisines, vers l'est, donnaient, comme équivalents de «rentre», des passés composés.

(*) Purisme: حرص مفرط على صفاء اللغة والأسلوب.

بالإمكان أن نتلافى استبعاد الماضي البسيط وأن نتبنى أشكالاً مناظرة، وهذا يمثل، بخلاف ذلك، إصراراً جدياً بالاحتمالية التواصلية للفرنسية.

بالطبع، يجد المستخدمون بشكل عام الوسائل لمعالجة النواقص الناشئة عن استبعاد أشكال شاذة جداً، أو، بشكل أكثر دقة، تظهر صيغ استبدال تنابعياً عندما تتراجع هذه الأشكال. وقد نستنى للاستبعاد التدريجي للماضي المركب أن يكون له أثر تمثل في اتساع حقل حاضر السرد أبعد من الاستخدامات الأسلوبية التقليدية، فالحاضر اليوم هو زمن التخيل المنظوق، هذا الذي نستخدمه، مثلاً، لرواية فيلم أو مسرحية: *(le jour de l'assaut arrive...on donne à chaque soldat une pièce d'or...ils défilent et chacun jette sa pièce dans un plateau)*⁽⁷⁾ (حل يوم الهجوم... أعطينا لكل جندي قطعة ذهبية... ساروا في رتل وألقى كل منهم قطعه في طبق...). في حين أن الماضي المعيش، في الشروط عينها، خاضع للماضي المركب، ويحافظ حاضر السرد، في هذه الحالة، على قيمته الأسلوبية التقليدية: *(Nous nous sommes trouvés place des Vosges. On a fuit le tour de la place...On cherche, pas de musée?)* (وجدنا في ساحة الفوج. جلنا حول الساحة... نبحث. ليس من متحف!) وقد كان لاستبعاد الماضي البسيط محصلة أخرى تمثلت في اتساع الأشكال المضاعفة التركيب والناشئة عن استبدالنا *a eu* بـ *eut*، فأصبحت *(quand il eut fini)* (عندما انتهى) طبيعياً *(quand il a eu)*

(7) حفلان للتلان الموضحان مستعاران من ملونة جمعها إيفانكا سيندرييه (Ivanka Cindrić)، من ملونة في العام 1960، في صفوف أشخاص باريسيين؛ المثل الأول يتناول علاقة فيلم يشاب في الثاني والعشرين من عمره، والمثل الثاني مستخرج من عرض لتجربة معبوضة لفتاة في الثانية عشرة من عمرها.

(*fini*)، ملتبسة إذاً مع الشكل المنبثق من الحاجة لأن تقابل ماضياً بالشكل (*quand il a fini*)، المُتْرَك مثل حاضر.

من الواضح أن كلَّ السيرورات المختصة باستبعاد الماضي البسيط وماضي الشرطية المبهم لم تستطع مطلقاً التأنيز في المستخدمين بوصفها مناظرة لتجديدات ما، في الأكثر، استطاع عدة مراقبين أن يظهروا ضيقاً غامضاً ما لسماع عدة صيغ للماضي المركب كما لحاضر الشرطية حيث كانوا يتوقعون ماضياً مبهماً. ولكن هذه ربما هي، في حالة الشرطية، ردة صفائي معاصر سيتظاهر بتجاهل أنها هنا استعمالات سمعها دائماً من حوله، ولكنه يقوم، في الحقيقة، بردة فعل تجاه هذه الأشكال، كما يقوم تجاه سوقيات، وليس مثلما تجاه مُبتكرات.

في ميدان الفونولوجيا، تَحْسُنُ بضعة لسانيين، كانوا قد حرصوا على تحسين السمة المنفصلة للوحدات التمييزية، بوجود حل للتابعية في إرسال تمييز ما من جيل لآخر: يمارس الأهل تمييزاً لا يكتسبه الأولاد مطلقاً. وقد أثبتت المعايمة أن الأمور غالباً ما تحدث كذلك⁽⁸⁾ ولكن لو تحقق الاستبعاد الكلي بضربة، فسيمبق طبيعياً بإضعاف تدريجي للاختلاف بين الفونيمات موضوع البحث، فالشبان الباريسيون الذين لم يكتسبوا قط التمييز بين « الأمامية و» الخلفية لُقِنُوا لسانهم بفعل احتكاكهم بالناس، الذين إما إنهم لا يعرفون هم

(8) مع تلك أمثلة على اختفاء تميزات مكتسبة لدى الشخص نفسه: فكتاب منه المطور، وفي مقالة له بعنوان: «Remarques sur le système phonologique du français», *Bulletin de la société de linguistique de Paris*, 34, pp. 191-202.

طرح، بالنسبة إلى فرنسيته، وجود تضاد يتعلق بالطول بالنسبة إلى جرم [l]، هذا التضاد للمعوط ضمن معايمة متبقية، ولنجر بعد عشرة أعوام، كشف لديه اختفاء.

أنفسهم هذا التمييز، أو أنهم يحققونه بواسطة جزميين متجاورين لدرجة أن الذين يستمعون إليهم لا يدركونه مطلقاً. إن فقدان تقابل فونولوجي يُسبق غالباً بفترة يتغير فيها توزيع تمييز ما من خلال مجموع مفردات اللغة من شخص لآخر. نفهم أن ولداً يسمع كلمة *age* (سن) أحياناً [aʒ] (*) أو [aʒ] (**)، ولكلمة *sable* «رمل»، أحياناً [sabl] أو [sobl]، يحصل ببعض الصعوبات كي يدرك [a] و [ə] كحقائق لغوية متميزة⁽⁹⁾.

بناءً عليه، إذا لم تبطل المعاينة، التي تتتابع منذ عدة عقود، تصور الفونيم كوحدة منفصلة، فإنها تعيل إلى الإشارة بأن استبعاد تقابل ما لا يتحقق مطلقاً قبل أن يكون التطور قد آل إلى تشويش الإدراك لديه. وعندما لا تميز وحدتان تمييزيتان إلا بواسطة سمة لا تقوم إلا هنا، أو في شروط خاصة كفاية، ولا ينشأ من إيهامهما الاتفاق أي اضطراب جذي في التواصل، فإن تحقيقتهما يمكن أن تميل إلى الاقتراب لدرجة أن مستمعاً، ولداً كان أم غريباً، لا يمارس هذا التمييز في البدء يصبح عاجزاً عن إدراكه.

هنا، وأيضاً أكثر مما في شأن المونيمات النحوية، فالتطور بما هو عليه، يملك كل المحظ في عبور غير منظور، ليس هناك أبداً سوى لسانيين محترفين كي يسجلوا التقلبات التي أثرت بالتقابل بين صائتي الـ *a* الفرنسيين منذ مطلع القرن، والتي تمثلت باندفاع [a] نحو الأمام حتى الحرب العالمية الأولى، واندفاع [ə] نحو الخلف

(*) مع *a* أمامية/ مفتوحة وتكتب [a] كما في *patte* (قائمة).

(**) مع *a* خلفية/ مغلقة وتكتب [ə] كما في *Pâte* (عجين).

(9) حول دينامية التقى الفونولوجي في القرنية المعاصرة، انظر: André Martinet, *Le Français sous fond* (Paris: PUF, 1969), pp. 168-208.

خلال فترة ما بين الحربين، وميل إلى اللبس منذ ربيع قرن. يقوم رجل الشارع برقة فعل حالاً، وفق معايير يمكن لتطور البيئة أن يبدلها، ولكنها ستحدّد، بالتقريب دائماً، أحكاماً تقويمية لن تتمكن من أن تتّوع عن النسبوية التي غالباً ما تتضمنها رؤية تطورية للعالم.

إن الفرنسية هي في طور تصفية آخر تضاد لها من حيث الطول، دون أن يتوهم مستخدموها من ذلك - تضاد كان يسمع بتميز (maître) (معلم) من فعل (mettre) (وَضَعَ) - ، وبتفصحية التمييز المعروف لدى الجنوبيين (Mérionaux) ما بين نمطي الـ «، بالاكْتفاء بصائت أنفيٍّ أمامي، وبخلط صائتها المركزي والصوائت الأمامية المستديرة، وكذلك بتطابق صائتها الأنفي الحنكي والتركيبية من « + ؛ اللامقطعية. تبقى نقاط ساخنة حيث اللعبة لم تتم: ترى هل يختلط صائت poche (جيب)، والصائت « في (fol) (جميل) مع (eu) في (seul) (وحيد)، أم ترى هل ستهتلي الـ « المفتوحة التقليدية إلى مكانها في سلسلة الصوائت الخلفية، مع كل صيغ التمام العائدة لها أو بتركها عدة زاحفين في معسكر الـ «؟ إن ضرورة تمييز (blanc) (أبيض) من (blond) (أشقر)، و (lent) (بطيء) من (long) (طويل) إضافة إلى مئة غيرها سمحت، لتاريخه، للتضاد بين [a] و [ɑ] أن يمحّث في فرنسية باريس. ولكن من تنوع استخدام لآخر، فاللبس ليس نادراً، وهذا التقابل بين أنفيٍّ غير مستدير وآخر مستدير لن يجد نفسه مهدداً أكثر أيضاً حينما يصبح مصير الزوج الآخر من النمط نفسه [ɛ] - [œ] مقفلاً نهائياً؟

بعد زمن طويل من اختفاء (e muet) أو الـ « غير الملفوظة في (médecin) في المحكية العادية، حافظ المتكلمون على هوية [d] بوصفه صائماً انسدادياً ليناً، حتى ولو أفقده [s] التالي صوته، وبقي هذا الصامت متميزاً عن المجهور القوي [t] في (jette sa) (أزم هذا).

وليس مستبعداً أن الأداء الكلاسيكي الذي كان يتطلب، في القراءة أو في إنشاء الأشعار، الإبقاء على الـ «*e*» غير الملفوظة أو، على الأقل، على أثر من الصائت الساقط، قد أسهم في الإبقاء على التمييز بين لينة وقوية. ولكن رغبة المدروسين في رؤية أداء أكثر «طبيعية» يتوطد، أي أكثر اقتراباً من النطق العادي فذلك، لم يحدث دون تفضيل لإدغام تام بين المجهور اللين والمهموس القوي التالي. وبالنسبة إلى كثير من الشبان الفرنسيين اليوم، فكلمة *médecin* تحوي الفونيم [a]. من جهة أخرى، من الصعب أن نقع على أقوال سيرجها التعميم لتطور مماثل إلى أن تكون غامضة⁽¹⁰⁾.

لا يبدو أن هناك، في فرنسية اليوم، أي تطور جارٍ سيؤدي إلى إيجاد وحدات تمييزية جديدة، من النمط الذي أذى في القرون الوسطى إلى إيجاد نمط الوحدات المصنّعة الأنفية. والمرشح الوحيد للاقتباس اللفظي هو الـ [ŋ] للاحقة *-ing*. ذات الأصل الإنجليزي. ويبدو أنه موضوع سيرورة بطيئة للتأقلم تشجعها، على سبيل الاحتمال، الأهمية المتنامية المحقوقة لتعلم الألسن الأجنبية.



في زمان مضى، كان أولئك الذين يرغبون بتدريس اللسان الفرنسي للشبان الفرنسيين كما للأجانب في فرنسا أو في موضع آخر، يطلبون من لسانتين أن يوجهوهم في عملهم، أو على الأقل أن يبدوا النصيح لهم. ولكن مجموع الحالات المذكورة أعلاه كانت تطرح مسألة عامة لم يكن الاختصاصيون يسلكون لها حلاً جاهزاً ووحيداً. هل ينبغي علينا في مجال تعليم اللسان أن نرضخ لضغط

«De l'assimilation de sonorité en français», *Form and Substance* (10)

(Mélanges Fischer-Jørgensen), Copenhagen (1971), pp. 233-237.

التطور، أم بالعكس، وأن نسعى للقيام بردة فعل كي نثبت ما يعتبره كثيرون بمثابة قيم تقليدية؟ ينبغي بالتأكيد أن لا نكتف عن أنفسنا أن الجواب عن هذا السؤال هو بخاصة مسألة مزاج وأفضليات شخصية. ولكننا على يقين من العثور على كثير من العقول المتجربة، بين المدرسين، والراغبة في أن لا تتبنى منهجاً إلا بعد اختبار كل الاستباعات العائدة لكل حل، فلنأخذ المسألة الخاصة باللبس الحاصل بين [ð] و [θ] في (brin ~ brum) على سبيل المثال. ترى، هل علينا أن نجهد أنفسنا كي نرسخها لدى الأولاد الذين لا يمارسونها؟ سيقدر البعض أن هذا ضروري لأن من يعرف تمييزاً هنا، فهو لن يسعى إلى كتابة (brin) بدل (brum) وبالعكس. سيفكر آخرون، ونحاول إيفاء هم حقهم، في ضرورة بذل وقت وجهود أكبر بكثير لتلقين الأولاد تمييزاً فونولوجياً يجهلونه، كما لتعريفهم بالكلمات، وهي على كل حال قليلة العدد، واحدة، تلك التي نكتب فيها بضبط بواسطة (um, um) أو (em) ما يلفظونه [θ]. ينبغي أن نضيف إلى هذا أن كثيراً من المعلمين ستكون لديهم مصاعب كبيرة في تعليم تمييز لا يمارسونه بأنفسهم.

إن ردة فعل اللساني، بما هو لساني وفي النطاق الذي يعرف فيه المسائل المعالجة جيداً، ستكون بالطبع أنه إذا كانت الاشتغالية نفسها للسان قد آلت إلى إزالة بضع سمات أو بضعة أشكال، فإننا سنخاطر من خلال رغبتنا في إعادتها بالقوة، في التسبب بشباعات داخل اللسان، فالعناصر الموضوعية ثانية ستثبت على حساب أشياء أخرى لم يؤثر التطور الطبيعي بها. ومن ناحية أخرى، عندما يكون الفصد سيروية حديثة لم تنجح كلياً كما هو الحال في استبعاد التضاد بين [θ] ~ [ð]، يبقى أشخاص يعرفون ما ينص عليه التضاد، ويمكنهم أن يصلحوا كشهود أو كمدرسين، ولكن إذا كانت الحالة كما هي بالنسبة إلى التمييز بين الماضي البسيط والأزمنة الأخرى،

فلن يكون هناك، حقاً، شخص، يعرف، في مستوى بعينه من اللسان، استخدام الماضي البسيط والماضي المركّب، يتنافس ويدراية حسنة. إننا لا نرى جيداً كيف يمكن لمحاولة إدخال الماضي البسيط ثانية في المحكية العامة أن تُكلل بالنجاح. وما يمكن أن نسعى إليه في هذا الشأن، هو أن نحافظ لدى الطلاب كافة، على معرفة سلبية بهذا الزمن، وأن نعهد إلى أدباء المستقبل في المحافظة عليه كزمن للمسرد وللتخيّل المكتوب أو استبداله بأشكال أكثر توافقاً مع الاحتياجات المستقبلية للمتحدثات الاجتماعية الناطقة بالفرنسية.

1. 4 - من التزامنية الدينامية إلى التعايقية⁽¹¹⁾

لخمسین سنة خلت، ليس إلا، فرض الوصف التزامني للالسن نفسه على اهتمام الباحثين بوصفه مؤسسة جديدة بالاحترام، وكانت اللسانيات قد انحصرت خلال أكثر من قرن في مقارنة الالسن النسبية تكوينياً. وعلم اللهجات نفسه، الذي تأخر ظهوراً، لم يسع في مبادئه إلا إلى إسناد نظريات اللسانيين المقارنين. بحث الأكثر جرأة من بين هؤلاء الآخرين، وأبعد من المقابلات وصياغات نظريات التوافقات الساعية نحو تأكيد النسيبية التكوينية، في ترسيس «اللغة الأم». وقد اشتمل ذلك بالضرورة على فرضيات متعلقة بالطريقة التي تطورت فيها الالسن في الماضي، وللشروط التي يستطیع لسانٌ بموجبيها، على مز العصور، أن يختلف عن كثير من الالسن المشيرة. لم تنقص هذه الفرضيات بالتأكيد، ولكن يبدو أننا كنا قليلي الميل إلى فحصها عن طريق معايير متفظة للأحداث.

•De la synchronie dynamique à la diachronie. *Diachronica*, vol. I, no. 1 (11)

(1984), pp. 53-64.

وقد أدركنا أسباب هذا العجز: فالألسن التي انطلقنا منها، في شأن المقارنة الهندو - أوروبية، كانت، منطلقاً، ألسناً «كلاسيكية»، أي مفهومة طوعاً على أنها نهائية ومتغلطة من أي تطور. ومن دون شك، فالاختلافات بين يونانية أتيكا^(*) العائدة للعصر الكبير واللغة الهومييرية^(**)، كما بين السنسكريتية الكلاسيكية ولغة (Rigveda)^(***) ريجفادا لم يكن بإمكانها أن تغت الباحثين. ولكنهم مالوا إلى أن يروا فيها - دون تبريرات عديدة - أشكالاً متوازنة أكثر منها أطواراً متتابعة. وحيث لم تثر التتابعية شكاً، لم يكن باستطاعة الاختصاصي أن يتجنب اعتبار التباينات المسجلة بمثابة تنوعات داخلية للسان، باختياره، أكثر من كونها معالم لسيرورة مؤدية نحو ذلك، انطلاقاً من لسان ثابت أو مرتس^(****) أكثر قدماً. وفي كل الأحوال، فالمنفذ إلى الحقيقة اللسانية كان يتم بشكل غير مباشر، عبر تصويحي، الأمر الذي استتبع مجموعة فرضيات أولية كي نصل إلى الحقيقة الصوتية. وحتى لو كنا نهتم باللهجات اليونانية أو بتنوعات اللاتينية في الماضي، فالتوثيق لم يكن يوفر المتصل^(*****) الذي يسمح بمحاينة الظواهر التطورية. من هنا ضرورة الفرضيات الجديدة كي نفسر تحول شكل إلى آخر، أو لنعرض تباعد لهجة من أخرى، في الواقع، كنا على الأغلب

(*) Attique : منطقة أثينا في اليونان القديم.

(**) homérique : لغة منسوبة إلى الشاعر هوميروس.

(***) أحد القيدا الأربعة (وهي كتب الهندوس الدينية) المهند القديمة، ويمثل المصنف الأكثر قدماً، يحوي ألف ترثيلة دينية تختص بشكل أساسي بالتعليمات الطقسية للعبادة الفيكلوية.

(****) reconstruite : هي صفة مشتقة من المصدر ترميس (reconstruction).

(*****): continuum : كمية لو سلسلة متصلة.

تتخصص في تقريرات، دون أن تدخل الاحتمال العقلي الصوتي: كنا نمين مثلاً أن اليونانية القديمة تُظهر الهائية^(*) بأغلبية في الكلمات التي بإمكاننا أن نجعل فيها - [i] أولية، كنا إذاً نجعل تماثلاً بين [i] → [h]⁽¹²⁾، استبقيناه من الآن فصاعداً بوصفه إمكانية تطورية ويمكن أن يصلح في موضع آخر. والحالة هذه، فهذا التماثل لا يمكن تفسيره إلا بوصفه مشروطاً بالسياق (s - متقدمة في علم الأصوات النحوي) ومعمماً، بالتناقض مع المعالجة الأخرى (dz - l) المشروطة بدورها بالسياق⁽¹³⁾ إن التصحيحات المبذولة لاحقاً من قبل علماء الأصوات، وفي ما بعد، في إطار وظيفي ونبوي، لما تعرف بعد اليوم رواجاً عموماً.

وفي حالة الألسن الرومانية، حيث كنا نعرف جيداً نقطة الانطلاق اللاتينية، ونقاط الوصول، بواسطة توثيق ذي فجوات بالتأكيد، خلال خمسة قرون، ولكنه مرضي كفاية قبل وبعد، كان بإمكاننا أن نأمل، رأساً، بجهد لترسيس المتصل. وفي الواقع، فقد فضلنا بتواضع بلا ريب، أن نعمل بواسطة لاتينية كلاسيكية، مُفترض بها أن تكون معروفة جيداً، كما بواسطة الوقائع اللسانية المعاصرة والمنفذة مباشرة إلى المماينة، دون أن نهتم كثيراً، في البدء، بالأطوار الوسطية، حتى عندما كانت مؤكدة جيداً. وهكذا نثبت، على سبيل المثال، أن /u:/ اللاتينية، متماهية أيضاً من خلال مقارنة الألسن السليمة، توافق [y] في الفرنسية المعاصرة. وانطلاقاً من

(*) aspiration: نطق يملء النفس للفتحة الهاء.

Diorhronica, vol. 1, no. 1 (1984), pp. 53-64.

(12) نشرت في:

André Martinet, «Phonetics and Linguistic Evolution», in: Louise (13)

Kaiser, ed., *Manual of Phonetics* (Amsterdam: North Holland Publication Co., 1967), parags. 1-3. 1-4.

اللاتينية إلى الفرنسية الحديثة (From Latin to Modern French) لمؤلفه ميلدرد ك. بوب⁽¹⁵⁾ (Mildred K. Pope). وحتى في شروط مؤقتة كهذه، فإن أشكالاً عديدة قُدمت لكل تطور خصوصي بقيت فرضية، ونميل للاعتقاد بأن قابلية كبيرة جداً لمعانيه الحقائق اللسانية المعاصرة كان بإمكانها أن تؤول إلى تحليلات أكثر إقناعاً.

إن ما ينقص، فعلاً، عند أغلب اللسانيين، هو الاعتقاد الراسخ بأن تطور الألسن يمكن أن يكون موضوعاً للمعاني، فكل منهم يتصرف، بوعي أو من دون وعي، تبعاً للطريقة التي يقوم من خلالها برّد فعل تجاه لسانه الخاص، فهذا الأخير هو بالنسبة إليه أداة تواصل وتفكير تتعلق فعاليته بتناسقه وبدوامه في الزمان والمكان الاجتماعي منه أو التاريخي، فالمثل الأعلى بالنسبة إلى لسان وطني وثقافي يبدو للساني أنه يكون دوامية اللسان التي تؤمن التقاطاً فورياً للرسائل. ولن يتولد لديه الانطباع - ليس أكثر من معظم الناس - قبل التفكير، بأنه لم يعد يتكلم، وبأننا لم نعد نتكلم، تماماً حوله، اللسان نفسه الذي كان قد تعلمه في طفولته. وبعد تفكير، عليه أن يقتنع بأمرين: فإما أن يكون لسانه مرتبطاً بالضرورة التطورية الثابتة والتي ينبغي افتراضها جيداً كي نفسر التغيرات التي نسجلها على نطاق واسع، وإما أن يكون هذا اللسان لمتحد اجتماعي، مستقر استثنائياً، لا احتكاك له مع بقية العالم، ويؤدي الناس فيه محافظة تامة. أشك، من جهتي، بأن لسانياً ميثاً يمكنه الانضمام إلى متحد اجتماعي نظير، فيما لو كان قائماً اليوم، في هذا العالم. سأضيف، فوق ذلك، بأنه حتى في

Mildred K. Pope, *From Latin to Modern French* (Manchester: (15)

Manchester University Press, 1934).

مجتمع مكوني على الوجه الأكمل، فالتضاربات الداخلية لكل بنية لغوية ستجعل بالتأكيد من المستحيل وجود جمودية كلية⁽¹⁶⁾.

ولكن حتى ولو اقتنع اللساني بأن كل لسان يتغير في كل لحظة، فيإمكانه التساؤل كيف يمكنه أن يعاين تغيراً جارياً. وعند التفكير، فهذه الإمكانية لا تُقصى شرطاً أن نقنع، بالطبع، بأن التغيرات التي ستؤثر، في النهاية، بالمتحد الاجتماعي برمتها يمكنها أن تنجلي قبل كل شيء في الاستخدامات الفردية. ستقوم المعاينة على لحظ التباينات التي بإمكاننا تسجيلها بين الاستخدام العام وبضعة انحرافات نسبةً إلى هذا الاستخدام. إن كل انحراف ليس بالضرورة أماراتياً لتطور جارٍ؛ إذ يمكنه أن يتعلق ببساطة باستخدام مواز، قروي مثلاً. هذا الاستخدام يدعنا، بلا ريب، نفترض، بتاريخ سابق، تطورات تباعدية، ولكنه لا يستل سيرورة معاصرة. والأمر نفسه، عندما يكون الانحراف، نسبةً إلى الاستخدام العام، مؤشراً لتطور حدث سابقاً في هذا الاستخدام، سيكون الانحراف إذاً لفظاً قديماً ثابتاً لدى شخص لم تأثر ممارسته اللغوية بالتطور. وهذا ما يمكن أن نشخصه، مثلاً، عندما يتلفظ شخص ناطق بالفرنسية (*travailler*) (اشتغل) بواسطة / مُلْتِنَة، بدل [la المستعملة عادة اليوم].

فلنذكر أنه ينبغي التمييز هنا بين نمطين من التطور: قبل كل

(16) حول الشناقصات الداخلية انظر: André Martinet: *Économie des changements phonétiques, traité de phonologie diachronique*, Bibliotheca romanica. (Prima, Manualia et commentationes, 10) (Berne: A. Francke, 1955), (3ème édition, 1970), and, *Sprachökonomie und Lautwandel: eine Abhandlung über die diachronische Phonologie*, traduit par Claudia Fuchs (Stuttgart: Klett-Cotta, 1981), parags. 4-1 à 4-4.

شيء ما هو بالضبط فونولوجي، ويؤدي إلى إققاد بضعة أشخاص إمكانية أن ينطقوا [ʌ] متميزة عن [a]، ومن جهة أخرى، ما هو غير فونولوجي، أي غير مؤثر بسبق الوحدات التمييزية، ونص، نسبة إلى أولئك الذين استمروا في تمييز /ʌ/ من /a/، على استبدال الواحدة بالأخرى في عدد متزايد من الكلمات.

ليس لنا الحق أن نرى في الانحراف المسجل مظهراً لضرورة تطورية جارية، إلا عندما نكون على ثقة بأنه ليس بقية لاستخدام قديم، بل هو تجديد، فلتمثل بالتلفظ [-nj] في ختام *peigne* (مشط) بدل الصوت الأنفي الحنكي التقليدي، والمدون *gn-* في الكتابة، والذي يتميز في البدء عن تتابع [n+j] في (*panier*) (سلة) أو في (*dominans*)⁽¹⁷⁾ (نحن أعطينا). يجب التمييز، هنا أيضاً، بين نمطين تطوريين: فمن جهة ما هو بالضبط فونولوجي، حيث ينتج ظهور [-nj] في (*peigne*) (مشط) عن استبعاد كل صوت أفقي حنكي من الختام (وحسب كل احتمال عقلي، في مواضع أخرى كذلك)، ومن جهة أخرى، النمط غير الفونولوجي. حيث تبقى [-nj] والصوت الأفقي الحنكي متنافسين في (*piegne*)، وبصورة عامة، في ختام الكلمة، من هنا فيما أن يمكن لنفس الشخص التردد بين [penj] و [pen] وإما أن يكون هذان التلظان صنيع أشخاص مختلفين.

من الواضح أن معاناة من النمط المأخوذ هنا بعين الاعتبار لا يمكن أن تؤني ثماراً إلا إذا تمت من قبل شخص مطلع كلياً على التزامنية المعاصرة للسان ولسوابقه. وهذا بالذات ما يمكن أن نتصوره

André Martinet, «Le Sort de n mouillé en français», in: *World Papers* (17) in *Phonetics* (Tokyo: [n. pb.], 1975), pp. 341-351, et Henriette Walter, *La Dynamique des phonèmes dans le lexique français contemporain*, préf. par André Martinet (Paris: France expansion, 1976).

من الاختصاصي الذي يقارب هذه المسائل. مع ذلك فمن المتواتر أن نعلم بشكل غير تام حول الوضع الفعلي في لسان معاصر. والسبب في ذلك أن تعليمات التحويين، التي تعكس غالباً الحالات اللغوية السابقة، إذا هي لم تستلهم من حكم سبق مختلف، فإنها تجعل من الصعب إدراك السلوكيات الحقيقية للمتكلمين. لهذا، فإن دراسة التغير اللغوي في التزامية لم يتم إلا بمناسبة الاستقصاءات التي استندت إلى سلوك عدد ملحوظ كفاية من الأشخاص وسمحت بتحديد ماهية هذا الاستخدام العام، في حال وجوده، والذي يمكننا، نسبة إليه، أن نقول الكلمة الفصل حول ما هو جديد أو ما هو مهجور. وبالفعل، فإن استخداماً أكثرياً، نسعى من خلاله إلى رؤية استخدام عام، يمكن تماماً أن يعتبر بمثابة جعل لسيروية جارية، ولهذا فهو على وشك استبعاد منافسيه، أليس باستطاعتنا القول أن سيروية اللبس، في الفرنسية، للفونيمين /la/ و// تبقى جارية أيضاً فترة طويلة مادام هناك، في أقاليم منزوية، شيوخ لم يتخلوا عن هذا التمييز؟

ينبغي إذاً، وتجنباً لأي ذاتية، أن توغر عملية البحث كل المعطيات الضرورية للحكم على الموقف الخاص بالاستخدامات التباهدية في طور معين من أطوار اللسان.

إن بإمكاننا أن نشك بوجود سيروية تطورية بمجرد أن نتباعد ردات فعل مختلف الأشخاص الخاضعين للاستقصاء حول عدة نقاط. سنفترض، في هذه الحالة، أنه إذا كان نمط من ردات الفعل متواتراً لدرجة أن الأشخاص هم أكثر صغراً في السن، فهو يدل على الاتجاه أو على نقطة انتهاء السيروية؟ وكي نطابق السيروية، ينبغي إذاً أن نقابل بين سلوك الأصغر سناً وبين سلوك الأكبر سناً، أو بطريقة أكثر تهنئياً - بهدف تحديد إيقاعه - أن تحدد ذلك العائد لمختلف أسطر العمر المتتابعة. فلنأخذ مثلاً مكاناً متجانسين كفاية

اجتماعياً وجغرافياً، يتألفون من أشخاص تتراوح أعمارهم بين عشرين وستين عاماً. سنوزع الرواة اللغويين على ثلاث مجموعات من الصغار، ومتوسطي السن، والكبار، وفق ما تكون عليه سنهم: أقل من ثلاثين عاماً، من ثلاثين إلى أربعين، أكثر من أربعين عاماً⁽¹⁸⁾. وسيكشف عن وجود سيروية تطورية من خلال تعاضل أو نقصان النسب المتوفرة في ما يتعلق بثبوت تقابل ما أو غيابه، وذلك عندما نعبر من الكبار إلى متوسطي السن، ومن هؤلاء إلى الصغار. سنحصل، في هذه الحالة، على منحنى ذي اتحدار واضح تقريباً وفق إيقاع السيروية. إن ظهور تغير في اتجاه المنحنى، مثلاً، هابط من الكبار نحو متوسطي السن، وصاعد من متوسطي السن نحو الصغار⁽¹⁹⁾، لا يتضمن أن السيروية غير قائمة، ولكن ببساطة أن إيقاعها، المتسارع في فترة أولى، قد شوهد بالنتيجة يخفف السرعة. علينا أيضاً أن ننظر في الحالة التي تقف فيها السيروية، وبفعل القدم، فهي ستجلى أكثر فأكثر بطريقة أقلوية.

إن بإمكاننا أيضاً، بدل أن نعين اعتبارياً شطور العمر، أن نطلق من معطيات الاستقصاء، وأن نجتمع الأشخاص الذين يقومون بردات فعل بالطريقة نفسها حول نقطة معلومة وتحديد متوسط السن لكل فريق⁽²⁰⁾، فإذا كان متوسط عمر الذين تختلط عليهم الوجدتان

(18) ما يُعرض هنا بشكل مبسط بعض الشيء، هو ما أنتج في: André Martinet, *La Prononciation du français contemporain, témoignages recueillis en 1941 dans un camp d'officiers prisonniers, société de publications romanes et françaises*; 23 (Paris: E. Droz, 1945), pp. 33-34.

(19) سنجد بعض الأمثلة الموضحة لتغير الاتجاه هنا في: Ibid., p. 129 et 34 un : essai d'explication.

Walter, *La Dynamique des phonèmes dans le lexique français* (20) contemporain, pp. 38-41.

المعنيين هو 32 عاماً، على سبيل المثال، وذلك العائد لأشخاص يحافظون على التميز هو 48 عاماً، فهناك حظوظ ما كي يكون اللبس في وضع جيد للتقدم.

على واقع هذا المثل الأخير، سنحاول أن نسعى إلى التفكير بأن التجديدات تقوم بالضرورة في اتجاه اللبس بين وحدتين سابقتي الوجود، الأمر الذي لا مبرر له. وكذلك الأمر على الصعيد الفونولوجي، فإن ظهور وحدات جديدة، في السلسلة، عن طريق نقل الوحدات الملاءمة (مثلاً: /t/ → /ti/; /ā/ → /an/) أو عن طريق الاقتراض (/j/) الإنجليزية في الفرنسية⁽²¹⁾ ليس أمراً نادراً، والأولى أن يحدث هذا الظهور في ميدان الوحدات التمييزية المعروفة بشكل أكثر مباشرة لضغط الاحتياجات التواصلية الجديدة.

لا نلج هنا على الاحتياطات الضرورية عندما تجري استقصاءات من هذا النمط. سنذكر فقط بأنه لو رغبتنا في الحصول على نتائج جديرة بالثقة، في شأن الدينامية اللغوية، ينبغي تحييد المتغيرات غير المتلائمة، وذلك بالتأكد من أن السكان المستقصين، مثلاً، متجانسون، إن بما يتعلق بالأصل الجغرافي أو بالانتماء إلى مجموعة اجتماعية وثقافية.

ليس من الممكن إنكار أن العمليات التي قمنا بوصفها نؤول إلى إعطاء رؤية دينامية لما هو السلوك اللغوي لمتحدث اجتماعي ما، في لحظة محددة من تطوره، أي ما يمكن أن نعينه بوصفه تزامنية. ترى هل سنخرج من التزامنية الدينامية، حينما نستقصي، على مدى بضع سنوات، من يمكن أن نسميهم السكان أنفسهم؟ الجواب من

(21) المصدر نفسه، ص 401-406.

حيث المبدأ، نعم، لأن تسلسل الأحداث سيظهر عندها، فلو قارنا، في نهاية استقصائنا الثاني، نتائجنا بتلك التي حصلنا عليها بالنسبة إلى الأول، ألا نترك عندها الترامية نحو التعاقبية؟

مستقول: أي أهمية للأمر مادامت ترقى المعرفة. ربما، ولكن يبقى من النافع أن نحدد ضمن أي علاقة نحن إذاً مع العمليات المقارنة التقليدية التي نواجه فيها وقائع اللسان منفصلة بقرون أو بالوف السنين عن التطور المباشر أو المتباعد.

وفي التطبيق، سيكون اتحرافاً أن نجتاز الحدود بين ترامية وتعاقبية، بين الاستقصاءات المحققة في صفوف الأشخاص ذوي الأعمار المختلفة وتلك التي تسمح بدراسة السلوكيات اللغوية لسكان على مدى عدة سنوات فلنأخذ استقصاء حُقّق عام 1940، وسمح برسم منحنى تأشيرى لتطور ظاهرة ما لدى تحقّقنا من أشخاص مولودين، في المتوسط، عام 1985، وعام 1905، وعام 1915. وسيعطي استقصاء، من النمط نفسه، أجري عام 1960 في صفوف أشخاص ولدوا، في المتوسط، عام 1925 وعام 1935، للظاهرة نفسها، منحنى سيخلف السابق⁽²²⁾. وهذا ما نتحقق منه، في الواقع، عندما نخفض النظر عن المتغيرات التي يصعب استبعادها في كل الحالات.

ولكن، أليس بمقدورنا الافتراض أنه، من بين هذه المتغيرات، ينبغي أن تذكر الحالات التي استطاع فيها استخدام شخص معين أن يتخير عبر الزمن؟ الأمر محتمل جداً من وجهة النظر المقلية، عندما يكون المعجم هو المقصود، ولكنه ليس قطعاً مستبعداً على الصعد

(22) هذه الأرقام للدرجة هنا لا تتوافق مع تلك العائدة للتحقيقات المنجزة فعلياً ابتداءً من العام 1941. ولكنها تتوحي منها بشكل مباشر، انظر الفهامش الثاني.

الأخرى، وحتى في الفونولوجيا. وعندما يكون المقصود السنين العشرين الأولى من الحياة، فقد أكدت استطلاعات الرأي على المطاوعة اللغوية للأشخاص: إن إيهاماً ثابتاً بنسبة 51 في المئة عند روايات لغويات متوسط أعمارهم في الرابعة عشرة يظهر مختزلاً إلى 13 في المئة عند السكان أنفسهم بعد تسع سنوات⁽²³⁾. وبعبارات أخرى، فتعلم اللسان الأول يمكن أن يستمر لوقت أطول مما بإمكاننا أن نظنه، وحتى عندما يكون المقصود نواة كذلك مركزية ومثبينة كالـفونولوجيا. وبالمقابل يمكننا أن نغض النظر عن فترة التعلم التي تنتهي، في المتوسط، في سن العشرين، ولكننا لاحظنا تغيرات فردية أكثر تأخراً، خاصة، وهذا صحيح، عند الأشخاص الذين غيروا سكنهم. وبعبارات أخرى، وحتى في مدة بضع سنوات، فيمكن للتعاوية أن تتدخل تحت شكل تغير متحقق خلال الزمن لدى شخص معين. والمنحنى المحقق على أثر الاستقصاء الأول المحقق عام

(23) انظر: Ruth Reichstein, «Études des variations sociales et géographiques: نظر» *des faits linguistiques*, *Word*, vol. 16 (1960), pp. 55-95; Guitt Deyhime: «Enquête sur la phonologie du français contemporain», *La Linguistique*, vol. 3, no. 1 (1967), pp. 97-102, et no. 2, pp. 57-84, et Martinet, *Le Français sans son*, pp. 172-173 et, surtout, 184-185.

نستوفي الأرقام المائدة إلى الزوج /pâte-pâte/، وحيث ثبتت التجربة، فالتمييز بنسبك حتر ولو أنزل في مواضع أخرى، وفي الواقع فإن الرلوي اللغوي المتوسط لدى Dyhime (1) المولود في العام 1940، شارك في التحقيق في العام 1963، وهو في سن الثالثة والعشرين، أما الرلوي اللغوي المتوسط لدى Reichstein، المولود في العام 1943، فقد شارك في التحقيق في العام 1957، وهو في سن الرابعة عشر. هناك إذا ما معنله ستنان تفرقان عمري الرلويين اللغويين للباحثين. وكلي تكون الأرقام للدرجة هنا مقبولة كما يجب، أي أن تكون جماعة Dyhime مطابقة تماماً لجماعة Reichstein، كان يفترض أن يكون معنله تاريخ الولادة، بعد مرور تسعة أعوام، هو نفسه، أي العام 1943، وأن يكون تحقيق Dyhime قد أُنجز بعد ثلاثين سنة في العام 1966.

1940 لن يكون سهلاً تمديده على أساس النتائج المتوفرة عام 1960. المقصود منحنيان متميزان مع قطع (solution de continuité) بين الواحد والآخر، حتى ولو ظهرا مترابطين، على الورق، تماماً بهذا المعنى بحيث يوافق الثاني تماماً التقدير الاستقرائي الذي كان بإمكاننا تحقيقه انطلاقاً من الأول.

وفي الواقع، فالتزامية الدينامية تفضي بنا مباشرة إلى التعاقبية. ولكنها تعاقبية متجددة من خلال أنها تسمح باختزال التنصيب المعدل للفرضية وذلك بإعلامنا بدقة حول وجهات الظاهرة التطورية. وليس متاحاً لنا، من دون شك، أن نكتشف كل حلقات سببية التغيرات، ولكن المعايير التزامية بعرضها بنى بالفعل مترابطة على أنها معاصرة تكشف لنا أن إبدال الواحدة بالأخرى لا يؤثر إلا بطريقة أدنى بالتواصل بين الأشخاص، الأمر الذي يشكل إحدى التكييفات المركزية للتطور اللغوي.

إن تصوراً دينامياً للدراسة التزامية ينشأ، بالضرورة، عن تطبيق لوصف وقائع اللسان حيث التشكيل البيوي مُعرقل بعناية من خلال الهمم الثابت والممثل بعدم تشويه الحقيقة اللغوية، لأن اللسان، في الحقيقة، يتغير في كل لحظة، وكل وصف لا يقيم وزناً للتطور هو بالضرورة مشوه. إن تصوراً مكونياً للوصف، يستبعد - من دون تأنيبات ضئيلة - كل ما تشير إليه رؤية شمولية على أنه هامشي، يمكن أن يكون ضرورياً كي يفضي إلى نماذجية تُستخدم في بنى الألسن. ولكن عندما يكون الفهم بالعمق للظاهرة اللغوية مقصوداً، فينبغي على الهوامش كلها، المتطابقة بعناية مثل إجابات أو مثل الإعلان عن بنى قادمة، أن تجد لها موضعاً في الوصف.

إن التيني الاختياري لمناهج التزامية الدينامية سمح لنا حتى

الآن أن نرى بطريقة أكثر دقة كيف تعمل الفرنسية المعاصرة. وقد وجه الاهتمام، لتاريخه، إلى فونولوجيا هذه اللهجة الفرعية⁽²⁴⁾ (idiome) خصوصياً، ولكن لا حصراً. وسيكون مأمولاً أن تطبق هذه المناهج على صُعد اللسان كلها وعلى ألسن أخرى غير الفرنسي. ويمكننا أن نأمل أن تعمم هذه المناهج سيطور، عند أولئك الذين كانوا سابقاً يلتفتون نحو التعاقبية على نطاق واسع، وبمعنى أكثر دقة مما يمكن أن نتوقعه من لسان يتطور، بمراعاة بنية هي بنيته في الفترة التي حدث فيها التطور. ودون أن نحكم بإلغاء التفرع الثنائي السوسيري تزامنية - تعاقبية، ينبغي لنظرة وظيفية، أي دينامية، لوقائع اللغة، أن تسمح بتعزيز - من بين كل أولئك الذين يعالجونها - وحدة كانت قد أثرت بها مقارنة شكلية جداً بحصر المعنى للحقيقة اللغوية على حساب الجميع، مقارنين كانوا أو وصفين.

5.1 - وجهة النظر الوظيفية في النحو⁽²⁴⁾

إن مفردات «وظيفة»، «وظيفي»، «وظيفية» يمكنها أن تفيد اللسانيين ليوضحوا اتساع الميدان الذي بمقدور تعدد الدلالات أن يغطيه بالنسبة إلى مصطلح ما. وهذا صحيح لجهة استخدامهم العام. ثمة فرق كبير بين وظيفة الوظيفي ووظائف عالم الرياضيات. لكن

(24) اعتبر مارتينه، في حواره سابقاً، أن *idiome* مفردة لا تعني شيئاً محدداً إذ يمكنها أن تكون لساناً، ولهجة إقليمية، ومحكية... إلخ. وفي أوروبا، فهي تعني علاقة في طور الاهتزاز والاضطراب.

(24) نشرت في: *Actes du 9^e colloque international de linguistique fonctionnelle* (Fribourg-en-Brisgau, Juin 1982) (Paris: SILF, 1982), pp. 19-34.

يتبغي ببساطة، أن نميز، في التطبيق اللغوي، وحتى في ذلك العائد للوظيفتين أنفسهم، بين الوظيفة بالمعنى الأعم للمفردة، ووظيفة الوحدات التمييزية في سياق ما، بوصفها متميزة عما يمكن أن نشير إليه على أنه طبيعتها. وانطلاقاً من هذه القيمة الأخيرة، استطاع لويس هيلمسليف أن يقدم الفلوسماتيكية أو اللقاوة بوصفها لسانيات وظيفية. وحديثاً جداً، أمكننا أن نقرأ أو نسمع مصطلح «وظيفي» بالإحالة إلى عدة تطبيقات تحويلية توليدية، أو لنعت شكلي لغوي زالت علامته من هذه التطبيقات، دون أن نغض بعزم النظر عنها. إن اللسانيات الوظيفية التي نقدمها هنا تأخذ مكانها في خط الفونولوجيا البراغية^(*)، وقد سميت كذلك، كي تميز عن الميول البنيوية الأخرى، وقد أكدت على هذا الأمر في فترات مختلفة: بعد الحرب العالمية الثانية، عام 1946، في لندن، الفونولوجيا كعلم أصوات وظيفي⁽²⁵⁾ (*Phonology as Functional Phonetics*)، وفي عام 1961، في أكسفورد، رؤية وظيفية للغة⁽²⁶⁾ (*A Functional View of Language*)، وحديثاً جداً في النحو الوظيفي للفرنسية (*La Grammaire fonctionnelle du français*).

وقد استخدمت مصطلح «وظيفي» فيها بالمعنى الأكثر رواجاً للمصطلح، وتضمن أن الأقوال اللغوية تُحلل بالعودة إلى الطريقة التي تؤدي بواسطتها إلى سيرورة التواصل. إن اختيار وجهة النظر

(*) نسبة إلى مدرسة براغ اللغوية.

André Martinet, *Phonology as Functional Phonetics: Three Lectures* (25) *Delivered Before the University of London in 1946* (London: Oxford University Press, 1949).

André Martinet, *A Functional View of Language* (Oxford: Clarendon Press, 1962).

الوظيفية يستمد من الاعتقاد الراسخ بأن كل بحث علمي يتأسس على إثبات ملاءمة ما، وأن الملاءمة التواصلية هي التي تسمح، بشكل أفضل، فهم طبيعة دينامية اللغة. مستصبح كل السمات اللغوية، إذا، قبل سواها، مبرزة ومصنفة استناداً إلى الدور الذي تلعبه في إيصال الخبر. وإذا كان على لسان ما أن يرضي دوماً احتياجات التواصل، وكما إن هذه الاحتياجات تخضع لتغيرات مستمرة، فينبغي على أداة التواصل - التي هي لسان ما - أن تتلاءم مع شروط جديدة. وهذا لا يعارض مفهوم لسان ما بوصفه بنية، ولكنه يتضمن أن هذه البنية تُطرح باستمرار على البحث ثانية، ويثبت توازن على الدوام بين الاحتياجات التواصلية والعادات المتوارثة، وقد رأينا أنه ليس تناقضاً قطعاً القول إن لساناً ما يتغير لأنه يشغل.

إن الاستتبعات، من وجهة النظر الوظيفية، في الفونولوجيا معروفة جيداً إلى حد ما، ولا تهتمنا مباشرة هنا. ومع ذلك، فمن المستحسن أن نذكر بها، ذلك أنها توضح جيداً الطريقة التي يستخدم فيها كل لسان، لمبتغياته الخاصة، المحطات التشريعية والفيزيولوجية للأعضاء المختصة «بالكلام»، ناسيين احتياطياً - بالمعنى السوسيري للمصطلح - قيمة مثيلة لسمة مثيلة، ومقصين سمة أخرى إلى دراسة اللغة المصاحبة، أي إلى فصل له أهميته في فترة محددة من البحث، ولكن علينا بالتالي أن نغض الطرف، طوعاً وهدماً، عنه ومنصادف هذا في ما يمد، عندما يصير الكلام من علم الصرف. ونجد في عداد السمات الصوتية بعضاً يمتلك قيمة تمييزية أو تقابلية. ويمثلك بعض آخر قيمة تباينية. ويمكن لحقيقة فيزيائية بنفسها، مثل تناغم الخطاب، أن تضطلع من لسان إلى آخر - في نفس اللسان - ومن نقطة لأخرى في الخطاب، بوظائف عديدة، تمييزية، وتباينية، وتبلغية، وحتى بليغة مباشرة.

عندما ندع حقل الوحدات التمييزية (مونيمات، نغمات، موضع النبر) كي تقارب حقل الوحدات البليغة، علينا أن لا ننسى أن ما يهم من الآن فصاعداً يتمثل بالطريقة التي ستبقى فيها هذه الوحدات متميزة بعضها عن بعض أكثر منه في فرديتها وهويتها على الصعيد الدلالي. وبعبارة سوسيرية، فإن ما يعتبر في التحليل الأخير، ليس الدال، بل المدلول. ينبغي إذاً أن نتحرر من مفهوم العلامة الذي بموجبه يوضع الدال والمدلول على الصعيد نفسه، وأن نذكر ببداية ما، تلك التي تقضي بأن الدال مائل هنا كي يجلي أو يبرز المدلول، وأن المدلول غاية والدال وسيلة. وليس أمراً مستصعباً أن ندرك لماذا لم يقدم سوسير مطلقاً العلامة في هذه المصطلحات. لقد كان، في الواقع، أسير ثنائيته (لسان - كلام)، فالقول إن الدال يجلي المدلول هو إنما تصوّره على صعيد الكلام. إنه العلول عن التعريف العقلي للعلامة التي نعتبر الدال بموجها صورة صوتية. إنه تدمير للعلامة بما هي وحدة أساسية للسان، وبما هي حقيقة متميزة عن التجلي المحسوس لهذا اللسان: الكلام.

نُفهمُ اللغة الإنسانية، من وجهة النظر الوظيفانية، كأنها تسعى إلى نقل التجربة بواسطة تجلٍ مُدرك عن طريق الحواس وقابل للتحليل إلى وحدات يوافق كل منها عنصراً من التجربة موضوع النقل. لن يكون الفاصل، في التحليل الأخير، هو الشكل المُدرك بواسطة الحواس لكل من هذه الوحدات، بل تطابقها، أي إمكانية في أن تتوافق مع كذا مظهر معين للتجربة، فالإنسان الذي يظهر للسلطات الرسمية بطاقة هويته يشهد بوجوده المتميز عن الوجودات العائدة لأفراد المُتحد الاجتماعي الآخرين، فشكل أنفه، وذلك الذي لوجهه، ولون عينيه وشعره، كلها تُعين بشكل ملحوظ في هذا الشأن، ولكنها إذا أجلت هذه الهوية، فهي لا تختلط أبداً بها. ويعني

هذا، على الصعيد اللغوي، أن الشكل الخاص الذي يضطلع به الدال ليس له أهمية في النهاية. ولأسباب اقتصادية مستخلصة لمرات عديدة، فهو سيجد نفسه مُتبنياً وحدات متتابعة، فونيمات، مع سمات متميزة فوقطعية بالمصادفة. وهنا بالطبع، من واجب اللساني أن يحدد ما هي هذه الوحدات التقطيعية والفوقطعية في اللسان موضع الدرس. ولكن متى أنجز هذا العمل وسجل في فصل الفونولوجيا، فليس بالإمكان أن يكون الموضوع إقامته ثانية في ما بعد. ننتقل إلى موضوع اختيار الوحدات البليغة، وبشكل أساسي تلك التي نشير إليها على أنها ذات «إنشاء أول»، أي - بعد التفكير - المونيمات. إن بإمكاننا من الآن فصاعداً أن نحلل كل دال عائد لمونيم، إلى فونيماته وعند الاقتضاء إلى نغماته، وهذا سيسهم في تعريف المونيم. ولكن ينبغي أن يكون واضحاً، قبل كل شيء، أن استخدام فونيم مثل أو غيره أو نغم مثل أو غيره، هو، من حيث المبدأ، مستقل عن القيمة الدالة للمونيم - وهذه بالاختصار هي نتيجة الاعتبارية السوسيرية للعلامة. ثم، إنه يمكن للمونيم نفسه، للعلامة نفسها، أن يضطلع بأشكال متغيرة، ولا سيما وفق السياق الذي يُدرج فيه، وفي هذه الحالة، فالأشكال التي تكون في توزيع تكاملي، مثل *i* - في *ira* (هو سينهب)، *va* في *va* (هو ذهب)، *all-ons* في *all-ons* (نحن ذهبنا)... إلخ سيحرف بها باعتبارها موافقة للمونيم نفسه.

سنلاحظ أننا نتوقف هنا في الكلام عن *va*، *i*، و *all-* من ناحية، ومن ناحية أخرى، رؤية المونيم الوظيفاني المُدرَك بالحواس بوضوح كوحدة بليغة تثبت هويتها من خلال تجسّدت الشكل.

إن الاعتقاد الراسخ بأن ما يُعتبر في النهاية، في حالة وحدة بليغة ما، هو المخلول، ولا يكون الدال هنا إلا للإسهام في التعريف

به في القول، وله محصلات حاسمة في التطبيق الوظيفي: ففي الفترة الأولى لتحليل المخطط المونيماني، ستيين بالضرورة كل الحالات التي ستكشف فيها أشكال مختلفة شبيهة بالدال (أو بالدوال) للمونيم نفسه. وهذا، الذي كان في عداد معيار اللسان، صيغَ، بالطبع، بعناية. ولكن، كما إنه لا ينبغي لقنولوجيا اللسان أن تُطرح ثانية للبحث أبداً حالما نقارب بواسطتها المونيماتية، كذلك، فإن بيان التنوعات الشكلية للدالات ينبغي أن يُنسى كلياً حالما نقارب المسألة الأساسية العائدة للطريقة التي بموجبها يمكننا أن نغير من النتائج الخطير للمونيمات إلى تأويل الرسالة. هذا التأويل يتضمن، في فترة أولى مركزية حاسمة، تجاوز خطية القول كي نستعيد تعدد الأبعاد المتعلقة بالتجربة المنقولة. وتظهر تبدلية الدوال - حيث أبصرت أجيال من اللسانيين أفضل ما في النوع من البنى اللغوية - من وجهة النظر الوظيفانية، كـ معوّقي وظيفي مستنزع أجيال متتابعة من المتكلمين الشبان إلى استبعاده. نفهم لماذا يجزّب الولد دوماً، بمجرد أن يطابق مونيمات لسانه، أن يستعمل لكل منها شكلاً وحيداً، دائماً نفسه، على الرغم من ضغط التقليد المتمثل باستخدام اللغة من قبل البالغين وتدخلاتهم الواعية في استخدام الولد اللغة.

وليست الإعرابات والتصرفات المختلفة لقواعد النحو الكلاسيكية سوى الطريقة الأكثر إيذاء بالمرام لبذل شيء من الوضوح في الركام المبهم، حيث سينهض مونيم ذو قيمة موصوفة تماماً مثل الإضافة، وفق السياقات، بأكثر من عشرة أشكال مختلفة، يمكن عزلها أو مزجها. هذه الإعرابات والتصرفات تشكل أساس ما نسبه علم صرف اللاتينية، مثلاً، ونحن لا نبتعد عن التقليد الأكثر احتراماً عندما نحدد هذا الفصل من قواعد النحو على أنه ذاك الذي نعالج فيه البدائل الشكلية لدوال المونيم.

إذا كان هذا التعريف لم يخفق، للوهلة الأولى، في الادعاش بعض الشيء، فذلك لأننا أرتكبنا الخطأ الذي يعد اليوم عالمياً تقريباً، وهو أن نرى في علم الصرف اختباراً للعلاقات المتبادلة للعناصر الدوال داخل «الكلمة»، بينما سيعالج النحو علاقات الكلمات داخل القول. إن إبطال هذا الخطأ يتضمن ضرورة إقحام مفهوم «الكلمة» ثانية، ذلك الذي يتراجع برعب أمامه أغلب اللسانيين، وحتى الأكثر جرأة من بينهم. إن ما ندعوه كلمة هو على الأغلب، وبتعابير وظيفانية، مونيم وحيد أو مصحوب بكيفياته (أي بمحدداته التي لا يمكن تحديدها) وبميزات وظيفته، إذا تأخرت هذه الكيفيات وهذه العناصر الوظيفية عنه في السلسلة. إن المجموعة المؤلفة من تتابع نواة - كيفية - عنصر وظيفي، تخضع في هذه الحالة إلى قولبة شكلية نستبعد إدخال عناصر أخرى، وغالباً ما تكون في الواقع وحدة نبرية. ونشرح قوانين الاختبار تماماً أن كيفيات وعناصر وظيفية ذات موقع مقدم لا تؤدي عموماً إلى التجمد الذي نسجله عندما تكون مؤخرة. نحن إذاً نواجه في ما نسميه الكلمة، مجموعة ضغوطات شكلية ستسبب كل أنواع الإعاقات للتعبير الحر عن المفاهيم موضوع البحث، ولكنها لن تؤثر بالضرورة بقيمتها: إن لحالة الإضافة الروسية، بشكل ملموس، القيم نفسها التي لحرف الجر الفرنسي *de*، بما في ذلك التمييز، وحتى إذا تغير شكلها حسب انتماء الاسم الذي تعمل فيه (جرّاً أو نصباً) إلى إعراب أو آخر وحسب وجود كيفية الجمع أو غيابها. إذا كانت علاقات حالة الإضافة الروسية باسمها تتعلق بحقل «علم الصرف»، بينما علاقات *de* بالاسم الذي يسبقها تتعلق بـ «النحو»، فهذا مؤكد، لأن استخدام حالة الإضافة الروسية يسبب تنوعات شكلية لا تسمح بتعيينها بواسطة دالّها، بينما لا شيء من هذا القليل يقوم في حالة *de* لو رغبتنا في مطابقتها شكلياً على أنها الفونيم /d/، والد *e* ليست سوى المزلّق

الذي يأتي ليندرج آلياً بعد الصامت الثاني للمجموعة المركزية لـ (patte de mouche) [pɑtɑmʊʃ] (كتابة رقيقة مخربشة). ولا يعني هذا أنه ليس بإمكان حروف الجر أن يُؤثّر فيها بواسطة عوارض صرفية، كما تشهد حالة au حيث يندمج حرف الجر مع الأداة، وحالة de حيث تُعْثَلُ /l/ العائدة للأداة بواسطة /y/.

إن لنا مصلحة إذاً في إيجاد القيمة الأصلية لـ «علم الصرف»، المتضمنة من جهة أخرى في (morpho) التي توحي بـ «شكل»، فالمقصود هو اختبار وعرض التنوعات الشكلية التي يمكن لدالات المونيم أن تخضع لها، وكذلك، وبطريقة أكثر فهماً، كل عوارض الشكل أو تنويعاته، تلك التي لا انعكاسات لها على القيمة المدلولة للوحدات موضوع البحث. وبإمكاننا أن نذكر على سبيل المثال، الموقع الخاص للمونيمات في القول، عندما تتغير دون أن تؤثر بطبيعة علاقاتها المتبادلة: (صخرة هائلة) (un énorme rocher, un rocher énorme). ويوافق ذلك أن تُشدد على ضرورة غرض النظر كلياً عن التنويعات الصرفية، أي مجموعة علم الصرف، بمجرد أن تكون هذه التنويعات قد سُجِلَتْ، وصيغَتْ وصُنِفَتْ كما ينبغي، وأن تكون كفاءتها قد حُدِّدَتْ بالتفصيل. بهذا، فنحن لا نفعل شيئاً سوى الاقتداء بقواعد النحو الكلاسيكية: عندما تنشئ موازين الصرف الإعرابي، في قواعد نحو لاتينية، الأشكال الممكنة للمفعول فيه، كما ينبغي، فإمكاننا أن نعبر إلى نحو هذه الحالة - حيث تفضل شروط استخدامات وفيها المختلفة دون أن يُصار أبداً إلى الرجوع لمختلف الأشكال التي بمقدوره أن يضطلع بها.

إن الطبيعة نفسها للسان المدروس هي التي ستحدّد الطريقة التي سيقدّم فيها علم الصرف في قواعد النحو. هناك في بداية الأمر ألسن، كالصيني، حيث لا يوجد عملياً علم صرف في المواضيع التي

يتوقعها أولئك الذين تعودوا على الألسن الهندو - أوروبية، أي في فصل الكيفيات والعناصر الوظيفية. منعهد إلى الاختصاصيين في تسجيل التنوعات الشكلية التي ينبغي أن تقوم في الصينية عندما يفقد مونيم حيز وضعه وذلك حيثما يصبح الحكون لمونيم مركب. إن لنا مصلحة من دون ريب، في أن نجمع، في لسان كالاتيني، وكما نقوم تقليدياً به، كل أحوال علم الصرف في فصل خاص، وفي موضع آخر، في الفرنسية، مثلاً، فمن الأفضل أن نعالج علم الصرف بصرف النظر عن كل باب من المونيمات.

في ما يتعلق بمعالجة التنوعات التي يمتلك كل منها تواتراً نادراً في اللسان، والتي نسميها تناوبات، ستكون لنا مصلحة في معالجتها على حدة، في الفصل الأول من علم الصرف. وهي ستكون، على سبيل المثال، حالة (Umlaut) تغير الصائت الألماني الذي يتضمن تعديلات عديدة شكلية، وتكيفاً نحوياً مشابهاً. تتلاقى كلها في باب الاسماء، وفي باب الصفات وفي ذلك الذي للأفعال. وعلى أي حالة، ينبغي أن نحذر من الكلام في هذه الحالة على «علم الفونيمات الصرفي»^(*) (morpho(pho)nologie)، إنها مفردة مزعجة لجهة أنها تترك افتراضاً بأن ثمة علاقة تزامنية بين وقائع التناوب والوقائع الفونولوجية. إن الخطر هو بالأحرى كبير للدرجة أنه من الثابت أن ما كان تنويعاً لفونيم في طور قديم يصبح فونيماً تناوبياً في مرحلة لاحقة: ففي اللسان الفصحى القديم لألمانيا، كان يمكن لـ /y/ أن تكون تنويعاً للفونيم /u/ قبل أن تصبح، بعد استبعاد التكيف الحنكي، فونيماً مستقلاً يتناوب مع /u/ في الشروط الموصوفة في علم الصرف العائد للألمانية المعاصرة في فئة (Umlaut) (تغير

(*) دراسة العلاقة بين علم الصرف وعلم وظائف الأصوات (الفونولوجيا)، انظر:

معجم المصطلحات اللغوية (إنجليزي - عربي)، ص 318.

الصائت). عندما يكون للتناوبات، في اللسان المعني بالدرس، امتداد ملحوظ، فمن اليقين أن نعالجها في قسم بدئي من أقسام علم الصرف، بطريقة تسمح لنا بالاستناد لاحقاً إلى الخلاصات المستنتجة بخصوصها، دونما حاجة - في كل مرة تظهر فيها هذه التناوبات - إلى تكرار ما تنص عليه. وما إن يبرهن مفهوم (Umlaut) (تغير الصائت)، حتى يمكننا أن نكتفي، عندما نعالج مונים الجمع، بالإشارة إلى أنه يتجلى في هذه الحالة أو تلك، دونما حاجة تذكراً إلى تكرار أنه يتضمن استبدالاً لـ *a*، *ō*، *ū*، *ē*، *ī*، *ū*، *au* على التعاقب. إن السلوك الاقتصادي نفسه هو المقصود هنا أيضاً، وهو أيضاً الذي نعالج بموجبه المسألة نهائياً كي لا نعود إليها: الفونولوجيا في مرحلة أولى، وعلم الصرف في الثانية: وداخل علم الصرف، ظواهر عامة في بداية الأمر، وتفاصيل في ما بعد.

إننا نفهم بطيبة خاطر اللسانيات التي يُقال لها «بنوية»، تلك التي شغلت واجهة المسرح العالمي في الثلاثينيات والستينيات، على أنها موسومة برغبة في ترميخ أفضل للسمة العلمية لهذا الفرع الدراسي وذلك من خلال إلحاح على الشكل: فلا يمكن لشيء ما أن يكون بحصر المعنى لغوياً إذا لم يوفق بين اختلاف للمعنى وبين آخر ممكن الإدراك. ولم ينس البعض إظهار اندماشهم لأن اللسانيات الوظيفية - التي نظل في الخط الذي دشّن في براغ - قد استطاعت الوصول إلى إبعاد السمات الشكلية المنسقة في باب «علم الصرف» بعزم. وينسى هؤلاء أننا نظل دوماً أوفياء لمبدأ الملائمة، وأننا نطبقه، لا بشكل نهائي فحسب، بل من خلال أطوار متتابعة للبحث. وعلينا في فترة ما من هذا البحث أن نغض النظر عن الاختلافات الشكلية، لأنها تنكشف كأنها غير ملائمة. ولكن هنا لا يعني أن علينا من الآن فصاعداً أن نتهج بصرامة على أساس سيميائي. إننا لا نبالي بالشكل انطلاقاً من اللحظة التي تطابقت تماماً فيها وحدتنا، لأنها ماثلت

اختلافاً في المعنى على اختلاف في الشكل : ولكوننا أمناء، هنا،
للتعليم السوتيري، فنحن نعمل من الآن فصاعداً بواسطة علامات لم
يعد لأي من وجهتيها أي فردية. لأجل ذلك فنحن لا نتردد - كي
نشير إليها - في أن نستخدم إما الدالّ حيث لا قابلية له للتنوع،
وحيث لا يعرف المعجانات اللفظية، كما يحصل مثلاً في حالة
المونيم /avek/ «مع»، وإما مصطلحاً يستند إلى مدلوله، الذي يكون
غالباً مصطلحاً تقليدياً، مثل «حالة الجرح» أو «صيغة الشرطية»، اللتين لا
تصلحان إلا كبطاقة موافقة لقيمة مدلولية سيليقُ أن نحددها في ما بعد.

من الواضح إذاً أن وجود اختلاف شكلي مواز لاختلاف في
المعنى أمر لا ينسى أبداً، ولكن ما نضعه بتصميم جانباً، هو الطبيعة
الدقيقة لهذا الاختلاف الشكلي، كما ميزته المتسفة أو المتغيرة.
وينبغي أن لا نرى في هذا القرار إشارة لنقص اهتمام، وحتى
لسخرية، تتعلق بمسائل تعليم الألسن: فمن الواضح أن استعمال
لهجة فرعية ما بشكلٍ مرضٍ يقضي أن نخضع لكل شواذاتها الصرفية.

ومن المهم، في هذا الصدد، أن نلاحظ أن الانحرافات، نسبة
إلى المعيار الصرفي، هي تلك التي تجذب فوراً اهتمام السليفيين،
كما يمكن لها أن تُعاقب بقوة عن طريق السخرية. ونحن نستشف
لماذا عندما يقول الغريب - أو الولد - *(il ventra)* بَدَل *(il viendra)*
(هو سيأتي)، فقوله سيُفهم مباشرة، ولكن الانحراف سيبيّن حالاً،
وسيستتبع ذلك ابتسام وتهكم، ولكن لو أعلن شخص دانماركي،
مثلاً، بأنه: *(il sera recteur dans dix ans)* (سيصبح رئيساً للجامعة
خلال عشر سنوات)، حيث يريد القول *(il sera recteur pendant dix ans)*
(سيصبح رئيساً للجامعة في غضون عشر سنوات)، فنحن إما
لا نفهم مراده، وإما سيوحى النزاع بين ما يشير القول به وبين السياق
(فالشخص موضوع الحديث سُقي للحال رئيساً للجامعة)، إلا أن ثقة

اختياراً خاطئاً لحرف الجر *dans* «خلال». وضمن هذه الشروط، فإن الجهد المبذول لتجاوز التناقض، لن يدع مجالاً لابتسامة أو لملاحظة فظة تُطلق سراً.

إن ما سيمكننا تفسيره، بطريقة مغلوطة، على أنه لامبالاة تجاه الشكل، لا يقود إطلاقاً إلى أن ترتب الموزيمات، في النحو، ينبغي أن يقوم على قاعدة سيمائية، أي أن ننسق جماعياً ما يوافق عنصراً بذاته من عناصر التجربة، فأنا عندما أقول: (*le cheval court*) أو (*la course du cheval*) (ركض الحصان أو سباق الخيل)، أحيل بالضبط تماماً إلى الحقيقة المدركة نفسها، ف (*danse*) (رقص)، في (*elle danse*) (هي رقصت) أو في (*la danse*) (الرقص) تحيل إلى العمل نفسه. ولا يختلف اسم وفعل ما في هاتين الحالتين، إلا في السياقات التي يمكن لهما أن يردا فيها. ولكن لا يمكن أن يكون القصد، في اللسانيات، خفض الطرف من الاختلافات الشكلية كتلك التي نبينها بين (*court*) (هو ركض) وبين (*course*) (سباق) مطابفين ما يوافق نموذج التجربة ذاته. إن ما ينبغي علينا القيام به هو تقريب الوحدات التي نحافظ، في الأقوال اللغوية، على النماذج نفسها للعلاقة. إن علينا، والحالة هذه، أن ننسق بين (*court*) (هو ركض) و (*danse*) (هو رقص) في الباب عينه للأفعال، وكذلك الأمر بالنسبة إلى (*course*) (سباق) و (*la danse*) (الرقص) في باب الأسماء نفسه.

وفي هذا الصدد، فالنظرية اللسانية الوظيفية والنظريات اللسانية البنيوية لم تجد في شيء: إننا نعيش تقليداً فميز فيه بين «أقسام الكلام» التي تنأسس، في التحليل الأخير، على الانسجام الفاعل في الوحدات البليغة في القول. وحتى إذا كان الأصل منسياً، فسنعزب التفكير في أن «أقسام الكلام» تصلح لذاتها، ولكل تنوعات اللغة الإنسانية، منذ الأزل. إن وطأة التنظيم الشكلي على قاعدة

الانسجومات من القوة بمكان، حتى أننا نواجه صعوبات كي نقتنع بأن (*dance*) (رَقَصَ) في (*elle danse*) (هي رَقَصَتْ) وفي (*la danse*) (الرقص)، يمكن أن تتواءم تماماً مع الحقيقة المعيشة ذاتها.

و قليلاً ما يوصف لسان ما بقدرته على الإحالة إلى هذا أو ذاك، بل يتم التركيز على طريقته الخاصة بتنظيم إحالاته، وهذا ما يبينه لنا اختبار انسجومات المونيمات في العبارة. إننا نفضل «تساوقات» على «توافقيات»، لأن بإمكان هذا المصطلح الأخير أن يحملنا على الاعتقاد بأن المقصود هو إمكانية البقاء على اتصال. وحين نكون بصدد تحديد العلاقات في الفرنسية - مثلاً - بين أداة التعريف وبين الاسم، فليست هناك فائدة كبرى في أن ننطلق من مثل (*le livre*) (الكتاب) حيث يتصل المونيمان، أو مثل (*le joli petit livre*) (الكتاب الجميل الصغير)، حيث يفصل بينهما نعتان. وهنا أيضاً، ينبغي فحص النظر عن الظروف الشكلية، حيث لا تتمتع بالملامة.

إن تعرض مونيم من باب ما لاختبار انسجومات - بما فيها الإمكانيات - في ما يخص تعلق ظهوره أو عدمه، بوجود مونيم هائد لنوع آخر، يبين في الألسن المدروسة لتاريخه، ثلاثة نماذج متميزة من المونيمات. سنقول إن مونيماً من بين مونيمين اثنين متوافقين، هو من يستطيع أن يتواجد بمعزل عن الآخر يسمى النواة، وأن ما يستلزم النواة هو المحدد (*déterminant*) أو التابع. وهذا يسمح لنا بأن نقابل المونيمات التي يمكن لها أن تكون نوى، وتستقبل بناءً عليه تحديدات، بتلك التي لا تكون مطلقاً إلا تحديدات. وهذه الأخيرة نستنيها كميّيات. وعند الحاجة، يمكن الإشارة إلى الأولى على أنها نوية. أما النموذج الثالث المعبر هنا فهو الذي لا يقوم إلا بوصفه عنصر علاقة بين مونيمات أخرى، ويمكن أن يعرف بالتالي بكونه يقنضي وجود مونيمين آخرين، كي يدرج في القول - - . وهذه ما

تشير إليها، في خط تقليد مدرسي، على أنها «عناصر وظيفية»،
(fonctionnels) في حين أن «ترابطيات» «relateurs» أو «relationnels»
مستكون أكثر وضوحاً. وما مستيقبه في الوقت الحالي فهو «ترابطي».

إن العلاقة التي تقوم بين مونيمين يمكن أن تكون علاقة تواجد.
وفي هذه الحالة فنحن نتكلم عن تنسيق. ويمكن لهذه العلاقة ألا
تكون موضحة بواسطة مونيم، كما في تعداد مثل: (femmes,
vieillards, enfant) (نساء، شبوخ، طفل). وحينما تكون العلاقة على
هذا النحو، يُشار إلى الترابطي تقليدياً على أنه «عاطف نسقي».

كما يمكن للعلاقة أن تكون اتباعية وذلك عندما تقوم بين نواة
ومحدداتها. ويمكن لهذه العلاقة ألا توضح. وهي لا تكون على هذا
النحو مطلقاً حينما تكون من الطبيعة نفسها، أي ببساطة، عندما
تكون علاقة اتباعية. وفي هذه الحالة، فالطبيعة الدقيقة للعلاقة تنتج
عن القيمة الخاصة بالمنصيرين المتواجهين، مثلاً: أداة التعريف
والاسم في (la danse) (الرقص). وحيث يمكن للعلاقة بين مونيمات
صنفين مختلفين أن تكون ذات نموذج متغير، مثل العلاقة بين الاسم
(souris) (فأر)، والفعل (mange) (هو أكل)، فنحن نتوقع أن تعين
بواسطة ترابطي يشار إليه تقليدياً - حسب الألسن - على أنه حرف
جزء، أو إرداف، أو علامة إعراب، وعلينا بالطبع أن ننظر في إمكانية
استخدام نفمة متميزة من أجل هذا.

ومن أجل تعيين طبيعة العلاقة، لهذا المسئل، فإن وسيلة
اقتصادية، بوجه خاص، تقضي باستخدام الموضع الخاص
بالمونيمات المذكورة. وعلى سبيل المثال، فتقّم الاسم على الفعل
يعين العلاقة (أو الوظيفة) التي يقال لها «فاعل»^(*)، بينما في حالة

(*) تنص قواعد النحو العربي على أن الاسم الذي يسبق الفعل يكون مبتدأ، وهذه

العلاقة تناقض بالتالي مع علاقة (الفاعل) للمذكورة أعلاه.

إرداف اسم على اسم، فالعلاقة «تسمى مفعولاً». إن هذه العلامة لموضع الاسم، نسبة إلى الفعل في اللسان الإنجليزي، هي التي دفعت أغلب اللسانيين الإنجليز إلى أن يروا فيها مقياساً حاسماً لتصنيف الألسن، في حين أنه لا يمكننا أن نضع على الصعيد نفسه موضعاً وجوباً ذا معنى، وآخر تفصيلاً مصاحباً يترابطي يسمح بكل الانحرافات الموضعية. سنغض النظر، والحالة هذه، عن كل محاولة نموذجية بمصطلحات ل (SVO، OSV) ... إلخ.

إنها العرقية عينها التي تقود إلى إدراك النحو على أنه اختبار لتوافق الوحدات البليغة. والواقع، فالنحو - وقد رأينا جيداً من قبل ظهور اللسانيات البنيوية - هو اختبار الطريقة التي بمقدورنا أن نعزز بواسطتها التجربة موضوع الرسالة، في إجماليتها كما في تعدد أبعادها، وذلك انطلاقاً من خطية العبارة. ترى هل علينا، من وجهة النظر هذه، أن ندرج، في النحو، العملية التي تسعى إلى إقامة أبواب من المونيمات على قاعدة توافقاتها؟ هل علينا أن نقصر النحو على دراسة ما نسميه تقليدياً الوظائف، أي طريقة تعيين النماذج المختلفة للعلاقة التي تقوم بين مونيمات بايين اثنين؟ قد لا يكون من الأهمية بمكان أن نقطع في هذا الشأن. وما يمكن أن يكون نحواً في إقامة الأبواب، فهو ينتج بالضرورة من اختبار التوافقات. وفي النطاق الذي نقدر فيه أن يشكل جرد التصنيفات موضوعاً لفصل متميز، فالنحو سيختزل، بشكل آلي، إلى دراسة «الوظائف»، أي مختلف نماذج العلاقة التي تُسجل بين مختلف الأبواب ولكن هذا الأمر قد لا يكون جديراً بالاحترام.

ونحن لا نذكر هنا الصعوبات المختلفة التي نواجهها حينما نرغب في القيام بدراسة لنحو لسان ما. ولكننا سنذكر، ببساطة، بأنه

يمكن أن يُعتبر، عن النموذج نفسه للعلاقة، بطريقة تتبدل، تبعاً للسياقات، معجمية كانت أو نحوية: فالوظيفة المفعولية في الإسبانية لا توضح بواسطة a إلا إذا كان الاسم يعني كياناً يمكن أن يكون له حظ في الاضطلاع بوظيفة فاعل، وظيفة لا تُعتن، بشكل آلي، وبوضوح بواسطة التقديم (antiposition). ومن ناحية أخرى، فئة وظائف مجانسة لفظياً، مما يصلح في الإسبانية لوظائف المفعولية والإضافة التي بإمكانها أن تستقبل التعبير a نفسه. ومن المتواتر أن تكون وظيفتان اثنتان متجانستين لفظياً نسبة إلى الاسم، وتميزتين بواسطة ضمير، أو العكس: (*Je vais à Paris*، *Je le donne à Jean*) (أنا أعطيه لجان، أنا أذهب إلى باريس)، ولكن (*Je le lui donne*، *J'y vais*) (أنا أعطيه إياه، أنا أذهب إليها)، (*il nous le donne*، *il le donne à Jean*) (هو يُعطينا إياه، هو يرانا)، ولكن (*il voit Jean*) (هو يعطيه لجان، هو يرى جان)، ويضطلع عادةً مفعولان، غير متناسقين أدخلوا بواسطة العنصر الوظيفي نفسه، بوظائف مختلفة:

(لقد أنقز، مع أصدقائه، الممثل بالادوات المهيأة الحاضرة)
(Avec ses amis, il a réussi l'opération avec les outils disponibles).
ويمكن، مع ذلك، أن يكون المقصود تخصيصات متابعة من الطبيعة نفسها: (لقد التقيا بباريس، في السوربون، عند مدخل مدرج دوركهيم)
(Ils se sont rencontrés à Paris, à la Sorbonne, à l'entrée de l'Amphithéâtre Durkheim).

وفي العادة، فإن قواعد اللغة تمتنع عن متابعة اختيار الوظائف أكثر من تلك التي تثيرها المسائل الصرفية. وهذا يوضح جيداً واقعاً مفاده أن الأغلب من بين هذه الوظائف، وحتى حينما لا يبدو أن واضعيها لم يحصروا أنفسهم باحتياجات التلاميذ، تسعى، خاصةً إلى

السماح لأولئك الذين يستشيرونها، بـ «تنظيم الرسم الإملائي». ولن يقتنع اللسانيون بالطبع بوجهة نظر مجملة إلى هذا الحد للواقع اللغوي.

إن ما يميّز النحو من المعجم هو أننا في الحقيقة نعالج في النحو مظاهر لغوية نستطيع أن نأمل منها أن تكون شمولية، كما إننا نعهد إلى مؤلف القاموس بجمع مفردات اللغة من دون حدّ معين، وفي الواقع، ما يمكنه إدراجه في الإطار الذي يوفره له الناشر. ومن الواضح أنه لو كان على تقدّم تحليل المكونات أن يؤوّل إلى اختزال مفردات اللغة إلى ائتلاف لعددٍ متناهٍ من سمات المعنى، لأمكننا أن ننظر في إدراج لائحة هذه السمات في النحو. ونحن بالطبع غائبون عن الحساب في ما يتعلق بالمعجم باستثناء الأدوات النحوية، ويفهم الأمر على نحو جيد: فالمعجم موجود هنا كي يجزّب تغطية كل احتياجات التواصل البشري، أي كل ما يرغب الإنسان بنقله إلى الآخرين حول تجربته عن العالم. وعليه إذاً أن يتوسّع باستمرار، إما باقتنائه بوحدات جديدة، وإما باستخدامه موارد تعدّد الدلالات التي تعمل، في ديناميته، مدرجةً الوحدات القائمة في سياقات جديدة، فالمعجم محكوم عليه وظيفياً بالتوسّع، بعكس عناصر النحو التي تؤمن ثباتاً ما للمجموع، وذلك بنمذجها الوحدات المعجمية في الأطر المعينة مسبقاً. سيمهد عالم النحو، والحالة هذه، إلى المعجمي بتسجيل وعرض الطريقة التي توضع فيها كل وحدة عائدة لمجموع مفردات اللغة، بشاؤٍ ومع بضع عناصر من التجربة. وهو لن يعالج، من جهة، لا سمات المعنى التي تميز وحدات الباب النحوي بعينه، أي تلك التي تتواجد - من حيث المبدأ - بعددٍ محدودٍ فيها. إن التحديد الذي تتضمنه هنا عبارة «من حيث المبدأ» اقترح بفعل أن تَوسّع عدد المونيمات ليس محظراً بالمناطق التي يقال لها معجمية،

لأن عبارات جارية يمكنها أن تظهر باستمرار، مثل: (au cours de : (في غضون)، (dans l'espace de) (في مدة) عن طريق قولبة التركيب، وظهور كصفات جديدة ليس بطبيعة الحال أمراً مستبعداً، ففي كتابنا النحو الوظيفي للفرنسية، أثّرنا وجود كيفية فعلية يقال لها «قريبة عهد»، وتتجلى بالتركيبية: (فعل أتى + حرف الجر من + فعل بصيغة المصدر) (venir + de + un verbe à la forme infinitive) وقد أثّرنا على قاعدة بداية لقولبة ما (راجع 3.11)، ومن الواضح أن هذه الوحدة التي يصعب شكلياً حصرها، اختراع حديث العهد نسبياً، وما زال في طور الإنشاء، وهو ميسر لجهة وجود متجانس، الـ «القريب»، المؤلف من (فعل ذهب + المصدر): (aller + l'infinitif) وبصورة عامة يكفي أن نذكر بأن الأنظمة النحوية تتغير بمرور الزمن دون أن يتوقف اللسان، الذي يقوم فيه التغير، عن العمل. إلا أن التحويرات التي تطرأ على البنية النحوية هي أقل سرعة بكثير من تلك التي تؤثر بالمعجم، ويمكننا بسهولة إلى حد ما أن نفرض الطرف عنها.

إن عالم النحو الوظيفاني، وإزاء أصناف المونيمات التي يستخلصها، يمتنع عن أن يختص سيميائياً كل صنف منها: فهو يعرف جيداً جداً أن ثقابل أفعال بأسماء، والقول بأن البعض يدل على حالات أو أحداث، والآخر يدل على أشخاص أو أشياء، هو تأكيد يحنق أسماء مثل: (حال) (état)، (رضى) (satisfaction)، (هدوء) (calme)، أو (حدث) (action) نفسها. وهو بإمكانه، في الأكثر، التذكير بأن الفعل منفرداً لا يؤلف على الإطلاق موضوعاً. ولو قدم (أي العالم)، مثلاً، (le kalispel) (الكسبيّة) (راجع: Hans Vogt، Oslo، 1940، The Kalispel Language) لأمكنه الإشارة، بشكل مفيد، إلى أن الأسماء - في النطاق الذي لا تكون فيه قوليات لمواضع قديمة - تعني عنه كائنات حية وحسب. وميشعر هذا العالم

بالمقابل، أن واجبه الأول ليس في إبداء رأي حول ما يفرق، دلالياً، أصنافاً متماثلة تماماً يتساوقاتها، بل عليه أن يسم ما هو متقابل داخل كل صنف، من وحدات التساوقات المتماثلة بعضها مع بعض. وحينما يتينا، مثلاً، أن أداة التعريف *le*، واسم الإشارة (للمفرد المذكر) *ce* (هذا)، والصفة الملكية للمفرد المذكر *mon*، ترد في الفرنسية في الجدول الاستبدالي نفسه، وننتهي من جزاء هذا إلى الصنف نفسه لمحققي الاسم، فليس بإمكاننا مطلقاً أن نمسك عن استخلاص ما يميزها، يعني ما نشير إليه على أن قيمتها، مثل صيغة *défini nu* (المُعَرَّف المجزء) لـ *le*، وصيغة (*démonstrative*) (اسم إشارة)، وصيغة (*possessif*) (ملكي) + صيغة الضمير الأول لـ (*mon*)، لقد اقترحنا مصطلح القيمة (*axiologie*) واستخدمناه للإشارة إلى دراسة قيم تقابلية مماثلة. وبالطبع ينبغي أن يكون واضحاً أن القيمة تمتد أيضاً إلى أبواب المعجميات. ومن المؤكد أننا نستخلص - عن طريق التقابل - سمات المعنى التي تتروج في المعجم بشكل تعريف قاموسي مخفف إلى حد ما، فمالم النحو لا يستأثر إذاً، على الإطلاق، بالقيمة. ولكن علينا ألا نخفي عن أنفسنا أننا بالتزامنا - في القاموس - بالسمات المُستخلصة بواسطة التضاد، فنحن نجازف كثيراً بأن لا ينال مستخدم القاموس ما كان يتوقعه، فنحن نند نفريينا الموزة من أصناف الفواكه الأخرى التي تتناوب وإياها في تغذيتنا، فنلاحظ بأننا نميل، بالضرورة، إلى افتراض صيغة «موزة» التي سنجعل - على صعيد تحليل اللساني - السمتين «صفراء» و«طويلة»، اللتين اعتقدنا بإمكانية استخلاصهما من بضعة تقريرات، مُسهيتين وغير مجديتين. ولغوياً، فتحدد الموزة هو «موزة»، وكما نُعلم من لا يعرف - بالصدفة - ما الموزة، فلن يبقى لدينا سوى وصف مفصل، وربما الأفضل، صورة ملونة قد نكملها يوماً بعدة إرسالات شمية.

وفي ما يخص المونيمات التي يقال لها نحوية من نموذج (de, mon, ce) في الفرنسية، فبإمكاننا، بلا ريب، أن نستنتج أن هذه الوحدات - وسبب اندراجها في القاموس - فإن باستطاعتنا أن نمسك عن تحديثها قيمياً في النحو- ولن يُنظر مطلقاً في هذا الحل في حالة المونيمات التي لا تستطيع أن تخضع للنظام الألفبائي للمعجم، لجهة أن دالها متغير وفق السياقات، وهو على الأغلب مندمج وغالباً متقطع: ويمكن لمونيم الجمع في الفرنسية أو الإنجليزية أن يتمثل بشكله الكتابي الأكثر تواتراً: -s. ولكن ما العمل في حالة الجمع لدى الألسن الألمانية، والروسية، واللاتينية، وبصورة عامة، ما العمل في حالة المونيمات جميعها التي علينا أن نصنم على تعيينها بواسطة مصطلح يذكر، بمواضعة سمّ معنى ما؟

وبصدد نقطة أخيرة، فالاستخدام الوظيفاني بتفاضل، من جديد، وبوضوح، عن التقليد، فالمقصود هو إدخال اختبار الشروط - التي يمكن بموجبها للمتكلمين أن يقوموا بتشكيل وحدات جديدة بليغة - إلى النحو. إن بإمكاننا أن نتزوّد، بشكل طبيعي، بوحدات شبيهة وذلك باقتراضها من لسان آخر، ولن نستبعد، من اهتمامات اللساني، الشروط التي تجري فيها هذه المقترحات، فاختبار الطريقة التي يمكن لعناصر دخيلة شبيهة أن تتلاءم فونولوجياً وتركيبياً، مع بداية اللسان، يقدر أن يندرج شرعاً في تقديم هذا اللسان. ولكن من الطبيعي أن تولّد وحدات جديدة، بواسطة الموارد الخاصة باللسان هو ما ينبغي أن يلفت الاهتمام بشكل خاص. فاختبار الظروف التي تحدّد هذا الإنتاج، وظهور نتائج أو مفاهيم جديدة، والرضة في إحلال مصطلحات غريبة، تبقى إلى حدّ ما هامشية، فإيجاد فونيم ما، غير محلل بطريقة أو بأخرى، دفعة واحدة، يدخل في باب الاستثناء. ويحفظ التاريخ اللساني المحدود حالة المفردتين الفرنسية

gaz (غاز) والإنجليزية (quiz) (شخص غريب الأطوار، امتحان موزج). والمهم في هذا الصدد ينتج مما نشير إليه على أنه (la synthématique، أو المونيمية التركيبية، أي التقريب بين المونيمات السابقة في الوجود بهدف تشكيل وحدات لها نفس السلوك النحوي المعروف لبضعة مونيمات في اللسان. وتغطي المونيمية التركيبية ميداناً هاماً يدخل في عداد: الاشتقاق، والتحت، وانتلاف العناصر^(*) (confixation) (انتلاف عناصر مثل - rélé أو - phone، لم يكن لها انطلاقاً، كأي من الزوائد الأخرى، أي وجود مستقل في اللسان)، إضافة إلى قوليات التراكيب التي تفقد عناصرها المكونة الخياري في أن تتحدد بشكل إرادي، فتكوين صدر الكلمة الذي بمقدورنا أن نسميه - حسب نموذج إنجليزي - «اقتطاعاً هجائياً» (acronymie)، ليس سوى طريقة اقتصادية للتوفيق بين المونيمات المركبة المتسعة جداً.

ويبدو جلياً أن الوصف الشامل للسان ما، يشتمل على نحو ومعجم، لن يكون بإمكانه القيام باقتصاد المونيمية التركيبية. وما يمكن إدراجه في القاموس هو من المونيمات المركبة المثبتة تماماً في اللسان، ولكننا لا ندرج على الإطلاق - في متن المؤلف - الأساليب القائمة لتشكيل المونيمات المركبة، تلك التي يستخدمها أكثر فاعلي الفرنسيون أنفسهم، المعتبرون لغوياً محافظين جداً. وعلى النحو، بالتأكيد، أن يحمل إلينا المعلومات اللازمة في هذا الصدد.

ومن اليوم، فثمة عدد هام من الدراسات اللسانية الوصفية المستلهمة من تعليم اللسانيات الوظيفية. ومنذ عام 1960، فإن أغلب

(*) مصطلح من ابتكار ملوتيه، لا مرادف له في العربية لذا، ارتأيت أن أجد له مقابلاً عربياً مركباً «انتلاف عناصر».

تحليلات الألسن «الدخيلة» «exotiques» التي تحققت في فرنسا، قد قامت وفق المبادئ التي تضمّ المناهج التي أجملنا للتو. وستقع في هذه المناهج على تطبيق أمين جداً، ولكنه قطعاً خرقاً، وذلك في التقديم الذي أورده بيار مارتان (Pierre Martin) للسان الـ (Montagnais)^(*)، أو اللسان الكونكي^(**) (algonquien) للكيبك. إن كل جهد لمواجهة هذه المناهج بلسان حضاري، غير الفرنسي، سيكون له، بالتأكيد أثر في تحسينها وفي إثرائها. ولمثل هذا الجهد أحدث كل الذين استطعت من بينكم أن أعرف السبيل إلى إقناعهم بخصب وجهة النظر الوظيفية.



(*) لسان هندي أمريكي درس من قبل اللساني الكندي بيار مارتان.

(**) هنود حمر استقروا في منطقة البحيرات الكبرى، وتحديداً في شمال غرب سان

لوران.

الفصل الثاني

تعلم الكلام وتعلم القراءة

يذكرُ هذا العنوان، بالطبع، بأنه يمكن للتواصل اللغوي أن يتم وفق شكلين: منطوق ومقروء. ولكنه يرغب كذلك - من خلال النظام المختار لعرض الاستخدامين - في أن يحدد بأن الشكل المنطوق، في عملية الاكتساب، يسبق الشكل المكتوب، وأنه يبقى البرم أيضاً، في عديد من المتحدات الاجتماعية، الشكل الوحيد القائم، ويعود القسمان (1) و(2) من هذا الفصل إلى هذه البدايات التي تقضي بأن الاعتبار المعفود للكتابة يميل دائماً إلى إهمال المنطوق، ولن يكون بمقدورنا مطلقاً أن نعني أنفسنا من تصفحهما بسرعة قبل أن نتصدى للبقية.

لقد استُمر النضال الأولان - تماماً كما القسم الخامس - من نشرة موجهة إلى معلمي مرحلتي الأمومة والتعليم الابتدائي، الذين يدرسون الأولاد الصغار على الكتابة والقراءة، في فترة أولى (في هذا النظام) بواسطة ألفباء خصوصية عرفت بـ ألفونيك (alfonic).

أما القسم الثالث، فهو بشكل الفصل الأول من كتاب نحو الكتابة بواسطة الألفونيك⁽¹⁾، الذي يصلح كمقدمة للتطبيق

= Jeanne Villard, André Martinet et Jeanne Martinet, *Vers l'écrit avec* (1)

المدرسي لهذه الألفباء، ويعلم عن طبيعتها كما عن مصلحتها.

ويستعيد القسم الرابع نصّ الرسالة التي تُسلّم لأولياء التلاميذ الذين يستخدمون الألفبتيك. وهو يسعى خاصة إلى تهدئة مخاوفهم إزاء هذا النظام الكتابي المختلف للمألوف. وإذا كنا نستعيد هنا، فذلك لأنه يُعلم بفائدة عن السمات التي تميّزه عن الاستخدام الإملائي.

ويقيم القسم الخامس مقايضة بين استخدام الألفبتيك في فترة أولى، والعبور اللاحق إلى نظام الكتابة، وتعليم دراسة الخطوط في اليابان. ففي هذا البلد، تُلقن الأطفال، قبل كل شيء، أبجدية مقطعية (le ktragana)، حيث توافق كل علامة قيمة صوتية معينة، مثل *mi, ka, do*. ويتيح لهم هذا الأمر أن يكتبوا كما يرغبون ويوصلهم إلى النصوص المقدمة في هذا النظام الكتابي. وما أن يُلقن هذا النظام، حتى يبدأ تعليم النظام الكتابي النهائي الذي يستخدم في الأصل - حروفاً تصويرية صينية.

1.2 - لسان منطوق ولسان مكتوب⁽²⁾

عندما يعلن لسانه أنه كي نفهم ما اللغة الإنسانية، ينبغي علينا أن ندرس، قبل كل شيء، الألسن كما نتلق بها، وعندما يذكر بأن الأولاد يتكلمون اللسان قبل أن يكتبوه ويفرّضوه، وأن كثيرين من البالغين في العالم لا يحسنون لا القراءة ولا الكتابة، وأنه كانت، وما زالت، هناك شعوب تتكلم بالطبع، ولكنها لا تملك نظام كتابة.

Alfonie: Écoles maternelles et cours préparatoire, avec la collaboration de Denise Boyer, Albert Druminici et Gilberte Dominici (Paris: Hachette, 1983).

(2) نشر في: «Langue parlée et langue écrite» *Liaison alfonie*, fasc. 3 (1986), pp. 9-17.

فتحن نصفي إليه بتهذيب، ولكنه تهذيب يُعرف في أغلب الأحيان
يشعور يزرع التافض، فكل ما يقوله لا يمكن إنكاره بالتأكيد، ولكنه
لا يقنع أن اللسان كما تنطق به يملك وجوداً مستقلاً عن الحقيقة التي
يصفها. وكي نبدأ بالإحاطة بها على أنها متميزة ينبغي على اللسان أن
يظهر بشكل كلمات مكتوبة، تفصل ياضات بعضها عن بعض.

فكرسي هي بالنسبة إلى فرنسي ما شيء معروف جيداً. وثقة
تطابق كامل بين هذا الشيء والمصطلح الذي يدل عليه. حاولوا أن
تفرقوا بين الشيء والمصطلح، إنها ممارسة الفلسفة، هي ليست أبداً
أن يعيش المرء العالم. ولو طلبنا إليه بشكل مباغت: «ما كرسي؟»
يجيب بعد لحظة اندهاش: «كرسي... إنه كرسي ما!!» إلا إذا أظهر
السائل - من خلال نبرة، مثل غريب - نوعاً من العجز. وفي هذه
الحالة، فنحن سنوفر له، وليس من دون تسامح، شرحاً ما.

وكي يتذكر اللساني باستمرار الموضوع الذي يتكلم فيه، فهو
يرى نفسه مرغماً على التفريق بين الشيء نفسه، الكرسي الذي
ينتصب هنا على أقدامه، والفكرة التي يكونها عنه الشخص الذي
يتكلم، إضافة إلى الأصوات التي تسمح له بالإشارة إلى الكرسي.
وفي أرميته (langon)، فالشيء هو المرجع (réfèrent)، والفكرة هي
المدلول (signifié)، والأصوات هي الذال (signifiant). وما يبدو أنه،
في كل الحالات، هاماً، هو في الأ يخلط بين الواقع - مستقلاً عن
الطريقة التي يشير بواسطتها لسان معين إلى العناصر - وبين اللسان،
موضوع البحث، الذي ينظم هذا الواقع وفق طريقته.

وإزاء اللساني، فلدينا ذلك الشخص الذي يتكلم لسانه (sa
langue) باستثناء أي لسان آخر، أو الذي يعالج كل لسان غريب على
أنه نسخ عن لسانه. وبالنسبة إليه، فالمسألة لا يمكن أن تكون في
الفصل بين الشيء وبين الأصوات التي توافقه في المنطوق، إذ ينبغي

على الكلمة والشيء أن يختلطاً، والكلمة ينبغي ألا تترجم الشيء
(traduire)، بل أن تكونه (être)، بحيث إن فعل تكلم لن يختلف
عن فعل يعيش في المجتمع.

وتتغير وجهة النظر فجأة منذ أن تدخل الكتابة، فالمباراة
المنطوقة كانت كلاً قصيداً منه، بخاصة، أن لا يطابق العناصر المكونة
لكي بعمل الرسالة. وها هو الشخص الآن إزاء تتابعات أحرف يسهل
نطائرها، وتجتمع في كلمات تفصل بياضات بعضها عن بعض. وهنا
أيضاً، فالرسالة ستتم، من دون شك، بشكل أفضل في ما لو كنا
ستتجرد من هذه الأحرف والكلمات، لنصل مباشرة إلى المعنى.
ولكن لن يبقى منها، على الأقل، سوى أحرف ذات شكل ظاهر
هنا، نستطيع أيضاً إيجادها دائماً في حالة التوقف خلال قراءة
سريعة: فكل كلمة كرسية، مثلما هي مكتوبة، تكتسب واقعاً دائماً،
وتصبح شيئاً لذاته، متميزة عن الشيء كرسية. وما إن يُكتب، فاللسان
يمكن أن يظهر بسهولة بمثابة واقع ثابت، يمكن إدراكه بمعزل عن
الأشياء التي يحيل إليها. ومنذ ذلك، نفهم أن يكون المستخدم المتوسط
جاهزاً كي ينفي ميزة اللسان عن كل لهجة فرعية لا تملك قابلية كي
تتج من جديد بشكل كتابي.

ويمكننا الاعتماد أن التوسع الخارق للكلام المبتوث والمبجل
قد غير بعض الشيء ردة الفعل الممكن جداً تفسيرها هذه. وبإمكاننا
أن نمزج - على شريط صوتي أو على أسطوانة - كلمة... chaise...
(كرسي) عن سياقها ونلصقها كحقيقة فيزيائية متميزة عن الشيء
المعنى. ولكن من يقوم بهذا الأمر غير محترفين؟ يبلو أن منحرفين
إلى حد ما أو علمانيين، قد قرروا أن يعالجوا الكلام على أنه حقيقة
فيزيائية بحصر المعنى؟ إن مجيء التلفزيون وتعميمه قد عززاً، في

المجتمع، شروطاً لا تتلاءم كلياً مع وعي الجمهور الواسع للاستقلالية الذاتية للسان المنطوق: فاللغة تتطابق مع الحياة، على الشاشة الصغيرة كما على الكبيرة.

ينبغي ألا نستخلص مما سبق أن برهنة اللسانيتين المتعلقة بأسبقية المنطوق على المكتوب خادعة، وعلى أي حال، مستبعدة ذرائعياً لأنها قابلة لكبح التعبير الحر وللتأثير على عفوية التبادلات اللغوية اليومية.

إن الفتح الأكثر حسماً من فتوحات اللسانيات في القرن العشرين يتمثل في الاكتشاف - المستشف بالطبع من قبل الأسلاف، ولكنه غير موضح حقيقة على الإطلاق - الذي لم يقم الانبناء المزدوج (*double articulation*) حروفاً وكلمات، عائدة للسان المكتوب، إلا بإبداء انبناء العبارات المنطوقة للعيان، وحدات متميزة هي الفونيمات، ووحدات بليغة هي المونيمات. ولو أمكن لهذا الإبداء للعيان - الذي يمثله اللسان المكتوب بواسطة الفباء - رأساً أو بمرور الزمن، أن يظهر بضعة انحرافات نسبة إلى النموذج، أي إلى ذلك المائد للمنطوق.

ولا يعني أغلب الناس، على الإطلاق، وجود انبناء المنطوق إلى فونيمات ومونيمات. ولا يمنع هذا أنهم لم يتمكنوا مطلقاً من تعلم كيفية التواصل باللفة، إذا لم تكن محكيثهم - شكل اللفة الذي يتعلمونه خلال طفولتهم - مؤلفة من وحدات للمعنى يمكن تطابقها هي المونيمات، تتميز في الأذن بعضها من بعض مثل الائتلافات الخاصة للأصوات المتميزة، أي الفونيمات. ومن يسمع صيغة الأمر: (*Faut pas marcher sur le gazon*) (علينا أن لا نمشي على الأرض المعشبة)، فهو لن يعني أنها تتضمن التعبير عن فرض (*faut*)، علينا، وعن نفي (*pas*)، وعن تعيين شيء ما (*gazon*) الأرض المعشبة،

مقدم بواسطة أداة تعريف (*le*)، وعن توضيح علاقة بين المشي والأرض الممشية (*sur*). وهو سِيَمَيجُ، ببساطة - وفقاً لمزاجه والمظروف - أو هو لن يَتَمَيجُ سلوكه حسب ما سمعه للتو. وستصبح الحياة مستحيلة إذا توجب علينا القيام بتحليل منطقي لكل ما يقال لنا. فالفعالية تتطلب أن نقوم بردات فعل مباشرة، تجاه ما نسمعه دون أي تحليل واع، فإن حذف *pas* في العبارة السابقة، التي ستصبح: (*Faut marcher sur le gazon*) (يجب علينا أن نمشي على الأرض الممشية)، ستحدّد، طبيعياً، سلوكاً مختلفاً كلياً. وهذا يبرّر تأكيد اللساني أن في الفرنسية المنطوقة مونيماً سلبياً *pas*، وأنه يتميز عن المونيم *pour* (جسر) بفونيمه الثاني *a* بدل *on*، وعن المونيم *mais* (سارية) بفونيمه الأول *m* بدل *m*. ولا ريب في أنه يمكننا تكلم الفرنسية تماماً دون أن نشك في أن هذه التحليلات ممكنة، ولكن لا ريب أيضاً في أن فرنسياً - في أثناء تعلّمه اللسان - قد تُربّ، بطريقة أو بأخرى، على القيام بردة فعل تجاه *pas*... كما تجاه نفي، وعلى إدراك *a* على أنها متميِّزة عن *on*، وم على أنها متميِّزة عن *m*. وقد سبقت فترة طويلة من التعلّم، بالضرورة، هذا التملك اللاواعي. ونحن لا نعرف حقيقة أن نفوذ سيارة إلا إذا تصرّفنا بمختلف أجهزة الآلة، دون أن نشعر بها. وقد توجب، في الفترة الأولى، أن يصار إلى التمييز بين دواسة البنزين وقابض المحرك^(*).

وهنا حالة غَرَضِيَّة قد وُضعت جانباً، فكل الناس يتكلمون، ولكن الوحيديين الذين يحسنون القراءة والكتابة هم أولئك الذين أخضعوا لتدريب نفذ بانتباه في المدارس أو ضمن العائلات. ونحن لم ننظر مطلقاً، حتى يومنا هذا، في أن نضبط مناهج خاصة كي

(*) Embrayage : ما يصل أو ما يعشّق المحرك بالآلة التي يتعين عليه أن يحركها.

تكتسب تملكاً للسان المنطوق. ونحن على اقتناع بأنه «يحصل من تلقاء نفسه»، والدليل هو في أن كل الناس يتكلمون، وبخلاف ذلك، فتعلم الكتابة والقراءة يطرح مشكلات لم يتوقف التربويون عن السعي في طلب الحلول لها. ونحن سنجرب تقريباً القول بأنه من الطبيعي أن يتكلم المرء، بيد أن القراءة والكتابة شأن ثقافي. ولكن سيكون ثمة تأكيد لوجهة نظر خاطئة للوقائع: فقد يمكننا القول بأن استعمال اللغة هو من طبيعة الإنسان. ولكن الولد حينما يتعلم الكلام، فهو لا يكتسب تملكاً للغة، بل تملكاً للسان مخصوص هو أداة التواصل والثقافة لمتحد اجتماعي معين. ونستفي من كل ذلك أن المنطوق يسبق دائماً المكتوب، وأن النظام الكتابي للسان ما هو دائماً نسخ مطور تقريباً لبنية المنطوق.

وكي نفهم بشكل أفضل العلاقات بين المنطوق والمكتوب، قد يبدو من المفيد أن نجرب ترسيخ كيفياتها المتتابعة عبر تاريخ البشرية. ولو عمدنا إلى موافقة بدايات البشرية، بحصر المعنى، وتلك العائدة للغة الملفوظة، لا يمكننا أن نؤرخ المنطوق بحدود ملايين السنوات. ولكننا لم نبدأ إلا منذ بضعة آلاف من السنوات في استخدام أشكال خطية متطابقة، تقريباً، مع وضع سمات عائدة للالسن.

سننطلق من نتائج يدوية: صور على صخر عالٍ لا يمكننا القول إذا ما كانت تؤلف رسالة موجهة إلى بشر آخرين، أو إلى قوى فوقطبيعية، وفي ما بعد، نقوش بارزة تخلد عدة أحداث، وفي تاريخ أكثر تأخراً أيضاً، تنابيعات من الرسوم تمثل أحداثاً متتابعة في الزمن، تكاد تشبه الشرائط المصورة المعاصرة، ولكن من دون «فقااعات»، إذا «قصص من دون تعليقات». وفي كل هذه الحالات، كانت ثمة رغبة في الاتصال، وقد أمكن لهذه الرسائل أن تولي الرسائل

المنطوقة التي تنقل الوقائع نفسها للتجربة. ولكن لا شيء يحملنا على الاعتقاد بأننا نواجه شيئاً آخر غير صور، إن نتاجات للنشاط البشري تعلم، دون عودة إلى وحدات المعنى، ما تشتمل عليه اللغة: فلو تفحصت نقشاً بارزاً حيث يقتل ملك آشوري أسداً، فبإمكانني، كما أفعل للتو، أن أترجم محتوى الرسالة إلى عبارات (مكتوبة هنا)، ولكن المصطلحين اللغويين المميزين إلى «قتل»: (*mettre à mort*) أو (*tuer*)، ليسا في النقش البارز متميزين عن الملك وعن الأسد. وما تقوم به جملةتي يتمثل في أنها تفسر - محللة شعوري - المشهد الإجمالي المتحوت في الحجر. ولا يعتبر نقشنا البارز الآشوري كتابة، بل تمثيلاً جمالياً بإمكانني أن أفهمه وأن أقدره بنظرة خاطفة واحدة، أو أن أفصله، مركزاً انتباهي على هذا التفصيل أو ذلك وضمن نظام ما، في حين أنه لو كانت ثقة كتابة، فسينبغي علي أن ألزم نفسي باتباع سياق الكلام.

عندما يكون المقصود قصة من دون تعليقات من دون ادعاء جمالي، يمكن أن يحدث أن كل صورة من الصور توافق، في ذهن الرسام، محتوى لجملة بسيطة من اللسان، ويمكن للرسالة أن تدرك من قبل الجمهور. يمكننا، والحالة هذه، أن نقدر أن ثقة نواة كتابية، لأن الانبناء إلى صور منسوخ عن انبناء الخطاب إلى جمل، نواة أو بسيطة أو مركبة. ولكن الرابط بين الانبناءين يمكن أن يقطع بسهولة حالماً نجرب أن نحلل رسالة كل صورة إلى عدة عبارات متميزة. ويمكننا الكلام، لو شئنا، عن رمزية صورية (*pictographie*)، حيث تبدو الوحدة الكتابية، الصورة، موافقة لجملة المعادل المنطوق. كل صورة هي إذاً رمز صوري (*pictogramme*).

مستكلم عن الكتابة، دون تردد، حيث يستعيد الشكل الكتابي الانبناء الأول للغة، أي انبناء وحدات المعنى أو المونيمات. وهنا

الأمر يفترض، في النظرية، أن رسماً خاصاً يقابل كل وحدة موصوفة، في المتطوق، بمعناها وشكلها. وفي التطبيق، ليس هناك صعوبة على الإطلاق في إيجاد معادل مرسوم لمونيم، مثل (rolet) (شمس) أو (montagne) (جبل)، يشير إلى واقع مُدرك عياناً، فدائرة تخرج منها الشعاعات، بالنسبة إلى الشمس، وخط منكسر بالنسبة إلى الجبل، يمكنها بداية أن تقيم العقبات، مع احتمال تبسيطها بمرور الزمن، كي تؤول على التوالي، في الصينية مثلاً إلى شكلي □ وΔ. إننا نواجه هنا ما نسميه «رموزاً فكرية»^(*) (idéogrammes).

ويمكن لرموز فكرية شبيهة أن تستخدم لتدوين ألسن مختلفة، وأن توافق، في كل حالة، تلفظات مختلفة. ولو افترضنا أن الرمز الفكري Δ مستخدم في أوروبا، فهو سيلفظ (montagne) في الفرنسية، و(Berg) في الألمانية، و(gora) في الروسية. وبإمكاننا القول إن أرقامنا هي رموز فكرية، فالعدد (2) مثلاً يوافق (deux) في الفرنسية، و(two) في الإنجليزية، و(zwei) في الألمانية، والأمر كذلك بالنسبة إلى الرمز &^(**) الذي يساوي et في الفرنسية، وand في الإنجليزية، و(في اللسان عنه - أن يوافق، حسب السياقات، مونيمات مختلفة تسمى مرافقات: ففي اليابانية، تلفظ حسب السياقات، (yama)، و(tan)، و(zan). وقد فترها الغربيون، خطأ،

(*) الإيديوغرام: صورة (أو رمز) تستعمل في نظام كتابي ما (كالهيراغلوفية والصينية) وغالباً شيئاً أو فكرة لا كلمة خاصة بهذا الشيء - أو تلك الفكرة.

(**) يميز معجم علم اللغة النظري، ص 125، من خلال عرقه مادة ideogram، بين (1) رمز فكري: وهو رمز كتابي، يدل على فكرة، كما في الكتابة الهيراغلوفية والكتابة الصينية، وبين (2) رمز مفرداتي: وهو رمز أو حرف يمثل كلمة كاملة، مثل Δ التي تعني and، و& التي تعني دولاراً.

على أنها (yama) بعد (Fuji)، في حين أن اليابانيين يسمّون (Fujisan) الجبل المعروف جيداً.

وعندما يكون القصد أن ندوّن، بواسطة الرسم، مفهوماً مجرداً، فاختيار شكل خطي هو أكثر صعوبة للتنفيذ، وهنا تتدخل المجانسة اللفظية. وتعلم أن مونيمين اثنين ذوي قيمتين مختلفتين، ومتشابهين أصواتاً، يسميان مجانسين لفظيين. ولو رغب الفرنسيون في أن يوجدوا لأنفسهم رموزاً فكرية، لاستخدموا ربما تمثلاً مختصراً لـ خيمة (tente) كي يشيروا إلى الـ (la tante) (الخالة / العمّة). ولو أراد الألمانبيون، في ما بعد، أن يستخدموا النسق عينه، فاستخدموا الرمز نفسه للمفهومين، لن يكون له أي معنى، لأن (tente) يقال لها (Zelt)، وأن (tante) هي (Tante). إن الاستعانة بتشكيل رمزي (rebus)، في الأنظمة الرمزية الفكرية ثابت: إذ يمكن لـ (violence) (عنف)، في الفرنسية، أن تُمثل بواسطة رسم لكمان أوسط مصحوب برسم لمقبض، وسنرى أن (helief) الإنجليزية، التي تعني (croyance) (إيمان)، والتي تلفظ مثل (abeille) bee (نحلة) متبوعة بـ (feuille) (leaf) (ورقة)، ستدوّن بواسطة نحلة متبوعة بورقة.

وكما نلجأ غالباً إلى تجانسات لفظية متقاربة جداً، ونخاف أن لا يكون السياق كافياً لازالة الإبهام، فنحن نضيف غالباً إلى الشكل الخطي علامة توجه نحو المعنى الذي يراد الإبقاء عليه، ففي الصينية، مثلاً، يشتمل الرمز الفكري لكثير من المفاهيم المجردة، بطريقة مميزة، على شكل مصغر للرمز الفكري يشير إلى القلب المفترض به أن يكون لسان حال الفكرة.

وبالفعل، ففي كثير من الأنظمة الكتابية الرمزية التي ظهرت في غضون الأزمنة، انتهت أغلب العلامات إلى الإشارة - في أغلب الأوقات - إلى مقاطع غير ملفوظة، وليس أبدأ إلى مفاهيم، دون أن

تتخلّى مع ذلك عن مطابقتها في بضعة سياقات، كرموز فكرية حقيقية: فلنأخذ العدد (2) وهو، بالضبط، رمز فكري، ففي فرنسا، يمكننا استخدامه لتدوين (d'eux) (من هما) أو (d'eufs) (من البيض) اللتين تلفظان بالطريقة عينها، كما سنفعل في لغز رمزي؛ ولكن العدد (2) سيتابع تناظره مع المفهوم «اثنين». وسيستب هذا ظهور (Syllabaires)، أو أبجديات مقطعية، أي أنظمة كتابية حيث لكل مقطع ملفوظ علامته الخاصة به. وفي اليابان، حيث ينخفض عدد المقاطع الملفوظة والتمتيزية بشكل ملحوظ، فنحن نستخدم بكثرة الأبجديات المقطعية، بالتنافس مع الأحرف الصينية، وذلك كي ندون الانبئات النحوية، أو كي نسخ الكلمات الدخيلة.

إن البحث السابق يوضح كفاية، وبلا ريب، الطابع الهجين إلى حد كبير الذي يضطلع به، بالضرورة، كل نظام رمزي فكري، عند التطبيق. وحتى لو كان بمقدورنا أن ننظر في إيجاد نظام مصطنع رمزي فكري كامل، أي حيث ستلقى كل وحدة مفهوماً لا لبس فيه ومستقلاً تماماً عن الطريقة التي تلفظ بها، فسيبقى أننا سننتهي إلى أداة غير عملية، بشكل ملحوظ، تشتمل على ألوف الرموز الفكرية المميزة. وهذه الأخيرة ستعقد بشكل مخيف كل نسخ طباعي أو استثنائي، وستجعل تعلم القراءة والكتابة يطاول كل المرحلة الدراسية، وهذه هي حالة البلدان التي يحافظ فيها جمود التقاليد، حتى يومنا هذا، على استخدام الأحرف الصينية.

وإزاء الكتابات الرمزية - حيث يكفي النظام الكتابي، من حيث المبدأ، بنسخ الانبئات الأول للغة - نجد الأنظمة الكتابية الألفبائية حيث لا توافق البتة كل وحدة من النظام الكتابي، من حيث المبدأ، وحدة معنى أو موقفاً، بل وحدة متميزة أو فونيماً، فكلمتا (شمس) و(جبل) لن توافقا بعد، على التوالي، رمزاً متميزاً، تمثيلاً منمنماً تقريباً للمشيء المعين، بل تتابع أحرف يوافق كل منها - منطلقاً -

صوتاً نموذجياً خاصاً. وإذا كان النظام الكتابي للفرنسية - بحصر المعنى - ألفبائياً، فسينبغي وجود خمسة أحرف لكتابة *soleil* (شمس) بدل ستة، وكذلك خمسة أحرف بدل ثمانية لكتابة (*montagne*) (جبل). ونحن نكتب الفرنسية كما كانت تلفظ في ما مضى، أي في زمن كانت تلفظ فيه كل أحرف جملة (*ils aiment*) (يحبون) *i-l-z-a-i-m-ə-t*.

وقد تطلب الأمر ظروفاً خاصة جداً، تتعلق ببنية الألسن السامية، كي يظهر - في العالم - نظام كتابي ألفبائي بحصر المعنى، فالصوامت هي التي تحمل المعنى الأساسي في الألسن السامية: فالصوامت الثلاثة *ma* - مثلاً - في هذا النظام، لها قبعة «ملك» أو «حكم»، والصوامت التي يمكن أن تظهر بعد كل صامت، نحدد، في كل مرة، القيمة التي يأخذها «الجذر» في عبارة معينة، والسياق نفسه يقدم تأثيرات جيدة بهذا المعنى. وفي لسان شبيه، فاستخدام أبجدية مقطعية يظهر ضرر تدوير الوحدة الكتابية للجذر، لأن الرمز البدني للكلمة سيكون مختلفاً، وفقاً للصائت الذي يلي *m*، أكان *a* أو *i* أو *u*، فـ *ma* و *mi* و *mu* توافق أشكالاً كتابية متميزة حتماً. وقد بدا من الأفضل، في هذه الشروط، للمفنيين وللكنعانيين، أن يحفظوا الوحدة الكتابية للجذر، عاهدين إلى السياق أن يوضح بشكل أكثر دقة هوية الكلمة. وقد دونوا إذا بالطريقة نفسها *ma* و *mi* و *mu* وكذلك *m* التي لا يليها أي صائت، والنتيجة كانت في تثبيت اثنين وعشرين علامة يوافق كل منها صامتاً من صوامت اللسان. وكان لكل من هذه العلامات اسم كان يبدأ بالصائت موضوع البحث. وقد سمي الأول *alef* «ألف»، وكان يبدأ بـ ؟ (همزة)، وهو علامة تدل على صوت نظير لـ *h*، *t*، أو *k*، ولكنها تحدث على مستوى الحنجرة. وعندما اقترض اليونانيون هذه العلامات والأصوات التي تدل عليها، لم يكن باستطاعتهم أن يقلدوا هذا الصوت الحنجري الذي لا يوجد

في لسانهم. أما والحالة هذه، فهم قد نسخوا *alef* مثل *alef*? التي أصبحت في وقت متأخر *alpha* واستخدمت الرمز الموافق لتدوين صائتهم *a*. وقد ظهر حرفانا *e* و *o*، في اليابانية، في شروط مماثلة، أما بالنسبة إلى *i* و *u*، فهما مشتقتان من الصامتين الفينيقيين *y* و *w*. وبواسطة عدة تطويعات إضافية، امتلك اليونانيون منذ ذلك الوقت نسخاً كتابياً سمح لهم بتدوين كل من الفونيمات والصوامت والصوائت العائدة لسانهم. وقد اتخذ هذا النسق اسمه من الحرفين الأولين للسلسلة: *(a) alphabet*. ولا تشكل الألفبئات الأخرى المستخدمة اليوم - وبخاصة الألفباء اللاتينية - سوى بدائل أنتجها التطويع عن أنظمة فونولوجية أخرى.

هذه الأداة الرائعة هي معجزة في البساطة حينما نقارنها بآلاف الرموز المختلفة للأنظمة الكتابية التي لا تصل إلى إرضاء كل الاحتياجات، إلا بفقدانٍ واسع لطابعها الخاص، وذلك من خلال استخدام اللغز الرمزي، أي اللجوء إلى التماثلات أو القياسات الصوتية. ولا جرم في أن هذه الأداة معرضة بمرور الزمن إلى الفساد. فتطور الأكسن التي تصلح لتدوينها تظهر فونيمات جديدة سنتردد في إيجاد رموز جديدة لأجلها. وحينما ظهر، في مستهل كلمة (*champ*) (سهل) مثلاً، نموذجٌ نطقي جديد مختلف عن ذاك العائد لسابقه اللاتيني (*campus*)، ركبنا - كي ندون هذا الصوت الجديد - الـ *c* اللاتينية مع الـ *h* التي كانت توافق، في موضع آخر، فونيماً مغايراً كلياً. وفي كلمة (*champ*) نفسها، انتهت الـ *P* في أن لا تُسمع، واختلط النطق الموافق لـ *m* مع الـ *a* الذي يسبقه في فونيم جديد. ولكن هذه الفونيمات بطيئة، فلمدة طويلة، سمعت الـ *p* - تقريباً - وفق السياقات، وقد استطاعت غُنة الـ *m* أن تؤثر بـ الـ *a* السابق لها، دون أن يختفي الصامت كلياً. إن أولئك الذين يكتبون، هم بوجه الاحتمال إلى حد كبير أولئك الذين قرؤوا طويلاً. في النصوص القائمة، تكتب

(champ) بواسطة خمسة أحرف، وسيستلج الذين يكتبون إلى إعادة هذه الكتابة، حتى ولو لم تعد توافق ما ينطقونه. ومن جهة أخرى، كيف يمكنهم - وفي غياب كل مواضعة بين القراء وبينهم - أن يدونوا الـ a المؤنقة وهي الصائت الذي يحققونه فعلياً في هذه الحالة؟ وربما حلل البعض منهم أنهم لا ينطقون، بشكل مختلف، كلمتي (champ) (حقل) و (chant) (غناء)، ولكن لماذا يرفضون أن يميزوا بينهما كتابةً، لأن التقليد يعطيهم الوسيلة للقيام بالأمر؟ إن الذي سيكتب (chan) للأولى وللثانية سيكتشف فجأة أنه لا يمتلك الحد الأدنى من الثقافة الأدبية التي يحق لنا أن نطالب بها من يحمل القلم. وهكذا توطلت الكتابة (orthographe)، أي اشتقاقياً، نظام كتابي صحيح، الوحيد الصحيح، وهو الذي ينبغي الخضوع له تحت طائلة النبذ الاجتماعي. وهذا، في نطاق معين، عودة إلى الرمز الفكري، فـ (champ) هي نوع من الرسم، متميز عن رسم آخر هو (chant)، وهكذا يدرك القارئ كلمات النص طالما أنه لا يصادف فيها إلا أشكالاً طابقتها منذ أمد بعيد.

والتقابل الفعلي بين الكتابة الأنشائية وتلك الرمزية، لا يتم، والحالة هذه، على مستوى القراءة السريعة، - تلك التي تعرف عند المباحث - فقط، بل على مستوى التعلم وتطابق الأشكال غير المصادفة لتاريخه. ومهما كان النهج المعتمد لتعليم الولد القراءة، فهو سيطابق يوماً am، an، et على أنها النظائر المكتوبة لبضع وقائع صوتية، وسيسمح له هذا الأمر بمطابقة وتلفظ الكلمات التالية (acharné) (عنيد)، (chipoter) (مساوم)، (déchiquer) (مقطع)، أو (vantail) (مصراع باب)، (mantilla) (خمار) (chambouler) (خرب)، فيما لو صادفها في نص ما، حتى ولو لم يرها مكتوبة سابقاً. والقارئ الشاب الذي يعلم من الطبيب الجراح، والذي يصادف، للمرة الأولى، كلمة طبيب جراح (chirurgien) على الورقة البيضاء، في سياق مثل (كان

هنا طبيب جراح عظيم) (*Il y avait là un grand chirurgien*)، سيدرك على الأرجح، الأحرف الستة الأولى من النص كما لو أنها رموز فكرية، أي دون أن يفصل الأحرف، ولكنه حالما يصل إلى السابع، ستحصل مطابقة للأشكال *ch, i, r, u, r, gi, i en* بوصفها موافقة للفونيمات المتتالية للكلمة. وبعد عدة مصادفات، سيصبح هذا التحليل من غير فائدة، وسيدرك الشكل المكتوب (*chirurgien*)، بدوره، ككل، مستدعياً مباشرة الطبيب الممارس المستقيم كذلك. وستتم تعلم «الرمز الفكري» لـ (*chirurgien*) دون تدخل أي مدوس، وانطلاقاً من نظام التساوي أصوات - حروف المكتوب سابقاً.

يسمح النظام الكتابي الألفبائي - تماماً كالنظام الكتابي الرمزي - إذا بالتطابق الفوري للكلمة المكتوبة والمعروفة، دون عودة إلى التحليل لفونيمات، وإلى ذلك، فهو يسمح بالتطابق الفوري للأشكال غير المصادفة سابقاً، مما يقلص، بشكل حاسم، مدة تعلم القراءة وصعوباتها.

وقس على ذلك بالنسبة إلى تعلم الكتابة، حيث لم يؤثر تطور اللسان واحترام التقاليد الكتابية بالنظام الأولي للتساويات أصوات - حروف: فبمجرد معرفتنا بأن الفونيم /a/ يكتب *a*، وأن الفونيم /s/ يكتب *s*، وأن تتابع الفونيمات في الزمن يوافق، في الحيز المكاني، تتابعاً من اليسار إلى اليمين^(*)، فإن كتابته *sa* مثل *ss* لن تطرح أي مشكلة تذكر. ولكن لو كان اللسان يعرف - إلى جانب كلمة *ss* (مثلاً في *sa maison*) - كلمة *ss* التي تلفظ بطريقة مشابهة، ولكن التقليد يفرض لها شكلاً كتابياً مختلفاً، فالمزاج سيظهر، لكل وحدة معنى في اللسان، لمعرفة إذا ما كان شكلها الكتابي الصحيح ورسومها الاملائي يتطابقان وتتابع فونيماتها أو يختلفان؛ وفيم الشطابق

(*) للاطلاع على الطبع طرائق الكتابة باللغات الأجنبية، وهذا الفرنسية.

والاختلاف. وهذا يعني أن مسألة كتابة كل مونيومات اللسان تُطرح
 إنفاً. وسيتبني، من حيث المبدأ، أن يُصار إلى تعليم كيفية استعادتها
 واحدة فواحدة. وأفضل طريقة للاعتياد على الشكل الكتابي لكل منها
 سيتمثل في تطبيق القراءة، وهكذا يستطيع الناطقون بالإنجليزية فعلياً
 أن يتعلموا كتابة لسانهم وفق المعايير، ودونما حاجة إلى الخضوع
 لتدريب مدرسي لا نهاية له. وبناءً للقاعدة العامة، فكلمة إنجليزية ما
 لا تترى شكلها الكتابي متغيراً إذا اختلف نطقها معاً، فلنأخذ النظر
 الفرنسي لفعل «rire» (ضحك)، فهو منذ نعومة أظفاره، يُلفظ، من
 قبل كل إنجليزي وكل أميركي، كما لو كنا كتبناه *raf*، أما والحالة
 هذه، فهو يكتب (*laugh*)، ويوجد هذا الشكل غالباً جداً في
 النصوص التي تفرض على كل أولئك الذين لديهم التطبيق الأقل
 للقراءة، وكأكثرية الأفعال الإنجليزية، فإن (*laugh*) يتلفى و - لدى
 شخص الغائب المفرد في صيغة الحاضر الدالية... *ed* - لدى
 صيغة الماضي، ولكن كلاً من هذه الإضافات الكتابية يوافق إضافة
 فونيم في النطق، ومن يقرأ *lafs* مقابل الفعل الفرنسي - *ris* (*il*) (هو
 يضحك) فلن ينسى أبداً عند الكتابة أن يضيف *s* - إلى (*laugh*).

والأمر بخلاف ذلك، وفي الفرنسية فعندما نعبّر عن اسم
 المفعول *ri* في *il a ri* (هو ضحك)، إلى شخص المخاطب *ris* في
tu ris (أنت تضحك)، أو شخص الغائب *ris* في *il ris* (هو
 يضحك)، فالنطق لا يختلف، ولا شيء ينشأ، في البداية، الولد
 الذي يكتب أن عليه أن يكتب *ri* في الحالة الأولى، وأن يضيف *s*
 في الثانية *ris* في الثالثة. ينبغي والحالة هذه، أن نثبت في ذهنه أن
 الضمير *tu* (أنت) يسبب إضافة *s* بعد الشكل الفعلي، وأن الضميرين
il (هو) و *elle* (هي)، أو أي اسم مفرد يسبب *s* في صيغة الحاضر
 الدالية، لهذا فالفعل ليس له صيغة مصدر تنتهي بـ *er*، ولا ينتهي
 جذره بـ *r* أو *d*. وكما إن المسألة ليست أبداً في إلقاء خطاب ذي

فائدة على طفل في السابعة من عمره، بهذا المستوى من التجريد، ينبغي أن نخضعه لتدريب مطول كي نصل به إلى «أن يقوم بمطابقته» إرضاء لمعلميه. إن وجود كتابة من هذا النموذج هو كارثة وطنية لفرنسا، و كارثة على المستوى العالمي للفرنكوفونية. إن المستفيدين الأساسيين غير واعين إطلاقاً لهذا الأمر، ذلك أنهم يجهلون إمكانية المتوفرة، لدى متحد اجتماعي ما، كي يعمل دون أن يضحى بثالث الفترة الدراسية لتمرين قليلة الإغناء بهذا القدر كما هو الحال في تعلم قواعد ضبط الكتابة. أن نستنتج، كما نفعل أحياناً، أن الكتابة تشتمل على منطق ما يمكنه أن يكون مكوناً لذهن الولد، فهذا لا يعني أننا نرى أن ما يقصد به هو الوقوع في منطق يذكر بذلك الذي للمعتوهين، لجهة أنه يبرهن على تناسق داخلي، ولكنه ليس على اتصال بالعالم الحقيقي.

لا تشتمل غابتنا هنا، في اقتراح علاج للمرض الكتابي، فالإصلاحات التفصيلية المعدودة التي بمقدورنا أن ننظر فيها، مستسبب لدى معاصرينا، اضطراباً لا تبرره الفوائد الضئيلة التي ستجنيها الأجيال القادمة منها. وفي هذا الصدد، فالإجراء الوحيد الذي بإمكاننا أن نوصي به، سيكون بث معلومة لغوية - بثودة - يمكنها أن تحدث متأخرنا على المطالبة بإصلاح جذري للعلاقات بين الكتابة والتصويت.

2.2 - الولد يتكلم⁽³⁾

إن الولد الذي يدخل المدرسة في سنٍّ يمكن فيها أن نرغب بتعليمه القراءة والكتابة، يعرف كيف يتكلم منذ عدة سنوات. ويمكننا

(3) نشرت في: «L'enfant parle» *L'épave alphonse*, fasc. I (1987), pp. 5-12.

بلا ريب أن تكشف، في استخدامه للسان - وبالمقارنة مع استخدامات البالغين - ما يمكن أن نسميه «شواثب». هذه الانحرافات - نسية إلى الاستخدام العام - ستلغى، على الأغلب، في ما بعد. وفي سن الخامسة، يمكن أيضاً لبعض الأولاد أن تكون لديهم صعوبات في أن ينطقوا بشكل متميز (*mouche*) و(*mousse*) (زبد وذبابة)، و(*broche*) و(*brose*) (فرشاة وسميخ)، كما يمكن لآخرين يميزون تماماً بين (*tacher*) و(*cacher*) (خبأ ولطخ)، أن يهملوا تصحيح (*lamion*) إلى (*cannon*) (شاحنة)، ويمكننا أن نسمع، لدى أفراد آخرين معزولين، (*j'es grand*) بدل (*je suis grand*) (أنا كبير)، و(*ils sont talent*) بدل (*ils étaient*) (هم كانوا). وهذه «الأخطاء» هي أحياناً تلك التي لا يصححها بعض البالغين أبداً: وقد عرفت باريس بضعة أجيال من الأولاد الذين لم يتعلموا فن التمييز بين *brun* و *brin*، ونقلوا لتدريتهم الخاصة شكلاً من الفرنسية لا تميز فيه *in* و *un*. ويتابع كثير من الفرنسيين، من كل الأعمار، تصريف فعل *aller* (ذَهِبَ) ^(*) *il va, tu vas, je vas* كما كانوا يفعلون في سنهم الخامسة. وكي نفهم بشكل أفضل ما يمكن أن تكونه محكية وليد بين الخامسة والسادسة من عمره، ليس مضرراً - على سبيل الاحتمال - أن نجرب استخلاص الأطوار التي اجتازها قبل أن يصل إلى تملك للمحكية يميز إلى حد ما، عن التملك الذي سيحتفظ به في ما بعد. وقد كتب الكثير حول المسألة في العقود الأخيرة، ونكاثرت المعايينات في هذا الميدان. ومن المؤسف، مع ذلك، أن كثيرين من الذين عاينوا وكتبوا، كانوا بدايةً موسومين بعمق بأوليات، مما جعل شهاداتهم مشكوكة جداً، ويتعذر استعمالها غالباً.

(*) التصريف الصحيح هو: *je vais, tu vas, il va*.

والفكرة الأكثر حداثة، هي تلك التي يكون بموجبها، أساس بنية كل الألسن، في عداد التراث التكويني لكل الكائنات الحية. وينشأ عن ذلك أن مختلف الألسن لن تختلف إلا بطريقة سطحية جداً. وما يعنينا مباشرة هنا أن هذا سيتضمن أن الولد، ومنذ نتاجاته اللغوية الأولى، سيخضع للنموذج الذي سيصبح خاصته طوال حياته، على الرغم من أن ما يسمعه البالغون يبدو لهم مختلفاً جداً عما يطبقونه بأنفسهم. ويؤدي كل هذا - الذي يعتبر منطلقاً - محض تأمل، ولا يتأمن على أي اختبار مطول ومعمق للحقائق المذكورة، لدى الذين يرون فيه كلاماً أكيداً، إلى تشويه كل معاينة لاحقة. هذه النظرية الفطرائية للوقائع، التي عُرِضت منذ أواخر الخمسينيات من قبل أشخاص قَدَمُوا أنفسهم على أنهم لسانيون، أغوت بضعة علماء نفسيين لم يشكوا بكفاءة أولئك الذين عرضوها. ومع ذلك، فإن هذه النظرية المرفوضة عمومياً تُتابع اليوم من قِبَل أولئك الذين يفضلون المعاينة على التأملات العشوائية، والتأثير في الفكر المعاصر، والتحذير منها على الأرجح ليس مفرراً. وضمن نفس الذهنية القائمة على التعميم المفرط، أصبح الاستماع ممكناً لأشخاص بنعمون بجمهور ما، وينادون بأن الولد يشكل منذ ولادته. وانطلاقاً مما يُقدّم، هل نقبل القول إن الولد يتواصل مبكراً جداً مع محيطه؟! ولكن الخلط بين «الكلم» و«الشواصل»، هو استسلام للغموض. وفي نفس على ذلك عندما نعني بـ «الكلم» كل استخدام للأعضاء المختصة «بالكلام»، والتي تسمى أو لا تسمى لنقل رسالة ما.

عندما نتحرر من كل مصطلحية غير متوقعة، ونمسك عن كل نوح مجازي في غير موضعه، وعن كل تنظير مفرط، نتحقق من أن تقدماً قد لحق بسلوك الولد، وهو سيؤدي به - غير مراحل - إلى إرسال نتاجات صورية بطيئة خاطر، موافقة لظروف معينة جداً، نتاجات تقترب شيئاً فشيئاً من تلك الخاصة بمحيطه، خاضعة مثلها

للاتبناء المزدوج مونيماٲ وفونيماٲ. وهذه المراحل متتابعة، بمعنى أن كلاً منها يوافق اكتساباً لموهبة جديدة، ولكن ينبغي - بخاصة - أن لا نتخيل أن ظهور هذه الموهبة الجديدة سيزيل كل السلوكات التي تميز الطُور السابق. وهنا حالة يمكننا بموجبها القول بأن من استطاع الكثير أمكنه اليسير.

ونحن متمسك هنا عن كل اعتبار متعلق بتواصلات احتمالية بين الأم وولدها خلال الفترة البيأوموية (الرحمية)، فالمعانية، في هذه الحالة، تفلت من إمكانيات اللساني وكفاءته.

كل شيء يبدأ إذا عند الولادة، حيث يطلق الولد «الصرخة الأولى»، وعندما يدخل الهواء الخارجي إلى رتبه محرّكاً، بمروره، المزمار. والطفل لا «يطلق» بالطبع شيئاً ما، لأن الفعل في «يطلق صرخة» يوحى بالضغط اللازم لإخراج الهواء من الرئتين. ويبدأ المزمار - الذي يكون في عدد الأعضاء المختصة «بالكلام» - العمل فعلياً في هذه الصرخة الأولى، ولكن في ظروف تفلت، بداهة وبشكل كلي من رقابة الولد.

1.2.2 - القوقرة

إن الطور الأول الذي يبدأ إذا بصرخة الولادة، يستمر خلال الفترة التي يُرسل الطفل فيها أصواتاً عميقة النطق تُدوّن، بطريقة تقريبية جداً، على أنها (جررر... جررر). وهذه المرة بالذات، ثمة نشاط يعود للشخص، ولكن الأصوات الاحتكاكية أو التشويشات الناشئة عن مرور الهواء في بلموم الولد، المستلقي على ظهره، بلموم يكون ضمن هذه الشروط الجزء الأكثر سفلية من «أعضاء الكلام»، وهنا أيضاً يمكن للعب وللمادة المخاطية أن يركدا. وستابع، طوال الحياة، هذا النموذج من النتاج، في كل مرة

سَيَسْقُولُ^(*) فيها الشخص أو سيقق حلقه، ولن يكون - من دون تعسف فاضح للمصطلح - بإمكاننا أن نرى ثمة شكلاً للكلام، وأن يكون بمقدور الولد استخدام هذه التاجات، بطيبة خاطر، كوسيلة للتواصل، فالأمر غير مستبعد. ومحمّل أيضاً أن كثيرين من الأولاد يلهون بهذا الأمر كي يلفتوا انتباه البالغين كما يلهون بإطلاق صرخات، نتاج صوتي آخر لا تفكر، عموماً، في تقيده من الكلام.

2.2.2 - الثغفة

ويبدأ الطور الثاني انطلاقاً من اللحظة التي يلهو الولد خلالها بإحداث أصوات إذا ما كان المقصود، والحالة هذه، لعباً، فالصفة المجاتية لهذا النشاط تشير إليه، وليس الموضوع أن يحزر بعمومه من الترسبات المزعجة، واللحظة التي يؤثر فيها بمحيطه لغابات محددة، لم تصل بعد. وهذا ما ندعوه بفترة الثغفة. وتبدو التاجات الصوتية إذا أكثر تنوعاً، فالشفتان وطرف اللسان التي لم تتدخل قط في الطور السابق، تدخل غالباً العمل، ولكنها لا تستبعد عمليات نطق أكثر عمقاً. ونسمع غالباً أصواتاً من كل الأنواع، والبعض منها سيثبت أو سيعاود الظهور في أطوار لاحقة ولغوية على نحو ملائم. بينما أصوات أخرى لن نعرف إلا وجوداً زائلاً ويبدو أن نتاج الأصوات المتنوعة هذا، هو تقليد، من قبل الولد، لمحاكية البالغين، ذلك أن النتاج لا يقوم مطلقاً عند الأولاد الصم. وليس من السهل أن نؤرخ لبداية مرحلة الثغفة. ولا شيء يمنعنا من استبعاد إمكانية أن الولد ينسلي بترقيق الحلق، حتى قبل إنتاجه، بحكم اللعب، لـ [ba ba ba] أو لـ [da da da]. ولنقل، ببساطة أن الثغفة تثبت، في سن الأربعة أشهر، بشكل جيد. وقد تستمر أبعد من بدايات الكلام الحقيقي،

(*) Torsoter : مقول (منقول شغلاً حقيقياً).

فكثير من الأولاد يمارسون خلال فترة طويلة الثغثة، كي يخففوا من وحدتهم، في الوقت الذي يعرفون فيه استخدام اللغة كي يُعلموا الآخرين باحتياجاتهم. وتختلف الثغثة عند البالغين آثراً في الأغنية، وذلك عندما يُحلّون العبارات التي سهوا عنها بـ *la la la*، *tra la la*.

وإذا كانت نوعية الثغثة، كظاهرة غير لغوية، أو الأفضل - بلا ريب - قَبْلُغوية (*prélinguistique*)، غالباً ما تكون مجهولة، فذلك لأن الأهل والبالغين عموماً - ومن خلال ترصدهم «الكلمة» الأولى الملفوطة من قبل الولد - سيضعون معنى على بضعة تكرارات: ففي كل مكان يُشار فيه إلى الابن بمحبة، كـ (*Papa*)، فكل [*pa pa pa*] أو [*ba ba ba*] ناشئة من الثغثة، ستطابق مباشرة تسمية الأب. وإذا عُرف الأب في مجتمع ناطق بالإنجليزية، على أنه *Daddy*، فسيكون طبيعياً أن كل [*da da da*] محتملاً هو ما سيوافقه. إذا وجد الأب هنا، استنتجنا أن وجوده هو الذي حدّد الإرسال لدى الولد. وفي حال تغيبه، نشخص رغبة في رؤيته حاضراً. ولن يكون لطيفاً أن نكدر الأهل، مشيرين إلى أن الولد لو قدّم الشكل التقريبي عموماً، فالبالغون الحاضرون هم المسؤولون عن التفسير.

3.2.2 - المصادقة^(*)

إن الطور التالي هو ذلك الذي يعمود للمصادقة. وليس المقصد أبداً أن نفعل كما لو كنا نتكلم دون أن نرغم أنفسنا، في هذه اللحظة أو تلك، على إحداث صوت خاص أو مثيله، فيوماً ما، سيكرر الولد ثانية في المحاكاة معنى تنغيماً ما، تتابع فونيمات ما لمحكية البالغين: فعالمنا ينطق البالغ كلمة *quatre* (أربعة)، يستعيد الولد

(*) Echolalia: التردد المرضي لما يقوله الآخرون.

مقطع [ka]، علماً أنه لا يتكلم اللسان بعد. ولهذا الغرض، ينبغي عليه أن يكون قادراً على إحداث قطع صوتي معين، لا كمحاكاة، ولكن ذو صلة بظرف خاص أو بغرض معين. غير أن الضغط الذي يلزم الولد نفسه به في التكرار الترجيعي يمثل تقدماً ملحوظاً بالنسبة إلى التقليد الفوضوي المتمثل في الثغفة. ولا تظهر المصاداة بالضرورة عند كل الأولاد بوصفها طوراً متميزاً عن التالي، ذلك العائد للعلامة اللغوية، ويمكنها ألا تتجلى كذلك إلا بطريقة عرضية كلياً، دون أن تخص مرحلة بفترة ما. وقد سجلنا لديها حالياً، اليوم نفسه، في الشهر الثامن، لدى طفلة لم تعد تقلد، محاكاة، حتى شهرها الحادي عشر، أي في الوقت الذي سيكون لتتاجاتها الصوتية معنى.

4.2.2 - «الكلمة الأولى»

حوالي نهاية السنة الأولى، أو بعدها بقليل، تظهر ما نسميها «الكلمة الأولى» والتشخيص سهل إلى حد ما، فثمة تطابق مكرر لموقف ما ولتاج صوتي ما للطفل. وغالباً ما يكون الموقف مساعداً، ولا نكون مهتمين بمطابقة الصوت المُخْدَت مع كلمة ما من المجموع العام لمفردات اللغة. ويقضي التقليد أن تكون الكلمة الأولى (papa) أو (mama)، وهذا ما يحدث فعلاً في أغلب الأحيان. ينبغي بالتأكيد أن يكون الطفل ذا مزاج مستقل إلى حد ما كي يستطيع مقاومة ضغط البالغين، الذين يوجهون إليه منذ مرحلة الثغفة بهذه الأشكال على أنها الأكثر جدارة للتقليد. وما إن تثبت كلمة [papa] كوحدة اختيار لمرحلة المصاداة، حتى تُحتَي من الآن فصاعداً كل قديم للأب، وتتطابق بسهولة، وقيل كل شيء، مع شخصه، وعلى الأقل لدى حضوره.

ولدى العائلات التي يكون فيها اكتساب الولد اللغة موضوعاً لمعايينة متيقظة، نحذر نحن من التدخل لإلزام الولد بشكل أو بمثيله غير تكرر مكتشف. وليس من النادر، ضمن هذه الشروط، أن تكون الكلمة الأولى شيئاً مغايراً كلياً لـ *papa* أو *maman*. وعلينا ألا نندهش للأمر، لأن الأب والأم - وهذه الأخيرة خاصة - مسلّم بهما بالنسبة إلى الولد. وفعلياً فـ *papa* كـ «كلمة أولى»، هي أكثر تواتراً من *maman*.

وما سيطلق «الكلمة الأولى» سيكون حدثاً غير متوقع، واكتساباً جديداً. ومن ضمن «الكلمات الأولى» سَجَلْنَا - مثلاً - (*cochon*) (خنزير) (وتلفظ *trasyon*) بالإحالة إلى كل تقليد تصويري لشخصية مرتدية ثيابها (في الأصل، على غلاف كتاب الخنازير الثلاثة الصغيرة لـ رولت ديزني)، و (*carotte*) وهي بتوبه ارعوي - (*carotte*) (جزرة) (على شكل *krat*) للإشارة إلى نوع الخضار المعني، وامتداداً، لتحية بداية الوجبة.

5.2.2 - الاتبناء لن

إن لنا ملء الحق في اعتبار ظهور «الكلمة الأولى» بمثابة حدثٍ عظيم في حياة الولد. ويرى اللسانيّ هذا الأمر مؤشراً على أن الولد يعرف كيف يوفق بين شكل صوتي ودلالة، أي يعمل بواسطة ما يسمه «العلامة»، بواسطة دالّ ومدلول. وكما يصل إلى استعمال اللغة، ينبغي له أيضاً أن يتعلم كيف ينسق العلامات في أقوال، وأن يحلل الدوالّ إلى عناصرها المميّزة الفونيمات. ولا شك في أنه يمكن

(*) Argonique : ذو علاقة بالأرغة.

لهذين الاكتسابين أن يبدوا ناتجين عن الإثراء المتدرج لتجربة الولد ولمجموع مفردات اللغة اللازمة له. ولكن يبقى أن الطريق، الذي يوصل من «الكلمة الأولى» إلى استخدام المنطوق لدى الولد في السادسة من عمره طويل.

وعندما يسمع البالغ نتاجاً من الولد، يتحقق فيه من تقليد ناجح تقريباً لعنصر قول عائد للسان، فهو لا يتردد أبداً في أن يطابق فيه وحدات المعنى والشكل، مونيمات وفونيمات، تلك التي يطبقها هو بنفسه.

في شهرها الرابع عشر، تقوم الطفلة C.M. - التي لم تنطق لتاريخه سوى بـ «كلمة» واحدة - بنزعة مع أهلها وبضعة ضيوف مرموقين. وفجأة تترجل من سيارتها الصغيرة، تثبت بركانزها، تدفعها إلى الأمام، وفخورة جداً بما أنجزته تصرخ: [okèlègã]. وقد طابق أهلها فوراً هذه العبارة على أنها عبارة (وا! كم هي كبيرة) (Oh! Qu'elle est grande)، التي أكدوا فيها بإحكام العمل الباهر لابنتهم. ومن الواضح، مع ذلك، أن الولد سيكون غير قادر، في هذه السن، على استخدام الأدلة الشعبية *que* (كم) بدراية، وعلى استخدام الضمير *elle* (هي)، وعلى الرابطة *est* ^(*) (فعل الكينونة)، والنعته (*grande*) (كبيرة). إنها تستعيد إذاً، وبشكل كامل، [k] و [g]، اللذين سيتولد لهما في ما بعد صمويات حقيقية لتمييزهما على التوالي من [t] و [d]. لقد كان هناك تقليد إجمالي، ناضج إلى حد ما، لعبارة تُسمع غالباً. وهذه العبارة - عند البالغ - مزدوجة الانبناء، ذلك أنه يستطيع استبدال *elle* بـ *il*، و *grande* بـ *belle* (جميلة)، لأنه لفظ، في

(*) Être: فعل الكينونة بصيغة الحاضر، لشخص الغائب المؤنث القرد.

سياق [...è...dā...] الـ [g] التي ألزمتها بما عليه أن يقوله بدل [p] التي كان عليه إحداثها لو كانت رسالته قد حوت التابع ... (mais) (prendre) ... ، [...(m) éprā...]، بدلاً من ... (d'est grande) ... [égrā...] وبالنسبة إلى الطفل، فصرخة التصر هذه غير قابلة للتحليل كلياً، فعليه أيضاً، كي يتمكن من بناء هذه العبارة عبر وحدات معنوية أن يدرك ويطلق (Oh! Qu'elle est belle) و (Oh! Qu'il est grand) (أوه كم هو كبير، وأوه كم هي جميلة)، مع أنهما متبيزتان، من حيث شكلهما وقيمتهما، عن (Oh! Qu'elle est grande) (أوه كم هي كبيرة). ينبغي لها القيام بتلخيصات طويلة قبل أن نستطيع نطق [k] ولها بشكل متميز في كل تركيباتهما التي يمكن أن يندرجا فيها، في الفرنسية، لا سيما في السياقات التي أنجزتها للتو مع محاكاة. وما ينجزه الولد مماثل لما نسجله عند البالغ لدى إطلاقه صرخة ألم، فهو يحدث أصواتاً سيكون محرراً في إنجازها بدقة في لسان ما تدرج فيه كفونيمات. ونحن نعرف جميعاً أن تفرق مقدم اللسان في اتجاه الحنك كي نعبّر عن استهجاننا، ولكننا عاجزون عن إحداث هذا الصوت في سياق صائتي، كما يفعل أحد أفراد الهوتنتوت^(*) (Hottentot)، الذي يعني الفرقعة، بالنسبة إليه، فونيماً على نفس مستوى /p/ أو /k/.

والأمر الذي علينا تذكره، هو أن الطفل الذي يتعلم «السان»، فهذا اللسان ليس سهل البلوغ كمثّل نتاج مُنجز، سيكون قصده، ببساطة، منه استخدام الموارد كي يرضي احتياجاته بناءً لتوسمها نباحاً. وعلى الولد أن يوجد اللسان من خلال مواجهته المستمرة للعبارات التي يسميها وللواقف التي يدرك فيها تلك الأقوال. وإنه

(*) شعب جنوبي أفريقي ذو بشرة صفراء إلى الصفراء.

لاستثناء أن ندله على غرض ما مع نطقنا بالمصطلح الذي يدل عليه، فينبغي له، بصورة عامة، أن يحدّد، بتلقّسات متتابعة، المرجع المحدّد لقطعة القول هذه أو تلك، والتي انتهى إلى إدراكها بوصفها متميزة عن سياقها. إنّ تعلم لسان أول هو عبارة عن سلسلة من الفرضيات اللاواعية التي تتأكد وتبطل، وفي النهاية تتحدّد بدقة على مستوى تفصيل الحقيقة المدركة، ونقطيح العبارات، فليسان ما هو طريقة لتحليل العالم المحسوس من خلال جعل كل من الانبئات المعزولة موافقة لتصويت يسمح باستدعائها. فضلاً عن ذلك، فهذا التصويت لا يشكل صرخة بسيطة، ولكنه يظهر بدوره كتتابع انبئات متطابقة بشكل جيد، فلو وجد الولد في متحد اجتماعي آخر، فبدل أن يتعلم الفرنسية، سيتوجب عليه أن يتألف مع تحليل آخر للعالم المحسوس، سيكون كل انبئ فيه معتمداً تصويتاً مشكلاً من عناصر مختصة باللسان موضوع البحث.

إن الأصالة العميقة لكل لسان تهرب، في العادة، من أولئك الذين لم يُنبهوا إليها: ونفكر بسلاجة أن كلمة من لسان ما، توافق بالضرورة كلمة في لسان آخر، معقدين بشكل راسخ أن الكلمة تدل على شيء متطابق منذ الأزل، فنحن نوافق كلمة (toit) (سَطْح) الفرنسية، بالكلمة الإنجليزية (roof)، دون أن نشك في أن (roof) تعني أيضاً قبة (السماء، أو القصر) (du ciel, du palais) (la voûte)، وأن (سطح البيت المقلّش) (le toit de chaume) هي (thatch) (سقف البيت الذي يتخذ من قش ونحوه). إن استخدام الألفباء نفسها لتدوين ألسن مختلفة ينبغي ألا يخفي واقع أن كل لسان يمتلك نظامه التصويتي، وعاداته النطقية المختصة: فكلمتا (ride) (يركب) الإنجليزية و (ride) (جملة) الفرنسية هما، في كل نقاطهما، متعلّرتا التبسيط الواحدة للأخرى.

3.2 - ألفاء الألفونيك⁽⁴⁾

هل بإمكاننا الاستغناء عن الإملاء كي نكتب الفرنسية؟ هذا السؤال طرحته على أندريه مارتينه مجموعة من المدرسين المجتمعين في (Yerres) في مقاطعة (Essonnc)، في حزيران/ يونيو 1970. وبناءً على جوابه الإيجابي، طُلب إليه أن يحضر نسخاً للكتابة يفضّل النظر عن كل التعقيدات الإملائية، أي مقتدياً بالاستخدام الشفهي للسان.

والنتاج، الذي سُلم مع بدء السنة الدراسية في أيلول/ سبتمبر، استخدم في بضعة صفوف وإزاء أولاد على علم بتهجئة الحروف. ولم يشنّ للتجربة غير المنتهكة كفاية أن تتابع. ومع ذلك، فقد كشفت كم يمكن للتعبير المكتوب أن يزدهر ويغنى منذ اللحظة التي لم يعد الأولاد فيها مكبوحين بالخوف من ارتكاب أخطاء إملائية.

ولاحقاً أطلقت القضية، بعد سنتين، من قبل شارل بينيو (Charles Peignot) الرئيس الفخري لـ «الجمعية الطباعة الدولية» (L'Association typographique internationale ATT)، ومذهولاً بنجاح التعليم الألفبائي الأولي (L'Initial Teaching Alphabet) في البلدان ذات اللسان الإنجليزي، فهو قد تصوّر له ترجمة موافقة للفرنسية. وقد أذى تدخله إلى انشقاق لجنة برئاسة رئيس الجامعة جيرالد أنطوان (Gérald Antoine)، الذي قال الكلمة الفصل لصالح تجريب تدريبي قبلي للكتابة والقراءة على قاعدة مشروع مارتينه الذي أطلق عليه، من الآن فصاعداً، باقتراح من قبل شارل بينيو، الألفونيك (alfonic).

(4) نُشرت في: *Vers l'écrit avec Alfonic: Écoles maternelles et cours préparatoire*, par Jeanne Villard, André Martinet et Jeanne Martinet (Paris: Hachette, 1983), pp. 7-10.

توافق الألفونيك بين حرف ما - ودائماً نفسه - وبين كل صوت نموذج يعود للسان. وقد ابتكرت لإرضاء احتياجات جمهور محدد جيلناً. وهي لا تسعى بأي طريقة إلى الكونية، كمثل الأبجدية الصوتية العالمية (*l'alphabet phonétique international*). إنها تتوجه إلى ناطقين بالفرنسية، أي إلى أناس ذوي عادات نطقية مختصة. والبعض من بينهم، ولا سيما البالغين، قد طابقوا بين بضع عادات نطقية وبضعة حروف، مثلاً ما ينطقونه في نهاية (*perdu*) (مفقود) والحرف «*u*». وهم يملكون آلات كتابية تُظهر مجموعة محدّدة من الرموز. ولو كان بتصرفهم مشغل طباعي، فسيجدون فيه مجموعة مختصة من الحروف. ومن جهة أخرى، فهؤلاء الناطقون بالفرنسية - الذين يتشاركون في كثير من العادات - ليسوا متفقين حول كل النقاط: فالبعض منهم يميز شفهاً بين *brun* و *brun*، والبعض الآخر لا يقوم بهذا الأمر على الإطلاق، ويلفظ البعض (*huée*) (بخار) في مقطعين، بينما يكتفي بعض آخر بمقطع واحد. وكل هذا أخذ في الحسبان لدى اختيار المواضع التي يؤول إليها إقامة نظام جديد للكتابة.

وخلال التجريب، جرت بضعة محاولات أو أبحاث متكررة. وقد أسقطت بضعة تمييزات، واقترحت أخرى، إن لم تكن قد قرّرت. إن الألفونيك، كما تظهر اليوم مثلاً في قاموس الإملاء^(*) (*Dictionnaire de l'orthographe*)، هي نتيجة ترويض مشابح على امتداد ثماني سنوات. وبعض من الحلول التي أقرت أخيراً، لا

(*) معجم يوفر 6500 كلمة من تلك الأكثر تواتراً في استخدام الأولاد الداخل، الموضوع بواسطة الألفونيك، أتبع بمختلف الأشكال الإملائية للواقعة، انظر: *Ambré, Dictionnaire de l'orthographe affirmée, en collaboration avec Jeanne Martinet, société d'études linguistiques et anthropologiques de France (Paris: SELAF, 1980).*

يقصر، لدى الاحتكاك الأول في أن يدهش، وحتى يصلح البالغين،
 فما يقصد هو أقل من وضع *w* لـ *ou*، و *e* - التي تتخذ قيمة *k* - أمام
i، أو *e*، منه لـ *k* من أجل *ch*، وخاصة لـ *x* من أجل *eu* في *feu*
 (نار)، والـ *e* في *brebis* (نعجة). ويبدو للوهلة الأولى أن من غير
 المقبول أن ندون «صائتاً» بواسطة «صامت». ولكن هذا كله لا يعني
 شيئاً للمبتدئين الذين هم على استعداد للقبول، في هذا الشأن، بأي
 مواضع كانت. وتبدو بعض الأحكام المسبقة، على كل، قابلة
 للتخفيف، وذلك عندما يُصار إلى التذكير بتواتر *k* في *ch* عند
 التلاميذ، وعندما نستجّل أن *x* قد فرضت نفسها، في التطبيق،
 بوصفها بديلاً لـ *e* غير الموجودة على ملابس الآلات الكاتبة.

إن الألفونيك ليست كتابة صوتية، بل هي ترميز فونولوجي.
 وتفترض كتابة ما أننا ننتقل من نص مكتوب، ونفترض لكل من
 عناصره كتابة أخرى. ولا شيء من هذا القبيل مع الألفونيك:
 فالعلامة الألفونيكية *e* لا تظهر أبداً بوصفها معادلة لـ *m* أو *ain*، بل
 بوصفها معادلة لنطقي شفهي مُمارس من قبل كل المستخدمين. ولا
 يقصد هنا بعلم الأصوات اختبار الأصوات بما هي حقائق فيزيائية،
 ولكن المقصود هو الفونولوجيا، أي استخلاص الماديات النطقية
 المختصة باستخدام لغوي معين. وهذه الماديات هنا، هي التي تؤمن
 الاتصال بين الناطقين بالفرنسية. وما يقصد ليس ما يمكن أن يتباين
 في تسجيل آلي، بل ما يسمح بشييز كلمة من أخرى: فلكي نطابق
 ما قيل، فليس مهماً أن نلفظ *houée* (عزامة) أو *houée* (غيمة) في
 مقطع واحد أو مقطعين. وعليه، فالألفونيك ستدوّن بشكل موحد /
bue/ و */bue/*، ولكننا نبالي في أن ننطق مقطعاً واحداً لـ *paye* (هو
 دفع)، ومقطعين لـ *pays* (بلد)، ستدوّن إذاً */pey/* في حالة، و */pei/*
 في الأخرى، وأيضاً */abey/* لـ *abeille* (نحلة)، و */abei/* لـ *abbaye*

(دبر). وسميزُ كذلك بين /bani/ في *banni* (متي)، وبين /bany/ في *bagne* (سجن).

والألفونيك ليست إملاء: فالإملاء يفترض أن ليس ثمة لكتابة كلمة ما إلا شكل واحد مقبول ومثبت من قبل التقليد، ومكّرّس من قبل السلطات. واستخدام شكل آخر، يعني ارتكاب خطأ يعاقب عليه بواسطة علامة مينة ورسوب في الامتحان. أما في ما يخص مستخدم الألفونيك، فالسلطة الوحيدة بالنسبة إليه هي نطقه الخاص: فمن يعرف بـ *m* في *dompter* (رَوْض) سيدون /döpte/، وحسب الأشخاص، فإن *gageure* (مراهنّة) ستظهر مثل /gajur/ أو مثل /gajxr/، وسيميز الباريسون بين (marché - marcher) /marha/ (مشى) و(marchait) /marchè/، حيث سيدون جنوبيو فرنسا بشكل موحد /marhe/، ومن يقفي تقفية بين *fosse* (حفرة) و*cosse* (قرن)، سيدون /fos/ و*cos*/، ومن لا يميز في الأذن بين *fosse* و*fousse* (باطل)، فهو سينسخ الواحدة والأخرى على شكل /fös/، وهكذا دواليك. ويمكننا أن نتساءل من دون شك ما إذا كانت اختلافات الكتابة هذه ستجازف بفهم ما هو مكتوب، وفي الواقع، ثمة فرصة صغيرة لاختلاف ما لا يعوق الفهم عند التكلم، في أن لا يحول دون الفهم في حال تجسده كتابياً. وقد ألت التبادلات المستمرة بين الفرنسيين ذوي الأصول المختلفة، إلى علم الإبقاء (إلا على الاختلافات التي لا توصل إلى محضلة: فكل الناس متفهم جملة (هو يعني منذ خمس دقائق) حتى لو لفظت marchait مثل marché. وبالمقابل، فمنذ أن توقف كثيرون عن التمييز، لدى تكلمهم، بين *là* (هنا) وبين *las* (تعب)، استبدلت هذه الأخيرة، عموماً، بـ *fatigué* (تعب) (il est là, mais il est fatigué) (إنه هنا، ولكنه تعب).

وكما يدل، كثيرون - لدى الاحتكاك بالغير - نطقهم لبضع كلمات، فلا شيء سيمنع ممارس الألفونيك من اعتماد الكتابات التي يصادفها بقلم رفاقه: ويمكن بسهولة، لجنوبي صغير مستقر في باريس، يلفظ إلى الآن *la semelle* (التعل) في أربعة مقاطع، أن يكتبه */la smel/*^(*) وفق نموذج أولئك المحيطين به، فما من أحد سيأخذ عليه بداية التلازم هذه مع بيئته الجديدة. ولكن ما سيؤسف له هو أن هذه الكتابة ستعرض عليه من قبل تعليم متعطر للتأهيل. وكذلك، فباستطاعتنا أن نشكو من أن مدرّساً - ذا أصل ريفي - يصيح */lɛdi/ (lundi)* (يوم الإثنين) في كراسة تلميذ باريس صغير، متدرباً بأن على *de* و *au* أن يبقيا متميزين. ومن المرغوب فيه جداً أن الولد يبين بين الألفونيك بوصفها الميدان الذي لا حساب يقدم فيه إلا لنفسه، وبين الكتابة الإملائية الرسمية كممثلة للضغوطات الممارسة من قبل المجتمع. ولا شك في إنه بإمكاننا الادعاء بأن مبادرة الولد قد كبحت، رأساً، من قبل الألفونيك، لأننا فرغنا عليه مواضع معينة مقدّمة لترميز عاداته النطقية. أليس من الأفضل ترك الولد يعدّ بنفسه نظام تكافؤات صوت - شكل كتابي، انطلاقاً من إبداعاته الخاصة؟ ومع ذلك، فإن الأمر يعني أننا نسهم من أن الكتابة، حتى ولو أحسن بها الولد، بدائمة، وبخاصة وسيلة للإبانة عن نفسه، هي التي ستثبت في النهاية بوصفها أداة اتصال مع الآخرين. وفي هذا المعنى، فالألفونيك التي سيلمّ البالغ بها خلال لحظات معدودات، والتي سيفضي تملكه إياها، من دون جهد تقريباً، إلى قراءة الكتابة الإملائية، لن نعتجز الولد في عالم على حدة كما تفعل، بالضرورة، الأنظمة المعتدّة في إنبيق وانطلاقاً من رموز فكرية.

(*) أي باختزال المقاطع الأربعة إلى اثنين، كما هو العرف السائد لدى الباريسيين.

إن إحدى التحفظات التي يعبر غالباً عنها بالقياس إلى استخدام الألفونيك في تعلم الكتابة والقراءة، هي أنه يثقل مهمة الولد بفرض تعليم متابع عليه لشفرتين كتابيتين متميزتين. وتصبح الحجة مقبولة في ما لو كانت الألفونيك كتابة مفروضة على الولد مع كل الضغوطات التي يتضمنها هذا الأمر، ولو قُدمت بشكل مختلف أساساً عن الكتابة الألفبائية. وفي الواقع، فاستخدام الألفونيك في مرحلة التلقّن يؤدي ببساطة إلى تفكيك الجهد الذي على الولد أن يبذله كي يتعلم أن يعبر من اللسان الشفهي الذي يمارسه، إلى شفرة مكتوبة، وهذه تتطلب أكثر بكثير مما يتطلبه تعلم الرسم الإملائي. وطالما سيفرض المجتمع الفرنسي استخدام المعايير الكتابية الحالية، فسيكون هناك - من الفرنسية المنطوقة إلى الفرنسية المكتوبة - من جهة، رزمة كبيرة من التبادلات التي تفرض نفسها بشكل اضطراري على المستخدمين، رغماً عن أولئك الذي يرغبون في أن يقدموا للأولاد الشكل المكتوب لكل كلمة بوصفه كلاً غير قابل للتحليل، ومن جهة ثانية، فإن طائفة من الابتعادات من ضمنها التطابق والاستدكار تتطلب سنوات من التدريبات إضافة إلى ترويض نحوي. وتقديم هذه التبادلات والابتعادات، بلا ترتيب، كما نفعله تقليدياً، للولد الذي يتعلم القراءة، إنما يعني إدخاله في غموض سيعوده رأساً على تفرجات ملائمة بشكل محدود للتعلم اللاحق للمدقة الإملائية. وهذا ما يسمح الاستخدام الأولي للألفونيك بتجنبه. وسيأتي تعلم الإملاء في حينه. ويمكن له أن يكون مثدرجاً بعناية وفق تدرّج مبني على تحليل دقيق وشامل لانحرافات الشكل المكتوب نسبة إلى التصويت. ولا شك في أن المتداخلات، من شكل مكتوب إلى آخر، ليست نادرة، بداية، على الرغم من الاحتياطات المتعددة المأخوذة للتفريق بينها. ولكنها سرعان ما تمتص تحت الضغوط المترافقة للكتابات التي تتوسع أكثر فأكثر، كما لتعليم كتابي منظم بشكل أكثر

وعياً. ومنذ اليوم، فاستخدامات الألفونيك لا تحدّ بتعليم القراءة والكتابة. ولكن الاستعمال الذي بإمكاننا القيام به من خلالها - من المقطاع الواسع للأمم إلى الصفوف التحضيرية وما بعد - يبقى من أولى اهتمامات أولئك الذي يعنون كل الخدمات التي بإمكانها أن تسدّها.

4.2 - الألفونيك والأهل

رسالة إلى أهالي الأولاد الذين سيتمّ تلقينهم الكتابة والقراءة بواسطة الكتابة المسجّلة «ألفونيك»:

أعزّاءنا الأهل، إن ولدكم لا يزال بعد في طور تعلم الكلام، فلا تعتقدن أن هذا الأمر يحدث من تلقاء نفسه، فمن جزاء الضغط الذي يتعرض له ممن يحيطون به من أهل وأشقاء وشقيقات ورفاق لعب، سيحصل في بضع سنوات إلى فهم ما نقول له وإلى إلهام الآخرين بواسطة كلمات ما. ويعني هذا أن عليه أن يكتسب عدداً مدهشاً من العادات النطقية، ومن طرق التعبير النحوية، إضافة إلى كلمات من كل الأنواع. ولن يصل، من المحاولة الأولى، إلى تقليد لغة الكبار إرضاء لكل.

- فهو قد اعتقد، قبل كل شيء، أن كلمة «papa» تعني كل الرجال، ولكننا أفهمناه بأنه قد أخطأ الفهم، فأصلح غلطه واعتاد ألا يعني بذلك سوى شخص واحد بعينه، والده.

ويحدث له كذلك أن يقول ^(*) *vous disez*، حسب نموذج *nous disons* (نحن نقول)، ولكننا لن ندعه بسلام قبل أن يستخدم *vous dites* (أنتم تقولون)، الشكل الوحيد المعترف بصحته.

(*) استعمال خاطئ: لفعل القول (*dire*) في شخص المخاطب الجمع، صيغة المخاض.

- وقد مرت فترة كان ينطق فيها *casser* (كسّر) مثل *tasser* (كوّم)، و *gouter* (تلقّق) مثل *douter* (شكّ)، وهو كذلك الآن، غير واثق من أنه سيتوصل إلى نطق *mouche* (فبابة) بخلاف *mousse* (طحلب).

- وفي الوقت الذي نبأشر فيه بتعليمه القراءة والكتابة، فهو بنجز تعلّم كيف يميّز وكيف يستعيد الأصوات التي تسمح لأولئك الذين يستخدمون الفرنسية بأن يتفاهموا بعضهم مع بعض حين يتكلمون. ويتألف المستوى اللغوي المكتوب، الذي يستعمله الكبار، من حروف. وفي أغلب الأحيان، يوافق أحد هذه الحروف أحد الأصوات التي تعلّم الولد تمييز بعضها من بعض حال تكلمه.

وما يكتب بواسطة الحرف *t* يلفظ بالطريقة عينها في *toi* (أنت)، *tache* (الطخعة)، *tomber* (سقط)، *sauter* (قفز) أو *faire* (منعقدة)، ولكن هذا الحرف *t* سيلفظ بشكل مختلف كلياً في *addition* (جمع) أو *national* (وطني)، ولن يسمع في *lent* (بطيء) أو في *plat* (منسط).

- ونبين، بلا شك، للولد الذي يتعلّم القراءة، أن الـ *t* تلفظ في *ation* و *ition*، مثل *s*، وأنها لا تلفظ في نهاية الكلمة، ولكن لو طبّقت القاعدة الأولى في كلمة *rations* الموجودة في عبارة *les rations de viande* (جفّص اللحم)، فهي غير مقبولة في *pour un peu nous rations le train* (بسبب وقت قصير تأخرناه، فانتا القطار).

- وبالنسبة إلى القاعدة الثانية، فلا شك في أن *t* لا تلفظ في *rat* (جرّد)، *lit* (سرير)، *éclat* (لمعان)، ولكنها تلفظ دائماً في *net* (واضح)، *sept* (سبعة)، *brut* (خشن)، وعلى الأغلب في *but* (هدف)، وغالباً في *soit* (فليكن).

- وعند القراءة، سينجح الولد في التعرف إلى الكلمات التي

يستخدمها حين التكلم، ولكن المقصود بالنسبة إليه هو كتابة هذه الكلمات، سيمضي سنين طويلة كي يعرف هل عليه أن يكتب:

● *e, th, ff* حيث يلفظ *e*

● *ss, z, c, sc* حيث يلفظ *s*

● *e, s, -ent* حيث لا يلفظ شيئاً على الإطلاق،

- والباريسي الصغير الذي يرغب في أن يستعيد بقلمه ما يلفظه بانتظام *set* (ضربة ثار)، يتوجب عليه، حسب الحالات، أن يكتب *sepe* (سبعة)، *set* (هذا)، *set* (ضربة ثار)، *cette* (هذه) أو *Sète* (سيت) (*) .

- نستنتج أن أولاداً كثيرين لا يتجرأون على الكتابة خوفاً من التعرض للسخرية، كما للتصويبات.

وكي نؤلف (**)، تدريجياً، بين الأولاد والقراءة والكتابة، دون أن نراكم التصويبات، منذ الانطلاق، فكّرنا في أن نعرض لهم، قبل كل شيء، كتابة مبسطة، حيث سيوافق كل حدث، الحرف نفسه دائماً. سيعتاد الولد هكذا على العبور، بلا هائق، من الأصوات التي يعرفها جيداً، إلى الحروف التي ينبغي أن يتعلمها. وسيعتاد الأولاد، باكراً جداً، على الاعتماد الكتابية لما يعرفون التعبير عنه شفهاً، دونما خوف من انتقادات أولئك الذين يعرفون الإملاء ومن سخرياتهم. ولن يكون بإمكان الولد أن يصل إلى الشكل المكتوب العائد للبالغين - مع كل تنميفاته الكتابية - إلا بعد اكتساب ممارسة جيدة لكتابة بلا تعقيدات.

(*) مركز فضاء، ومرفأ Hérault، في قرتسا، بالقرب من مدينة مونتيليه (Montpellier).

(**) ألف: أوقع الألف أي الحبة والظلم.

والذين لم يكتسبوا تجربة لهذا التعلم للقراءة وللكتابة، عبر مراحل متتابعة، يخشون أن يرتكب الأولاد، المعتادون قبل كل شيء على استعادة كلمة *calotte* (طاقية) بالشكل المبسط *c-a-l-o-t*، وكلمة *calot* (قبعة شرطي) بشكل *c-a-l-o*، أقول أن يرتكبوا لاحقاً في كتاباتهم. ولكن التطبيق أظهر أن العموض لا يحدث مطلقاً حينما نحاط دائماً في التفريق بين نموذجين للكتابة، إما باستخدامنا حبراً ذا لون مختص للكتابة المبسطة، وإما باستعادتنا دائماً هذه الكتابة حرفاً بعد حرف، في حين أننا نستخدم الكتابة العادية السريعة المرتبطة للنصوص في الإملاء. وفضلاً عن ذلك، فنحن نسجل، عند الأولاد الذين بدأوا بالكتابة المبسطة، اهتماماً للأشكال المكتوبة ببسيط، والتي تسمح لهم الاحتفاظ بشواذاتها على وجه أفضل.

ونذكر هنا بأنه لا يقصد بتاتا تعقيد مهمة التلميذ بفرض تعليم مضاعف عليه، بل سلسلة المسائل وتدرج جهده، فلا ينملكنكم المخوف، والحالة هذه، من أن يعاني ولدكم لاحقاً من أنه، قبل كل شيء، قد تعرض لشيء يخاف الفرنسية المكتوبة العادية. وليس بمقدوره أن يجني منها سوى منافع على كل الصعد: على صعيد تطور ذكائه كما على صعيد الثقة برسه الإملائي.

هذه الكتابة المبسطة التي سنستخدمها نسمى الألفونيك. وقد ضبطت من قبل اختصاصيين في نطق الفرنسية استلهموا من التجارب السابقة في فرنسا وفي إنجلترا وفي الولايات المتحدة الأميركية.

ولو رغبتهم في متابعة تطور ولدكم في إمكانكم أن تتلويوا على الألفونيك من خلال تطبيق النص التالي، حيث ستعرفون على حكاية من حكايات لافونتين، كما من خلال القراءة المتأنية للشروحات التي أضفناها عليها.

زیز الحصاد والنملة

la sigal e la fwrmi
 la sigal, eyā hāte
 tw l ete,
 sa trwva for depwrvu
 cā la bizx fu vxnu.
 pa lx plu pati morso
 dx mwv w dx vermisso.
 el ala criye famin,
 he la fwrmi sa vwazin,
 la priyā dx lui prete
 cekx grē pwr subziste
 jusca la sezō nwvel.
 «jx vw perē, lui dī t-el,
 avā l w, fwa d animal,
 ēterē e prēsipal.»
 la fwrmi n e pa pretix.
 s e la sō mwēdrx defo.
 «ex fixie vw o tā ho?»
 dī t-el a set āprtx.
 «nui t-e jwr, a tw vxnā,
 jx hātē, nx vw deplze.»
 «vw hātē? j ā sui for t-ez,
 e biē dāse mētznā.»

إن لأغلب الأحرف، في الألفونيك، القيمة التي تملكها عادة،
 فـ /b/ مثلما في *baba*، و /c/ مثلما في *calcul* (حساب)، و /d/ مثلما
 في *dur* (قاس)، و /f/ مثلما في *fil* (خيط)، و /g/ مثلما في *glu*
 (دبق)، و /j/ مثلما في *joli* (جميل)، و /l/ مثلما في *lac* (بحيرة)،
 و /m/ مثلما في *miet* (عسل)، و /n/ مثلما في *nul* (لا أحد)، و /p/

مثلما في *papa*، و*/r/* مثلما في *roc* (صخر)، و*/s/* مثلما في *sol* (أرض)، و*/t/* مثلما في *tel* (شبيه)، و*/v/* مثلما في *vol* (طيران)، و*/z/* مثلما في *zut* (صَة!). والأمر نفسه بالنسبة إلى الصوائت: ف */a/* مثلما في *car* (سيارة)، و*/e/* مثلما في *fer* (حديد)، و*/i/* مثلما في *vis* (برغي)، و*/o/* مثلما في *moto* (دراجة بخارية)، و*/u/* كما في *pur* (نقي). وكل الكلمات التي عددنا للآن، تكتب بالطريقة نفسها إملائياً وألفونيكياً. وها هي نقاط الاختلاف:

1 - الحروف التي تلفظ في الألفونيك لا تكتب:

ف *il bat* = *il ba* (هو يضرب)، *tu bats* = *tu bu* (أنت تضرب)، *ils battent* = *il but*^(*) (هم يضربون) (في التلفظ الباريسي).

2 - لا نستخدم في الألفونيك أحرف البداية (*majuscules*):

ف *Jacques* = *jac*، و*Paris* = *pari*، و*Tunis* = *tunis*.

3 - ما يُلفظ بالطريقة نفسها يُكتب بالطريقة نفسها:

ف *sot* = *so* (أحمق)، *so* (قفزة - *saut*)، و*sceux* = *so* (سطل)، و*Sceaux* (اسم علم) = *so*.

4 - في الألفونيك، كلُّ يكتب ما يلفظه: فمن يشعرون بـ *t* في *but* (هدف) فليكتبوا *but*، وليكتب الآخرون *bu*.

5 - وتلفظ *e* و*o* دائماً بقساوة، كما في *calcul* (حساب)، *roc* (صخر)، و*glu* (دقيق)، حتى ولو أتبعها بالصائتين *i* أو *e*، ولا

(*) التاء *ta* والتاء والسين *ti* و *teni* غير المقرونة في نهاية الكلمات تسقط كتابياً.

نستخدم الحرفين *k* و *q* كذلك إلا بصورة *gu* لـ *g* «قاسية»: *qui* =
[ci] (من)، *[celc]* = *quelque* (بضعة)، *[kilo]* = *kilo*، *[gi]* = *gui*،
 (عارضة الصلاري)، *[ger]* = *guerre* (حرب)، *[ger]* = *guère* (مطلقاً).

6 - في الألفونيك، *[h]* توافق صوت *ch* في لفظة *char* (عربة)،
 وفي لفظة *cherche* (هو بحث) اللتين تكتبان *[har]* و *[herh]*. وعندما
 لا تسبق *k* بـ *c*، فإنها تختفي من الرسم الإملائي: *haricot* =
[arico] (فاصولياء)، و *il habite* = *il abit* (هو يسكن).

7 - إذا وجد صوت *c*، في الكتابة، أمام *i*، *e*، والأمر نفسه
 بالنسبة إلى صوت *c*، فهما يكتبان، عادة بواسطة *[s]*: *cigare* =
[sigar]، و *cérémonie* = *[seremoni]* (احتفال)، و *maçonner* =
[masone] (بني). ولاحظوا أن الـ *ss* في الكتابة، تسهل في الألفونيك:
[passaj] = *passage* (ممر)، و *missionnaire* = *[missioner]* (مبشر)،
 وأما *[lisse]* فهي توافق *lisser* (هو صقل)، أو *lycée* (مدرسة ابتدائية
 ثانوية)، بينما تبدو *lisez* (اقرأوا) تظهر مثل *[lize]*. ولاحظوا كذلك أن
[adizio] = *addition* (حساب)، و *[calvisi]* = *calvisie* (صلب).

8 - وتكتب *g*، في الرسم الإملائي، أمام *e*، *i* بواسطة *[ʒ]*:
Georges = *[ʒorʒ]*، و *gifle* = *[ʒifl]* (صفعة).

9 - ونلفظ الـ *-ill-* والـ *-il-* في *vetille* (شهر)، و *maille* (زردة)،
rail (خط حديد)، مثل الـ *y* في *yoga*، *Bayonne*، وهما تدونان في
 الألفونيك *[y]*، إذا *[vey]*، و *[may]*، و *[ray]*، و *[yoga]*، و *[bayon]*.

10 - أما الـ *-gn-* في *gagner* (هو ربح)، *grogard* (ناقم)،
Peigne (مشط)، فهي في الألفونيك تكتب بواسطة *[ny]*، إذا
[ganye]، و *[granyar]*، و *[peny]*، وثمة كثير من الفرنسيين لا يميزون

بين */rezinye/ = résigner* (هو استقال)، و */rezine/ = résinier* (صنّاع).

11 - إن الصائت الذي نسمعه في *feu* (نار)، و *heureux* (سعيد)، كما في *peur* (خوف)، و *feuille* (ورقة)، يكتب في الألفونيك بواسطة */x/*، وهذا بمثابة تسهيل لـ */œ/* المرتبطة التي كانت تستخدم بداية؛ تأخذ هذه الكلمات إذا الشكل */fx/*، و */xrx/*، و */pxr/*، و */fxy/*. وبهذه الطريقة نفسها، ندون الـ *e* غير الملفوظة حينما نسمع، مثلاً، في *brebis* = *brxbi* (نعجة)، أو في التلفظ الجنوبي لـ *petite* = *pxtitx* (صغيرة)، و *tu te moques de lui* = *tx mock dx lui* (أنت تسخر منه) (في باريس: */tu t moc dx lui/*).

12 - أما الصائت الأنفي في *vin* (خمر) فيكتب */ɛ̃/*، أو */ẽ/* في النصوص المطبوعة على الآلة الكاتبة: *fin* (نهاية)، *fain* (جوع) = */f/* أو */fẽ/*، *thym* (صعتر)، *teint* (سحنة)، و *tain* = */tẽ/* أو */tẽ̃/* (قصدير المرأة)، و *blen* = */bẽ/* أو */bẽ̃/* (جيد). ويكتب الصائت الأنفي في *sans* (بدون) و *cent* (مئة) */ã/* أو */ã̃/*: ف *sans*، و *cent*، و *sang* (دماء) = */sã/* أو */sã̃/*، و *fend* (هو فلق)، و *saon* (شادن) = */fã/* أو */fã̃/*، و *chambre* (غرفة) = */hãbr/* أو */hãbr̃/*.

ويكتب الصائت الأنفي (la voyelle nazale) لـ *son* (صوت) */õ/* أو */õ̃/*: *monde* (عالم) = */mõd/* أو */mõd̃/*، *plongeon* (غطس) = */plõjõ/* أو */plõjõ̃/*. أما الصائت الأنفي لـ *brun* (أسمر) فهو يوافق بالقافية - عند أغلب الفرنسيين - ذلك الذي لـ *crin* (عرف)، ويكتب إذا */ẽ/* أو */ẽ̃/*، وناء عليه */brẽ/* أو */brẽ̃/*، ويلفظ كثير من الفرنسيين هذا الصائت بشكل مختلف، فننونه إذا */x̃/* أو */x̃̃/*، أي */brx̃/* أو */brx̃̃/*.

(وقد فضلنا الحل بواسطة نقطة الفصل (tréma)^(*) في هذا الكتاب).

وعندما نصادف، في الألفونيك، /cun/ ، /men/ ، /com/ ، علينا أن نلفظ الصامتين n و m، كما نفعل في amen (آمين)، أو في rhum (مشروب الروم)، دون أن نخزن الصائت، وتوافق هذه الأشكال الكلمات: mène (هو يزدي)، même (أيضاً)، canne (قسيبة)، lame (شفرة)، sonne (هو قُزغ)، comme (مثل).

13 = ولا نميز في الألفونيك الـ w في tramway (ثرام) من ou في loup (ذئب). وفي nous (نحن)^(**)، وفي zouave (زواوي)، فالأثنان يكتبان /w/ : إذاً /tramué/ ، /lw/ ، /nw/ ، /zwav/ وما هو oi في الرسم الإملائي يتقلب عادة /wa/ في الألفونيك: pois (قوم)، poids (وزن)، poix (زفت) = /pwa/ ، droite (يمين) = /drwat/.

14 = ونكتب /o/ في الألفونيك، في /mo/ = mot (كلمة)، maux (الأم)، cor = /cor/ ، corps (جسم)، sorte = /sot/ (حمقاء)، colis = /coli/ (طرود)، horoscope = /orascop/ (طالع فلكي): ونستخدم /ɔ/ حيث بمقدور الاختلاف بين «o» المفتوحة، العائدة لـ sorte (حمقاء)، وبين «o» المخلقة المائدة لـ saute (هو قُزغ)، أن يسمح بتمييز الكلمات: sorte = /sót/، ولكن saute = /sót/، وكذلك فـ sol (أرضي) وsole (ضخن) = /sol/، ولكن saute (صفصاف) =

(*) علامة (...) توضع فوق الصوتات u ، e ، للإشارة إلى أن الحرف الصوقي السابق يجب أن يلفظ متصلاً.

(**) جنتلي فرنسي بلباس أهل مراکش والجزائر.

/sôl/، والأمر كذلك مع robe (ثوب) /rob/ = ، ولكن robe (الفجر) =
/ôb/.

15 - ونكتب، في الألفونيك، /e/ بلا نبر، أكان ذلك بالنسبة
إلى صوت é في pré (حقل)، وété (صيف)، أو بالنسبة إلى صوت
è في grève (إضراب)، perdre (خَسِرَ)، إذا /pre/، /ete/، /greve/،
/perdre/، وسنجد /e/ أيضاً حيث لا أهمية للاختلاف بين الصوتين،
لأن الناس غير متففين، في هذه الحالة مع الآخرين ولا مع أنفسهم:
فهناك فرنسيون يقولون /égza/ لـ exact (صحيح)، وثمة آخرون
يقولون /égza/، والشخص نفسه سيقول لـ maison (منزل) /mèzô/
الآن، و /mèzô/ بعد قليل، وفي كل الحالات، نكتب /egza/،
و /mèzô/ بلا نبر. ولكن كثيراً من الفرنسيين يلتزمون، في آخر
الكلمة، بالتمييز بين cassé (مكسور)، وبين cassait (هو قد كَسَرَ)،
وهم سيكتبون إذا /case/ بلا نبر بالنسبة إلى cassé، و /case/ مع النبر
الخفيض بالنسبة إلى cassait.

16 - وما يلفظه كثير من الفرنسيين في آخر كلمة parking
(موقف)، سندونه أيضاً بواسطة /g/ أو /g/، مثل = /parcig/ أو
/parcig/.

17 - وعندما نلفظ، في الألفونيك، وصلة ما، فنحن نلحق
صامت الوصل بالكلمة التالية بواسطة شرطة: lui dit - elle (هو قال
لها) = /lui di t-el/، quand il fait beau (عندما يكون الطقس جميلاً)
/cā t-il fē ho/، ولا تُستخدم علامة الحذف، في الألفونيك،
(الولد) = /lāfā/.

الألفباء الألفونيكية : الشبكة الفونولوجية

ALPHABET ALFONIC: GRILLE PHONOLOGIQUE

	P	f	t	s	h		c
1	papa	fil	tel	sol	har		calcul
2	patric	fernā	terez	sofi	harl		catrin
3	ponè	foc	tigr	serpā	hamo		cāgwru
	b	v	d	z	j	y	g
1	baba	vol	dur	zut	joli	yoga	glu
2	bernar	vivian	dxni	zoe	jā	yolād	gi
3	belen	vizō	dōfē	zebu	jiraf	yen	gazel
	m		n			ny	g
1	muel		nul			peny	parciā
2	miriam		nadin			anyes	
3	māho		naja			sigony	
			l				
1			lac				
2			lusi				
3			leopar				
	i	u	w				r
1	vi	pur	hw				roc
2	iren	uber	rawl				rihar
3	ibw	urubu	wrs				rxnar
	e	x	ō				
1	case		sōl				
2	eliz	1. pxt	jcrôm				
3	elefā	brabi fx	ōtruh				
	é	2. xiali 3. emx	o				
1	casè		sol		ā	ō	
2	jervè		odil		brā	pō	
3	furè		otari		ther	simō	
		a				liō	
1		car			ē	ā	
2		alber			vē	sā	
3		anyo			alē	āri	
					dē	clā	

5.2 - الألفونيك والكتابة اليابانية⁽⁵⁾

من المتواتر أننا نأخذ على الفين يقيمون الألفونيك بوصفها أداة لتلقين الولد الكتابة بأنهم يصعبون بذلك، ودون جدوى، مهمة الأولاد الذين يدعون مساعدتهم. بإمكاننا أن نردّ عليهم مذكّرين بأن كل أداة تضيف دائماً وزنها الخاص بها في كل عملية نستخدمها فيها. ورغم ذلك، فنحن لا نتردّد في الرجوع إليها، فالمنقلة (*la brouette*) مثلاً، تزيد من كمية المواد المعدة للنقل، وهي تتطلب أن نحملها وأن نزل حمولتها، ومع ذلك، فنحن نستخدمها في مناسبات شتى.

وتصلح هذه البراهين بالتأكيد للألفونيك. ولكن، بالإضافة إلى ذلك، فالكمية المنقولة، في هذه الحالة، شبه مستعادة بالكامل: فالكتابة الألفونيكية تظهر مقدار كذا من القياسات مع الكتابة التقليدية، حتى أنه ليس ثمة ما ننساه حينما نعبر من الواحدة إلى الأخرى. مستمع الألفونيك، ببساطة، للولد أن يفهم، بشكل أفضل، كيف يمكنه أن ينطلق، من الأصوات التي يعرف كيف يحدّثها عندما يتكلم، وصولاً إلى العلامات المكتوبة التي يصادفها في الشارع وفي الكتب. وهو سيفارب من ثمّ الإملاء، أي سمات الكتابة، حيث لا يعود التوافق قائماً بين ما نسمعه وما نكتبه.

إنّ نظرة سريعة إلى المسيرة التي يقطعها الياباني الصغير وهو يتعلم قراءة اليابانية، شجملنا نفهم، بشكل أفضل، ضرورة إيجاد بضع مناوبات، عندما يكون المقصود تلقين وتعليم نظام كتابي بعيد عن نسخ الشكل الشفهي للغة.

تلقى اليابانيون - مثلهم مثل أغلب شعوب الشرق الأقصى - الكتابة الصينية التي كانوا تقريباً قد طوروها في الزمن الغابر، شأنهم

«Alfonic et l'écriture japonaise», *Liaison alfonic*, fasc. 1 (1984), pp. 7-10. (5)

شأن شعوب بلاد ما بين النهرين، التي تدعى لها، في آخر المطاف،
 بالـ «إيديوغرافيا». وتدعى هذه الكتابة الصينية الرمزية الفكرية
 (*idéographique*)، بمعنى أنه يفترض بكل حرف أن يوافق مفهوماً ما،
 لا صوتاً أو زمرة من الأصوات، فلتأخذ مثلاً بسيطاً: مفهوم
 «الثلاثة»: فهو مدون في هذه الكتابة بواسطة خطين أفقيين مركبين،
 ويستخدم هذا الرمز، لهذا المفهوم من قبل أشخاص ينطقون الكلمة
 بطرق مختلفة للغاية، تماماً كما هو حال رمز 3 الذي يلفظ بشكل
 مختلف من قبل الفرنسيين، والألمان، والروس. ولتأخذ أيضاً مفهوم
 «الجبل». نحن ندونه بواسطة خط أفقي تخرج منه ثلاثة خطوط
 عمودية، فيها واحد مركزي يتجاوز الآخرين تجاوزاً قليلاً من حيث
 الطول، والمجموع مشتق من رسم يمثل سلسلة من الجبال بقمم
 ثلاث. وتنطق كلمة «جبل» في الصينية، تقرباً مثل *chan*. أما في
 اليابانية، فالحرف ذو الخطوط الثلاثة العمودية، سينطق إما *yama*،
 وإما *san* أو *zan*، وهذه الأخيرة هي الترجمة اليابانية للكلمة
 الصينية. ولا شيء في أثناء القراءة، يتنبه أن علينا أن نطق *yama*، أو
san، أو *zan*. وقد أخطأ الأوروبيون بهذا الشأن عندما أطلقوا على
 الجبل المقدس في اليابان *fujiyama* فوجي ياما، في حين أن اسمه
 الحقيقي هو *fujisan* فوجيسان. والأمر يكاد يشبه إقدام شخص غريب
 على تسمية الجبل الأبيض *Le mont Blanc* بـ *la montagne blanche*.
 ولكن بإمكان اليابانيين أنفسهم أن يترددوا حول الشكل
 الذي ينبغي إسباغه على الحرف.

ومحاسن هذا الضرب من الكتابة بيّنة: فالخطوط الثلاثة هي
 أكثر تحيلاً بكثير لمفهوم «ثلاثة» من رقمنا 3 أو من شكله المكتوب
 ثلاثة، ويذكر الرمز العائد لـ «جبل»، إلى حد ما، بسلسلة من
 الجبال: ونحن نسهل حتى استذكار الحروف بإيجادنا نظائرها في
 الواقع: فالحرف الذي يدل على الغرب يحلل غالباً مثل عش يحطّ

فيه العصفور حين يهبط الظلام، أي إن الشمس انحدرت نحو الغرب. إنه استدلال متعمق بالتأكيد، ولكنه فعال تربوياً.

وليست مساوئ الرمزية الفكرية أقل وضوحاً من محاسنها، إذ ليس بإمكاننا أن نباشر بقراءة نصّ ما، مهما يكن بسيطاً، قبل تعلّمنا عدة آلاف من الحروف. ويعتبر الفرنسي الصغير - الذي يعرف حروفه - مباشرة، في نصّ ما، كلّ ما يستخدمه في التحاور. ولا شيء من هذا القبيل متاح للصيني الصغير، في مواجهة حروفه.

وقد لاحظ اليابانيون، من خلال الاستعمال، أن الكتابة الصينية تترك سمات عدة ضمنية من لسانها: فحيث تقول الفرنسية (رأس الرجل) *la tête de l'homme*، سترسم الصينية ببساطة (رجل رأس) *homme tête*، أما اليابانية، فستضيف بين رجل ورأس عنصر *no*، الذي يوافق الـ *s* الإنجليزية في جملة *the man's head*. وسرعان ما شعرنا بالحاجة إلى التعبير عن هذه العناصر النحوية التي لا توافق شيئاً ما في الكتابة الصينية. وقد انتهينا على هذا النحو إلى إنشاء أبجدية مقطعية، أي متتالية من الرموز التي يوافق كل منها مقطعاً من مقاطع اللسان. وقد سهّل هذا الأمر جزاء احتواء اليابانية قليلاً من المقاطع المختلفة، التي يتكون أغلبها من صامت متبوع بصائت. والواقع أن كل ما قبل، في اليابانية، يمكن أن يمثل بخمسة وأربعين علامة، نضاف إليها علامتان مميزتان^(*) تسمحان بتمييز *ga* من *ka*، مثلاً، أو *pa* من *ba*. وثمة، في الواقع، نسختان للأبجدية المقطعية، تدعى إحداهما *hiragana*^(**)، وهي أكثر إيجازاً وسرعة، أما الأخرى

(*) *diacritique*: علامة توضيحية مميّزة لضبط النطق.

(**) *hiragana*: نظام كتابة مقطعي ياباني مأخوذ من الكتابة الصينية، يستخدم للاغراض اليومية العادية، انظر: معجم للمصطلحات اللغوية (إنجليزي - عربي)، رمزي بعلبكي (بيروت: دار العلم للملايين، 1990)، ص 227.

فهي *katakana*، وهي أشد تزويماً وصعوبة، وتستخدم لتدوين الكلمات ذات المنشأ الدخيل - والتي تلفظ على الطريقة اليابانية - مثل «*o-pa-a-ru* (البني اللون)»، أو «*drame do-ra-ma*»، من الإنجليزية *drama* (دراما).

ويدخولهم المدرسة، يتعلم الأولاد حروف الأبجدية المقطعية *hiragana*. ويوصلهم هذا التعلم سريعاً إلى أدب مطبوع حصراً بهذه الحروف، ويمكنهم من تعبير مكتوب مباشر من خلال إعادة تكوين مباشر للكلمات التي يلفظونها، وحينما يكتسبون سيطرة تامة على الأبجدية المقطعية، يُنصّر إلى تعليمهم الحروف الصينية المعروفة بـ *kanji*، مبتدئين بالأكثر سهولة منها والتي هي أيضاً الأكثر نواتراً. ولا ينتهي تعليم حروف *kanji* - الذي سيستمر طوال الفترة الدراسية - مطلقاً، وحتى بالنسبة إلى المثقفين. ومن الذي بإمكانه أن يشجع بمعرفة كلمات اللسان كلها؟

ウエストは百面相。窮屈感を

忘れさせてくれるのは、

المقصود هنا نحن إعلامي ننسج الحروف الأربعة الأولى إلى الأبجدية المقطعية *katakana*. وهي تُقرأ *u-e-i-o*، ويفترض بها أن تمثل الكلمة الإنجليزية *most* (أقصى). أما العلامتان التاليتان فتُمَوِّدان لك *hiragana*. ثم تلي تلك حروف من *kanji*، حتى نهاية السطر الأول، باستثناء العلامة الأخيرة الذي تتبع لك *hiragana*. والسطر الثاني برشته، ما خلا حرف بلني من *kanji*، مكتوب بواسطة *hiragana*.

نلاحظ، بلا ريب، ما يقرب هذه السيرة الشريفة اليابانية من تعلم الكتابة بواسطة الألفونيك، فتحن بداية تغدّل، من الجهتين، عن تعليم الكتابة التقليدية، الوقورة والمحرمة، ولكن استعمالها - النشط خصوصاً - من قبل الولد، يتطلب تدريباً طويلاً. وتدرس في فترة أولى

شكلاً مكتوباً يقوم فيه توافق تام بين فونيمات اللسان ورموز الكتابة. وصيتمكن الولد من استخدامه، في مطابقة مع استخدامه الشفهي الخاص، دونما خوف من ارتكاب عشرات لسانٍ متعرّضه للنقد والسخرية.

وبطبيعة الحال، فالتوازي هو أبعد ما يكون عن الكمال: فسينابغ الياباني الصغير استخدام علامات الأبجدية المقطعية طيلة حياته، لأن كل نصّ ياباني يشتمل عليها، أوليس الأمر إلا وسمّاً لتلفظاته نحوية؟ ونجد على العديد من المراوح اليابانية قصائد مطبوعة كتب كل شعر منها بحروف *kana* يظهر على الجهة اليمنى لأحد أقسام المروحة، ولكن القفا يحمل بدوره نصوصاً بالأبجدية المقطعية بغية تأمين قراءة شفوية تصوّب إيقاع القصيدة. وبلا ريب، فالأبجدية المقطعية، التي يُقال إن النساء قد ابتدعنّها، لا نحظى بالاعتبار نفسه الذي لـ *kana*، ولكن صحتها مقروّة عالمياً، الأمر الذي ليس بالتأكيد هو حالة الألفونيك البتة.

وبالمقابل، علينا أن نسجل للألفونيك أن شكلها يختلف اختلافاً بسيطاً عن الكتابة الفرنسية التقليدية، حتى أن الولد، المدرّب على قراءة الألفونيك، يتوصل من دون جهود تقريباً إلى قراءة الثانية (أي الفرنسية التقليدية). والجهد الحقيقي الوحيد - وذلك سيمكن امتداده طيلة الحياة، مثل تعلّم حروف *kana* من قبل اليابانيين - سينهض على تعلّم نسخ الكتابة التقليدية وفقاً للمعيار، أي على اكتساب الرسم الإملائي.



—

—

الفصل الثالث

تباين اللغات وضروب استعمالها

إن أسهل طريقة لاستبعاد كل مسألة لغوية هي في أن نطالب بين لسان ما ودولة - أمة من جهة، ونقرّر اطراداً كاملاً لكل لسان من جهة أخرى: إنه فرنسي، إذاً هو يتكلم فرنسية تماماً مثل أي فرنسي آخر. ومن ثمّ نحيل إلى نحوه المدرسي وإلى معجم (Petit Larousse).

ويبدو أننا عدنا إلى هذه القرّة بعد الاهتمام المتوفّج الذي عرفته سنوات الخمسينيات والستينيات، وبعد انحسار الموجه التشومسكية العالية والمفاجئة. وقد كان بإمكاننا الاعتقاد أن «اللسانيات الاجتماعية» ستتمكّن من النجاة من جزاء مؤالفاتها مع علم الاجتماع، العلم الوطني. ولكنها بدورها (أي اللسانيات الاجتماعية) قد ملّكت زمانها، وكفى.

هل لدينا الأمل في أن تعزّز التبادلات الدولية، والوعد أو التهديد لمنطقة أوروبية ذات تبادلات حرّة سيجعل الأذهان مستفحّة على الحقائق اللغوية في كلّ تعقيدها؟ ولن نعرف هنا - وحتى في الخطوط الكبرى - أن تحيط بكلّ المسائل التي يطرحها التعاون بين البشر رغماً عن لعنة يابل، فتحنّ لم تستيق منها إلا أمرين: تعند

اللغات، ذلك النائم. ولكنه متجاهل طوعاً. وآخر على جدول الأعمال منذ أن يُدعى بإزالة الاستعمار، وباسترخاء مُلتبس للترعات المركزة للسلطات.

إن السبل المختلفة التي تبحث من خلالها الدول المعنية في حماية تراثها اللغوي وفي تشجيع انتشاره تستحق استقصاء مُقارناً، ففرنسا، مثلاً، على اختلاط اتجاهاتها السياسية كلها، تفضل مفهوماً محافظاً للسانها يَدْعُ نجاح عمله متطيراً. ولقد كان من المهم أن نبين كيف تصطدم الألسن المصنوعة، التي لا يمكن أن يُطعن في فعاليتها كالسني مُساعِدة، بالسذ الشديد الفعالية الذي يشيده - بعمل لا شعوري بالتمام - حشد المتحدات الاجتماعية ذات «الألسن الواسعة الانتشار». وينقصنا الوقت والمكان لمعالجة هذا الأمر هنا.

1.3 - تعدد اللغات⁽¹⁾

إن مصطلح تعدد اللغات هو واحدٌ من تلك المصطلحات التي لا يستطيع اللساني أن يستخدمها دون أن يعاود تعريفها بعناية. ذلك أن البورجوازيين الأحاديي اللغة في الأمم الأوروبية الكبيرة يعتبرون، بشكل تقليدي، ثنائية اللغة بمثابة واقع يتعلق بأفراد شديدي الخصوصية، وجدوا أنفسهم - لأسباب شخصية - يتعلمون في آن واحد لسانين أوليين ذوي منزلة اجتماعية وقومية مماثلة، وسيكون هناك، والحالة هذه، ثنائيو لغة فرنسيون - إنجليزيون، وثنائيو لغة فرنسيون - إسبانيون، وثنائيو لغة ألمانيون - روس. والمقصود دائماً

(1) هذا البحث مستلهم يتصرف من محاضرة قدمت في تونس، في CERES (مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية) في 15 نيسان/أبريل 1965، ونشرت مع المناقشات التي تلتها في: *La Revue tunisienne de sciences sociales*, vol. 3, no. 8, pp. 57-77.

أفراد معزولون ولسانان ذوا اعتبار لُقنا في آن واحد في فترة تعومة الألفار. وثنائية اللغة في ذهن أولئك الذين يدركونها بهذه الطريقة، تملك شيئاً ما من القباحة، ومن الوحشية تقريباً. وكما إنه ليس لدينا أمان، فليس باستطاعتنا أن نملك لسانين أمينين. وما يبدو طبيعياً، هو أن يمتلك كل إنسان لساناً - إذا صحَّ القول - طبيعياً، وأن يُعرف هذا اللسان بأنقاي من قبله، بحيث إنه يقاوم، من خلال وجوده هو ذاته، الاكتساب اللاحق لالسن أخرى إلا إذا حدث ذلك بطريقة تقريبية جداً وناقصة للغاية، والمقصود من هذا المفهوم أن نثبت من مُؤجّه.

وتدلُّ تجربة أكبر بكثير من تجربة البورجوازيين الغربيين، أن فرداً ما لا لسان «طبيعياً» له، بمعنى أنه حينما يُولد، من المحتمل أن يتعلّم «على الوجه الأكمل» أي لسان، ذلك اللسان العائد للبيئة التي يعيش فيها، فالولد الذي يُولد من أبوين صينيين، ويقيم في فرنسا في بيئة نتكلّم فيها الفرنسية بشكل اعتيادي، سيتكلّم الفرنسية «على الوجه الأكمل». والأمر نفسه بالنسبة إلى الطفل الذي يُولد لأبوين فرنسيين ويُنقل من ثم إلى الأرجنتين، فسيتكلّم إسبانية الأرجنتين برضى الأرجنتينيين. ويشكل العديد من بلدان العالم الجديد بيئة مثالية لرصد وقائع مثيلة. ولا نتحقّق فيها أن التطبيقات اللغوية تملّئ بوقائع عرقية، وبترتيب خاص بأعضاء الكلام، أو هي تبع لوراثة ما. وتختلف، بلا ريب، أعضاء الكلام من فرد لآخر. وقد تحفّض، على سبيل المثال، من خلال أبحاث أجريت في هولندا، من أنه بإمكاننا أن نصنّف - تشريعياً - الأفراد ضريين: واحد ذو حنك مشفّح، وآخر ذو حنك مستو. وبالطبع، فشكل الحنك يمكن أن يكون له تأثير على الرنين الفموي، وبالتالي على تعديل جرسه. ولبنية الحنجرة أثر حاسم مباشر على انخفاض تردد هذا الجرس، من هنا تغيّر الصوت عند

بلوغ سن المراهقة، وتغير السُلَم الموسيقي للأصوات من الخفيض حتى التندى (Soprano)، ومع ذلك، فليس لطبيعة الصوت أي علاقة باللسان. وهذا هو المهم، فكل صوت خاص يتلاءم تماماً مع أي حنك.

وتدل التجربة من ثم، أن أي لسان لا يُعرف مطلقاً «على الوجه الأكمل»، أكان المقصود اللسان الأول المكتسب، المُستنى لغة «أناه»، أم أي لسان آخر. وعلى كل حال، فالقول إنه يمكننا أن نمثل لساناً أول مكتسباً بـ «إتقانه» فلا معنى لهذا الكلام، لأن هذا اللسان الأول - في الأغلبية الفاتكة المحذ للحالات - لا يُستعمل وفق المعايير الموضوعية. ويُفضل القول إن هذا اللسان مُستعمل لإرضاء المحيط، شرط أن لا يتغير هذا المحيط في أثناء المسار. والمحيط الذي مائل الفرد بوصفه منتبهاً إلى المتحد الاجتماعي، يقبل سلوكه اللغوي مهما كانت نوعيته. ومُذ اعتُبر «مقبولاً»، فمقدوره أن يتكلم بطريقة ناقصة إلى حد كبير، وأن يرتكب أخطاء كلامية، وأن يتلجلج، وأن يحقق بضمة فونيمات بشكل رديء، وأن يستخدم نحواً يُعتبر مفلوطاً من وجهة نظر معيارية. ولا طائل في الأمر، شريطة أن لا تعوق أي سمة من سمات استخدامه الانتباه، واضعين جانباً ما نمائله على أنه يمكن أن يميز شخصه.

وتدل التجربة، من جهة أخرى، على أن فرداً ما لا يشق، بالضرورة، في اللسان الذي تعلمه أولاً، أكثر من ثقته في آخر اكتسبه لاحقاً. ونعرف، بالفعل، حالات عديدة نسي فيها أناس لسانهم الأول كلياً، فلنأخذ حالة ثويخت بالتفصيل. بنت في الخامسة من عمرها، تتكلم الدانماركية بوضى عام ولم تتعرض قط للسان آخر. ها هي تصل باريس وتُرسل، بعد عدة أيام، إلى مركز للأمومة، في غضون شهر تقريباً، نمتنع عن توجيه الكلام إليها بالدانماركية. وبعد

ثلاثة أشهر، تلتقي جذبيها الدانماركيين، وتجذ نفسها عاجزة عن محادثتهما. وبالمقابل، فهي تتكلم الفرنسية بطلاقة، على شيء من فجوات مفرداتية سرعان ما سدتها. وبمناسبة إقاماتها الصيفية في الدانمارك، فهي مستعبد للاحقاً استخدماً ما للدانماركية، دون أن يؤثر بشيء في أولية الفرنسية لديها. وقد جرت أوضاعاً من هذا الضرب في الولايات المتحدة الأميركية تناولت حالة أفراد أكثر تقدماً في العمر، فلنفترض أن فتى يتراوح عمره بين الخامسة عشرة والثامنة عشرة سنة يصل إلى الولايات المتحدة، وهو يمتلك لساناً غير الإنجليزى، البولونى مثلاً، وفي مكان عمله لا تتكلم البولونية قط، فيقرر، لأسباب مختلفة، أن لا يستخدم بَعْدَ لسانه. وفي غضون سنة، ثمة حظوظ في أن تتأثر إلى حد كبير بولونيته، وأن تختفي عملياً بعد خمس أو ست سنوات. ولديه كل الحظ في أن يمارس الإنجليزية - بعد سنوات عديدة - بالدقة نفسها التي كان يمارس فيها في ما مضى لسانه الأول.

وفضلاً عن ذلك، فمن الثابت أن الراحة في ممارسة لسان ما هي أمرٌ يختلف من لحظة، أو من موضوع اهتمام لآخر، فإمكاننا أن نكون مرتاحين في ميدان معين وعاجزين عن مقاربة آخر بواسطة اللسان نفسه. وعندما فرسوكم في المدرسة موضوعاً ما في لسان ما، لم يعد بإمكانكم على الإطلاق أن تتكلموا عنه بفتنة في لسان آخر. هاكم حالتان: طبيب من أصل هنغاري، أنهى دروس الطب في فيينا، واستقر من ثم في نيويورك خلال الحرب العالمية الثانية، كان يتحدث بالهنغارية والألمانية والإنجليزية دون صعوبات تذكر، ولكنه لم يكن يعرف - في المادة الطبية - إطلاقاً سوى اسم الأمراض المتماثلة عموماً. وقد كان بإمكانه أن يعالج، في الألمانية، ما اتصل بالطب التقليدي، ولكنه لم يكن يرتاح إلا في الإنجليزية، عندما

يتعلق الأمر بالتقنيات المعجزة منذ استقراره في الولايات المتحدة. وقد تعلمت إحدى ابنتي - المولودة في أميركا - الفرنسية والإنجليزية في آن واحد تقريباً، ولكن في ظروف مختلفة لحد ما: كانت تتكلم الإنجليزية مع حاضنتها، ومن ثم مع رفاقها في حدائق الأطفال. ولم تكن تتحدث بالفرنسية إلا مع والديها. وعليه، ففي حوالي سنتها الرابعة، كانت فرنسيته راشدة وإنجليزيته صبيانية.

ينبغي أخيراً أن نناضل ضد الفكرة الدائخة الشيوع التي مفادها أن ليس بمقدورنا أن نؤلف نتاجاً أدبياً إلا في اللسان الذي تعلمناه خلال نعومة أظفارنا. ولا تنقص الأمثلة النقيضة: فـ أدلبرت دي شاميسو (Adalbert de Chamisso) وُلِدَ فرنسياً وكتب بالفرنسية، وجوزيه - ماري دي هراديا (José Maria de Heredia) ذات الأصل الكوبي، هي شاعرة بالفرنسية، وجوزف كونراد (Joseph Conrad) البولوني، هو كاتب إنجليزي. ويصدق الالسن، علينا أن نقاوم الفولكلور الرومنطي الذي أكسبنا إياه عبارة لغة أم.

وينبغي كل ما سبق بما يمكن أن نسميه ثنائية اللغة الفردية، وفي هذا الميدان، علينا ملاحقة التحقيقات كي نتأكد مما توفره الاحتكاكات بين هذا اللسان أو ذاك، في هذه المرحلة في حياة فرد ما أو تلك، وما يبقى من لسان ما بعد فترة من الإهمال وعدم الاستعمال. المقصود هو حالة خاصة، أولاد أو راشدون ينقلون ويتمرضون لشروط اكتساب خاصة. وما يمكن أن نقوم به، في حالة ثنائية اللغة الفردية، هو محاولة الوصول إلى تصنيف حسب صواب استعمال لسان ما والممارسة الناقصة لآخر.

ونفكر طبعاً بقطبين، فمن جهة، هناك حالة أولئك الذين - من خلال الممارسة ذاتها لمهنتهم، أو ربما في المدرسة - أُتيحت لهم الفرصة لاستخدام اللسانين بتساو تقريبي، على الرغم من انقضاء وجود

ميدان في امتياز للواحد أو للآخر. وهذا الأمر يقترب مما يسعى أحاديو اللغة إلى مماثلته بأنه «ثانية اللغة الحقيقية». وفي المقابل، نجد الحالة السائدة للوليد الأحادي اللغة حتى السن العاشرة، الذي يبدأ في المدرسة يتعلم لساناً أجنبي ما. وقد نشر أنطوان ميبه (Antoine Meillet) في ما مضى، بالتعاون مع أورليان سوفاجو (Aurélien Sauvageot)، دراسة دعيت: ثنائية اللغة عند الرجال المثقفين (*Le Bilinguisme des hommes cultivés*)، وقد استخدم فيها المؤلفان - اللذان لم يتابعا للأسف - مصطلح ثنائية اللغة بالإحالة إلى مواقف كان الأفراد قادرين فيها، كيفما كان، على إقامة احتكاكات في لسان غير ذلك الأول الذي تعلموه، لسانهم الذي يقال له: «لغة أم»، ولأن نعمة لاتناهيًا من قطب لآخر، من مواقف مختلفة يجمع بينها استخدام الشخص نقيه للسانين، فيبدو تصنيفها مؤكداً تحت بافظة ثنائية اللغة. وإذا امتد الاختيار الفردي - كما هي غالباً الحال - لأكثر من لسانين، فستكلم عن تعدد اللغات (*Plurilinguisme*)، إشاراً عن الاستخدام المزعج (*multilinguisme*) الذي ظهر بأفلام كتاب من مختلف الأصول، يكتبون بالإنجليزية ولكنهم ليسوا على اطلاع كافٍ على مصادر الاشتقاق الأنجلو - روماني. ولا يقصد هنا الممارسة العائدة لكثير من الألسن *multi-* ولكن لجملة من بينها (*pluri-*).

وقد اقترحنا مصطلحاً آخر، هو مصطلح (*diglossie*) «ازدواجية اللغة»، للإشارة إلى مواقف لا تُعد فيها ثنائية اللغة صنيع فردٍ مخصوص، بل بالأحرى صنيع مجموع الشعب. وقد انحصرت الازدواجية اللغوية، منطلقاً، في الحالة التي يقوم فيها، في مجتمع ما، تنافس في الاستعمال بين لسان ذي اعتبار وشكل شعبي للسانٍ بعينه، وهذا ما نتحقق منه - على سبيل المثال - في البلدان الناطقة بالعربية. ولكن، سرعان ما طُبق هذا المصطلح على حالات ثنائية لغة

جماعية لم يكن فيها اللسان ذو الاعتبار واللسان اليومي الاستخدام، بالضرورة، تنوعين للهجة الخاصة بغيرها، فهناك مثلاً ثنائية لغة في مقاطعة بريتانيا^(*) (Bretagne)، حيث يتعايش لسان روماني والفرنسية، إضافة إلى محكيات سلتي (celtiques). وينسحب الأمر على غاسكونيا، حيث الفرنسية والمحكية الغاسكونية يجب تصنيفهما - الأولى والثانية - بوصفهما رومانيتين، ولكن من دون أن يكون بإمكاننا القول إن الغاسكونية هي لهجة تعود للفرنسية، لأنها من حيث المبدأ الشكل الذي اتخذته اللاتينية في غاسكونيا، في النهاية، لغة ازدواجية لغوية حيث يتعارض لسان ذو اعتبار وآخر ذو وضع أدنى. ومن بين المساوئ التي تحملها هذه المصطلحية، أنها تُدخل أبعاداً يصعب قياسها، فالكلام عن اعتبار للسان ما هو أمر في غاية الغموض، لأن الاعتبارات متنوعة. ويمكن للألمني أن تتخذ، على مختلف المستويات، اعتبارات متعددة، والتنافس يمكن أن يقوم - في موقف يُزعم أنه ثنائي اللغة - بين لسانين يتمتعان كلاهما باعتبار، ففي مدينة الجزائر مثلاً، تعطي الفرنسية باعتبار اجتماعي إزاء العربية الكلاسيكية أو إزاء العربية المسخاة «عربية مُشتركة» (arabe commun)، لسان الدين والدولة معاً.

يُضاف إلى هذا، أن ثنائية اللغة مصطلح مغلوط غالباً، ذلك أن «ازدواجية اللغة» و«ثنائية اللغة» يشتملان معاً على «di» أو «bi» التي تعني اثنين، لكن ليس المقصود، في كثير من الحالات لسانين، بل ثلاثة أو أكثر. وهذا مثلاً هو حال مدينة الجزائر، حيث يقوم بموازاة الثنائية الفرنسية - العربية الرسمية تعايش اللسانين ذوي استخدام يومي: العربية العامية المحلية والقبيلية (Kabyle) ستغلي

(*) منطقة فرنسية.

ازدواجية اللغة، بالمعنى الأول، الثنائية العربية العامية - العربية الرسمية، ولكن كيف نصنّف «الرباعية اللغوية» (quadrilinguisme) الفعلية؟

حالة أخرى تثير الاهتمام هي تلك العائدة للكسمبورج. ويمكن أن نحيل إلى مقالة جان - رنيه رايمان (Jean-René Reimen) المنشورة في مجلة (La Linguistique, vol. I, fasc. 2)، والذي يجهّد فيها لتحديد ميادين استخدام ألسن ثلاثة تتواجد في هذا البلد الصغير ذي الثلاثمائة ألف نسمة. والألسن المتناقضة الثلاثة فيه هي، قبل كل شيء، المحكية اللكسمبورجية، وهي لهجة مختلفة للغاية عن الألمانية الأدبية، ولا يفهمها الناطقون بالألمانية من غير اللكسمبورجيين، ومن ثمّ، الألمانية الأدبية، وأخيراً، الفرنسية. وهاكم بضعة ميادين للاستخدام: ففي مجلس النواب، لا نستخدم الألمانية مطلقاً، بل المحكية اللكسمبورجية أو الفرنسية. وثمة اعتبار ثقافي يرتبط بالفرنسية، من هنا استخدامها حينما نريد أن نضفي على الجلسة لهجة لرتسامية. أما نصوص القوانين فتدبج بالفرنسية، مع ترجمة - غالباً ولكن اختياريّاً - إلى الألمانية. وفضلاً عن ذلك، فالألمانية هي التي تبرز في الميدان الاقتصادي. وأما السينما الشعبية، فهي حقيقة ألمانية، في حين أن تلك التي يُنظر إليها كوسيلة ثقافية، فتتمثل في الأفلام الفرنسية. ويصلح هذا الموقف، من جهة أخرى، ليس للكسمبورج فحسب، ولكن لمقاطعة الألزاس أيضاً، حيث الأفلام، التي لا تساوي شيئاً من الناحية الفنية هي ألمانية، في حين أن الجمهور الموهف إلى حدّ ما، يذهب لمشاهدة أفلام فرنسية. ويمكن أن يعود سبب ذلك إلى اختلاف نوعي بين الإنتاجين الألماني والفرنسي، ومعقدورنا أن نشير إذاً - في هذه الحالة بالذات - إلى نوع من اعتبار أرفع منزلة للفرنسية. ولكن ينبغي التفكير أيضاً في أن

الفرنسية التي تُدرّس في المدرسة، ستكون أحسنَ فهماً من قبل الأكثر تعليماً. وفي ميادين أخرى، كالاقتصاد السياسي على سبيل المثال، بإمكاننا الافتراض أن الألمانية في اللكسمبورج تحظى باعتبار يفوق ذلك الذي يعود للفرنسية.

اقترح أن نستخدم مصطلح ثنائية اللغة هذا، أولاً لأنه بسيط، إذ يحسب أنه يفترض أن ليس هناك سوى نوعين من ثنائية اللغة: ثنائية اللغة الفردية بين اللسان ذات اعتبار متشابه، وثنائية اللغة المشتركة التي تتضمن، بالضرورة، تراتبية اعتبارية بين اللسان. فلنأخذ، مثلاً، حالة أخرى لثنائية اللغة، تلك العائلة لمقاطعة كيبيك في كندا، حيث نجد لسانين قوميين ذوي اعتبار على احتكاك، هما الإنجليزية والفرنسية. وللإنجليزية، في بعض النقاط موقعٌ هيمنةٌ محدّد، من جرّاء أن الاقتصاد كان لفترةٍ طويلةٍ وما يزال كذلك في أيدي الناطقين بالإنجليزية أكثر منه في أيدي الناطقين بالفرنسية. وتحظى الفرنسية، على الصعيد الثقافي، باعتبار ما، ولكن اعتبار الإنجليزية، على صعيد الاقتصاد والتقنية، واضحٌ التفرق. ويُشار، على سبيل المثال، إلى أن الكنديين الناطقين بالفرنسية والأحاديي اللغة يستخدمون الكلمات الإنجليزية العائلة لمفردات السيارة: فهم لا يعرفون *eric* (رافعة، بالفرنسية)، بل بالأحرى *jack* (رافعة، بالإنجليزية).

وتُظهرُ المقابلة الممثلة بين ثنائية اللغة وازدهاجية اللغة، إضافة إلى ذلك، الضّرر من أن نترك للشك مواقفَ قامت ميزتها الثنائية اللغة الانتباه طويلاً. أفكرُ في الاستخدامات اللغوية بفرنسا، خلال القرن التاسع عشر وحتى يومنا هذا، ففي عام 1860 كان عدد سكان فرنسا حوالي خمسة وثلاثين مليوناً تقريباً، ومن المحتمل أن خمسة عشر مليوناً من بينهم كانوا يوضح أحاديي اللغة. وكان هناك مئات

الألوف من الأفراد الذين كانوا يمارسون الفرنسية بشكل اعتيادي. وفي منطقة ريفية ما محصورة إلى حد ما، وعلى بعد مئة، إلى مئة وخمسين كيلومتراً حول باريس، كانت المحكيّة العادية «لونا» من الفرنسية، وعندما كان القرويون يتكلمون في ما بينهم، كانوا يستخدمون هذا الشكل من الفرنسية، وعندما كانوا يتكلمون مع المدرّس أو مع الكاهن، كانوا أيضاً يستخدمون الشكل نفسه، محاولين أن يهذبوا مفرداتهم. وبعد ذلك، وعلى مسافة، تبدأ ثنائية اللغة، بمعنى أن اللسان المحكي في المنزل لم يكن هو نفسه الذي نعلمه في المدرسة، والذي نستخدمه للوعظ في الكنيسة. ولم يبرز هذا الأمر، لأن فرنسا كانت تصوّر نفسها دائماً - بعيونها مثلما بعيون الخارج - كنوع من بورجوازية مثقفة، فالبورجوازي في الريف، كان يرى في محكيّة القرويين باتوا^(*) (patois)، دون أن يميّز بين الأشكال المنطوقة للفرنسية والمحكيّات الدارجة، وكانت هذه كلّها بالنسبة إليه من «الفرنسية المشوّهة». أما القرويون أنفسهم، فكانوا على اقتناع بأن هذا الموقف كان حسناً.

وعلى بعد مئة إلى مئة وخمسين كيلومتراً، من كلّ جهة، حول باريس، وربما أقل باتجاه الشمال، كان الريفيون يستخدمون تقليدياً محكيّات رومانية قليلة الاختلاف، إلى حد ما، من اللسان الممارس في باريس كي يغدو التواصل اللغوي ممكناً دائماً دون حاجة لبذل كبير مجهود. وعند التطبيق، كان بإمكان هذه المحكيّات أن تتقارب، وأخيراً أن تمتزج مع الفرنسية الباريسية. وعلى بُعد أكثر من العاصمة، كانت المحكيّات - وحتى الرومانية - باللغة الاختلاف لكي تتيح الفهم المتبادل. وكان ينبغي، والحالة هذه، تعلّم لسان الباريسيين، كي

(*) نورد مازينه هذا الرأي خلال حوار أجريته معه بيليس ونشر في: الحيلة، 29/

يُصارَ إلى فهمهم، ومن هنا، موقف ثنائي اللغة. وفي بعض الأقاليم، في البيكاردي (Picardie) مثلاً، كان القلاحون يعرفون أن يقرئوا الباتوا المائد لهم بدرجات مختلفة، حسب الأشخاص الذين كانوا يتوجهون إليهم. ولكن، بعيداً أكثر عن العاصمة أيضاً، وبخاصة في النصف الجنوبي من «المستن»^(*)، كان التضاد واضحاً بين المحكية المحلية واللسان الرسمي، ولم يكن بإمكان الأول أن يختفي إلا بقطع الإرسال، وذلك لدى عبورنا من جيل لآخر.

وإذا كنت قد رددت هذه النظرة الشاملة إلى عام 1860، فذلك لأن الموقف الموصوف كان آنذاك عاماً إلى حد ما: فمُنذُ زمن الحرب العالمية الثانية، وفي كثير من المناطق الثنائية اللغة، لم يكن هنا، على الإطلاق، سوى الأشخاص الذين يتجاوزون المستن عاماً لكي يتكلموا اللسان المحلي. أما أولئك الذين كانت أعمارهم تتراوح بين الأربعين والستين، فكانوا يفهمون اللسان المحلي، ولكنهم كانوا يتخاطبون بالفرنسية بعضهم مع بعض، أما بالنسبة إلى من هم دون سن الأربعين، فلم يكن الموضوع أن نعمل منها استخداماً حقيقياً. مع ذلك، وحتى في الوقت الحاضر، وفي المناطق التي لم يعد أناسها يتكلمون «الباتوا»، فبالإمكان أن يبقى منها شيء ما في وعي الناس: حديثاً، وفي قرية تقع بين أرل (Arles) وإيكس (Aix)، عمدت البلدية - المفتونة بشجديد المحكية الأكسية^(**) إلى إدخال البروفانسية^(***) (le provençal) في أسماء الشوارع، فالشارع الذي

(*) L'Hexagone (Française) : يطلق اسم المستن على فرنسا، بسبب شكل خريطة التي يمكن رسمها في مستن.

(**) Langue d'oc (السان oc)، لسان محكي في جنوب فرنسا. وهو عبارة عن مجموعة من اللهجات المائدة لمناطق تستخدم فيها oc بمعنى «نعم».

(***) لسان أهل مقاطعة بروفانس بفرنسا.

كان يُسمى (puits noir) «البئر السوداء»، صار بالتالي *du pous* ...
(*negro*)، وقد عَرَفَ جِرْفِيٌّ - لم يكن يُعرفُ عنه إلا أنه ناطق بالفرنسية -
- أن يبين عثرة اللسان التي كانت قد آلت إلى لصق الشكل المؤنث
(*negro*) بالمذكر (*pous*) بدل الشكل الوحيد والصحيح (*negre*).

نلاحظُ إذاً أن أحادية اللغة - في بلد يُعتبرُ عموماً أنه قد وُجِدَ
في وقت مبكر جداً، وأُخْضِعَ لعملية مكثفة للمركزة - ليست بَعْدُ أمراً
مقررأً، أو على الأقل أن امتداد الفرنسية وتعميمها لدى مجموع
السكان هو أمر قريب العهد. وما يستحقُّ، في أي حالة، أن يُشارَ
إليه هو أن ثنائية اللغة هذه تزولُ في اللحظة التي يعي الفرنسيون فيها
أن الفرنسية لم تعد كافيةً لهم. ولوقت طويل، درّسنا الألسن الأجنبية
في فرنسا بطريقة لا تتصفُ بجذبة كبيرة. وفي الوقت الحاضر، وفي
الفترة نفسها التي تأخذُ ثنائية اللغة - المؤسسة على المحكيّات
المحلية - طريقها نحو الإلغاء، نرى الفرنسيين يحون ضرورة تعلّم
لسانٍ أجنبي أو أكثر لكل من يرغب في أن يرتفع عن المرتبة
المتوسطة، ولكل من يتمنى أن يلعب دوراً ما في الإنتاج. وبعبارة
أخرى، ففي الفترة نفسها التي تختفي فيها ثنائية لغة قديمة، تبرز
واحدة جديدة، ثنائية الأناس الذين يؤثون أن يكونوا «في جُضمِ
الجراك» وأن يعودوا إلى السنج.



ينبغي أن نقاوم الفكرة السائدة التي مفادها أن لساناً ما يجب أن
يوافق، بالضرورة، هيئةً سياسية ما، وإذا لم تكن البريتانية^(*) (*le*
Breton) والباسكية^(**) (*le basque*) مثلاً لسانين، فما هما إذا؟ ويعتبر

(*) لسان مقاطعة بريتانيا الواقعة شمال غربي فرنسا.

(**) لسان يتكلمه أناس يعيشون على حدود إسبانيا وفرنسا.

كثيرون أنه بسبب وجود دولة بلجيكية، ينبغي أن يكون ثمة لسان بلجيكي. وفي هذه الحالة، يبدو أن وجود الفلمندية^(*) (le flamand) المحكية من قبل قسم من البلجيكين - يحمل لهذا الاستعمال بعض تبرير، فلتكن «الأميركية» (l'américain)، وبالطبع «الإنجليزية» (l'anglais) و«الأميركية» هما ذاتهما لسان واحد. ولكن كثيراً من الفرنسيين يرون، في الوقت الحاضر، أنه لا يمكن للجسم السياسي الأميركي أن يملك اللسان نفسه الذي يملكه الجسم البريطاني. وقد حدث في هذا الصدد تطور ما، فأتت الحرب العالمية الأولى، لم يكن الفرنسيون يميزون بين الإنجليز والأميركيين. ولكن التمييز ثبت جيداً خلال الحرب العالمية الثانية، في أذهان أغلب الناس، ومنذ تلك اللحظة، فكرنا أنه من الضرورة بمكان أن نخص الولايات المتحدة بلسان على حدة. وفي الوقت الحاضر، حيث يمكن لدوائية صامتة - أساسها الحسد - أن تتجلى تجاه الولايات المتحدة، فالكلام عن الأميركية بذل الإنجليزية يسمح بتحديد أن هذه العلوانية لا تقصد البريطانيين.

وتكمن الصعوبة، من وجهة نظر لغوية، في تحديد لسان ما، وفي حصره بالتضاد مع ألسن أخرى. وإذا كان لدينا مثلاً، في قرية ما، إضافة إلى محكية محلية وإلى الفرنسية، نسقان من علم الصرف ونسقان فونولوجيان مختلفان، فلدينا بالتأكيد لسانان. ولكن لو تفحصنا المحكيات المحلية، بعض منها نسبة إلى بعض آخر، نرى، انطلاقاً من أي فترة متوالية وحدتين مختلفتين؟ وأي درجة تباعد تسمح لنا بالقول إن اللسان المحكي في A ليس هو اللسان المحكي في B؟ وهل المعيار أن يكون ذلك العائد للتضاد المتبادل؟

(*) أحد الألسن الجرمانية الغربية ضمن العائلة الهندية الأوروبية. وهو مستعمل في شمال بلجيكا بمجموع اللهجات الفريزية (الهولندية) المستعملة في بلجيكا.

ولكن التفاهم المتبادل مفهوم ملتبس بشكل مرعب. وفي الواقع، ففي المرة الأولى التي تصادف فيها شخصاً يتكلم لهجة ليست لهجتنا، فلن نتفاهم مطلقاً. ومن ثم، وفي غضون فترة ما، ولدى قيامنا بمجهود معين، سيحدث الفهم. ولو وُضِعَ فلاح دانماركي وآخر نرويجي وجهاً لوجه، فلن يتفاهما فوراً، لأنهما لن يدركا سوى الاختلافات. ولكنهما لو تابرا لانتها سريعا إلى اكتشاف نقاط التماس الوفيرة جداً بين لسانيهما، وإلى الإفادة لحد كبير منها للتواصل.

وغالباً ما طرحنا مسألة معرفة الأثر الذي يمكن لثانية اللغة أن تملكه تجاه نماء الإمكانيات الثقافية. وقد أبدى بعض الكتاب آرائهم صراحة ضد الثنائية اللغوية، مستنتجين أنها منعت - لدى الفرد - تطابق الكلمة والنسيء. وإن هذا الأمر لا يمكن إلا أن يعطل حسن استخدام اللسان، بكبحه الانتقال من التجربة المراد نقلها إلى تقليدها وترجمتها بكلمات مناسبة. ولكن هذا الأمر يفترض أن هذه التجربة تُدركُ أولاً في مصطلحات: كلمات - أشياء، الأمر الذي يناقضه رصد السلوك اللغوي، فمن يشغُرُ بألم في الجوف لن يقول لنفسه «عندي ألم في البطن». وهو لن يسمي إلى إعطاء شكل لغوي لإحساساته إلا عندما يذهب لاستشارة الطبيب. والأمر واضح عند متعدي اللغة، فلنفترض أن ثنائي لغة فرنسياً - إنجليزياً رأى رجلاً يغطس في مجرى ماء كي يصل إلى الضفة الأخرى، هل سيدرك الأمر في المصطلحات التالية:

«يسبح الرجل عابراً النهر من جانب إلى آخر» (the man is swimming across the river، أو في (l'homme traverse la rivière à la nage) «قطع الرجل النهر سباحة»، مما يفترض تحليلين مختلفين للغاية؟ على الإطلاق، ولن يكون عليه أن يقوم باختياره إلا في اللحظة التي يرغب فيها في رواية الحادث إما إلى ناطقين بالإنجليزية أو إلى ناطقين بالفرنسية، فرواية تجربة ما تفترض، حتى بالنسبة إلى

أحادي اللغة، اختياراً لمفردات ما، لا بل لتركيب ما، سيحدث وضاً لما يعرفه عن شخصية محادثة، فعبارة «اللغة الأم» كَبَحَتْ طويلاً كلَّ رصدٍ جدي في هذا الشأن. مازلنا نعيش على نتائج تحقيق يُعتَبَرُ اليوم قديماً، أجري في بلاد الغال في صفوف أولاد جري تعليمهم الغالية^(*) (le gallois) والفرنسية معاً، كما في صفوف أولئك الذين لم يتعلموا إلا الإنجليزية. وينتج عن هذه الاستقصاءات أنه في مدة دراسية طبيعية ينبغي أن تبدأ حوالي سن السادسة وتمتد حتى الخامسة عشرة، نسجل أولاً - وحتى حوالي الأحد عشر أو اثني عشر عاماً - تأخراً لأحادي اللغة على ثنائي اللغة.

ولكن هذا التأخر ينقص تدريجياً حوالي سن الحادية عشرة. وبعد سن الحادية عشرة والثانية عشرة، يتقدم ثنائيي اللغة - بين الأولاد الموهوبين فوق الوسط - على أحاديي اللغة، والعكس صحيح بالنسبة إلى الأقل موهبة. ويبدو لذا أن ما يمكننا توقعه من ثقافة ثنائية اللغة سيكون صعوبات لدى الولد ذي الموهبة المحدودة، إذ ستشكل ثنائية اللغة حملاً إضافياً يتحمله الولد بشكل سيئ ويتسبب في تأخره. أما في حالة الولد الموهوب الذي يتحمل، على العكس، هذا الحمل جيداً، فثنائية اللغة تخلق لديه أفقاً أكثر اتساعاً.

وفي هذا الشأن، ما بلغت الانتباه في الوقت الحاضر هو اختيار اللسان الذي ينبغي أن يجري به تعليم الأتمين. كان التقليد المركّز في فرنسا، وفي الإمبراطورية الاستعمارية القديمة، يفرض تعليم الأتمين بالفرنسية دون أن تأخذ في الحسبان، على الإطلاق، اللسان الأول، وغالباً الوحيد للولد. ولا يمكن للنتيجة إلا أن تكون مكروهة لدى صغار البريتانيين (bretonnants) على سبيل المثال: فالذين من بينهم

(*) لسان بلاد الغال.

لم يمارسوا الفرنسية مطلقاً في محيطهم العائلي، كان عليهم أن يكتسبوا ممارسة هذا اللسان، إضافة إلى ممارسة الكتابة والقراءة في آن واحد، مما يكشف أن هذا الأمر يفوق قواهم إلى حد كبير. من هنا ارتفاع النسبة العنوية للأميين. وينبغي ألا تكون مصاعب الشبان الجزائريين - الناطقين بالعربية - الذين كنا نمحو أميتهم بالفرنسية، أقل خطورة أيضاً. وفي الوقت الحاضر، حيث يجري التمهيد للقراءة والكتابة بواسطة العربية، فمهمة الولد أقل مشقة إلى حد ما، خاصة وأن العربية المدرسة مختلفة جداً عن تلك التي يمارسها الولد خارج الصف. وإزاء العربية المشتركة، المستخدمة كلغة للتعليم، فالجزائري الصغير هو إلى حد ما في موقف الغاسكوني (Gascon) الذي يواجه المدرس في أوائل عهد الجمهورية الثالثة. أما بالنسبة إلى القبلي (Kabyle) الصغير، فمصيره يُذكر بمصير البريتاني الصغير الذي يتقدم بلا تبصر في الضباب اللغوي للصف الفرنكوفوني. وقد أثبتت التجربة أن كثيرين يتخلصون إلى حد ما من المأزق بشكل جيد. ونفكر بحالة الدانماركي الصغير التي ذكرناها أعلاه. ولكن، أي ورطة هذه، على النطاق الواسع؟ وكما من ضحايا لغزور المتمسكين بـ «السان الثقافة الواسع الانتشار»^{١٩}

أما والحالة هذه، فلن تكون ثنائية اللغة، لذاتها، هي ما سيفقدو جذراً بالاحترام أو ما سيُحتذر منه، بل إن الشروط التي تُكتسب فيها هذه الثنائية هي ما ينبغي أن تؤخذ في الحسبان. ومن المؤكد أنها يمكن أن تسبب عند الطفل الذي يُصار إلى فرضها عليه، صدمة يمكن أن تنخفض عن اضطرابات مختلفة كاللجلجة. ويحدث غالباً أن ولداً يُدرّس لساناً ذا اعتبار، يكتسب نوعاً من الاشتزاز أو اللغزور إزاء اللسان المكتسب سابقاً، ومن هنا ظهور ما ندعوه عادةً «عقدة».



وقد أمكننا التسلُّول إذا ما كانت بعضُ الألسن - وفي مجال التنافس القائم بينها - من حيث الجوهر، أكثرَ جدارةً كي تُقرَضَ دون سواها، لجهة بساطتها الكبيرة مثلاً. ورداً على السؤال الذي يسعى إلى معرفة إذا ما كان بمقلود متحد اجتماعي ما أن يتقلَّ من شكلٍ لغوي «أكثرَ سهولةً»، كلسانٍ «من دونِ تصرُّفات *sans déclinaison*» إلى آخر «أقلَّ سهولةً»، كلسانٍ «ذي تصرُّفات *à déclinaison*».

نحاولُ أن نردَّ على ذلك بأن ليس ثمة حدودَ لما يمكن أن ندعُ الناسَ «تَرْضَى به»، فالتطوُّرُ الذي تحققنا منه في الألسنِ الهندو - أوروبية، خلالَ القرونِ العشرة الأخيرة، باتجاه تعقيدٍ صرفيٍّ أَقْلٍ، ليس ربما إلا صفةً صالحةً لكلِّ الألسنِ ولكلِّ الأزمنة. وسيبدو أن الهندو - الأوروبية التي يُؤسِّسها اللسانيون المقارنون، والمعتبرة كنوع من القاسم المشترك لللهجات الأكثر ثباتاً في الزمنِ الغابر، تملكُ علمَ صرفٍ أكثرَ تعقيداً من ذلك الذي بحثُ لنا افتراضه لطورٍ أكثرَ قدماً من أطوارِ اللسان. فالتطوُّرُ لن يسيرَ إذاً بالضرورة في اتجاه التبسيط.

ولكن المسألة خاصتنا هنا، مختلفة: هل بإمكاننا أن نُقنِعَ حالياً أشخاصاً يستخدمون لساناً سهلاً التصريف بأن يتعلَّموا لساناً صَرْفُهُ مُعَقَّدٌ؟ وتدلُّ التجربةُ أن هذه بالفعل هي الحالة، فثمة أشخاصٌ هم في طورِ نسيانِ لسانهم المحلي - الذي يبدو صرفياً شديداً البساطة - لصالح الروسية، نفكرُ بخاصة في السوفييتيين ذوي اللسانِ التركي.

المسألة الحقيقية ليست لغوية، فلا يُقرَضُ لسانٌ ما نفسه من جراء نوعياته الجوهرية. وإذا كانت الألسن الإنجليزية والعربية والإسبانية تغطي، في الوقت الحاضر، جزءاً هاماً من العالم، فهذا لا يعود لنوعياتها اللغوية، بل بناءً على ظروفٍ من كلِّ الأنساق لا صلة لها بشكل اللسان. فلنفترض أننا نفكرُ بتنافسٍ آجلٍ جداً بين الروسية والصينية والإنجليزية، على سبيل المثال - لا يبدو أن الروسية ستُحرَمُ من المحظوة، حقيقةً، من جراء تعقيدٍ صرفيٍّ يفوق ذلك الذي للصينية

وللإنجليزية، فالعوامل الاجتماعية والسياسية تصبح، بوجه الاحتمال، محلّدة، فلنتفحص في نطاق أضيق حالة الألمانية: فالألمانية النموذجية، المكتوبة والمقروءة لفترة طويلة، هي اليوم لسان متطوق. وقد مرّ زمنٌ كان الناطقون بالألمانية لا يمارسون مشافهةً إلا لهجتهم. أما في الوقت الحاضر، فتحة أشخاص كثيرون لا يستخدمون منذ طفولتهم إلا الألمانية الأدبية، الأمر الذي لم يكن قائماً منذ متي سنة على سبيل المثال. أما والحالة هذه، فالألمانية الأدبية، بشكل عام، أكثر تعقيداً في صرفها من اللهجات، فقد كان تعليم الألمانية الأدبية لفترة ليست بعيدة يجري في ظروف تذكّر بالطريقة التي كنا نرشد فيها قواعد النحو اللاتينية لدى المبتدئين، بجعلهم يُردّدون التصريفات (*) *des guten Vaters... dem guten Vater* . . . الخ.



وفي عودة إلى مصطلح تعدّد اللغات (plurilinguisme)، فليس المقصود في الوقت الحاضر أن نساءل إذا ما كان مؤثراً للفرد، أو هو بالنسبة إليه مصدرٌ لاختلال التوازن. إنه ببساطة أمرٌ يفرض نفسه على العالم المعاصر. بإمكان الناطقين بالإنجليزية وحدهم في الوقت الحاضر أن يواجهوا المستقبل اللغوي للعالم في صيغة توحيد تدريجي لصالح لسانهم الخاص. ولكن التجربة، ستعقد يوماً ما بإزالة هذا المفهوم الخاطئ. ويمكن لاختلال التوازنات الديموغرافية في العالم المعاصر، أن يوجّه أصابع الاتهام يوماً إلى هيمنة لغوية ما، تبدو في الوقت الحاضر في طور التأسيس. ألا يبدو مزعجاً أن تظهر الإسبانية - في نيويورك أكبر مدن العالم الأنجلو - سكسوني -

(*) هذان التصريفان يعبران بالألمانية الوسيطة (الرجل الطيب). وهما يدلان على حالتي

الإضافة (des guten vaters) والفعولية غير المباشرة (dem guten vater).

في الإعلانات الرسمية، على قدم المساواة مع الإنجليزية؟ من المهم أن يعي العالم أن اللغة الإنسانية لن تنساب في قالب وحيد، وأن تعددية اللغات (pluralité) تنضوي في دينامية الإنسانية.

2.3 - نحو لسان مشترك⁽²⁾

إن ظهور لسانيات بنوية، خلال الثلاثينيات والأربعينيات، لم يضم في الفترة الأولى إلا بتأكيد الاعتقاد السائد عموماً في البلدان الأوروبية الكبيرة، ومفاده أن لساناً ما هو كل متماسك، ومتجانس، ومستخدم بالطريقة نفسها من قِبل كل أعضاء المتحد الوطني. وتقليدياً، فالتقاربات الوحيدة المعروفة والمحتَملة هي تلك التي تُعرف للشاعر. وكل انحراف آخر هو «خطأ»، وإخلال بالنسبة إلى النظام الطبيعي للأشياء. وعندما تقوم صعوبات تواصل، بين مالك المزرعة وبين مستأجرها، مثلاً، نتكلم عن «الباتوا»، دون أن نسعى لمعرفة إذا ما كان الباتوا شكلاً مُهجنًا للسان أو شيئاً ما مختلفاً. وفي الواقع، فلا طائل في الأمر. أما بالنسبة إلى الاستعمالات اللغوية العائدة للبروليتاريين المدنيين، فنحن نجهلها أشد الجهل.

ولم يتوجه الاهتمام نحو ضرب الاستعمالات اللغوية - خلال العقود الأخيرة - إلا ببطء، وقد أُبين عن هذا الضرب عبر التحقيق الذي جرى في معسكر للضباط الفرنسيين الأسرى، وقُدِّم عام 1945

(2) نعتل لحاضرة ألقبت في (Stüges Catalogue)، في الأول من شهر تشرين الأول/ أكتوبر 1982. ظهر النعت الفرنسي الأصلي مترجماً إلى الإسبانية (مع بعض الأخطاء) بعنوان (Hacia una lengua común) في: *Lenguas y educación en el ámbito del estado español*, Univ. de Barcelona, 1983, pp. 87 - 97.

ولاستعيد بشكل مجزأ تحت عنوان: «La phonie d'une langue commune en devenir» dans: *Graphie-Phonie*, dir. Henriette Walter, laboratoires de phonologie, École pratique des hautes études.

تحت عنوان *La Prononciation du français contemporain* ⁽³⁾، وأمين عنه بشكل غير مباشر عبر الأبحاث المتواصلة حول تماثلات اللسان التي قام بها أرييل فاينرايخ ⁽⁴⁾ (Uriel Weinreich) واستمرت من بعده. ومن جهة أخرى، فقد أكد ظهور مفهوم اللهجة (idiolecte) سابقاً، الشعور بأنه ليس من حق الواصف أن يستبدل بقيام سمة ما عند رايها اللغوي، إلى تعميم لهذه السمة في نطاق اللسان.

والواقع، أن كل الألسن المعروفة - بما فيها تلك التي تأكد وجودها منذ قرون - قد نتجت عن جهد عريق ومتواصل لتأمين التفاهم المتبادل بين الأشخاص الذين - لولا هذا الجهد - لكانوا تخلّوا عن التواصل لغوياً. وتكشف وجهة نظر دينامية للوقائع اللغوية، في كل موضع، رزماً من التقاربات والتباعدات التي تمثل في الواقع الظاهرة نفسها، فتقارب من جهة يسبب آلياً تباعداً من الجهة الأخرى. في الواقع، كل لسان يتماثل، وهذه الحالة هي أداة مشتركة لأفراد ذوي ممارسات لغوية جزئية الاختلاف، ولكنهم مدربون على غرض النظر بثبات عن هذه الاختلافات للإبقاء على هذه الاحتكاكات داخل إطار محدد. وسينشأ لسان جديد مشترك لدى تعمّدنا اختيار إطار جديد، وستتجلى داخله تقاربات جديدة. وينبغي خاصة ألا نصدق أن هذه التقاربات ستؤدي يوماً ما إلى تجانس

André Martinet, *La Prononciation du français contemporain, témoignages* (3) *recueillis en 1941 dans un camp d'officiers prisonniers, société de publications romanes et françaises* 23 (Paris: E. Droz, 1945).

Uriel Weinreich, *Languages in Contact, finding and Problems, with* (4) *anظروا : a Preface by André Martinet, Publications of the Linguistic Circle of New York; no. 1 (New York: Linguistic Circle of New York, 1953), et «Unilinguisme et multilinguisme» dans: Le langage, sous la direction d'André Martinet, encyclopédie de la Pléiade; v. 25 (Paris: Gallimard, [1968]), pp. 647 - 684.*

مطلق. إن الاشتغالية المُرضية للسان ما مؤمنة غير الاعتياد على التباعدات أكثر منها غير التقليد الكامل للممارسات اللغوية للآخرين.

شهد النصف الثاني من القرن العشرين ظهور عدد ملحوظ من الكيانات السياسية الجديدة. وقد كانت هذه الكيانات، على الأغلب، نتاج سيرة زوال الاستعمار. ولكنها تنشأ أحياناً عن ارتقاء قبضة حكم مركزي ما على مناطق محيطية تُقسم ببدائل كلامية وصوتية. وقد بوشرت هذه العملية الأخيرة إثر الحرب العالمية الأولى، مثلاً في ما كان يُسمى الإمبراطورية النمساوية - الهنغارية. وفي هذه الحالة، كانت الدول الجديدة تمتلك، منذ البداية، لساناً ذا معايير مثبتة إلى حد ما، مثل التشيكي، والسلوفاكي والكرواتي. ولم تنتظر الهنغارية لغاية القرن العشرين كي تتوكد بوصفها لسان أمة أو إدارة.

أما المواقف اللغوية الأكثر خصوصية، وتلك التي تطرح المسائل الأكثر صعوبة على الحل، فتوجد في إيرلندا، كما في ما سُمي لاحقاً إسرائيل (فلسطين المحتلة)، فعالة العبرية، التي اختفت منذ أكثر من ألفي سنة كلسان محكي، وتُستعمل اليوم كلسان أول من قبل ملايين الأشخاص، باللغة الخصوصية لدرجة أنه يمكن استخلاص نتيجة مفادها أنه أينما كانت إرادة تعتمد على إمكانيات ضخمة، فتتمة نجاح لتجربة ما تُسمى مُعجزة.

ومنذ البداية، كانت التجربة الإيرلندية محكومة بالإخفاق، ذلك أنها كانت تجري في بلد يشكل كل أناسه الإنجليزية، ويقال فيه عدد ثنائي اللغة ويهتمشون اجتماعياً. ومن جهة أخرى - وهذا الأمر بالغ الأهمية - لم تكن الإيرلندية في أي مكان اللسان الوحيد المشترك لأشخاص ذوي لسان رسمي مختلف.

وقد جرت عملية إزالة الاستعمار بعد عام 1945 وفق مبدأ عدم
 المسّ بالحدود الاستعمارية، ولما كانت هذه الحدود قد تُبنت، على
 الأغلب، وفق مُصادقات الفتوحات والمساومات بين القوى، فهي
 نادراً ما وافقت حدوداً إثنية. لقد أدى زوال الاستعمار إلى إنشاء دول
 متعدّدة اللغات، مثل مالي، التي تعرف على الأقل أربعة ألسن يمكن
 الاحتفاظ بها كأدوات لمحو الأمية، وهي (Le bambara) (*)، (Le
 peul) (**)، (Le songhal) (***)، (Le tamaschek). وقد تسيّت، من
 جهة أخرى، في عَزْو سكان يملكون اللسان نفسه إلى دول مختلفة.
 وقد سبقت هذه الدول الاستعمار أحياناً في الوجود، مثل المغرب
 والجزائر وتونس وليبيا ... إلخ، وكلها ذوات لسان أغلبي وثقافي
 عربي. ولكن الاستعمار أنشأ في موضع آخر دولاً - مثل نصف دزينة
 الدول الأفريقية، من السنغال وحتى الكاميرون - حيث يُستخدم لسان
 البال (peul).

وقد لعبت هذه المواقف لصالح لسان القوة الاستعمارية
 القديمة، الذي كان غالباً الرابطة اللغوي الوحيد بين مختلف
 القوميات، والذي بدا أداة للسيطرة في أيدي البورجوازيين المحليين
 الجدد والمجازين غالباً من جامعات البلد المستعمر السابق، ففي
 شمالي أفريقيا، أخبرت أكثرية الدول الناطقة بالعربية، حتماً، إقامة
 معيار حديث وحيد أصحى وجوده ضرورياً، من جزاء لانتكُيف

(*) لسان البيلارين، وهم شعب ذو بشرة سوداء، يعيش بشكل رئيسي في مالي
 والسنغال، وكان سابقاً يُشكل مملكة Segon القوية.

(**) لسان للجموعة السقالية - الغينية المحكي من قبل البال (Peuls)، وهم شعب
 من غرب أفريقيا، يتوزع أبتاً في السنغال، وفي قولنا العليا، وفي الكاميرون.

(***) لسان السنغالي، وهم شعب يعيش في أفريقيا الغربية، ومن المحتمل أن يكون
 قد مُتبن من البال (Peul) ومن الطوارق. وهو مستقر على ضفاف النيجر في شرق مالي.

العربية الطقسية للقرآن (الفصحى) مع العالم المعاصر^(*). وهنا أيضاً، لعب الموقف لصالح لسان «الفاحين» العرب.

وفي ما نسميه أفريقيا السوداء، حُرمت ألسنٌ عديدة من نظام للكتابة يسمح بتعليم الأولاد القراءة والكتابة بلسانهم. ومع ذلك، ولما كان كثير من هذه الألسن يشتمل على لهجات كثيرة النباين، فليس من النادر أن يتعلم الأولاد العناصر في شكل هو أبعد من أن يوافق المحكية التي يستعملونها في قريتهم. ولكن هذا الأمر أفضل، بلا ريب، من متابعة محو الأمية بلسان البلد الأصلي السابق. إن إخفاق التطبيقات الأخيرة هذه فاضح في حالة صغار Diolas في منطقة الكاسامانس^(**) (Casamance) جنوب السنغال، فهم بعد متابعة سنوات عديدة في مدرسة «فرنكوفونية» لا يفهمون شيئاً حينما يوجه شخص فرنسي الكلام إليهم. وهم في أفضل وجوه قادرين على إلقاء التحية «صباح الخير، سيدتي» (Bonjour Madame) على عابر سبيل غريب. أما «سيدي» (Monsieur) فينطقونها بصعوبة بالغة.

إن اختيار نسق كتابي، هو إحدى المسائل الأولى التي تعرض لأولئك الذين يرغبون، في عالم اليوم، في إيجاد لسان مشترك. وفي معرض بلورة شكل كتابي للسان لم يعرف سابقاً شكلاً مثيلاً، لا يمتلك اللسان حرية اختيار النظام الذي يبدو له الأفضل تلازماً للبنى الفونولوجية والنحوية للسان، فاختيار نظام علمي، مثل الألفباء

(*) لا تنفق مع ماركس في هذا الرأي. فقد تأسست العربية المكتوبة على القرآن، لكنها تطورت خارجه عبر المصور. والدليل على ذلك الأساليب العربية الكثيرة التي نكتبها ونستخدمها، والتي ما أثرت لغة القرآن تأثيراً سلبياً في تطورها. وغير مؤشر على تكيف العربية الفصحى مع متطلبات العالم المعاصر هو انبثاق مستوى العربية المعاصرة (=المحدث) التي نستخدم حالياً في ميادين النشر والإعلام والتعليم والثقافة...

(**) الكاسامانس هو نهر ساحلي يقع في السنغال الجنوبي، ويمتد منطقة قسوة العبيد شمالاً، ومنطقة الأرز جنوباً.

الصوتية العالمية، هو أمرٌ مستبعد. وهذه الألفباء، المُعَدَّةُ فعلاً لتدوين أيّ لسانٍ كان، غيرُ ملائمةٍ لتغطيةِ احتياجاتِ لسانٍ مخصوصٍ: ففي القشتالية مثلاً (Castilian)^(*)، حيثُ الصوت المزدجي العفشي [ts] متواترٌ والاحتكاكيّ العمائل [s] غيرُ موجود، سيكون من الشاذ أن ندوّن الصوت المزدجيّ، بواسطة حرفين متتاليين. ومن جهةٍ أخرى، يندرُ ألا يكون لدى الأشخاص الذين نخصّصُ لهم كتابةً جديدةً، أيّ تجربةٍ عن الكتابة، وبخاصة تلك العائدة للسانِ الرسمي السابق. إذا، ثمة عادات مكتسبة من الأفضل احترامها في ما لو رغبنا في ألا نصدم حساسيات جمهورنا. وهكذا، بالنسبة إلى الصوت المزدجي المتفشي، فيإمكان الحرف الثنائي ch أن يُحفظ حيث كانت الإنجليزية هي اللسان المستعمر، والحرف الثلاثي tch، حيث كان اللسان المستعمر هو الفرنسي. وسيكون هذا الأمرُ بالأحرى جديراً بالاحترام حينما - وكما هو متواتر - يبقى اللسان المستعمر هو نفسه لسان التدريس في الصفوف العليا.

وما علينا أن نقيم له، فوق ذلك، وزناً، يتمثلُ في الوسائل المتاحة محلياً، لاستعادة آلية للشكل المكتوب للسان، مثل ملائمة الآلة الكاتبة وصناديق الأحرف الطباعة.

وليس حديثاً أن تكون الألسن ذات الاحتكاك قد استعارت، بعضها من بعض، سماتها الكتابية: فالهولندية^(**) (le néerlandais) تدبّرُ للفرنسية بصوتيتها 2 العائد للصامت الصفيريّ المجهور، وeu المستخدم لتدوين الصائت الخلفي المشدّير والمتوسط. وتُشتقُ

(*) لسان إسبانيا الرسمي والأدبي اتّفق على لهجة قشتالة.

(**) لسان جرمانيّ، فرع من المجموعة الجرمانية الغربية، وهو لسان رسمي يعتمد في بلجيكا بالإضافة إلى الفرنسية.

الحروف الثنائية المشتملة على *h* في الإنجليزية، مثل *ch* و *th* من عادات كتاب الفرنسية القروسطية، وحتى لو أزيلت الفرنسية، في ما بعد اللثويات (*interdentales*)، وحُقِّضت الصوت المزجي *ch* إلى آخر احتكاكي.

ولكن المسائل الأكثر دقة، المطروحة بشأن تأسيس لسان مشترك، تتركز على السبرورة التي سيختزل بموجبها التنوع اللهجي إلى الوحدة. وبالفعل، فنحن نقول، ومن المحتمل أن يكون الأمر صواباً، أنه من الضروري أن نؤخذ الشكل الكتابي الذي ينبغي أن يصلح كركيزة للتعليم. وإذا كانت الألسن الأكثر نموذجية نفسها، كما رأيناها، تعرف تنوعات هامة في الاستعمال، فعلى أن نتظر أن يتأسس لسان جديد، بالضرورة، على مروحة عريضة جداً من الاستعمالات المتباينة.

ويمكن للتنوع اللهجي أن يتجلى في كل مستويات اللسان، فعلى المستوى الفونولوجي، متأكد من أن بعض الأفراد يميزون بين [ʃ] و [ʒ]، مثلاً، بينما يجهل آخرون هذا الأمر، أو أن التحقيقات الصوتية للوحدات التمييزية تختلف: فالبعض يظهر الصوت المزجي [ʃʒ] حيث يملك الآخرون الصوت اللثوي [ʃ]، أو أن موضع النبر تمييزي هنا، ولكنه آلي في موضع آخر، وفي هذه الحالة، هو على المقطع الثاني ختامي وسابق للمقطع الأخير من الكلمة، وفق اللهجات.

ماذا بوسعنا أن نفعل إزاء هذا الخليط؟ ما هي البنى المرغوبة؟ وما هي السمات المفضلة؟ ليس من السهل أن نجيب بشكل نهائي عن أسئلة مثيلة، لأن العوامل المستتقة تختلف من حالة لأخرى. إلا أنه يمكن أن نحاول إبداء رأينا بصلد عدة نقاط.

ينصُّ الإجراء الأول على تعيين حدود منطقة النفوذ التي نرغبُ في مراعاتها. وحتى عندما لا تتدخل أية حدود سياسية، فلا يفرض حلّ معين نفسه بالضرورة. ويمكن لحالة اللسان البريتاني أن تصلح هنا كمثالٍ مُوضح، فمنطقة النفوذ الجغرافية للسان البريتاني متماسكة تمام التماسك، والحدود التي تفصلها عن المحكيات الرومانية المسماة (gallos)^(*) تخترق أراضي المقاطعة من الشمال نحو الجنوب. ولكن لهجة (Vannes)^(**) أو الفانية (vannetais)، في الجنوب الشرقي لهذه المنطقة، تقاوم بطريقة مُميّزة لهجات (Quimper)^(***) (وتُلفظ (Kemper) بالبريتانية)، ولهجات Tréguier^(****) Léon^(*****) التي نجتمعها في صدر الكلمة KLT وضمن هذه الشروط، فبإمكاننا أن نتوخى استبعاد اللهجة الفانية من جهد التقييس الذي لن يصلح عندها إلا KLT، فالنبر مثلاً، ختاميّ في اللهجة الفانية، وهو يقع على المقطع ما قبل الأخير في لهجات KLT، ويبقى على متكلميها أن يقرّروا إذا ما كانوا سينضمون إلى القرار الأكثرى، أو عليهم - على العكس - تأسيس فائئة مشتركة. والواقع، فقد سعينا لإدراج هذه اللهجة، ورغم اختلافاتها، في اللسان المشترك طوّر الإعداد. وفي النظام الكتابي للبريتانية المشتركة، فكلمة (La Bretagne) تُكتب (Breizh) مع z التي تمثل نطق KLT، إضافةً إلى h العالدة للهجة

(*) لهجة فرنسية مستخدمة في مقاطعة بريتانيا، وهي تُشرب من باتوا (patois) النورماندي السفلي.

(**) مقر مقاطعة موربيهان (Morbihan) تقع في عمق خليج موربيهان، وفيها آثارٌ تذكاريةٌ عديدة، وقد التحدت فرنسا عام 1532.

(***) مقر مقاطعة فينيستير (Finistère) الواقعة على بعد مئة عشر كيلومتراً من المحيط الأطلسي. أُنست في العهد الغالو - روماني.

(****) مركز قضاء كانتون كوت دي نور (Côtes-du-Nord).

(*****) منطقة ساحلية تقع شمال غرب مقاطعة بريتانيا (Bretagne).

القائمة. وفي الوقت الحاضر، فالبريتانيون الواعون - أسكتوا بريتانيا أم أي مكان آخر - يضعون على مؤخرات سياراتهم لوحة بيضاوية عليها أحرف BZH، التي تختصر كلمة Breizh.

وحيث تقوم حدود الدولة بتقسيم منطقة النفوذ، يمكننا بالطبع التساؤل إذا ما كان بإمكان الشروط السياسية التي تسمح بتوفير درجة ما من الاستقلال اللغوي في ناحية، أن تقوم يوماً ما في الناحية الثانية، وإذا ما كان إدراج السمات الخصوصية للهجات - المحكوم عليه بالزوال - هو أمر له وزنه ضمن مشروع اللسان المشترك.

وفي بعض الحالات، يمكن للجغرافيا أن تقترب بالظروف السياسية كي تفتح تعيناً لحدود منطقة النفوذ، بغض النظر عن بضعة تناسبات لغوية. وهكذا يُصار إلى الكلام عن الكورسيكية (Corse) مثلما عن لسان واحد، في حين تشتمل الجزيرة - في الشمال وفي الوسط - على محكيّات تقترب من اللسان التوسكاني (toscan) وفيما تُظهر الاستعمالات اللغوية في الجنوب قياسات واضحة مع اللسان السرديني^(*) (Le sarde) المجاور.

ويمكن للإضرء أن يحدث في شأن موضوعة لهجة خاصة يبدو أنها تفرض نفسها، إما لأنها أكثر مركزية، وإما لأنها تعود لعاصمة، أو لأدب قديم المهد أو حديثه. وتستحق حالة الأوكسيتانية (Occitan) أن نتوقف عندها.

وتحت اسم البروفنسالية (provençal) جهّد فريدريك ميسترال^(**) (Frédéric Mistral) في إيجاد معيار أوكسيتاني، كريم في ما يتعلق

(*) لسان روماني انحدر من اللاتينية الوسطى، ويستخدم حالياً في جزيرة سردينيا، وهو من المجموعة الإيطالية ضمن العائلة الهندية الأوروبية.

(**) كاتب فرنسي (1830 - 1914) ذو تعبير أوكسيتاني. انقطع لتعظيم العرق الأوكسيتاني مكرساً عقيدته لإبادة جاليات المقاطعة، وإعلاء خلق لسانها.

بالمفردات، ولكنه موسوم جداً، من ناحية أخرى، بالمحكية الأهلية للشاعر، تلك العائلة لـ (Maillance) وللمضاف العنوية لمنطقة (Durance) السفلى. ويُهاجم هذا المعيار اليوم بعنف من قبل معيار أقل وشمًا من الناحية الجغرافية، ولكنه مؤسس تاريخياً على لسان التروبادورين (troubadours)، وقد احتفظنا منه، على سبيل المثال، بالـ a - المؤنثة، في حين أن المعيار الجسترالي (mistralien) يظهر o - بصورة عامة في الوادي الأسفل للرون (Rhône) وبصورة أكثرية شاملة في محكيّات اللسان الغالي - الروماني الجنوبي: فاسم Mireille و Mirefo لدى ميسترال، تصبح Mirelba، مع الاحتفاظ بكتابة تستدعي / الحنكية القديمة. ونطبق هنا، وإلى حد ما، العملية التي أوضحها المختصون بالألسن الهندو - أوروبية، والتي تتمثل في ترسيخ لسان زائل، بالمقارنة مع السنّ مؤكدة في الأوكسيتانية، بالطبع، مع الاستناد إلى شكل قديم ومعروف جيداً من خلال نصوص. ولكننا يمكن أن نتصور العملية، بمعزل عن هذا الاستناد، بوصفها بحثاً يسعى لإيجاد شكل للسان سابق لكل تباعد لهجي. ويسير هذا الجهد الترميسي في الاتجاه نفسه لاستعانة واعية بالمهجور (archaïsme)، علينا أن نقدر أضرارها. ويحظى كثير من الألفاظ المهجورة بالبقاء مجرد أشكال كتابية، مثل /h/، التي يفترض بها أن توافق في الأوكسيتانية / حنكية، يستبدلها المتكلمون الشبان أكثر فأكثر، بسبب الفرنسية، بالاحتكاكية /f/. ويصلح هذا الأمر أيضاً، وبلا ريب، للتمييز بين r قوية تكتب rr، و r ضعيفة تكتب r، تمييز يثبت أولاً بوصفه تضاداً بين مهتر خلفي وخرية واحدة سريعة أمامية، تضاداً مُثبتاً من ياسكتية لايبوردان^(*) (labourdin)، وحتى

(*) Labourd إقليم قديم في بلاد الباسك بين الأود (L'Adour) والبيسانوا (Bidasoa) واليريه، كانت عاصمته أوستاريتز.

الفرانكو - بروفنسالية (Franco-Provençal) لمنطقة سافوا (Savoie)،
ليختفي من ثم من خلال تعميم لهجتز خلفي مضطرب.

وعلى الأرجح، ثمة علاقة بين التفصيل المُعطى للكتابات
المهجورة وبين تراجع المبانوا في ممارسة الريفيين. وحينما كتب
ميسنرال *Mireille*، استعمل كل فلاح (Maillance) وجوارها،
بشكل ثابت المحكية المحلية في علاقاتهم المتبادلة، وحتى مع بعض
أعيان البلد. لقد كانوا في عداد الجمهور الذي سعى ميسنرال
للوصول إليه قبل الآخرين جميعهم، فهم لفظوا [mi'rejo] اسم بطة
القصيدة، وكانوا قد ضلّوا جدّاً بالكتابة المهجورة (*Mirelha*).

وحالة اللاتعلّق التي تظهر اليوم إزاء الـ «بانوا» شأن عام تقريباً
في صفوف قروني فرنسا، أتعلّق الأمر بالفرنجية (francien) أم
بالفرانكو - بروفنسالية أم بمحكيات (Occitan) oc. إن مؤسسي
الأوكسيتانية المُجدّدة هم، على الأغلب، مثقفون ينبغي عليهم أن
يتعلموا اللسان، أشخاص عوّدتهم الفرنسية على الفصل بين النطق
والكتابة، ولا يرون أي ضرر في كتابة «r» وأحياناً «r» وأحياناً أخرى
«ll» وأحياناً أخرى «i»، حيث لا يعرفون أن ينلفظوا إلا بالانسيابية
اللهوية [كا] في حالة، والاحتكاكية الحنكية [كا] في الأخرى.

وقد تساءلت، على سبيل التمرين، عما يمكن أن نكون عليه
كتابة لسان سافويار⁽⁴⁾ (Savoyard) مشترك، أي قاسم مشترك
للمحكيات الفرانكو - بروفنسالية العائدة لهذه المقاطعة⁽⁵⁾. لم نطرح

(4) صفة تملق بمقاطعة (Savoie).

(5) سنجد توضيحاتٍ لاختلاف السمات التي أتينا على ذكرها في ما يلي: André

Marinet, *La Description phonologique avec application au parler franco-provençal d'Hauterive (Savoie)*, publications romanes et françaises, 56 (Genève: Droz, Paris:

J. Minard, 1956), III «Frontières Politiques et Enchaînement d'isoglosses» dans:
= *Phonétique et linguistique romanes, mélanges offerts à M. Georges Straka*

السؤال، طوعاً، لمعرفة إذا ما كان لفصل هذه المحكيّات عن الأشكال الأخرى للمقرانكو - بروفنسالية المستخدمة في المناطق المجاورة لـ (Bugey) ولـ (Valais) أو لـ (Aoste) من معنى. وسرعان ما فرضت تبسيطها على الوجه الأكمل، نسبة إلى تلك التي يبدو أنها تعم في كل مكان آخر. ولا يقوم في منطقة النفوذ هذه أي تقليد كتابي مقبول عامة، وعند التطبيق، علينا أن نستلهم من الكتابة الفرنسية لتدوين الفونيمات، وعلينا ألا نبتكر إلا في المواضع التي ليس بمقدورنا التصرف فيها بوجه آخر، كاللجوء إلى تدوين اللثويات [b] و [d] مثلاً، أو لـ «تمويه» تناورات ما. والمقصود، بالفعل وقبل كل شيء، هو تأسيس كتابات تغطي التباينات الصوتية القائمة في الضروب الأكثرية للاستعمال، فلنفرض أن فونيماً ذا تواتر نادر يتحقّق بشكل أكثر، مثل [d] مفتوح، ويتحقّق تقليدياً وبشكل أقلوي، مثل [d̥]، فهو يتناوب بتواتر في التصريف مع فونيم /d/ (الفصير) الذي سندونه d. سنفتّح في هذه الحالة d̥، الذي علينا أن نلاحظ أن المستخدمين يتلقونه بشكل جيد، إذاً على سبيل المثال: dmd̥ (aimer) (أحب). وبطريقة قياسية، فنحن نفتّح d̥ لما يُلفظ [e] مفتوحاً في نصف منطقة النفوذ، ولما هو مماثل للأنفي في موضع آخر. وعلى سبيل المثال إذاً: *ithôte* (été) «صيف» (مصحوبة بـ *th* إنجليزية مهموسة)، وتُدوّن مماثلات الأنف، التي تثبت في كل مكان، كنظيراتها، بالطريقة الفرنسية، مثل *on an in* على التوالي. ونفتّح من جهة أخرى d̥ لما هي عليه [e] المفتوحة لدى بعض المتكلمين (أولئك الذين يملكون التحقّق الأنفي لـ d̥، ولما هي عليه

(Strasbourg: Société de linguistique romane, 1970), pp. 230-237, repris dans: André Martinet, *Évolution des langues et reconstruction* (Paris: PUF, 1975). ■
208-216.

[a] لدى الآخرين (أولئك الذين يحققون *a* مثل [d])، وعلى سبيل المثال إذا *na* (*neige*) (ثلج). وما يتحقق في جزء كبير من منطقة التقوِّذ مثل [p]، فهو يُسمع في موضع آخر مثل [ts] أو [st]. لنفرض أن لكلمة (*vache*) (بقرة) التحقيقات: [väs̥tə] - [väs̥tə] أو [vāps̥tə] إن هذا الأمر يُوحى بكتابة *th* و *dh* مقابل الفونيم المعجور المعادل والخاص لتوزيعات قياسية.

هل ثمة حاجة إلى التذكير بأن كثيراً من هذه الكتابات ستعرف عقبة جسيمة تتمثل في عدم القدرة على تدوينها بواسطة الملامس الفرنسية للآلة الكاتبة، والأمر كذلك في المشاغل الطباعية المحلية التي لا تمتلك الـ *a* الإسكندنافية، ولا الـ *a* الألمانية، ولا الـ *e* البرتغالية، فلندكر ببساطة أن المحكيات المعنية تموت، وأن مسألة تكوين لسان سافوياري (*savoyard*) مشترك لا يبدو أنها مطروحة للمبحث. ولم تتم الإشارة إليها هنا، إلا للإجابة عن نموذج لحل المسائل الكتابية.

حينما تُقرَّر في حدود المعقول، اعتبار مروحة الاستعمالات، موضوع البحث، بأكملها، أمكن أن يحدث أن تحقيقات الوحدات لا تختلف من محكية لأخرى فحسب، ولكن توجد فيها اختلافات محض بنوية، لجهة أن ما يُميّز هنا، يختلط هناك. وإذا لم يعمل أي اعتبار غير لغوي على إمالة كفة الميزان، لهذه الجهة أو لتلك، فيمكننا التساؤل فيما إذا كان علينا أن نفضل التمييز أو اللبس. إن تقديم الشيء في هذه الحدود يجعل الميزان يميل لصالح التمييز، لأن كل لبس يظهر، من حيث المبدأ، مؤشفاً. ولكن ليس ممكناً أنه إذا حدث لبس، أي عبارات أخرى، إسقاط تمييز ما، فالأمر يعني أن التواصل لم يَعد ضرورياً للاشتغالية المُرضية؟ والإبقاء، في هذه الحالة، على التمييز سيتم على حساب ترف الأجيال القادمة.

يمكننا الافتراض بشكل أولي أن ترك تمييز ما هو أسهل من تعلم آخر، وقد أكد هذا الأمر اختيار التطور المعاصر للأنظمة الفونولوجية المختلفة. ولكن هذا لا يعني أن علينا أن نضحى دائماً بكل شيء لأجل البساطة. إن المحافظة على تمييز ما يمكن أن يبدو مفيدة في وسم أفضل للتناقض بين معيارين متواجهين: معيار اللسان الجديد المشترك، ومعيار اللسان القديم. ومن جهة أخرى، فلو نشبنا - بحصر المعنى - بحسن اشتغالية التواصل، فليس من الثابت أبداً أن لبساً - مبرزاً اقتصادياً في متحد اجتماعي ريفي ذي حجم صغير - يكون جذيراً بالتركيز في لسان مشترك. تتطلب فيه ضرورات التعاون بين الطبقات مفردات أكثر شمولية وأفضل تفرقة.

فلنؤخذ حالة الباسكية، فمجهوراتها الـ *intervocaliques* مسهلة عموماً: *d* و *g* لا يلفظان في أي موضع تقريباً، وقد اختفت الـ *z* من اللسان السولتاني (Le souletin). والتذرع مثلاً بالصعوبة التي يلاقيها متكلمو بلاد السول^(*) (la soule) في تكرار التمييز بين نوعي الـ *z*، لإسقاطه من الباسكية المشتركة، يعني حرمان اللسان من مصدر تبقى له أهمية في حسن اشتغالية اللسان، حيث لا يملك المستخدمون أن يتكيفوا مع غياب التضاد بين *z* - و *z* - ويمكن للمفردات المحصورة للمحكية اليومية أن تتكيف مع الأشكال المختصرة، والتي تكون غالباً من تنوعات صوائت تتكثف في صوائت مزدوجة، مستهل بدورها ضمن كلام سريع. ويتطلب المعجم البالغ الانساع للسان ثقافة - والمنارس من قبل أشخاص ذوي عوائد نطقية غالباً ما تكون مختلفة - تجديد القالب الصائتي التقليدي، الذي

(*) بلاد السول (Pays de Soule) : مقاطعة باسكية قلجة كانت تحت في منطقة وادي لا

سيزون (La Saison) (رائد للسيل اليرقي في لولورون (Oléron) وكانت عاصمتها Mauléon

(Licharre - موليون - ليشار) وقد ألحقت بالتاج الفرنسي في القرن الخامس عشر.

بإمكانه وحده أن يؤمن هوية كل لفظة. إن تبقي *h*، التي لا تحتفظ بها اليوم إلا لهجات المناطق الشمالية - الشرقية، يميز في الاتجاه نفسه، حتى ولو ظل، بالنسبة إلى كثيرين، براءة كتابية من دون واقع صوتي.

وبلا ريب، هل يجدر بناء من حيث المبدأ، ألا نفرض تمييزات، في الكتابة لن يتمكن كثيرون من تحقيقها خلال التصويت. إن إهمال هذه التوصية يخلق مشاكل كتابية، منها مثلاً مشاكل الفرنكوفونيين، الذين لو رغبوا في تدوين لسانهم بشكل صحيح، لتوجب عليهم أن يكونوا دائماً متاهيين كي يضيفوا إلى كلماتهم أحرفاً لا توافق شيئاً في ما ينطقونه، فهم يكتبون: *ils courent* (هم يركضون) إزاء */ilkur/* أو */ilkur/*.

هذه التفاوتات بين كتابة وتصويت هي مصدر حساسية لأولئك الذين يمارسون، منذ طفولتهم، اللسان المشترك، معبرين إياه اللسان المحلي (*vernaculaire*) وتظهر هذه التفاوتات بشكل أقل لمن يقارب اللسان المشترك بشكله المكتوب، ضريباً كان أو ناطقاً باللهجة، فمعرفة اللسان لن نفهم، في هذه الحالة، إلا انطلاقاً من هذا الشكل، في حين أن الصعوبات لا تنشأ لولا قيام معيار منطوق اقتضائي للسان إلى جانب معياره المكتوب: فالغريب الذي مائل الشكل الإنجليزي *laugh* مع المعنى *rire* (ضحك)، لن يسمع لنفسه ينطقه كما نوحز الكتابة به، أي */lɔ:g/*، لأنه لن يصبح عندها مفهوماً.

وعلى العموم، فالموقف يختلف كلياً في حالة لسان مشترك في طور التأسيس، فما يوصى به حينئذ، هو ترشيم النطق للكتابة، فلنؤخذ الكلمة الباسكية (*herria* (le pays) (البلد). إن تبني هذا الشكل، مع *h* بدئية و-*rr* - مضغقة، لا يتضمن بالضرورة أن تلفظاً للكلمة من دون *h* بدئية ومع *rr* على شيء من النشاط، لن يكون

مقبولاً. وعلى المواطن السولتاني (sonletin) أو مواطن (Bas Navarrais) (*) (نافاري السفلى) أن يكونا على استعداد لمماثلة الكلمة فيما لو لُفِظت *erria* من قبل مواطن غيراكوان (**) أو مواطن بيسكايا (***) (Biscayen)، ولكن ترسم النطق للكتابة سيكون دائماً مشروعاً، لا بل موصى به. وصنيتين، بالمقابل، حالة اللسان الإيرلندي، حيث قُرِضت الاستعمالات المعاصرة على اللسان المشترك تلفظاً لا تختلف، بشكل أساسي، عما يمكن أن يوحى به معيار كتابي فُجِرَ اختياراً.

ورغم أن الأمثلة التوضيحية السابقة استُعمِرت، على الأغلب، من مجالات التطبيق الصوتية والكتابية، فما قبل للآن يصلح عمومًا، وإلى حد ما، لما يختص بوقائع النحو. ومن الواضح أننا ستردّد في إدانة تمييز تحتفظ به بعض اللهجات، على سبيل المثال، بين شكلين للماضي، بمقدار ما يملك هذان الشكلان قيمتين سيحيائيتين مختلفتين. وفي فعل مماثل، سيتولّد لدينا، طبيعياً، الشعور بأننا نُفَقِرُ أداة التواصل التي نعدّها الآن. ومع ذلك، ينبغي أن نحسن دائماً التمييز بين الحالات التي يوافق فيها اختلاف الشكلي اختلاف المعاني (كما في القشنائية *tombaba - tomo*) وبين تلك التي يكون فيها الاختلاف شكلياً (مثل صيغ الاستمرار في القشنائية المنتهية بـ *abu* و *ia*) فالمقصود، من جهة، هو حفظ ثواب ما، ومن جهة ثانية، ليس لدينا إلا بقية تطور متباعد لا يقوم سوى بتعقيد استعمال اللسان دون أن يعرض للمستخدم مصادِرَ إضافية. ولا يملك استبعاد تناوب شكلي بطبيعة الحال أن يكون هذا الموضوع، إذا ما ثبت هذا التناوب في

(*) بلاد الباسك.

(**) منطقة في بلاد الباسك.

(***) منطقة في بلاد الباسك.

كل منطقة النفوذ المعيّنة. ولكننا يمكن أن نرغب في إعطاء الأفضلية إلى حالات المستخلفين الذين استبعدوا عنه تعقيدات لا تؤثر في القيم المدلولة. وعلينا أن نتذكر دائماً الفرق بين المقام الذي يمكن فيه للمستخلف - لو شاء - أن يميز بين سعة المعنى هذه أو تلك أو، في حال لم يعتد القيام بهذا التمييز، أن يهمله، وبين مقام آخر نوفر له فيه - بإلزام - شكلين عليه أن يميز بينهما، كتابةً وتصويراً، دون أن تظهر له أسباب هذا التمييز. من جهة أخرى، فلا شيء يمنع، في هذه الحالة الأخيرة، أن يُقدّم شكلان - منافسان ومثبتان حسب الأصول - معاً وأن يُعرضا بتساوٍ.

يطرح المعجم مسائل دقيقة الاختلاف، إذ لم يعد المقصود قطعاً، مثلما في الفونولوجيا وفي نحو اللغة، أن نزود المستخلف بالأدوات التي ستسمح بمطابقة العناصر البليغة وتنسيقها، بل أن نوفر له الوسائل كي ينقل بأفضل الطرق كل تنوعات تجربته وفوارقها. ومن جهة، فتحة أنظمة شديدة التماسك وفئات عدد محدود من الوحدات. أما من جهة المعجم، فنجد قوائم مفتوحة وقابلة دائماً للإغناء. وبلا ريب، ألا يواجه - تماماً - أولئك الذين يمتلكون لساناً مشتركاً تقليدياً المقام على هذا النحو. يبدو أن المعجم يمثل، بالنسبة إليهم، وقبل أي تفكير، ميداناً متناهيّاً على هذا النحو مثل النحو، وأحرف الكتابة، وما يمكن لهم أن يتصوروه بالنسبة إلى أصوات اللغة. ويبدو أنهم يجهلون أن معجماً ماء من طبعة لتالية، يُضاف عليه ويُحذف منه على نطاق واسع. وتفرض الابتكارات المعجمية الاضطرارية نفسها عليهم، من دون علمهم، أو أنهم حينما يعونها، يمكنهم أن يحسوا بها كأنها انتهاكات.

وإزاء لسان مشترك قيد التغير، فتحة حظوظ لكي تكون حدود الفعل مختلفة كلياً. والمقصود، على الأغلب، أن يُصار - بواسطة

هذا اللسان - إلى تغطية احتياجات لم يكن بمقدور المتكلمين التقليديين أن يعوها إلا حين استخدموا لساناً آخر، اللسان الرسمي للسلطات القديمة. أما والحالة هذه، فالتشديد سيكون، بالضرورة، على انتشار المفردات.

ستمثل التجربة الأولى، بلا ريب، في البحث، في كل أقسام المجال المحفوظ به، عن الألفاظ القائمة محلياً. وهذه الأخيرة يمكن أن تكون بواقعي أثر لاستعمال قديم يعود لعصر كان اللسان فيه مستعملاً لغايات تتجاوز الحياة اليومية. ولكن، حتى ولو لم تكن البواقعي إلا أشكالاً خاصة لمذلولات عمومية، فبإمكاننا التفكير في أنها ستغني اللسان عن طريق التلاعب العادي للتطبيقات اللغوية الذي ينزغ إلى التضييق الدلالي بين المرادفات. وفي الواقع، فهذه السيرة لا تقوم إلا لإثبات الانتشار المتعدد الدلالات، أي النزوع إلى استخدام الألفاظ في سياقات جديدة، محولين من جزاء ذلك قيمتها الأولى بطريقة ستمكننا، في المقام، من أن نستغني عن السياقات: إذ سيكون بإمكان كلمة *table* (طاولة) نفسها أن تعني - وفق الحالات - (*table de logarithmes*) (جدول لوغاريتمي) أو (*table de salle*) (*manger*) (طاولة غرفة الطعام). إن وجود كلمة (*Bahn*) إلى جانب *Strass* و *Weg*، في الألمانية، سمح بأن نمرؤ - خارج كل سياق - إلى *Bahn* قيمة (*chemin de fer*) (سكة حديد). وفي الإنجليزية الأميركية، لم يكن بإمكاننا تجنب تعدد الدلالات الخالص لكلمة *road* التي نعني - وفق الحالات - *route* (طريق) أو *chemin de fer* (سكة حديد).

وسيمثل إيجاد ألفاظ جديدة، عن طريق تنسيق العناصر القبلية، مصدراً آخر للمادة المعجمية. وتتعبد الطرق لذلك: تركيب الكلمات، عندما تكون هذه العناصر كلها قابلة للاستعمالات

المستقلة، الاشتقاق أو الزيادة، وذلك عندما لا يقوم عنصر من بينها إلا في اتصالات من هذا النمط، اتلاف العناصر (confixation)، عندما لا يكون أي من هذه العناصر موضوع الكلام مستقلاً بداية (نمط *rélephone*)، المقولية، عندما تفقد عناصر دالة ما - و تتميز على الوجه الأكمل في البدء - استقلاليتها، بمعنى أن كلاً منها يتوقف عن أن يكون قابلاً للتحديد بشكل منفرد (نمط *jeune fille* «فتاة»)، حيث ليس بالإمكان الكلام عن *très jeune fille* (فتاة في غاية الفتوة). وقد اقترحنا أن نشير إلى مجمل هذه الطرق بالمونيمية التركيبية (la syntbématique) وإلى كل من هذه المعقدات (complexes) التي تنتهي على هذا النحو إليها بمونيم مركب (rythème).

ومن الجيد أن نوضح أن على مروجي اللسان الجديد المشترك ألا يكتفوا بعرض الألفاظ، قديمة وجديدة، المشككة وفق الموارد الجاهزة في هذا الشأن، بل عليهم أن يجعلوا النماذج القائمة بطريقة يهتدون فيها المستعملين، لا تفهم المونيمات المركبة التي سيقعون عليها في النصوص، أو من خلال المحادثات، ولا لمطابقتها فحسب، بل لكي يتجوعوا بأنفسهم عندما يحتاجونها للإبانة عن نتائج أفكارهم.

ويمثل الاحتمال الثالث في المودة إلى اللفظ المُفترض، ولا نستعمل هذا الأخير إلا بتردد، ذلك أنه لا يروج دون أن يؤثر بأصالة الأداة الثقافية التي نعتمد. ولا رغبة في هذا اللفظ، بخاصة، في ما لو كان عليه أن يتطبع باللسان الرسمي الذي يُفترض به أن يتفرد بالنسبة إليه. ويُسمى اللفظ أكثر قبولاً حينما يخضع لاستخدام دولي، وبخاصة إذا ما قامت - في المحكيات المعنية - سوابق تقدم نماذج للتكامل. إن مصلحة لسان معاصر ما - أيًا كان هذا اللسان - لا تقوم إلا لتسهيل وصول ممارسيه إلى العلم الشمولي، على أن يتضمن

اللسان المفردات الدولية بدلاً من أن ينسخ أشكالها بواسطة عناصر محلية.

وباختصار، ينبغي على مبتكري ومروجي الألسن المشتركة الجديدة ألا يغرب مطلقاً عن بالهم أن كل لسان - أياً كان تَبَيُّثُهُ - لا يمكنه أن يشغل إلا إذا قام لدى أولئك الذين يتكلمونه ويكتبونه تسامح كبير، وقبول للأشكال والقيم المختلفة عن تلك التي نعرفها منذ الأبد ونمارسها، واعتقاد راسخ بأن التفاهم المتبادل يُولَدُ من الرغبة في التواصل، وأن لساناً مَرِناً أَفْضَلُ من لسان «نقي»، وأن لساناً جديداً يمكن أن يبرز الذي سبقه، ليس فقط من جزاء القيم العاطفية التي ترتبط به، بل لأنه سيظهر تلاحماً أفضل مع احتياجات مستعمليه، لأننا سنعرف أن نسقط عنه، حين يلزم الأمر، التعقيدات التي لا قيمة تواصلية لها، والتي تربك الألسن التي تملك خلفها تقاليد جيلية، لا بل ألفية. ينبغي أن يكون الاستلهام من الماضي والحاضر هو المقصود دائماً، لا للإيفاء عليهما بأكملهما، بل بالأحرى من أجل التمهيد للمستقبل.



الفصل الرابع

الوحدات التمييزية

لعبت الفونولوجيا، التي تختلط - في الأصل - مع دراسة الوحدات التمييزية، دوراً فاصلاً في تقدّم اللسانيات العلمية المعاصرة. وهي حاضرة في فصول الكتاب الحالي كلها، ما خلا الخامس منها. ولن نعود إليها مطوّلاً هنا أيضاً. أما من سيبحثون عن عرضٍ لمناهج هذا العلم، فأحيلهم إلى كتابي الوصف الفونولوجي⁽¹⁾، وإلى كتاب هنرييت فالتير (Henriette Walter)، وعنوانه فونولوجيا الفرنسية⁽²⁾.

وما نقصد إليه هنا، يتمثل - بشكل أقل - في عرض الكيفية التي يتصرّف فيها اللسانيون لاستخلاص فونيمات لسان ما، أكثر منه في تعيين حدود العلم، ولا سيما ما يميّزه عن علمي الأصوات والصرف. وهذا ما منجده في القسم الأول المُستعار من العدد الستين، كانون أول كانون الأول/ ديسمبر 1983، من مجلة اللسان الفرنسي (*Langue française*) بقلم هنرييت فالتير، وبمعنوان

(1) André Martinet, *Description Phonologique* (Paris Genève: Droz, 1965).

(2) Henriette Walter, *La Phonologie du Français* (Paris: PUF, 1977).

«فونولوجيا الاستعمالات الفرنسية»⁽³⁾.

وقد خُصص القسم الثاني للنغمية، بالمعنى اللغوي للمصطلح، أي الدراسة الوظيفية للعناصر الصوتية التي لا تندمج في التقطيع إلى فونيمات. والمقصود هنا محاضرة أقيمت للمرة الأولى بالإنجليزية، في مدرسة الألسن في حيدر آباد بالهند، عام 1972، ونشرت في *Pakha Sanjam*⁽⁴⁾، وأقيمت من ثم بالفرنسية في جامعة *Concepción*، بالتشيلي، في أيار/ مايو 1973، واستُعيدت بالإسبانية، في مجلة اللسانيات التطبيقية (*Linguistique appliquée*) التي تصدر عن هذه الجامعة⁽⁵⁾، ونذكر - في هذه المحاضرة - بأننا نميز، في الفونولوجيا، بين علم الفونيمات (*Phonématique*) وبين النغمية، وهي - وظيفياً - حياً تمييزية وحياً بليغة مباشرة.

1.4 - ما لا يدخل في نطاق الفونولوجيا⁽⁶⁾

1.1.4 - علم أصوات وفونولوجيا

كي نفهم ما الفونولوجيا وما ليس الفونولوجيا، علينا أولاً أن نستوعب جيداً الفرق بين اللغة الإنسانية والألسن. وحول هذه النقطة بالذات الفرنسيون محظوظون^(*)، ذلك أنهم هم والإيطاليون

Henriette Walter, «Phonologie des usages du français», *Langue française*, (3) vol. 60 (Décembre 1983), pp. 6-13.

Pakha Sanjam, vol. 6, pp. 202-208. (4)

Linguistique appliquée, no. 11 (1973), pp. 5-13. (5)

(6) نشرت في: «Ce que n'est pas la phonologie», *Phonologie des usages du français*, *Langue française*, vol. 60, dir. Henriette Walter, Paris, Larousse, pp. 6-13.

(*) العرب بدورهم محظوظون لأنهم يملكون في تراثهم اللغوي مفردتي (لغة) و(لسان) اللتين بإمكانهما تأدية المصنفين الواردين أعلاه.

والإسبانيون يمتلكون كلمتين متميزتين إزاء كلمة (*language*) الإنجليزية الوحيدة، وإزاء الكلمتين غير المتميزتين (*Sprache*) الألمانية و(*Jazyk*) الروسية، فالمفرد (*language*) إزاء الجمع (*languages*)، يؤمن التقابل الذي يهتما هنا، ويبقى اللسان (*la langue*) بالمعنى السوسيري للمصطلح مجرداً بوجه خاص. ولكنَّ جِئَظَتَيْنِ أفضل من واحدة، ومع كلمتي (*language*) و(*langue*)، لم يعد من المسموح أن نخلط بين الاستعمال الذي تقوم به الإنسانية بأجمعها للكلام بوصفه أداة تواصل، وكل من الكيفيات الخاصة بهذا الاستعمال.

علم الأصوات هو دراسة التصويت بصورة عامة، أي اشتغالية الأعضاء التي تشترك في إنتاج أصوات اللغة الإنسانية وفي تلقّيها. وعندما يدرس علم الأصوات، على سبيل المثال، الأصوات التي يقال لها صائتية، فهو يكون إزاء لامتناهٍ من التحقيقات المختلفة المُدرجة ضمن النتاجات القصوى التي ندونها [i] و[u] وبإمكانه، كي يسهّل التعميمات، بصورة فضلى، أن يقيم بضعة معالم في عدة نقاط تبدو لنا متساوية البعد. وهذا ما قام به، على سبيل المثال، عالم الأصوات دانيال جونز (Daniel Jones) مستمينا بمضلع الرباعي المشهور. وقد عُرضت السمات التي يثها عالم الأصوات بين قوسين معقوفتين كما رأينا بالنسبة إلى [i] و[u].

إن الفونولوجيا هي دراسة الطريقة المبتكرة التي يستفيد بواسطتها كل لسان من المولود التصويتية كي يؤمن التواصل بين مستخدميه. ومن بين الخيارات النطقية كلها، تحتفظ الفونولوجيا بعدد معين منها قابل لتحقيق نتاجات قابلة لتعيين هويتها سمعياً. إنها تلك الخيارات التي يستخدمها المتكلمون كي يميزوا مختلف الأحداث المعنوية، بمقابلة بعضها مع بعض، وكي يثبوا تباينات بين تلك الوحدات التي تتابع في السلسلة الكلامية.

وبغية التحقق منها، يمكننا العودة إلى نوعياتها السمعية، كما إلى الطريقة التي يمكن لآلات عديدة أن تسجلها، أو أن نبين، بصورة أبسط وأكثر مباشرة، الطريقة التي تُنتج فيها هذه الوحدات في التصويت. إن تفصيل هذا التناج يمكن أن يتغير وفق المتكلمين والسياقات، ولكننا سنجد في إيجاد ثوابت كل وحدة، وإيجاد تلك التي تميزها عن كل الثوابت الأخرى في اللسان. وكما ندونها كتابياً، نستخدم الحروف والعلامات التي اقترحها علماء الأصوات لمعالهم، ولكننا سنبيها كقيم فونولوجية، وذلك بوضعها بين سطرين مائلين: فـ [i] مثلاً تمثل حقيقة فيزيائية معينة بغض النظر عن كل قيمة مضطلع بها في لسان معين، أما /i/ فهي تعيين لفونيم يسمح، في لسان مختص، من خلال وجوده حيث يمكن لفونيم آخر الظهور، أن يميز رسالة من أخرى، مثلاً: (j'y viens) /vjz/ (أنا ذاهب إلى هناك) بدلاً من (j'en viens) /vz/ (أنا قادم من هناك).

يتوجب على عالم الفونولوجيا الذي يصف لساناً ما أن يحدد مختلف الطرق التي بمقدور الفونيم ذاته أن يتحقق من خلالها وفق السياقات، وحتى وفق المتكلمين. هذه البدائل ليست «ملائمة»، أي فلنغض النظر عنها كما نفهم نص الرسائل. نعتبر هذه البدائل، إذاً، بمثابة مسارات صوتية، وعليه فإننا نظهرها بين قوسين معقوفتين: فالفونيم /r/ الفرنسي يتحقق مثل [r] (تردد طرف اللسان) لدى كثير من البورغمونيين^(*) (Bourguignons)، وهو يتحقق مثل [R] (تردد اللهاة) في استخدامات بروفنسالية أخرى، وكذلك مثل [ʁ] (انسباي لهوي) عند الباريسيين، وأخيراً مثل [ʁ] (انسباي ظهري) لدى الأنثيين^(**) (Antilles) ... إلخ. إن تعيين هذه البدائل المختلفة

(*) نسبة إلى منطقة Bourgogne.

(**) سكان أرخبيل (Antilles) الواقع في أمريكا الوسطى.

والحاقها بوحدة لغوية وحيدة بذاتها ليس أقله عملية فونولوجية. إن الاعتبارات السابقة ستظهر لكثيرين يمتأية بدهات. ولكن التجربة أثبتت أن استعادة مثيلة هي غالباً ضرورية. وتقع كذلك على غرض، لا يُميز فيها بين ما هو ملائم فونولوجياً وبين ما هو غير ملائم، وهنا، تبرز الحقيقة اللغوية بشكل سني.

2.1.4 - فونولوجيا وعلم صرف

إذا كان معروفاً أن التمييز بين علم أصوات وفونولوجيا بسترعي الانتباه، أو أن الحدود بين العلمين تُدرك بشكل سني، فاللبس بين فونولوجيا وعلم صرف متواتر بصورة أكبر. ومنطلق هذا اللبس يعود غالباً إلى عدم قدرتنا على إدراك تبرير لاختلاف بين علم أصوات وبين فونولوجيا مؤسسية على الملاحة التمييزية. وإذا كانت الفونولوجيا بالتضاد مع علم الأصوات، تعالج الحقائق الفونولوجية في لسان معين، فمن الطبيعي لكثيرين أن تكون (أي الفونولوجيا) في الأساس، اختباراً لبنية الذالات. بدايةً، ثمة طريقان لتوجيه الوصف التزامني للألسن، فمن جهة، هناك النموذج «التشاكلي» (isomorphique) الذي يتوخى انبثاءات متوازية في الذال والمدلول. وإذا كان على مصطلح الفونولوجيا - من وجهة النظر هذه - أن يُستبقى، فسيكون ذلك لتمييز دراسة الذال. ومن جهة أخرى، هناك نموذج الانبثاء المزدوج ذي الفصلين المميزين: الأول خُصص لانبثاء التجربة رموزاً، لكل منها مدلوله ودالته، والاثنا يُبحثان - بوصفهما مشاركين لا انفصالان في العلامة - في هذا الفصل الأول، بينما خُصص الفصل الثاني لانبثاء الدوال وحداث مميزة تشكل ثينياً متميزاً كلياً عن ذلك العائد للعلامات. وما نسميها الفونولوجيا ليست سوى اختبار هذا التبيين، والوحدات التي تشكله. وسواء أوضحوا مفهوم الانبثاء المزدوج أو مفهوم النمطية الثنائية (dual patterning) أو

لا، فإن أغلب اللسانيين ينظرون في الأحداث من هذه الزاوية بالذات، حتى ولو كانت التشاكلية الهيلمسليقية تحتفظ بجاذبيتها بالنسبة إلى كثيرين منهم.

3.1.4 - التناويات

للوهلة الأولى، وحالما تُستخلص الوحدات - الفونيمات، والنغمات، والموضع المميز للنبر - التي توفر هوية للدوال، فلن يكون هناك بنائاً ما يقال حول موضوع كل منها سوى أنها مؤلفة من بعض هذه الوحدات وفق نظام معين، فمثلاً إن دال *planche* (لوح خشب) هو /plɑ̃ʃ/، وما يبقى أن نقوله عن هذا المونيم *planche* يتعلق بتساوقاته في السلسلة الكلامية، وبما يميز مدلوله من المدلولات الأخرى العائدة للسان.

ولكن الأمور، في الحقيقة، ليست دائماً بهذه السهولة، ففي أغلب الألسن الموصوفة، يتبدّل شكل بضعة دوال ضمن عدد من الشروط. وليس المقصود هنا أبداً أشكالاً مختصة يمكن لكل من هذه الفونيمات التي تشكل دالاً أن تضطلع بها (في الفرنسية مثلاً، *planche* هي دائماً /plɑ̃ʃ/، مهما كانت مئة الصائت الطويل /ɔ̃/ أو جرسه، ولكن المقصود تنوعات تؤثر باختيار الفونيمات (أو النغمات التي تقع عليها في ألسن ما)، كما نشأكد على سبيل المثال في *dormir* (نأّم) حيث يمتلك المونيم الجذري شكل /dɔr/ في *je dors* (أنا أنأّم)، والشكل /dorm/ في *nous dormons* (نحنُ نأّم)، هذا التنوع لا علاقة له بقصور مفترض عند الناطقين بالفرنسية لدى نطقهم /-orm/ في حال لم يلحقها صائت، ذلك أننا نقع في «صيغة نصب الفعل» على *je dors* (أنا أنأّم). /dorm/ إن تناوب /dɔr/ و /dorm/ لا يتعلق البتة بهذا الاتبناء

الفونولوجي للفرنسية المعاصرة. وكما نوضح كيف يمكن للانتباء الفونولوجي أن يؤثر، تزامياً، بشكل الدال، ستفحص نطق اللفظة المستحدثة (week-end) (عطلة نهاية الأسبوع). فعند الناطقين بالفرنسية الذين يلمون بقليل من الإنجليزية، غالباً ما يكون نطق هذه اللفظة تقليدياً للسان الأصلي، أي [wikend]، وهو عادةً عند الآخرين /wiken/ بإسقاط /d/، ويُفسر الأمر بسهولة حينما نبين أن تتابع /nd/ في مفردات اللغة التقليدية لا يتواجد إلا أمام الصائت التالي، كما في (fine - de - claire) /fɛndɛklɛr/، «حوض المُحار» على سبيل المثال، فانعدام التركيبة الختامية /nd/ هو (إذا سمعنا من سمات الفونولوجيا الفرنسية، في حين أن غياب /-m/ في *je dors* لا يستتبع أي قصور نطقي، بل يستتبع، ببساطة، وضعاً مشروطاً بالسياق النحوي: فالتنوع /dor/ - /dorm/ ينبغي أن يقترب من /par/ - /part/ في *je pars* (أنا أخرج)، *que je porte* (فلأخرج)، وكذلك الأمر بالنسبة إلى /moer/ - /mur/ في *je meurs* (أنا أموت) *nous mourons* (نحن نموت)... إلخ. وهذا التنوع لا يؤثر في منزلة أي من الفونيمات المعنية. وهو لا يتأثر على لاتفظية بضمّة اختلافات في اللسان المعاصر: ففي المقطع الختامي نجد (وَبَر) *four/ heure* مقابل /moer/، وفي المقطع قبل الأخير، نجد /-boer/ في *nous beurons* (نحن دُفنا)، مقابل /-mur/. وفي كل هذه الحالات، فإن هذه التوزيعات كافة تُشجّح بما يتوافق كل الناس على تعينه، كعلم الصرف. وليس بالإمكان معالجة هذه التوزيعات مثل الفونولوجيا، بل في الفصل المخصص للوحدات الدالة.

ومما دامت التوزيعات محدودةً بعدة أشكالٍ تقليدية، فلن نحاول كثيراً التشكيك بطابعها الصرفي البحت. وهذه الأشكال النادرة في المعجم، شديدة التواتر في الخطاب. وهي، من هذه الناحية،

مكتسبة في وقت مبكر جداً من قبل الأطفال الذين يتعلمون لسانهم:
 فأشكال مثل *je peux* (أنا أستطيع)، *ils peuvent* (هم يستطيعون)، *il pouvait* كان يستطيع *il veut* (هو يريد) *ils veulent* (هم يريدون)، *il voulait* (كان يريد)، تمتلك بعض الحظ في أن تتوطد بشكل فردي في استخدامات المتكلم الشاب، وذلك قبل أن يفرض عليه الإحساس بجدول شفهي. وإشباعاً لحاجاته التواصلية، يتيح له هذا الجدول لاحقاً، أن يؤلف أشكالاً لم يسمع بها مطلقاً من قبل، فشكل ذو تنوع من هذا النمط إذا لم يكن كثير التواتر، فهو سيتخذ عن طريق التماثل، *je prouve*، *vous prouvez*، ستسوي في *je prouve* (أنا أثبت)، *vous prouvez* (أنتم تثبتون)، أو أنه سيسبب بطلان الفعل واستبدال منافسين أكثر مرونة في اللسان اليومي، به: فصيح *il meut* (هو خرك)، *nous mouvons* (نحن حركنا) نترك المكان لصيح *il bouge* (هو تحرك)، *il remue* (هو خرك)، *nous déplaçons* (نحن نقلنا)... إلخ.

ويقوم الابس عندما يظهر تنوع بعينه، بتواتر كبير، في مونيمات عديدة، ويفرض نفسه كواحد من السمات المطردة لبضعة تميزات نحوية. وعندما نتكلم عادة عن تنوع، وعلى هذا النحو تتناوب في الألسن السلافية الفونيمات /o/ و /e/ على الدوام في الإعراب، ففي اللسان الصربي - كرواتي مثلاً، تُظهر المحايدات جدولين، جدول *seto*، «village» (قرية)، و جدول *polje*، «champ» (سهل)، وتكون سمة وصيلة التذكير ثارة *em* - وتارة *om* - ومن الواضح أن اختيار شكل أو آخر، في فترة معينة، قد تحدد بالسياق الصوتي، فبعد صامت حنكي، لا يمكننا أن نلتفظ إلا ما يمكن أن يصبح لاحقاً /e/، وبعد صامت صلب، فالوحيد الذي يمكننا التلظ به هو ما يتمثل اليوم بـ /o/. ولكن *em* - و *om* - يظهران، في التزامن المعاصر،

في السياقات الصوتية عينها، مثلاً في *Carem* و *gospodarom*،
الشكلين الوسيطيين لـ *gospodar*، «seigneur» (سيد)، و *car*،
«empereur» (إمبراطور).

إن ما نطلق عليه اسم *Umlaut* إبدال صائتي، في الألمانية، يدل
على بضعة تنوعات من المفيد أن تتمكن من إظهارها في فئة بعينها،
ذلك أنها، وبغض النظر عن هوية الفونيمات التي تشارك فيها، تميز
كل السمات النحوية عينها، والمقصود هنا تناوبات */i/* و */y/* (الطويلة
أو القصيرة)، وكذلك تناوبات */o/* و */ö/* و */u/* و */ü/*، فضلاً عن */a/* و
/ä/ (الطويلة والقصيرة)، وتناوبات */au/* و */oi/*، والمثال الذي نسوقه يبدو
في *Buch*، «livre» (كتاب)، وجمعها *Bücher*؛ وكذلك في *Sohn*،
«fils» (ابن)، وجمع *Söhne*؛ وأيضاً في *Mord*، «meurtre» (قتل)
إنسان، والمشتق منها *Mörder* (قاتل)، «meurtrier»؛ و *Vater*،
«père» (أب)، وجمعها *Väter* «آباء». وهنا أيضاً تميز في زمن
سابق الصائت الوحيد البائتي في سياق حثكي. وحينما زال هذا
السياق اكتسب الاختلاف في الجزس ملامته المميزة. واليوم لم يعد
للإشراط، كما يوضحه تماماً *Vater - Väter*، أي أثر صوتي، وحده
أو بالشاركة مع حركة إعرابية ذات صائت محايد، يمكن للإبدال
الصائتي أن يكون شارة الجمع العائدة لأسماء وأفعال التفضيل
لشخصي المخاطب والغائب في الأفعال، كما في بعض المشتقات.
وبهذه الصفة (الجمع والاشتقاق) الإبدال الصائتي نموذج يستمر
على الأرجح في أن يكون إنتاجياً وتاريخياً، ندب له بظهور بضعة
فونيمات في اللسان المعاصر، مثل */y/* و */ö/* ولكن وجود هذه
الفونيمات لم يعد الية مشروطاً بسياق صوتي معين كما نستنتج في
عنة مقترحات، مثل *amüsant* (أو *Frisör Friseur*) (>).

4.1.4 - تناوبات وتحييدات

إن إنتاجية بضعة تناوبات^(*) على وجه الخصوص يمكن أن تقود أولئك الذين لا يحسنون التمييز بين وجهات النظر التزامنية والتماقبية إلى إلحاقها بالفونولوجيا، وإلا فإلى إدراك قوام هذا العلم فيها. نقترح هذه الإنتاجية أن يقوم في الاشتغالية المعاصرة للسان ضرب من القرابة بين الوحدات الفونولوجية المعنية. وما سهل قيام اللبس هو وجود حالة من تحييد التباينات تسبب كتابات خطية تشير حتماً إلى أن المقصود هو التناوبات. لنأخذ كلمة *Rad* الألمانية (دولاب)، التي تلفظ [ʁa:t]، نجاء صيغة الجمع *Räder*، وتكتب صوتياً [ʁa:tə] أو [ʁædə].

نقترح كتابتنا الصوتية بشكل حتمي تناوباً بين [d] - [t]. أما والحالة هذه، فطريقة الكتابة الألمانية، التي تظهر *d* في الحالتين، تمثل الحقيقة الفونولوجية بشكل أفضل بكثير: فـ [t] في *Rad* هي تماماً ما نتوقعه من الفونيم /d/ في آخر الكلمة. وفي هذا الموضع ليس على المتكلم أن يختار بين /t/ و /d/. ينحصر اختياره بين الانفجاري الأصلي ونمط صامت آخر مثل الانفجاري الخلفي أو الأنفية الشفوية. التناوب يقترح اختياراً لا يقوم هنا، فكتابة فونولوجية صحيحة لـ *Rad* عليها أن تحدد أن الصامت الأخير فيها هو ما يمكن أن نتظره من /t/ أو من /d/ في هذا الموضع، إنه إذا شبيه /ra: d/، وهذه الكتابة تصح أيضاً لـ *Rat*، «consacré» (نصيحة)، المجانس اللفظي التام لـ *Rad* هذا إذا لم يكن جنسها

(*) alternance (تناوب): العلاقة التي تجمع متلوين (أي بديلين) أو أكثر ضمن الوحدة اللغوية والتي يعتبر عنها بعلاقة - وقد تكون في الأصوات، أو في الصرف أو في النحر، انظر: معجم المصطلحات اللغوية (إنجليزي - عربي)، وعزى يعليكي (بيروت: دار العلم للملايين، 1990)، ص 41.

سيظهر مع [-t] في صيغة الجمع *Räte*. إن الكتابة التقليدية لتتاج التحييد بواسطة حرف كبير مستحسنة للإشارة إلى تناوب ما: كيف نقبل بأن نمائل فونولوجياً حقيقتين متميزتين عائلتين للكتابة الفونولوجية، الـ /T/ في كلمة /ra:T/ «جرذ» والـ /d/ في /ræ:dr/؟ هذا بالتأكيد ما ينبغي علينا القيام به فيما لو رغبنا في أن نتجنب اللبس في ما يتعلق بالتحويل الآلي لـ [-d] إلى [-t] وعلى سبيل المثال، الخيار البليغ لـ /ɛ:/ بدلاً من /æ:/، وذلك عندما نتقل من المفرد *Vater* إلى الجمع *Väter*.

5.1.4 - إنتاجية

ولكن ترى ألا يفترض بناء، إثر تمييزنا بشكل تام ونهائي بين حالات التحييد والتناوب، أن نفرّد في الوصف اللغوي حيزاً للتناوبات المنتجة؟ ربما سنستغرب أن اللسانيات الوظيفية التي تروج لضرورة تقديم دينامي للأوضاع التزامنية لم تعد منحاذاة بوضوح لإنتاجية بضعة تناوبات، كما لضرورة إفراو حيزٍ معينٍ لها ضمن هذا التقديم.

فلنأخذ، في الفرنسية، التناوب /-ɛ̃/ - /-iɛn/ أو /-iɛn-/, الملحوظ بوفرة في تشكيل الكلمات المؤنثة، أتعلى الأمرُ بدائلٍ نعتية أم اشتقاقية اسمية، كما في حالات الإلحاق مثلاً، في *fin - fine* (دقيق - دقيقة)، *crétin - crétine* (غبّي - غبيّة)، *matin - matinee* (صُبح - داهية)، *destin - destinée* (قَدْر) ... إلخ. إلى ذلك، فتحة، تناوبات أخرى تستدعي تدخل الفونيم /ɛ̃/. قبل كل شيء ثمة تناوب /-iɛ̃/ - /-iɛn/ في *mienne - mien* و *vienne - vient* التي يميزها بوضوح وجود /-i/ (i) بقرب الصامت الأنفي. وهناك التناوب /-ɛ̃/ - /-ɛn/ من دون الـ *z*، كما في *saine - sain* (سوي - سوية)، *traîne - train* (جري - انجرار)، وربما *main - mène* (يد - أم)، التي يقرب البعض بينها ببراعة. ولكن الاشتقاق غالباً ما يحدث هنا وفق النموذج /-an/-ɛ̃/ أو /-am/ في *sanitaire - sain*، *manuel*

affamé - faim, main، وأخيراً علينا الإشارة إلى التناوب */-ē/ - /-ēn/* في *châtin* (كستاني اللون) المشتق من *châtaigne* (ثمرة الكستناء)، وكذلك */-ē/ - /-in/* في *maligne - malin* (ماكر - مأكرة) إلى جانب *maline* المتواترة، وأيضاً التناوب */-ē/ - /-yn/* في *brune - brun, une - un* في الاستخدام الباريسي المعاصر. ومن ضمن كل هذه الضروب، وحده التناوب */-ē/ - /-in/* الملحوظ بشكل أفضل من قبل كثيرين «يُبدى حيويةً تشهد لها الأشكال الشعبية، حيث الشكل المنتهي بـ */-in/* لا يمكن أن يكون الشكل الذي يرتقبه التدوين وعلم التأثيل»^(*). وهكذا نقع على *copine* في مقابل *copain* (رفيق)، وفي مقابل *pétainiste* (مؤيد للجنرال الفرنسي بيتان) الصحيحة الكتابة، صار لدينا التلقائي *pétiniste*.

وإذا كان اللسانيون المعاصرون يترددون في إدخال إنتاجية الفونيمات، فذلك مرقه بلا ريب إلى أننا لا يمكن أن ندرسها إلا بواسطة اختبار متأن يتراجع أمامه النظريون، ويصعب تقليده بواسطة مصطلحات المراتب المميزة أو القائمة بذاتها. إن إنتاجية التناوب الفرنسي */-ē/ - /-in/*، ملحوظة منذ زمن طويل في الفرنسية، ولكننا نورد على الدوام الأمثلة نفسها. بإمكاننا بالطبع أن نجد غيرها، ولهذه الغاية يفترض بنا الإصغاء إلى الاستخدامات الصبيانية والشعبية بغية الوصول إلى حصيلة ميقانية يمكن أن تكون منخفضة بعض الشيء، حتى لو لم نشأبر على رصد أشكال */-in/* غير المتوقعة فحسب، بل على رصد كل الأشكال المشابهة للضرب نفسه، مثل المشتقات ذات */-ē/* الوصل على نسق *rabatière* (مُثَقَّة، كبير الشوق)، *pianoter* (غزف على البيانو عزفاً رديئاً).

وإزاء رفضنا إدراج تناوب مشل */-ē/ - /-in/*، في فصل «الفونولوجيا»، يمكننا أن نسعى إلى التفرع بصعوبة تلفظ صائتين

(*) آتِل مثيلاً أي أضل وأغنى، فعلم التأثيل هو علم الكتابة المبني على أسس.

بالتعاقب، مثل /ɛ/ الختامية العائلة لجذر ما وال /i/ الاستهلاكية للأحقة -iste وفي الحقيقة، فلا أثر لصعوبة مماثلة. وقد أثبتت في اللام الاشتقاقي تنابعات من هذا النوع، ولم يبد أحد صعوبة في تلفظ passéiste (ماضوي) أو téléaste (مخرج تلفزيوني)، وقد وردت، بالتأكيد صيغ /petɛist/ في أفواه الأولاد والبالغين المتأثرين إلى حد ما بالكتابة. وفي كل الأحوال، وفي ما عدا خفض الغلصمة التي يتشارك فيها الصائت الأنفي /ɛ/ والصامت /-tn/ فلا مشترك صوتياً يجمع بين عنصرَي التناوب، ففي مقابل الكسرة /i/، الأكثر انغلاقاً من بين الصوائت الأمامية، لدينا صائت أنفي، يُدوّن تقليدياً [ɛ]، ولكن درجة انفتاحه مشابهة بالأحرى إلى [a] في كلمة *patte*، ومن هنا اللبس المستوائر لـ *busister* و *affirmer infirmer, assister* و *désaffecté* و *désinfecté*⁽⁷⁾.

6.1.4 - تقلب⁽⁸⁾

يبقى أن نتصدى لما ندعوه التقلبات، وليس من النادر أن تعرف كلمة، كما يقال، عدة تلفظات مختلفة: فإلى جانب الصيغة الفعلية

(7) لم نستخدم هنا، طبعاً، المصطلح المزعج لـ «علم الفونيمات الصرفية» morphonologie (لـ morphophonologie) الذي شكّل نزوة للإشارة إلى دراسة تناوبات الفونيمات. إن المقصود في كل الحالات هو علم الصرف، انظر: André Marinet, «De la morphonologie», *La Linguistique*, vol. 1, fasc. 1 (1965), pp. 15 - 30.

(8) إن مفهوم التقلب (fluctuation) قد استُخدِم من قبل أندريه مارينه في: André Marinet, *La Description phonologique* (Paris: Droz, 1956), p. 57.

وأشير إليه على هذا النحو: بناءً على اقتراحه، من قبل ماري ريتشي كاي في: Mary Ritchie Key, «Phonemic Pattern and phoneme fluctuation in Bolivian Chiric (Tacanan)», *La Linguistique*, no 2 (1968), pp. 35-48.

وقد استعيد على صعيد نظري من قبل كريستوس كلاريس في: Christos Clairis, «La fluctuation des phonèmes», *Dictionnaire*, vol. vi, pp. 99-110.

je peux (أنا أستطيع)، نسمع أيضاً *je puis* ويمكن للأشكال المتنافسة، كما هو الحال هنا، أن تعود إلى أسلوتين مختلفين. والمقصود بذلك في أغلب الأحيان تنويعات تقوم بين فرد وآخر، ويمكن أن توافق بداية تباعدات إقليمية. وفي عدد الفرنسيين القاطنين في الثلثين الشماليين لفرنسا، الذين يميزون في الختام، بين /-e/ و /-ə/ بتلفظ بعضهم *quai* (رصيف) بواسطة الصائت المتغلق، في حين يستخدم آخرون الصائت المفتوح في السياق عينه. والأمر ينسحب بالنسبة إلى *mes, des, les* ولكن المتواتر أن نسمع /e/ عند من يقول /kə/ وبالعكس. ثمة إذاً في الفرنسية المعاصرة، تردد في استخدام الصائتين /e/ و /ə/ في ختام الكلمة. ولكننا لا نتكلم عن قلب في هذه الحالة.

فهذا المصطلح محفوظ للحالة التي نرصد فيها، عند الشخص نفسه، تلفظات متناوبة، بواسطة فونيم أو آخر، وحيث تؤثر هذه الترددات بجزء لا يُستهان به من مفردات اللغة. وبالفعل، فالمقصود في البداية سياقات غالباً ما يصادف فيها الواصف مونيماي تظهر في الموضع عينه، في البدء مثلاً، صوتاً ما تماماً كما تظهر غيره، مثلاً [v] و [b]، وجرب إذاً أن يرى في هذين الصوتين، تنويعين للفونيم نفسه. وفي طريقة، هل استطاع على الأرجح إيجاد مونيماي لا نفع فيها أبداً إلا على [b]، وأخرى لم تعرف غير [v] وحدها. ولكن هذا كله لم يوقفه بمقدار ما بدا له أن الفرق بين هذين النصويتين، الفونيمين المتميزين في لسانه، مسلم به. ولنفترض أنه اعتمد فونيم /β/ الذي تناوبت تحقيقاته بين [v] و [b]. ولدى العودة إلى مدونه، كي يسبح على هذا الفونيم كتابة فونولوجية، سيصادف مونيماي، لن يجد لها، مهما فعل، كتابة صوتية [b]، وأخرى حيث [b] وحدها قد رُصدت. وأكثر من ذلك، فهو سيجد مثلاً مونيماً يكتب على الدوام [bata]، يدل على نبتة ما، وآخر يكتب على الدوام [vata]، يدل على ماعون. هذا ما نسميه «مقابلين أدنيين» وما نعتبره بمثابة البرهان

القاطع على وجود وحدتين متميزتين ومختلفتين. ولكن حتى لو لم تكشف المفردات المجموعة أي «متقابلين أدنيين»، فإذا لم يتوفر لنا مثلاً في مقابل [bata] إلا [vaka]، علينا أن نخلص إلى أن /b/ و /v/ هما فونيمان متميزان، لأنه ليس بعقدورنا أن نعزو الإشارات التزامني للاختلاف بين [v -]، [b -] إلى الفارق بين السياقين (/k-/) - (/t-/).

ولن يتردد عالم فونولوجي رصين، هنا، في إحلال فونيمين متميزين، رغم أن العديد من الدوال العائدة للسان تعرف الصوتين بالتناوب. ثمة سوابق معروفة على نطاق ضيق: فالعديد من سكان نيويورك يترددون مثلاً لدى نطقهم *either* (كل)، بين /aɪbr/ و /ɪbr/ وهم يترددون أيضاً في نطقهم *with* (مع) بين /wiθ/ و /wið/. ولكن هذه الحالات محدودة بعدة فونيمات متطابقة الهوية. ولكن ما يفلق، وما نصادفه مراراً في بعض الألسن الدخيلة، هو وجود تقلبات تؤثر بأكثر من نصف الحالات حيث يمكن للمسألة أن تُطرح. وما يحير عندها الواصف هو استحالة تعيين ما يحدد استخدام هذه الوحدة أو تلك، وليس المقصود أسلوباً أو تنوعاً جغرافياً أو اجتماعياً، كما هو غالباً حال بدائل الفونيم. وقد استطعنا، في فترة أولى، أن نعتاذ على الفكرة القائلة إن البدائل كانت المقصودة فعلياً، إلى أن جاء يوم اصطدنا فيه بوضعة تقابلات مميزة، من الواضح أنها فاصلة.

من المؤكد أن عالم الفونولوجيا هو الذي يكتشف التقلبات، وذلك عندما يخضع أجهزته الصوتية لتجربة الاستبدال. من الضروري إذاً أن يشير إلى وجودها وتواترها في مفردات اللسان، أي مدى الحدود التي تمثلها بالفعل لدى ممارسة الوظيفة التمييزية لبضعة تقابلات. ولكن عليه أخيراً أن يخلص إلى أنها لا تؤثر أبداً بالوضع الفونولوجي للنتاجات المعنوية. أما مهمة المُعْجَمِيّ والتحوي فيستكون في عرض الوحدات البليغة بطريقة فردية، تلك التي تقدم، في نقطة معينة من سلسلة الفونيمات، الخيار بين هذه الوحدة التمييزية أو تلك.

2.4 - الوظيفة والتقطيع في النغمية⁽⁹⁾

تُستخدم مفردة «النغمية» عادةً في أوروبا، في القارة تماماً كما في إنجلترا، للإشارة إلى ما كنا نسميه في أميركا، خلال أيام شباب البلومفيلدية، دراسة الفونيمات أو السمات فوققطعية.

ولما كان اعتماد تصنيف جديد أو مصطلحية جديدة للمفاهيم العلمية أمراً مستحباً بعض الشيء، بدأ لنا حرياً أن نحفظ بمصطلح «النغمية»، حتى، لو اتفق أنه يشير إلى عناصر ذات طبيعة شديدة الاختلاف. ولكن المطلوب بالطبع أن نعلم عما نتكلم. ولهذا الغاية، علينا أن نحدد ما هي هذه العناصر المختلفة.

إن تحديد «النغمية» الذي يمكن أن نقترحه في مرحلة أولى سيكون محض سلبى، ففي فصل النغمية ندرس كل السمات والمظاهر الصوتية التي لا تدخل، بشكل أو بآخر، في إطار تقطيع العبارات إلى فونيمات. وهذا التحديد لا يستند إلى الطبيعة الفيزيائية ولا إلى وظيفة العناصر المتضمنة. وهذا الأمر يشكل، في إطار اللسانيات الوظيفية، انحرافاً بالنسبة إلى المبادئ الأساسية التي تُعتبر الوحدات اللغوية وتُصنّف بموجبها، وقبل كل شيء، وفق دورها في عملية الاتصال.

وعلى كل حال، فالتقطيع إلى فونيمات يحتل مكاناً أساسياً لدرجة أنني ضننتُ تحديد الكيانات التي نرغب بتسميتها ألسناً. إنها

«Function and Segmentation in Prosody», *Poetics Society*, vol. VI (1973), (9)

pp. 202 - 208. A lecture delivered in The High School of Languages in Hyderabad on October 20, 1972. Traduction française faite par Laurence Bon, Milla Golian et Jean - Pierre Goudaillier dans le cadre du séminaire de Denise et Frédéric François.

في الحقيقة عالمية، ولن يمكننا أن نتصور لساناً ما من دون فونيمات
قطعية، في حين أن السمات غير القطعية لا تحتل في العليل من
الألسن، ولا سيما الفرنسي، سوى حيز هامشي.

ولو طلبنا إلى أغلب أولئك الذين يهتمون بتحليل الألسن
ودراستها وتعليمها أن يحددوا لنا النغمية بصورة ارتجالية، فإنهم
سيستندون من دون شك إلى الطبيعة الفيزيائية للسمات التي
تتضمنها: الارتفاع، الشدة، والمدة التي تتصل حتماً بالنغمية. وليس
الحظ فإن مفردة «stress» في الإنجليزية، الملائمة في الأصل كل
التلاؤم، استخدمت بطريقة غامضة جداً، وغالباً ما أحالت إلى إبراز
للميزات النبرية، وبمعزل عن المكونات الفيزيائية، كما هو الشدة
و/أو التناغمية العائدة للنبر. وبالنسبة، فسيكون من الأسلم، أن
نستبدل في ذلك اللسان، المفردات الأكثر عملية مثل «ارتفاع
تناغمي» و«جدة»، والتي نستخدمها بعينها في الفرنسية، بتلك
الملائمة، مثل (stress) و(pitch).

أياً كانت المفردات التي نستخدمها، ومع أن أحد أهدافنا هنا
هو أن نظهر أن تحديداً فيزيائياً للنغمية ليس مرغوباً فيه البتة، فمن
المهم أن نلفت الأنظار إلى السمات المشتركة للارتفاع التناغمي، كما
إلى المدة والمدة، اللتين نجعلانها الأشد تلاؤماً للاستخدامات
الفوققطعية منها والقطعية. وهذه العناصر الثلاثة كلها إلزامية الحضور
مد حصول الحدث الكلامي، وهذا ليس حال السمات الفونيمية.

فلنتفحص، على سبيل المثال، السلوك الشفوي. وربما تستخدم
أغلب الألسن المعروفة، باستثناء الإيروكوية^(*) (l'iroquois) الشفنين
بعض الشيء، ولكتنا تقع عملياً في كل هذه الألسن على عبارات لا

(*) متعلق بشعب هندي يعيش في أميركا الشمالية.

تلعب الشفتان في نطقها أي دور يذكر، ومنها مثلاً الجملة التالية في الفرنسية، *cette carte est assez intrigante* (هذه الخارطة محيرة بعض الشيء)، فالسلوك الشفوي متوافق إذاً تماماً مع الاستعمال الفونيمي الذي يستخدم ميمات، يثبت وجودها أو غيابها اختلافاً بين كلمتين مئثاليتين فضلاً عن ذلك في كل النقاط. وبخلاف ذلك، فالارتفاع التناغمي حاضر بشكل آلي منذ أن تباشر الأوتار الصوتية بالتذبذب. وليس بمقدورنا أن نحدث صوتاً ما من دون درجة معينة من الشدة، ودرجة الشدة صفر تعادل الصمت. والديمومة بدورها حاضرة حتماً، لأن الأصوات تُذكر في الزمان. ودرجة الشدة صفر معادلة بدورها للصمت. وعليه فإن الارتفاع التناغمي والشدة والديمومة ليست بطبعا شديدة التلازم لاستخدام ذي نسق فونيمي.

إلا أننا نعلم أن البنى اللغوية تظهر درجة كبيرة من الحرية نسبة إلى الطبيعة الفيزيائية للسّمات التي نستخدمها. وهكذا أليس استثنائياً جداً أن نجد أنظمة فونولوجية تتفاد فيهما متالية من الصوامت القوية مع سلسلة من الصوامت الضعيفة؟ إن نطق الأصوات القوية يتوافق غالباً مع ديمومة كبيرة جداً، ونطق الأصوات الضعيفة مع ديمومة أقصر، أي إن /p/ - /P/ هو متحقق في الحقيقة [p:] - [p]. وفي حالات أخرى فالتمييز الأساسي بين المئثاليتين هو تمييز ديمومة، بحيث إننا نستدرج لتفسير الجزء الكبير لكل زوج على أنه تتابع لصوتين قصيرين، فـ /p/ - /p:/ تُفسر غالباً على أنها /p/ - /pp/. وبعبارة أخرى، فمن المؤكد أن الشدة والديمومة أو الاثنتين، غالباً ما تجدان نفسيهما تنهضان بوظيفة السمات الفونيمية. ولكن من الصحيح أيضاً أن الضروب الفونولوجية، من نوع تلك التي أجملناها للتو، تملك حظاً ضئيلاً في البقاء في الحالة نفسها بهذا الشكل، بدءاً من الفترة التي يصبح فيها الشيوع العائد للجزء الطويل والقوي لكل زوج

مماثلاً للشيوع الوسطي للقوانين البسيطة. وبعبارة أخرى، فيقدر ما تعرف /P/ أو /p:/ شيوعاً مماثلاً لشيوع المجموعة /pt/، فلن تسعى أبداً إلى أن نجعل استهلاك الطاقة الضروري لتلقها أصغر من ذلك العائد لـ /pt/. وفي هذه الحالة، فإن تأويل /P/ أو /p:/ على أنها /pp/ مقبول تماماً. وبالعقابيل فإن ازدياد هذا الشيوع واقترب أكثر من شيوع /p/ أو /pt/، منلاحظ أن /p/ و /P/ (p:/) تميل إلى أن تتميز على الصعيد النوعي، وسيختفي هذا التميز ذو النسق الكمي خلال هذا التغير. وما قلناه للتو عن الصوامت ينطبق على الصوامت بعد إجراء جميع التغيرات الضرورية.

وبالعكس، يمكن لنظري موضع بإحكام، ويعمل بشكل طبيعي كمنظم مميز على الصعيد القوي، أن يمتلك وظيفة ذات نسق نغمي. والحالة المعروفة على صعيد واسع هي حالة همزة القطع. ليس ثمة سبب أن انسداداً مزمارياً، أو نطقاً موضعاً بطريقة دقيقة، لا يُستخدم كفونيم، أو كسمات مكونة لفونيم. وهذا بالفعل ما نجده في الألسن الأشد اختلافًا. ولكن يبدو أن ازدياداً سريعاً ومفاجئاً لتردد فبذبات المزمار يمكن أن يؤدي بكثرة إلى إغلاق مزماري، بشكل يجعلنا نبصر تكراراً انسداديات مزمارية تؤمن الوظيفة والسلوك النغميين لمنحنى تناغمي قديم، والتي ينبغي من ثم أن تُعتبر بالفعل بمثابة نغمات أو مكونات لنغمات. هذه هي حالة ما نسميه ^(*)stad الانفجاري المزماري في الدانماركي الذي ليس في الأغلب انسداداً حقيقياً، بل انقباضاً غير مكتمل للمزمار يقابل غيابه، تماماً كما تعمل نغمة ما. وفي الفيشنامية، تتميز نغمتان صاعدتان، واحدة صاعدة

(*) مصطلح من الدانماركية يرادف المصطلح (glottal stop)، انظر: معجم

المصطلحات القوية (إنجليزي - عربي)، ص 472.

منخفضة وأخرى صاعدة عالية، عن نغماتٍ أخرى صاعدة مماثلة بانقطاعٍ مزماري في جزئها الأوسط.

حالةٌ أخرى مثيرة للاهتمام هي حالة المهترز الأسلي العائد لعدة لهجات بيرنية^(*) (béarnais) في جنوب فرنسا حيث لا تستطيع [r] أن تظهر سوى مرة واحدة في الكلمة، ويُحدّد موضعها في الكلمة بناءً على الشكل الفونولوجي للكلمة، بحيث يكفي أن نعرف إذا ما كانت الكلمة تحتوي r أو بالأحرى بدون r، تماماً كما هو الحال اللسان السويدي، حيث علينا أن نعرف إذا كان لتتابع الفونيمات /anden/ نغمة بسيطة أو أخرى مركبة. ومن وجهة نظرٍ وظيفية، فالـ [r] البيرنية هي نغمة، لأن موضعها في الكلمة محدّد مسبقاً، وبالتالي من دون ملامة مميزة.

وينتج بوضوح عما سبق أن الطبيعة الفيزيائية للعناصر المعثيرة، ليست قطعية، في إطار مقارنة وظيفية للفونولوجيا. وبما أننا لا يمكن أن نسقط التقطيع المتصل، علينا الاحتفاظ به كمعيارٍ يسمح بتمييز علم الفونيمات والنغمة، وبتخصيصٍ مميّزٍ معيّن إلى باب أو آخر من أبواب الوصف الفونولوجي، ولكن علينا استعادة الوظيفة كمفهوم، حينما نرغب في التمييز بين مختلف أنماط العناصر أو السمات النغمية.

نميّز، من وجهة نظرٍ وظيفية، بين النغمة، والنغمات، والنبر، والتنغيم. تُصنّف هذه العناصر الثلاثة من وجهة نظرٍ لسانية من الأشدّ مركزية إلى الأكثر هامشية. تلعب النغمات دوراً قطعياً في إثبات هوية الوحدات اليليفة، وتشكّل بشكلٍ علمي صفاتٍ لالسن عديدة، في

(*) إقليم قديم في جنوب غرب فرنسا، شكّل مع بلاد الباسك مقاطعة البيرنية

السفل.

حين أن التنعيم يتطلب بالإضافة إلى ذلك المشاعر التي يبدئها المتكلم بخصوص ما يُبلّغه، وهذا يتم بطريقة متشابهة في العمق بالنسبة إلى كل الجماعات اللغوية. تُصنّف هذه العناصر الثلاثة أيضاً وفق أبعاد الإطار الذي تتداخل كل منها فيه، فالجزئيات المختصة بالنغمات هي الأصغر عموماً، وتلك حيث يفعل التنعيم فعله هي الأكبر. وسنحاول هنا أن نعيّن لكل من هذه العناصر: 1 - مكوناتها الفيزيائية الأكثر طبيعية، 2 - الإطار الذي تعمل ضمنه، 3 - الطريقة التي تسهم من خلالها في التواصل اللغوي.

1.2.4 - النغمات

إن الطبيعة الفيزيائية السوية للنغمات هي تناغمية، فالنغم، بصورة عامة، هو سمة مختصة بالمنحنى التناغمي الذي يشكل محصلة ضرورية لتذبذبات المزمار. ولن يكون دقيقاً القول إنه مشابه لقطعة من هذا المنحنى، لأن بإمكان المنحنى أيضاً، في كل من نقاطه، أن يميّز الحد التنغمي المعين. وبعبارة أخرى، فالأقسام التي تسبق وتلي نقطة معينة من المنحنى التناغمي محددة آلياً بضرورة ربطها بالنغمات الدقيقة المتتالية بعضها مع بعض، والتي ليست بالتالي ملائمة. يقال عن النغمات إنها تناغمية حينما تكون سيمتها الملائمة في الاتجاه العائد لجزء من المنحنى التناغمي: صاعد، هابط أو موحد. إلى ذلك فالنغمات تتقابل بوصفها أحادية الاتجاه بتلك المتعددة الاتجاه، ففي السويدية مثلاً يتقابل نغم صاعد أو هابط على الشواء بآخر صاعد - هابط. وتتقابل النغمات المنتظمة بما هي عالية لمنخفضة أو عالية لمتوسطة ومنخفضة. والنغمات التناغمية، أي الاتجاهية، بمقدورها أيضاً أن تتقابل بما هي عالية ومنخفضة، ويميّز المتكلمون مثلاً بين صاعد عالٍ وصاعد منخفض، أو موحد عالٍ وآخر منخفض. وكما أشرنا سابقاً، فيمكن لنغمات مزمارية أن تتقابل

مع أخرى غير مزمارية. والتهميز إما أن يكون إحدى السمات المميزة لنغم أو أكثر، مثلما في الفيتنامية، أو يكون الصفة الوحيدة للملائمة لنغم ماء، كما في السويدية.

يمكن للقطعة التي تتميز بنغمة ما أن تكون أصغر من الفونيم، وتسمى عندها المجتزأ^(*) (more). وفي السن عديدة ذات نغمات منتظمة يمكن لمقطع من نمط /a/ أن يتضمن نغمة عالية على النصف الأول من /a/، ونغمة منخفضة على الثاني. ومن وجهة نظر فيزيائية، فإن تنايع «عالٍ + منخفض» يمكن أن يوصف على أنه هابط. لكن التحليل إلى نغمتين منتظمتين للقطعتين المتتابعين يظهر، لا بل يوجب أيضاً حقيقة أن أغلب المقاطع، في اللسان، تمتلك نغمة منتظمة، أي إنه ليس هناك سوى مجتزأ واحد في المقطع، وفي أغلب الحالات، فالإطار الذي يبدو فيه تقابل نغمي هو المقطع، أو أكثر تحديداً، نواته الصائبة، أي الفونيم المقطعي المصاحب أو غير المصاحب بـ «مصوت» مجهور. وفي الليثوانية واليونانية الكلاسيكية، مثلاً، يفترض التمييز بين هابط وصاعد وجود صائبة مزدوج مؤلف من «صائبة + مصوت»، أو معادله النغمي، صائبة طويلة. أما في السويدية والنرويجية، فالإطار النغمي يمثل في الكلمة المتعددة المقاطع. وفي الألسن التي توفق نبرات ونغمات، تكون التفاعلات النغمية محصورة غالباً بالمقاطع المنبورة، بحيث يمكن تقريب الإطار النغمي من الوحدة النبرية كما هي محددة نالياً.

(*) الوحدة الصغرى لقياس الطول أو الإزاحة، وهي تعادل الصائبة القصير أو تنقص عنه أحياناً، انظر: المصدر نفسه، ص 316، وهي أيضاً جزء من مقطع لفظي طويل تقع عليه النبرة في بعض اللغات، معجم اللغات الحديثة (إنجليزي - عربي)، سامي عتيد حنا، كريم زكي حاتم الدين ونجيب جريس (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، 1997)، ص 134.

إن وظيفة النغمات تمييزية، تماماً كما هي وظيفة الفونيمات أو السمات الفونيمية المميزة. وبعبارة أخرى، فإن اختلافاً نغمياً يكفي لتعيين موفيم أو وحدة بليغة أكبر، وذلك بمقابلته بكل وحدات الصنف عينه. بإمكاننا أن نعتقد توازياً مهماً، بين الحفظ في مقطع غير منبور، لاختلافات النغمات في اللسان الصيني الماندريني^(٥) (mandarin)، المستخدمة من قبل المثقفين المتقنين، وبين الجرس الصائتي في الإنجليزية. وفي الجدول التالي تظهر المقاطع المنبورة بحروف استهلاكية، في حين تبدو المقاطع حيث يستمر الفرق بين النغمة في الصينية والجرس الصائتي في الإنجليزية بحروف رومانية صغيرة. أما المقاطع غير المنبورة الملتبة الاختلافات جرساً ونغمات فهي قد جعلت بأحرف مائلة، بينما تشير الأرقام المعروضة إلى النغمة.

الإنجليزية	الصينية	
لاعب	«loueur»	PLAY - er
عاني	«souffrir»	COMME - au - er
ملاعب	«terrain de jeu»	PLAY - ground
ملوي مسرح	«monnaie de théâtre»	PLAY - go - er
أكوبر / نشرين الأول	«nouveau»	ok - To - he
منزلة	«nouveau»	PIN - e - fan

2.2.4 = التنبر

بمكتنا أن نبرز ميزات مقطع ما بلفظنا إياه على درجة كبيرة من الشدة والدقة، وبنوعية تصويت أشد ارتفاعاً، أو بزيادة مدته. وعندما نكتب في الإنجليزية، فالنبر يُسمى عموماً «stress» الأمر الذي

(٥) لغة نغمية تُستخدم فيها النغمات المتغيرة، انظر: معجم للمصطلحات اللغوية

(إنجليزي - عربي)، ص 122.

يعكس وجهة النظر العادية القائلة إن إبراز ميزات المقطع، في هذا اللسان، يؤمن عادةً عن طريق توتر كبير جداً لأعضاء النطق. لكن أبحاثاً مستجفة أشارت إلى أن لارتفاع الصوت أيضاً دوراً في هذا المجال. بالإضافة إلى ذلك، حقيقة أن المقطع المنبور في الإنجليزية لا يمكن أن ينتهي بصائت قصير (المقطع المنبور في كلمة *protestant* هو *prot* - وليس *pro*) يشير إلى أن الطول يساعد أيضاً في إبراز المميزات المقطعية. لكن ليس المقصود هنا حقيقة عالمية: فالمقطع المنبور في المشتالية هو بدوره قصير، وأحياناً أقصر من المقاطع غير المنبورة التي تجاوره. والشدة النطقية، بوصفها عنصراً مكوناً للنبر، تميل إلى الاختصار عندما تتحد اختلافات نغمية مع الإبراز المقطعي.

يمكن أن يدرك النبر بوصفه مميزاً لكلمة ما في السلسلة الكلامية، وبالتأكيد ثمة كثير من «الكلمات» لا تكون أبداً منبورة في الكلام العادي، ويمكن أحياناً لكلمات طويلة، المركبة مثلاً، أن نعرف أكثر من نبر واحد. وبما أن اللبس يحيط بمصطلح «كلمة»، يُفضل الكلام عن «الوحدة النبرية» التي ينبغي أن تُخذ، لكل لسان خاص، على أنها القطعة المثصفة بإبراز الميزات حقيقياً أو افتراضياً على واحد من مقاطعها، فالمركبات (الإنجليزية) مثل *musk - deer* «أيل المسك» أو *multiplication* «مضاعفة»، والمشتقات العلمية، مثل *energetic* «متملق بالطاقة»، أو *elemental* «جوهري»، تشمل على وحدتين نبريتين يمكن لحدودهما أن تتوافقا مع حدود المونيمات التي تولفها، أو ألا تتوافقا.

واحد من الأخطاء الأشد خطورة التي يقرؤها المبتدئون يشتمل في استخدام تعبير «نبر مميز». وبطبيعته، لا يمكن للنبر أن يكون مميزاً، فدوره الأساسي والثابت يُمارس في السلسلة، فهو يشير، في

نقطة معينة من القول، إلى وحدة دالة حاملة لكمية المعلومات التي نتوقعها من وحدة معجمية. وحينما نرغب في إحداث تضخيم خاص، فيمكننا أن نبرز بضع وحدات نحوية، ويمكن لوحدات معجمية، متبورة عادة، أن تتلقى إبرازاً إضافياً للميزات. وفيما لو استخدمنا مصطلح «تضاد» للإشارة إلى العلاقة بين وحدة ماثلة فعلياً في القول وبين الأخرى أي كانت من الوحدات التي يمكن أن تظهر في النقطة ذاتها في السلسلة، فالرسالة تكون مختلفة. يمكننا عندها استخدام مصطلح «تقابل» للإشارة إلى العلاقة بين الوحدات الماثلة فعلياً في القول. ضمن هذه الشروط، يمكننا القول إن وظيفة النبر تقابلية. وإذا كان النبر، كما هو الحال في بضعة ألسن، يميز ألياً المقطع الأول أو الأخير للوحدة المنبورة (وعموماً لكلمات)، فهو يكتسب وظيفة فرزلية، أي يشير إلى أول أو نهاية الكلمات. وفي الألسن التي لا يتعلق موضع النبر فيها في الوحدة المنبورة بالتشكيل الفونيمي لهذه الوحدة، يمكن أن يكون لهذا الموضع وظيفة تمييزية، كما هو الحال في الإسبانية، حيث نميز بين «*termino*» (مضارع)، و«*termino*» (أنا أنهى)، و«*il a terminé*» (هو أنهى). ولكن إذا أمكن لموضع النبر أن يكون مميزاً، فالنبر ذاته لا يمكن أن يكون إلا تقابلياً.

3.2.4 - التنعيم

يمكننا أن نعرف التنعيم من وجهة نظر فيزيائية بأنه ما يبقى من المنحنى التناغمي بمجرد أن تُغطى الضرورات ذات الطابع النفسي والنبري. إنه إذا تناغمي أساساً، مع أننا ينبغي ألا نُبعد سمات الشدة والمدة والوقفة، إذا قررنا أن نجعل من التنعيم المصطلح التوعني لكل ما يمكن أن يكتسب دلالة لسانية بمجرد أن نعفى النظر عن القوتيمات والتعلمات والتيرات.

ولهذا، فيقدر ما يمكننا أن نطابق بني تنغيمية خاصة، فنحن نعزوها عموماً إلى جزئيات ختام القول، حتى لو أنها ميزت القول بمجمله، بما هو سؤال أو استنتاج أو أمر. ولكن الأهمية التي نعلقها على المدار الختامي ينبغي ألا تنسينا الحالات المتواترة، حيث تؤثر بنية تنغيمية بقطعة أصغر من القول، مثل حرف جر أو حتى تركيب. علينا أن نتذكر جيداً أن التنغيم، بخلاف النغمات وموضع النبر، لا يمكن أن يؤثر أبداً بهوية مونييم أو مونييم مركب (أي مركب أو مشتق) بما هو عليه.

إن أفضل تمييز للتنغيم هو، من دون شك، ذلك الذي يظهره مثل حركة خنجرية تصاحب القول اللغوي وتنتميه أحياناً. إن معاناة الألسن التي لا تمتلك نغمات ولا أي إبراز نبرتي، عملياً، والتي يمكن فيها لمجمل المنحنى التناغمي أن يعزى للتنغيم، تُظهر جيداً أن الشكل، في أغلب الحالات، مشروط، في بدايته، بفيزيولوجيا أعضاء النطق، وبخاصة بالازدياد التدريجي لتكرار ذبذبات المزمار التي تسبب صعوداً تناغمياً. وعند ختام القول، وبمجرد أن يظهر أن الرسالة أبلغت، يترك المتكلم بشكل طبيعي توتر المزمار ينخفض، مختصراً بهذا ترفة الذبذبات، الأمر الذي يستتبع هبوط المنحنى. ولكن بما أن هبوطاً مماثلاً يفسر بسهولة مثل رمز لغائية، سيستخدم المتكلمون في النهاية تنغيماً ختامياً غير هابط، أو صاعداً، للدلالة على غياب الغائية ومداثلها: التريب، التردد، والتساؤل. وسيشير صعود بسيط أيضاً إلى أن وقفة، مثل تلك التي ندونها في الكتابة على شكل فاصلة، لا تدل على ختام القول. ويقدر ما يزداد الصعود سرعة، تبدو بقدر أقل الرسالة تأكيدية. وبخلاف ذلك، فكيفما يزداد الهبوط سرعة، يزداد التأكيد قطعاً. إن إثبات عدد محدد من المدارات المختلفة ينبغي أن يفسر بوصفه جهداً لتعيين اتجاه يضع زوايا لمروحة المدارات المختلفة في نقطة ما، بدلاً من استخلاص

وحدات تنغيمية قائمة بذاتها. ومع أن كلّ الألسن تبدو أنها تمتلك مميزات مشتركة بما يتصل بإشتغالية التنغيم، فإن وجود نغمات و/ أو نبر في البعض منها، تستخدم المكونات الفيزيولوجية نفسها، يدخل في تنازع مع الاستخدام الحرّ للمنحى التناغمي، ويمكنه أن يسبب انحرافات بالنسبة إلى ما يمكننا اعتباره بمثابة الإشتغالية العادية للتنغيم. ولأسباب عدّة، تيسّر بضعة ألسن، أو في الأغلب بضعة ضروب اجتماعية أو مناطقيّة عائدة للسان ما، تيسّر مداراً خاصاً يصبح تردده غير العاديّ بذلك مميّزاً لهذا اللسان أو لهذه الضروب. ذلك هو التنغيم الختامي غير المشتمل على هبوط، وهذا التنغيم غالباً ما نصادفه عند البريطانيين الشديدي التهذيب.

وبصورة عامة، فالتنغيم لا يشكّل، في الحقيقة، جزءاً من الرسالة اللغوية، ولكنه يوفّر إشارات حول الطريقة التي يتفاعل من خلالها المتكلّم بالنسبة إلى التجربة التي هي منبت الرسالة، ويمكن للتنغيم أن يؤمن معلومات بالنسبة إلى شخصية المتكلّم، وطبعه، وأصله الاجتماعي أو الجغرافي. ويمكن لمدار ختامي هابط أن ينطوي على سؤال، تماماً كما تفعل *de* في الإنجليزية، و *est - ce - que* في الفرنسية، *ti* في الروسية.

نُخالّ غالباً أن النغمية هي الفصل الأكثر تعقيداً في الفونولوجيا. والسبب في ذلك بين: فالذين يدرسون الألسن يسمون طبيعياً إلى بناء تحليلاتهم وتصنيفاتهم على الطبيعة الفيزيائية للمدونة المجموعة. وأسلوب عمل مماثل، سبق أن اعتبر محيراً في الميدان الأقل تعقيداً للفونيمية، يُحدث لبساً تاماً حينما تُستخدم، وهذه هي الحال في النغمية، حقيقة فيزيائية بعينها، تناغم اللسان، تُستخدم لغايات ثلاث مختلفة، في بضعة ألسن على الأقل. إن المقاربة الوظيفية تشكّل المنهج الملائم الوحيد لفهم الأحداث النغمية، ومعالجاتها العلمية وعرضها.



الفصل الخامس

الوحدات البليغة

إن تحليلاً وفيلفياً للأقوال التي تسعى إلى إبراز وحدات حاملة لمعان يُنفذ بواسطة الاستبدال. وبعبارة أخرى، فهو يطابق وحدة مثيلة حينما تكون سمة معنى موافقة لتحويل شكلي للقول. وفي الحالة الأبسط، يوافق هذا التحويل إحلال قطعة من الخطاب بأخرى: هو بيع الكتاب بدلاً من هو يشتري الكتاب. ولكن ليس نادراً أن يكون إسناد قيمة معنوية واحدة إلى قطعة مستحيلة أو اعتباطية: إنه مستحيل في أداة التعريف الفرنسية *aux* الملفوظة /o/، التي تقوم، في الوقت عينه، مقام حرف الجر «à»، ومقام صيغتي التعريف والجمع، أي «défini» (مُعَرَّف)، و«plural» (علامة الجمع)، وهو اعتباطي إذا سميت في كلمة *animaux* (حيوانات)، لعزل ما يعني «animab» (حيوان) وما يعني «plural» (جمع). ولن يكون بمقدورنا أن نسند قيمة لغوية إلى اختلاف في المعنى لا يُصاحَب باختلاف في الشكل. ذلك أن هذا الاختلاف في المعنى لن يمكن إدراكه، ومن ثم تبليغه. ونحن نعتقد أن لساناً ما هو، بالأفضلية، أداة للتواصل. ولكن حالما يؤمّن الاختلاف الشكلي، أيّاً كانت الكيفيات، فما يُثَمَّن، بالنسبة إلى وحدة بليغة، هو معناها. لذلك لا نشير إلى وحدة مثيلة، حينما

تكون دتيا، على أنها «مورفيم». ذلك أن هذه الكلمة تستدعي شكلاً، ولكن بوصفه «مونيماً»، مصطلح يذكر بوحداثيته الدلالية. وسيتطابق هذا المصطلح على فعل *achète* (اشترى) تماماً كما على فعل *vend* (باع)، اللذين يمكن بسهولة عزلهما، وعلى «*pluriel*» غير الملحوظة في *animaux*، والتي تندمج في أداة التعريف في كلمة *les* *bienheureux* (السعداء)، والتي لا تتطابق في *ils dorment / il dort* في مقابل *il dort / il dor* شفويّاً إلا بواسطة الـ */m/* الختامية العائدة للشكل الفعلي.

ولكن إذا خلف مونيم وحيداً «*pluriel*»، في جملة *les petits animaux dorment* (الحيوانات الصغيرة رقدت)، أربعة آثار (*/... e... z... o... m/*) في أربع كلمات مختلفة كتابةً، كيف يمكن عندها لمفهومي «مونيم» و«كلمة» أن يتساكنا؟ وبعبارة أخرى، فمفهوم «مونيم» يطرح للمناقشة مفهوم «كلمة»، وهذا هو موضوع القسمين «1» و«2» من هذا الفصل. إن مفهوم السيليم^(*) «*syllème*» الذي أدخل في هذين القسمين لم يُعرض قط على أنه ضروري لتحليل القول، بل فقط على أنه المفهوم الذي بإمكانه السماح بإعادة إدخال مفهوم «كلمة» في التحليل الوظيفي. وأنا لا أجد، من جهتي، في هذا الأمر فائدة، فإعادة تحديد الكلمة، في كل حالة، سيكونه أن يؤدي خدماتٍ لثمائلٍ بضع زمرٍ من المونيمات في السن كاللاتينية أو الأشكال القديمة للجرمانية التي لأجلها أبرزنا الكلمة ومائلناها، مثل *Wort, word, verbum*.

(*) ارتليت أن اعتماد شكلاً معرّياً هو سيليم، لعدم وجود مقابل مصطلحي ملائم لها في العربية لولا، ولأن تعريب هذا الابتكار المعجمي لـ ملوينة، يمكن أن يُدرج ضمن المعربات المعروفة في هذا الميدان مثل: مونيم، مورفيم، لكيم، انظر تعريف السيليم عند ملوينة، ص 328.

يبقى علينا إيجاد مصطلح للدلالة على اتصالات المونيمات التي تستخدمها كمراجع للكيانات الوحيدة، والتي ليست أبداً مونيماتاً المكونة، والممكنة التماثل أيضاً، قابلة لأن تتحد إفرادياً. وهكذا، فإن *boutiquier* (حانوتي)، *chemin de fer* (سكة حديد)، *Avenue de la Gare* (جادة المحطة)، قابلة للتحليل عن طريق الاستبدال، ولكن أي محاولة لتحديد عناصرها المكونة تؤدي إلى تقويضها، فجملة *chemin creux de fer forgé* (طريق ضيقة ومتعرجة من الحديد المطروق) ليست سكة حديد. وللإشارة إليها اخترنا المصطلح «synthème» «مونيم مركّب» ودراستها هي «synthématique» المونيمية المركبة^(*) التي نعالجها في القسم 3.

وفي القسمين الرابع والخامس نجد علم النحر الذي قاربناه في نهاية الفصل الأول. تسعى النصوص المختارة إلى أن تحير القارئ. مشككة في المفهوم التقليدي لكلمة «فاعل». ولا نبقي على هذا المصطلح إلا مع مراعاة إعادة تحليل دقيقة، وهو شرط لتحليل لا يُسند إلى اللسان الموصوف البنى العائدة للواصف.

1.5 - ما العمل بـ «الكلمة»؟⁽¹⁾

يقول معجم *Le petit Larousse illustré* في طبعته للعام 1972، عن المصطلح «كلمة»: إنه «صوت أو زمرة أصوات تستخدم لتحديد

(*) المونيم المركّب في مصطلح مارتينه هو قسم من أقسام الكلام يتألف من عدة مونيمات معجمية تشغل مثل وحدة معجمية دنيا، والمونيمات للمركبة هي، مثلاً، المشتقات (مرغوب فيه) (*désirable*)، حبل ثنية (*refaire*) ... إلخ التي تعتبر، بالنسبة إلى مارتينه، هضبة خبار وحيد من بين مصادر اللسان، ومونيم مركّب تقابل سلسلة الوحدات، انظر: *Dictionnaire de linguistique Larousse*, p. 480.

(1) «Que faire du «mot»?» dans: *Mot et parties du discours*, sous la dir. de Pierre Swiggers et Willy Van Heccke, la pensée linguistique; 1 (Louvain: Peeters, 1986).

شخص، وفكرة»، ويتابع لاحقاً بأنه «حرف أو مجموعة أحرف محدّدة بواسطة بياضين، تمثل هذا الصوت». وكما تعلم، فتحة إمكانيّة تناقض بين عنصرَي هذا التحديد، فـ «سكة حديد تدلّ على شيء محسوس محدّد بعناية يوافق «فكرة» وحيدة، وبهذا المعنى لا يسعنا أن نحدّد مكوناً ما من مكونات الدالّ دون أن نقوِّض المعنى: طريق ضيقة متعرّجة... من الحديد، وسكة حديد بيضاء، ومع ذلك فهو مؤلف من ثلاث «كلمات» مفصولة بواسطة بياضات. وبما أن هذا التحديد يوافق جيداً الاستخدام، علمنا هنا أن نشخص حالة polysémie^(*) تعدّد دلالات، وهذا ما يشير إليه، من جهة أخرى، المعجم المذكور، واضعاً عنصرَي التحديد بين سطرين مائلين.

إن تعدّد الدلالات هو شرط واجب لاستخدام اللغة الإنسانيّة، وهذه الأخيرة، كما نعلم، ينبغي أن تسمح بإبلاغ تجارب مختلفة لا تُحصى بواسطة مفردات محدّدة للغة. علمنا إذاً أن نكتيف مفردات اللغة مع الاحتياجات وذلك بأن نوكّل إلى كلّ وحدة بليغة أمر الاهتمام بالدلالة على الجزئي المختلف، وذلك بوثوقنا بالسياق بغية توجيه السامع أو القارئ. يبدو أنه ليس بمفهومنا أن نمنع هذا المورد اللغوي عن أولئك الذين يعرضون نتائج بحثهم. وقد عابوا عليّ في كتابي مبادئ لسانية عامة (*Éléments de linguistique générale*) استخدام مفردة «وظيفة» مع قيم شديدة الاختلاف: فقد استخدمتها من جهة في قيسنها العادية في وظيفة تواصلية للسان، ومن جهة أخرى، في وظيفة نخوية، للإحالة مثلاً إلى الفاعل أو المفعول. مع ذلك لم أجدُ مستحسنّاً أن أعتدل حول هذه النقطة مجموع

(*) Polysémie (تعدّد دلالات): اشتغال كلمة الواحدة على أكثر من معنيين. وعلى أكثر من معنى، انظر: معجم المصطلحات اللغوية (إنجليزي - عربي)، رمزي بعلبكي (بيروت: دار العلم للملايين، 1990)، ص 385.

مصطلحاتي، لأنني أعتبر أن السياقات، في الحالة المذكورة، تسمح دائماً بتلافي اللبس. أن نُعبر، كما يفعل بعضهم، عن «وظيفة نحوية» بـ «حالة»، فهذا أمرٌ محيرٌ جداً بالنسبة إلى من ينتظر من حالة ما أن تتجلى بالضرورة عن طريق علامة إعراب. وهذا لا يسمح أبداً بإزالة أي تمدد دلالات، إلا إذا انتزعنا من «حالة» قيمتها التواردية العادية، وهو بالطبع أمر لا يُعقل.

وإذا كانت المسألة التي تثيرها «كلمة» تتصل أحادياً بالاستعمالين المتناقضين عَرَضياً، والمذكورين أعلاه، فيمكننا أن نحلها بسهولة، وذلك بأن نوصي، بالنسبة إلى الاستعمال الثاني، بإضافة «مكتوب» في كل موضع لا يزيل فيه السياق اللبس.

لا تكمن المسألة الحقيقية لـ «كلمة» إذاً هنا، فمن المستحيل علينا، حيث نحن، أن نحدد تماماً: 1 - ما هي كلمة أو أكثر في سلسلة الخطاب، أي في التركيبي، 2 - ما هي كلمة أو أكثر في المعجم، أي في الجدولي.

يُقال لنا إن الكلمة تستخدم «لتعيين شخص، وفكرة». وكأي تحديد يُقدّم بمفردات دلالية، فهو غير قابل للاستخدام عملياً، إلا إذا استنتجنا منه علاقات تضمينية يمكنها أن تسمح لنا بأن نصدر حكماً في موضع معين. أن يكون التعيين لمرجع معين ووحيد في الحقيقة المدركة بالحواس (شخصاً في تحديد Larousse) أو يكون التصور الذي نكوّنه انطلاقاً من شيء ما مختصاً ووحيداً، قائم أو متخيل («فكرة» في التحديد هينه)، هما المقصودين، فالشديد هو على وحدانية الدال. وتعني هذه الوحدانية، بالضرورة، أن تحديداً، في سياق لغوي، لن يمكنه إلا أن يستند إلى هذا التعيين ككل، وفي أي حالة إلى مظهر مختص للكيان المعني. وهذا يصلح حتى ولو كان التعيين يشتمل على عناصر يمكننا أن نُسند إليها معنى مختصاً حتى ولو لم تتواجد هنا إلا لتطويق فردية الدال: إذا تكلمت عن مزرعة

نموذجية *ferme pilote*، فأنا لا أرجع إلى شيئين متميزين، مزرعة ونموذجية، بل إلى واحد، مزرعة، ذي نمط مختصر، لا أجده، في اللسان، تعيناً بسيطاً، الأمر الذي يضطرني إلى اصطناع واحد وذلك بتحديد مصطلح بواسطة آخر. ولكن حينما يتم هذا الأمر، فلن يكون الموضوع أبداً هو فصل المصطلحين من دون تفويض التعيين الجديد. إن السمة الأشد قطعاً لفصل مماثل ستمثل في التحديد الفردي لكل من العنصرين، مثلما، في جملة *une ferme de brique plus pilote* (ثبته أجريه أكثر نموذجية) حيث سنعيد الهوية المميزة لـ *la ferme*، ولمفهوم «نموذجي». إن رائر غياب التحديد المختصر يثبت ميزة «الكلمة» في المجموعة *ferme pilote* وحتى من دون سمة التوحيد التي تجعل منها «كلمة مكتوبة»، فإمكاننا أن نصفها بأنها «كلمة مركبة» بنفس صفة *autoroute* (طريق سيار) أو *timbre - puste* (طابع بريدي).

إن رائر اللاتحديد هذا يصلح، بالطبع، للمشتقات تماماً كما للمركبات. ولا نرى بوضوح كيف يمكننا أن نحذف زائدة هي، لجهة تأسيسها إذا أمكن القول، لا تصلح إلا بإسهامها في قيمة المجموعة. ولن ندعي هنا، من دون شك، أن هذا الرائر يسمح دائماً بالاختيار، بشكل أكيد، حول ما هي «كلمة مركبة» وما هو ائتلاف «كلمات». نحن واثقون من أنفسنا في ما يتعلق بـ *pomme de terre* (بطاطا) أو *chemin de fer* (سكة حديد). وبالنسبة إلى الشكل المعقد *général de brigade* (عميد)، حيث ينطبق الرائر أيضاً، يمكن للبعض أن يروج أن معنى المجموعة مستتج كلياً من مجموع العناصر الثلاثة، وهذه ليست هي حالة العنصرين السابقين، ولا حاجة البتة أن نشب له مدخلاً خاصاً في المعجم. ولكن المعيار الدلالي، هنا أيضاً، يمكنه أن يكون صعب التطبيق كي يُفضّل على رائر غياب التحديد، فحالة القرن الأفريقي (*corne de l'Afrique*) المطبقة على الصومال وعلى

البلدان المجاورة تُظهر جيداً الحالات التي ليست نادرة، حيث في غياب معيار شكلي مثل ذلك العائد للاستخدام للأداة أمام العنصر الثاني، يمكننا أن نحاول وضع كلمة مركبة وصولاً إلى الوقت الذي تصادف فيه، بقلم صحفي، تعبير القرن الشرقي لأفريقيا (*la corne orientale de l'Afrique*) مع تحديد مختصر لقرن (*corne*) يهذي المسألة. ولا يعني هذا أن المعيار ليس مقبولاً، بل إن ردة فعل مستخدمي اللسان ليست موحدة: فثمة «كلمة مركبة» بالنسبة إلى البعض: وثمة تركيب حر للعناصر المستقلة، بالنسبة إلى الآخرين. أما والحالة هذه، فقيام التركيب في وحدة عناصر وحيدة، وفضلاً عن ذلك مستقلة، لا يمكن أن يدفعنا إلى التشكيك بصحة التحديد الذي انطلقنا منه. إن ما يكبح أي إمكانية للتماسك هو الإثبات أن في الاستخدام الشائع والمترتب على مصطلح «كلمة»، يمكن لهذه الأخيرة أن تتضمن ليس فقط تعيين «شخص» أو «فكرة»، بل أيضاً كميّات مختلفة تحدد هذا التعيين، لا بل وتوضح العلاقات التي يربطها الكيان موضوع الخلاف، في تجربة المتكلم، مع العناصر الأخرى لهذه التجربة: فـ *rosarium* اللاتينية، (ورود) هي «كلمة»، حتى ولو أمكننا سماع البعض يقول إنها «الكلمة ذاتها» لـ *rosa* (الوردة)، أو *roses* (للورود). أما والحالة هذه، فنحن نمائلُ فيها، غير اللكسيم^(*) *rose* الكيفية «جمع» والربط - الوظيفي «حالة الإضافة» الذي يشير إلى الطبيعة الخاصة للعلاقات التي تربطها بالنظر إلى تلك الوردية مع باقي التجربة. وفي لفظة *byernes* الدائمية التي تعني «مدناً»، نجد بالإضافة إلى اللكسيم *by-*، «مدينة»، الكيفية *-er-* للمجمع، والكيفية *-ne-* للتعريف، وربطاً *-s-* للإضافة، والكل في

(*) الوحدة القافية الصغرى في النظام الدلالي في لغة ماء، المصدر نفسه، ص 280.

«الكلمة» نفسها. ولكن، في المقابل الإسباني لـ *de las ciudades*، فالرابط موسوم بـ «كلمة مكتوبة» متميزة، *de*، والتعريف بـ *l* مدموجة مع العنصر *es* الذي يشترك في اختيار الاسم، و- *es* تكملة الكيفية الجمع الموضحة بـ *es* الختامية لـ *ciudades*. وبعبارة أخرى، لدينا ثلاث «كلمات مكتوبة» لما هو مقابل تماماً «لكلمة المكتوبة» الوحيدة في اللانماركية. لنفترض أننا نميز بين «كلمة 1»⁽²⁾ و«كلمة 2»⁽³⁾ (مكتوبة)، بوصفهما دالتين متعدتين متميزتين. هل ستجازف بالقول إننا نملك «كلمة 1» واحدة في *de las ciudades* تماماً كما في *byernes*؟ أو هل سنبرز أن تقديم الكيفيات والرباط يغيّر المعطيات بشكل تام؟

نعلم اليوم جيداً لماذا تنزع العناصر «النحوية» المؤخرة إلى الاندماج في نواتها المعجمية، في حين أن التوابع عينها تنفرز عنها شكلياً: السبب هو في أن هوية النواة المعجمية تتجلى بالأفضلية في عناصرها الأولية، المدركة بالطبع قبل كل شيء، والتي بفعل الفضل الملازم لكل لسان، ستكون كافية للتعريف به، دون أن يكون على العناصر الختامية أن تتدخل: ففي كلمة *dictionnaire* (معجم)، تكفي *dictionn-* لتعيين المفهوم، ولا يهم كثيراً أن يندمج ختام النواة بصورة تقريبية مع النحويات المؤخرة، إذ إن بداية النواة، على العكس ضرورة لتعيينها، وسيعذر المتكلمون جيداً من حفظ خصوصياتها، ولا سيما بإدخال تحديدات أخرى، نمية، مثلاً، بين النحويات والنواة: *les gros dictionnaires* (المعاجم الكبيرة). ومن دون شك،

«Le mot», *Diogenes*, no. 48 (1955), pp. 39-53, reproduit dans: *Problèmes* (2) *de langage* (Paris: NRF, 1965), pp. 39 - 53 et en anglais «The Word», *Diogenes*, no. 51, pp. 38 - 54.

André Martinet, *Syntaxe générale*, collection U (Paris: Armand Colin, (3) 1985), parags. 3 - III à 3 - 61; voir également «Monème et syntèmes», parags. 3 - I à 3 - 10.

ثمة استثناءات لقاعدة الحفاظ على هوية بداية النواة: نعرف التناويات البدئية للألسن السلتية وموازياتها القرنسية الممثلة بالوصلات، وعبر كيفية مُقْلَمَة، يمكننا أن نشير إلى حالة الزيادة الاستهلالية اليونانية *ελαβον* (أنا أخذت)، مقابل *ελαβον* (أنا آخذ)، ولكنهما تدعشان بعض الشيء أولئك الذين يصادفونهما للمرة الأولى، كي يكون بمقدورهم التعرف إلى طابعهما الهامشي.

هل سيكون علينا أن نحدّد «كلمتنا» على أنها المجموعة المركبة من نواة يتوافر فيها رائر الاتحاد وكيفية الاحتمالية ورابطه، ولكن فقط بمقدار ما تتبعه تلك الأخيرة في سلسلة الخطاب، حتى ولو لم يعد يغطي هكذا حالة *ελαβον* إن إمكانية حلّها لا تملك احتمالاً كبيراً. وأبعد من الاحتمالات الشكلية المحضة، حينما جهدنا لإيجاد هوية *de las ciudades* و *byernes*، ثمة حظوظ كي نتراجع أمام تحديد يستدعي عناصر ذات شكل صافٍ، وغير ملائمة في التحليل الأخير حينما تكون وحدات المعنى هي المقصودة.

إن ما بحث على إعطاء المعقّدات التي نعمل عليها المنزلة نفسها العائدة لتناجات التركيب والاشتقاق هو الإثبات بأن الكيفيات التي تنضمّتها لم تعد أكثر قبولاً لتحديدات مختصة من العناصر الفردية للمركبات والمشتقات. إن الكيفيات في اللسانيات الوظيفية محدّدة بدقة شديدة كمونيمات لا يمكن تحديدها. وعلى أي حال، فالحالتان مختلفتان كلياً: فعندما أضيف إلى *les roses* تحديداً، مثل الصفة جميلة *belles*، فهذا التحديد نقطة تلاقي، هي *rose*، وليس علاقة الجمع العائدة لـ *roses*، حتى ولو كان الاتباع يجعلني أضيف «إلى *belles*». وإذا أضفت الآن تحديداً إلى *boutiquier* حانوتي، و *riche* (غني) مثلاً، فالحانوت ليس هو المتأثر، بل المجموعة *boutiquier*، أي فرداً معيناً يمتلك حانوتاً. وإذا ما أضفت *rich* إلى

المعادل الإنجليزي *shopkeeper*، قليت النواة - *keeper* - وحدها هي الموصوفة بذلك، ولكنه، بالطريقة نفسها، المحلّد *shop-* الذي يحيل إلى ما هو متبع الفنى من دون شك.

إن حالة الرابط الإضافي في مركبات مثل *byernes* و *rosarium* هي مختصة بعض الشيء. سنجرّب للوهلة الأولى أن نمثلها بتلك العائدة للكيفيات: وستكون أيضاً (حالة) غير ممكنة التحديد، ولا يمكن للتحديدات الاحتمالية للنواة أن تؤثر بها. ولكن بإمكاننا أن نتساءل: أليس هناك في كلمة مركبة كما في الألمانية *in den Hof*، تحديد لحالة المفعولية بواسطة حرف الجر *in*، فعالة المفعولية التي نسمّ المفهوم الرئيسي للحركة (وفي اللاتينية «à vers Rome») نُظِرَ إليها، خلال تطور اللسان، معيّنة بواسطة ظروف تخصص الداخلية (in) أو التماس (ad). ومع ذلك، فربما أمكننا، في التزامنية الصرفية، أن نبرز أن مفهوم الداخلية رئيسي، وأن التمييز بين «حركة نحو» و«تواجد في» هامشي. وبالنسبة إلى ما يعنينا هنا، سيكفي أن ندّكر أن تحديداً للنواة لا يؤثر بالرابط، أكثر منه بالكيفيات، أكان هذا الرابط غير ممكن التحديد أم لا.

أحد عناصر المسألة، الذي لا يدخل في تحديد *Larousse* هو المنزلة النغمية للكلمة، وهذا يمكن أن يستمرّ بفعل أنه يطرح في الفرنسية بطريقة غير دقيقة للغاية. ذلك أننا، نعين في هذا اللسان، تقليدياً، مثلما يظهر النبر مميزاً ختام المركب الذي لا يلتبس بتاتاً مع «الكلمة 1»، أي نعيين هوية موحدة. وبخلاف ذلك، فاستخدام الشروط لوصول ما يمكن أن نسميه شكّات لاحقة^(*)، ختامية

(*) *Enclitique*: أحد نوعي التكيّف وتحديد: صيغة غير متبورة، أو ضعيفة النبر، تعتمد على كلمة تسبقها فتلقظان معاً؛ مثلاً «تا» في «تجنتا» و«توت» في «cannot»، المصدر نفسه، ص 171.

بنواتها، في جملة *dites-le-lui* (قولوها له)، مثلاً، تميل إلى مماثلة «الكلمة النغمية» بـ «الكلمة الكتابية». ولكن إذا تركنا جانباً الحالة الهامشية بعض الشيء للفرنسية، وعملنا بالأحرى بواسطة اللاتينية أدركنا أنه ببضعة متكآت يسيرة، ثمة توافق مؤثر بين المركب المؤلف من النواة المعجمية ومُتَّبَعَاتِهَا النحوية المؤخّرة، من ناحية، والقطعة التي يعمل تكييف موضع النبر داخلها، من جهة ثانية، ف «الكلمات الكتابية» مفصولة عن نصوصنا اللاتينية اليوم، لا تقوم فعلاً سوى بإعادة إنتاج بصري لمعطيات النغمية التي ليست، من جهة أخرى، على نزاع مع تلك العائدة للإعراب الذي يقتضي من علامات الإعراب، كما يدل اسمها عليها، أن تكون في ختام «الكلمة». وليس مصادفةً، على الأرجح، إذا ما وجد مفهوم الكلمة اللاتيني *verbum* والإنجليزي *word*، والألماني *Wort*، نفسه يؤدي معنى في مرحلة معينة من تطور الألسن الهندو - أوروبية للغرب. إن الرجوع إلى المعطيات النبرية سيكون مفضلاً للحفاظ على مصطلح «الكلمة»، إذا لم تكن خائفين من أن يكون الباب، على هذا النحو منفرجاً لإدامة استخدامات سيئة التحديد. ونحرص هنا، في مقابلها، على التحذير، وفي كل الحالات سيكون أقل خطورة استخدام مصطلح وحدة قابلة للنبر للإشارة إلى القطعة من الخطاب التي يمكن تحديد موضع النبر فيها. إن لمن يقدم بوصف اللاتينية بمثلث الخياز في أن يقترح تسمية «كلمة» الوحدة التي تطابق، في هذا اللسان، الوحدة المنبورة والنواة المعجمية المضاحبة بتوابعها النحوية، إذا لم تكن الظروف القديمة في طريقها إلى أن تتحوّل إلى حروف جر، أي إلى روابط نوقفت، بفعل تقديمها، عن أن تكون جزءاً من العناصر المدموجة بالتركيب الاسمي. إن التطبيق الوظيفي، وعلى الأقل ذلك المائد لكتاب النحو الوظيفي للفرنسية، لا يحفظ الكلمة إلا بالرجوع إلى الكلمة الكتابية، في أجزاء الكتاب، حيث نعالج على جدّة الشكل

ويمكننا أن نسميها معقدات *parasyntématiques*، أو مونيمات مركبة
محاذية *parasyntèmes*.

يغطي مصطلح^(*) syntagme «تركيب» في الاستخدام الموسع ما نطلق عليه: المونيمات المركبة. وفي حال وُضعت هذه الأخيرة على حدة، يمكننا تحديد التركيب بأنه المجموعة المؤلفة من نواة ومحدداتها، وعند الاقتضاء، من الرابط الذي يصل هذه المجموعة بباقي القول. الجملة ونواتها الإسنادية هي طبيعياً سلسلة وحدات من دون رابط.

وللوصول أقرب ما يكون إلى ما نطلق عليه تقليدياً الكلمة («كلمة 1»)، استدرجنا لاقتراح مصطلح syllemme سيليم وذلك بالرجوع إلى تركيب ما تتألف محدّداته الوحيدة من كفيات، أي محدّدات لا يمكن تحديدها، فـ سيليم ما سيكون إذا نواة مصحوة بكفياتها، وعند الاقتضاء برابط: ففي التركيب *avec ses très lourdes valises* (مع حقائبه الفائقة الثقل)، نعتبر *avec ses... valises* سيليماً، توافق نواته التي تحل أولاً في الأغلب ما يدهوء التقليد اسماً.

لم نطرح حتى الآن سوى مسألة الهوية التركيبية «للإسم». ويبقى أن نتبصر في مسألة هويته الدلالية. المثل الأعلى سيكون بالطبع في أن تمتلك كل وحدة معنى الشكل نفسه، وأن يكون هذا الشكل متميزاً عن ذلك العائد لكل الوحدات البليغة لذلك اللسان. أما والحالة هذه فنحن نعلم أن هذا الهدف غير ممكن البلوغ كلياً في أي مكان، فنحن نجد حيث كان مجانسات لفظية، أي شكلاً بنفسه

(*) سلسلة من العناصر اللغوية تؤلف وحدة أكبر منها، ولا سيما في النظم، كالكلمات المتتابعة التي تؤلف جملة، لنظر: معجم علم اللغة النظري (إنجليزي - عربي)،
عبد علي الحولي (بيروت: مكتبة لبنان، 1982)، ص 492.

يوافق معاني مختلفة كلياً. ولا يتأثر التواصل اللغوي بهذا إذا لم تظهر المجانسات اللفظية أبداً في السياقات والمواقف عينها تماماً، فلنأخذ المجانسين اللفظيين الفرنسيين *tente* (خيمة) *tante* (عمة/ خالة). بإمكاننا، مع شيء من الخيال، أن نصطنع سياقات حيث لا نعلم أيهما علينا فهمه، ولكن المقصود لن يكون سوى توريات جنسية. تختلف نتائج تعدد الدلالات في أول الأمر عن المجانسات اللفظية. وليس من قبيل الصدف أن تدل كلمة *table* على قطعة الأثاث التي نتحدث حولها لتتناول وجباتنا، تماماً كما على الفهرس (*TABLE des matières*) أو على نحو حسابية (*TABLE de multiplication*) جدول الضرب. ويمكن لكل من يعرف معاني *table* كافة أن يستشف الشروط التي أدت إلى اشتقاق كل هذه الدلالات لنفس القيمة الأصلية وحدها. ولكن كثيراً من مستخدمي اللسان لا يعرفون الشكل سوى في سياقات مثل: (هل حفظت جدولك؟) - *as-tu appris ta table?* (سنجلس إلى الطاولة) *nous allons nous mettre à table*، التي لا يمكن أن نسمح لهم وحدها بإيجاد هذه القيمة. ثمة إذاً مجانسان لفظيان لكلمة *table* بالنسبة إليهم يمكنهم أن يستخدموها طوال حياتهم دون أن يتجهوا للتقريب بينهما.

إن الإبقاء على تعدد الدلالات يُبرز بالأسباب نفيها التي نلتمسها لتفسير إمكانية المجانسة اللفظية: ففي الحالتين، السياقات مختلفة وتدحض كل ليس. وفي حالة تعدد الدلالات، فإن الاستخدام المُغالي فيه بعض الشيء، في أول الأمر، للشكل في سياق معين هو الذي شوه المعنى، ووجود هذا السياق هو الذي يحفظ، وفي النهاية يستجّل الاختلاف الدلالي.

إن الأمر صحيح للدرجة أن علماء التأثيل (الاشتقاق) أنفسهم لا يعرفون، في بعض الحالات، إذا ما كانت بقعة كيانات شكلية تُعزى

للصدقة، مع مساعدة ما نسميه الاجتذات الجنسية، أي أن نطابق تماماً أشكالاً على بعض الاختلاف، في أول الأمر، إحداها نادرة بعض الشيء - أو إذا نتجت عن توسع في تعدد الدلالات. وهذا ما يحدث في الفرنسية لكلمة *fraise* (فريز)، مع أربعة أو خمسة معانٍ مختلفة وعدة اشتقاقية ملتبسة.

وبالطبع، فلسنا مجبرين أبداً على طرح هذه المسألة بواسطة اصطلاحات «الكلمات»، فالمقصود في كل الحالات قيم مختلفة تستند إلى شكل بعينه. ولكن كل الأشكال المذكورة أعلاه، مجانسات لفظية أو دلالات متعددة، هي مونيمات. هل ستكون مونيمات مركبة، مثل *centenaire* بتوتة (الحديث معين)، ومُعْمَر مئة (شخص معين)، يكون موقفها مماثلاً: لن نواجه تراكيب، تشتمل بالإضافة إلى نواحي توابع نحوية، بل وحدات سهلة نحويًا. ولن يكون ثمة سبب لكي نلتزم هنا شيئاً سوى المونيم، الذي يُدرك بالطبع دائماً على أنه يُشرك في اشتغاليته كل المونيمات المركبة التي تدخل الصف نفسه الذي يدخله.

إن اللسانيات الوظيفية لا تحملُ فحسب أيّ جوانب حول مسألة معرفة ما إذا ما كان شكلان متشابهان يؤلفان مونيمًا واحدًا أو مونيمين مختلفين، ولكنها تعلمُ أنه ليس في التزامنية الدقيقة أيّ جواب ممكن. سيكون على كل مُعْجَمِي أن يفصل، مدخلاً التأثيل، لو رغب في ذلك، وفي حال جهوزه، وهو سيجدُّ، حيث الأمرُ ممكنٌ، في ترتيب القيم المختلفة بحيث إن إمكانية، لا بل وتسويغ المرور من الواحدة إلى التالية ستفرضُ نفسها. باديء ذي بدء، ربما سيعرضُ قيمة ليست من تلك التي أثبتت تزامنيًا، فنقل، بالنسبة إلى *table* «مساحة مسطحة»، إذا سمحت لمستخدم المُعْجَم أن يعيدَ إلى الوحدة القيم المتباينة.

ثمة حظوظ كبيرة في أن تكون وجهة النظر التي يعتمد عليها تقنية أكثر منها علمية، ونطرح هذا الأمر مسألة وصف موضوعي على الوجه الأكمل للاستخدامات المعجمية: كيف يتصرف الأشخاص حقيقة في هذا الشأن؟ وحينما نقول «الأشخاص»، لا نفكر ضرورة بالمتعلمين أو العلماء، بل برواة اللغة أنفسهم الذين استخدمناهم لاستنتاج الفونولوجيا والنحو العائدين لاستخداماتهم الخاصة. ونعرف الوقت الذي أنفق كي نقرر أن نعرض في لسان ماء طريقة النطق، أو الأفضل، طرق النطق الحقيقية والمسجلة، بدلاً من الفكرة التي تكونها من المعيار. ومن دون المطالبة بإيضاح معجم للاستخدامات المعجمية الحقيقية لجماعة لغوية ما، أليس بإمكاننا أن نتصور في وصف لهجة حيث ستميز الاستخدامات الحية والتماثلات المجهولة، وشروط استخدام كل وحدة، وما توحى إليه تحديدًا؟ فلنأخذ بالنسبة إلى كلمة *bourreuil* (ذغناش) (*)، مثلاً، التوضيح الذي يمثله المصطلح للشخص المعني، فلنأخذ 1. «2»، 2. «عصفور»، 3. «عصفور من رتبة الجوائم»، 4. «جائم أسود وأحمر ذو قامة تزيد بقليل عن المتوسطة»... إلخ، في فترة أولى، علينا من دون شك، الاكتفاء بتغطية مجال معين، مثلاً، الحيوانات والنباتات. هل هو إفراط في الطلب أن نعلم في دراسة المعجم - حتى ولو أنه يتوقف، حالما يتدخل المعنى، عن أن ينتمي إلى مجال القائم بذاته والمتميز - مبادئ البحث النزيه؟ وحينما نكون على افتناع تام بأن «مترفع» لا تعني بالضرورة «غير مسؤول» وبأن هذا البحث ينبغي أن يتم باسم ملاءمة مختصة وباهتمام ثابت لتحديد دقيق للمصطلحات التي نستخدمها، فستكون قد وجدنا الأسس الحقيقية لأي بحث علمي.

(*) Bourreuil : عصفور من فصيلة الشرشوريات، زاهي الألوان قصر القلار يأكل

التمار والحبوب.

بيلوغرافيا القسم 1.5

لن يكون موضوعنا هنا تقديم بيلوغرافيا تغطي مجموع المسائل المتصلة بـ «الكلمة». ومن وجهة نظر خاصة جداً اعتمدت أعلاه، ولنا مصلحة بموجيها في عدم الاحتفاظ بالمصطلح إلا بالرجوع إلى مواقف محددة جيداً، سنُرجع إلى معالجات للكاتب نفسه حيث نُوقشت بشكل خاص، وأبعدت فكرة أن باستطاعتنا محاولة إقامة توازن بين الفونيم باعتباره مجموع سمات متميزة، والكلمة باعتبارها مجموع سمات معني، بما في ذلك تلك التي تسيها الكيفيات والرابط الاحتمالي:

André Martinet: «Le Mot» *Diogenes*, no. 48 (1965), pp. 39-53, en particulier p. 47, et *Syntaxe générale*, collection U (Paris: A. Colin, 1985), parags. 3.44 à 3.61, notamment 3.53 et 3.54.

2.5 - حول السيليم⁽⁴⁾

يكتفي كثير من اللسانيين، ومن بينهم أيضاً أولئك الذين شاركوا في المؤسسة البنيوية، يكتفون بطيبة خاطرٍ بالتقريبات في المادة المصطلحية، ونجدُ غالباً، حتى الآن، في كتاباتهم مصطلحات مثل «مورفيمي نحوي»، التي تشهد برغبتهم في الابتعاد قليلاً عن تقليدٍ كان يميز بين المورفولوجيا والنحو، كما تشهد أيضاً بتراجع أمام الجهد الذي تطلبه إعادة تحديد للمصطلحات.

هذا التراجع مشواتر خصوصاً حينما تكون «الكلمة» هي المقصودة. ليس ثمة لساني، من ضمن أولئك الذين خضعوا بضعة آراء للمسائل العامة، لا يمي الصعوبات التي تقوم لدى مطابقة تحديد

(4) نُشر في: «Autour du syllème» *Revue roumaine de linguistique*, tome

XXV, no. 5 (1980); *Hommage à A. Rosetti*, pp. 551-554.

دقيق لهذا المصطلح مع مختلف استخداماته في المحكية اليومية وفي التطبيق المدرسي. وفي هذه الأثناء، نسجل، لدى الكل تقريباً، تعلقاً بـ «الكلمة»، لا بل ميولاً للدفاع عنها في وجه أولئك الذين أبلغوا عن أضرارها⁽⁵⁾.

وما يفسر هذا التعلق هو، علاوة على الرغبة الطبيعية جداً في معاودة اتهام الكل، من دون توقف، أن كثيرين لا يرون بما سيستبدلون هذا المفهوم، وقد اشتغل البنيويون عموماً بواسطة «المورفيم» الذي اعتُبر تقريباً بمثابة الرمز الأدنى. ولكنهم لم ينفقوا قط حول الطريقة التي ينبغي بواسطتها تحديد المورفيم. كان المصطلح نفسه يقترح هوية شكلية، أو على الأقل مشابهة، حتى إننا كنا نتردد أو نرفض أن نطابقها على أنها المورفيم نفسه، الـ /-en/ في oxen والـ /-es/ في brushes. وقد أسهمت استحالة الاتفاق حول هذه المسألة بكل تأكيد في إفقاد الاعتبار في عرف الكثيرين، لأي محاولة لتحليل القول إلى مكوناته النهائية الذاتة.

إن الاعتقاد الراسخ بأن علينا أن لا نصغي بمكتسبات الأبحاث البنيوية في هذا المجال هو الذي دفعني إلى عرض رواية جديدة للعلامة الدنيا المطابقة على قاعدة مدلولها ودون اعتبار لبدايل دالة، تحت مصطلح «مونيم»: فـ brushes و oxen نشتملان كليهما، على مونيم جمع بنفسه، يوافق هنا وهناك قطعة مميزة: -es و -en، ولكنه

(5) قمت بهذه المهمة من جهتي مع شيء من التمثل في: «Le mot», Diogène, vol. 48, pp. 39-53.

كما فعلت الأمر نفسه، بشركيز، في: *Éléments de linguistique générale* (Paris: Armand Colin, 1960), pp. 4 - 15 à 17.

يبد أن رذات الفعل على هذه الكتابات تدفعني إلى التفكير في أننا إذا كنا نرغب في أن نكفر طمأنينة المحافظين، فمن الأجلى أن نبلو قاطعين.

مؤكد أيضاً في المزيجين الشكليين *children* و *men*، حيث تقطع المتعبّل صعباً أو متحليلاً.

رغباً في تحديد موقعي تجاه تقليد مصطلحيّ قرنيّ أسندت إليه - خطأً - حيوية ما، اعتقدت في الطبقات الأولى لكتابي مبادئ لسانية عامة أنه من الجيد أن احتفظ بـ «مورفيم» للدلالة على الوحدات النحوية الدنيا. وقد منعتني هذا الأمر من أن أوضح جيداً الاختلافات بين المونيم، مُحدّد من جديد من قبلي، وبين «المورفيم» العائد للممارسات ما قبل البلومفيلدية، وأمكن لقراي الاعتقاد بأن اختياري «مونيم» يعكس رغبة في الابتعاد والتميز عن زملائي عن طريق ابتكار محض شكليّ. وكان من المستحسن أيضاً الإشارة إلى أنني استعرت المصطلح من استخدام هنري فراي (Henri Frei) دون أن أحفظ له القيمة التي أضفها عليه المعلم الجيني (6) (genevois).

حينما نشغل بواسطة المونيم كما فعلنا في كتاب النحو الوظيفي للفرنسية، لا حاجة البتة للرجوع أبداً إلى «الكلمة»، إلا عندما نكون مرجعاً للشكل الكتابي للأقوال التي تتحدّد فيها «كلمة» على أنها القطعة الموجودة بين يياضين، وبين يياض وفاصلة غلياً، أو بالعكس.

نجد بين المونيم والجملة وحدتين: ياهي ذي بدء المونيم المركّب⁽⁷⁾ (*Syntheme*)، الذي هو انشلاف بين مونيمين أو أكثر،

(6) كل هذا أدرج في كتاب *La Grammaire fonctionnelle du français*, par André Martinet et son équipe (Paris: Didier - Élatier, 1979), parags. 1 - 5 à 7, et dans l'édition des *Éléments*, 1980, ainsi que dans les versions islandaises et turques du même ouvrage.

(7) حول المونيم المركّب والمونيمية المركبة انظر القسم الرابع من: *Grammaire fonctionnelle du français*, rédigée par Jeanne Martinet.

منكشفين بواسطة الاستبدال، يمتلك تماماً السلوك عينه والخيارات النحوية ذاتها التي تعود لمونيمات من صنف معين. المقصود إذاً ما يشير إليه التقليد على أنه مشتقات (مثل صاحب دكان *boutiquier*)، أو مركبات (مثلاً *autoroute*: طريق سيار، *sac à main* حقيبة يد، *peinture à l'huiles* رسم بالزيت)، أو قوليات (مثلاً *avoir l'air* بدا، *fuir en queue de poisson* انتهى بشكل يرنى له).

أما الوحدة الثانية فهي التركيب *Synthème*⁽⁸⁾ (V) التي عنمتها تعاليم سوسير، والتي لم تحدّد قط من قبله، ولم تُميز، في كتابه دروس في اللسانيات العامة، عن المونيم المركّب. سيتفق الكل على رؤية تركيب في قطعة القول حيث العناصر كافة منحدّة بدقة بعضها مع بعض أكثر مما هي عليه مع العناصر الأخرى لهذه القطعة. سنقرّح تحديداً أكثر دقة يتألف بموجبه تركيب ما من مونيم مركزي (أو عدة مونيمات مركزية نسبية)، ومن تحدييدات مختلفة للمعنصر المركزي، وعند الاقتضاء، من مونيمات وظيفية تُسمّ علاقات المعقّد المتشكّل على هذا النحو مع بقية القول، ففي جملة مثل (وصل عامل الفندق مع حقيبتين ثقيلتين للغاية) *le garçon de l'hôtel arrivait avec deux lourdes valises* يمكننا استخراج التراكيب التالية: العامل (النواة عامل)، الفندق (النواة فندق)، عامل الفندق (النواة عامل)، هو وصل *arrivait* (النواة *arriv*) مع حقيبتين (النواة حقية - المنصر الوظيفي⁽⁹⁾ مع)، ثقيلة للغاية (النواة ثقيلة -)، مع حقيبتين

(8) المصدر نفسه، الفقرات 1 - 31 و 32.

(9) - عنصر وظيفي (*Fonctionnel*): مصطلح نسائي جديد، وقد ارتأيت أن أعرض مختلف تحديلاته الواردة في أربعة معاليم متخصصة.

- كلمة وظيفية: كلمة دورها الرئيسي نحوي لا دلالي، ويطلق هذا المصطلح على الأعمال المساعدة، حروف الجر، أدوات العطف، الكلمات الوصولة، أدوات الاستفهام، =

ثقيتين للغاية، وبالطبع، الجملة بأكملها مع النواة *arriv*، أي ثمانية تراكيب.

وانطلاقاً من المفاهيم الثلاثة العائدة لمونيم، مونيم مركّب وتركيب، بإمكاننا أن نسعى إلى الإحاطة بما يغطيه مصطلح «كلمة» في التطبيق.

فكثير من المونيمات المركّبة هي «كلمات»، أو على الأقل، أجزاء غير معربة من «كلمات»، أكان المقصود اشتقاقاً أو مركّبات. ولكن من المتواتر أن العادات والتقنيات الكتابية التي أظهرت بياضات أو فواصل عليا وسط المونيمات المركّبة *pomme de terre* (بطاطا)، *peinture à l'huile* (رسم بالزيت)، تتقابل في أذهان المستخدمين مع مماثلة المعقّدات موضوع الخلاف مثل «كلمات مركّبة». ومن جهة أخرى، من سيقبل بالاعتراف بكلمة واحدة في القولية التالية *finir en queue de poisson* انتهى بشكل يُرثى له؟ فلا عراب فعل انتهى في جملة (هو قد انتهى بشكل يُرثى له)، الذي يحافظ بين ظهرائي المعقّد، على منطقة بدائل شكلية، سيكفي لإقصاء أي محاولة في هذا

■ أدوات التعريف والتذكير، وظروف الدرجة (مجموع علم اللغة النظري، 101).

كلمة وظيفية: لا تحمل معنى خاصاً بها - خلافاً للكلمة للمجمية (*Mot lexical*)، بل تنحصر على التعبير عن العلاقات النحوية للكلمات الأخرى؛ مثلاً: إلى، حل، أن... وقد أشار النحاة العرب في حدّ الحرف إلى شيء من هذا بقولهم إن الحرف ما كان معناه في غيره (مجموع المصطلحات اللغوية، 263).

• المونيمات الوظيفية: هي المونيمات التي تشير إلى وضع علاقات نحوية بين التراكيب التي تؤلف جملة (حروف الجر)، أو بين الجمل (أدوات عطف)، أو تلك التي تبين حدود التراكيب التي تحلّها أدوات تعريف (*Dictionnaire de linguistique, Larousse, p. 219*).

• المونيم الوظيفي: هو مونيم يلعب دوراً في رسم الوظيفة النحوية لمونيمات أخرى. في العبارة *Elle part en voyage*: يبيّن المونيم *en* وظيفة الوحدة *voyage* بالنسبة إلى الوحدة *Part*. انظر: *Part*.

Dictionary de la linguistique, G. Mounin, p. 144.

الخصوص، فحالة *bonshommes-bonhomme* (طيب القلب - طيبو القلب)، ذات التغير الداخلي، هي معزولة جداً كي تخلق سابقة مقبولة، فلتذكر أنه، وفق القاعدة، فمجلة *Monsieur Jean Durand* وجملة *le carnaval de Nice* هما مونيمان مركبان، وسندرك استحالة أن نرى في كل هذه المونيمات المركبة، كلمات أو أسساً لكلمات من دون إعرابها.

ومع التركيب *Syntagme*، نقترّب بعض الشيء من الهدف: فمن المؤكد جداً، وحالاً، أن كل الوحدات المركبة ليست «كلمات»، لأن الجملة هي تركيب. ولكن أليس بمقدورنا أن نرى في «الكلمة» شيئاً ما مثل التركيب الأدنى الذي يتألف من نواة قابلة تكون هذه الأخيرة قابلة للتحديد، وعند الاقتضاء من مونيم وظيفي للوصل ببقية العبارة؟ هذه المونيمات غير القابلة للتحديد هي ما نسميه في اللسانيات الوظيفية صيغاً. ونعتبر شكلاً لاتينياً، مثل *rosarium* مثلاً، جيداً لفونيم مركب أدنى: فحول نواة الدال *rose* نجد صيغة الـ «جمع»، وعنصراً وظيفياً هو «حالة الإضافة». وبغية تسهيل النقاش، بدا لي مفيداً أن أبتكر تسمية أقل لياً من «تركيب أدنى». اقترح إذا تسميته سيليم *syllenne* (من اليونانية *sulhuma*، من *ma-*، بالإضافة إلى جنر *lamban* «أخذ»، زائد اللاحقة *ma-*، *maros*).

تنطابق كثير من السلييمات، بشكل مشاغ، مع ما يمثله التقليد على أنه كلمات (بالمعنى التركيبي للمصطلح، والذي يُعتبر *rosarium* كلمة مغايرة لـ *rosas*، في حين أن *rosas* تمثل *rosarium*، على الصعيد الجدولي كلمة واحدة). وللأسف، فالحاجة لا تكون دائماً على هذا المنوال. وحتى في اللاتينية، اللسان الذي يعود إليه

فضلُ متصوّر «كلمة»⁽⁹⁾، فلا يمكننا، في *in rosace*، أن نقصي العنصرَ الوظيفي *in* من السيليم. ولكن ماذا نقول في حالة ألسنتنا المعاصرة حيث تسبق غالباً المحذات غير القابلة للتحديد (صيفتنا) الأسماء، وتكتبُ إذاً بشكل طبيعي على حدة، تماماً مثل حروف الجر. وفي الفرنسية، فالعصافير *les oiseaux [le zwazo]* هي سيليم مع صيغتين، «معرف» و«جمع» اللتين نسمعهما قبل الاسم النواة، واللّتين تجمعان في الكتابة بشكل *les*، وهما مفصولتان غالباً عن محذّهما بواسطة فاصلة عليا ما.

وما نستخلصه في الأغلب هو أن الصيغ والعنصر الوظيفي حينما تتبع نواتها في العبارة (حالة *rosarium*)، فإن التقليد يجمعها بنواتها في كلمة واحدة، ويعود السبب في ذلك إلى أننا لا نستطيع، في هذه الحالة، أن ندرج شيئاً بين النواة ومُتبعاتها، في حين إذا سبقت التحديدات والعنصر الوظيفي النواة، فالإدراجات ممكنة طبيعياً، الأمر الذي لا بحث أبداً على رفع القلم.

والمسبب في اختلاف السلوك هذا واضح، وغالباً ما تم عرضه⁽¹⁰⁾: حينما نلتفت بوضوح مونيماً معجماً بمدى معين، ثقة حظوظ في أن يساعد السياق والواقع السامع على مطابقة المونيم، حينما نصل إلى ثلثي داله. ومصطلح مثل معجم *dictionnaire* الفرنسي هو فضلة بعض الشيء كي نطابقه من دون خوف من الوقوع في الخطأ حالما نطلق الفونيمات (/diksiɔ/) الستة الأولى. أما والحالة هذه، فالتكلمون سيميلون بشكل لاواعٍ للمحافظة على نطق العناصر

(9) إن وجود التصوّر والشكل الموافق نفسه في اللاتينية (*verbum*) وفي الجرمانية (*engl. word, all. Wort*) هو واحد من السمات التي تقترح لا تحيزية، في تاريخ سابق، للإيطالية الساجدة وللجرمانية السابقة كليهما.

(10) بما في ذلك، «le mot»، انظر الهامش 1 من هذا الفصل.

البديئية وإهمال الختام قليلاً، ونعرف تواتر التحييدات العائدة للتضادات الفونولوجية في هذا الموضع الأخير. أما والحالة هذه، فإن مونيمين ثابتي التماس سيخضعان، بمرور الزمن، لمماثلات تغير كيانهما الشكلي: ويمتلك /... i + k .../ بعض الحفظ ليتحولاً إلى /... e + g .../ وإلى /... i + a .../، ويمكن أن تتحول إلى /... e .../ إلخ. وإذا كان علينا أن نبقى على الكيان الشكلي لمونيمين متتابعين، فسيكون من الجيد أن ندرج بينهما، عندما تحين لنا الفرصة، مونيماً ما مضافاً، وصفةً، ظرفاً أو سوى ذلك. وهذا ما يقوم بين الصيغ والعناصر الوظيفية التوابع وبين نواتها، ولكنه لا يقوم حينما تكون مؤخرة، لأنه من الطبيعي أن تكون أشد قرباً من هذه النواة التي تحددها.

ومحسلة هذا كله هو أن السليمانات المؤخرة صيغها وعناصرها الوظيفية تمتلك حظوظاً أكثر بكثير لتشكيل كل، مع نواتها، لا شيء يمكن أن يُدرج فيه. ويؤدي هذا إلى ما نطلق عليه «كلمة»، وما ندونه دون أن نرفع القلم في الكتابة الأبجدية: فمقابل ما نجده في الفرنسية: (الأنف، والأنف الكبير) *le nez*, *le gros nez*، وفي الإنجليزية: *the nose*, *the big nose*، نجد في الرومانية: *nasul*، وفي الدانماركية: *nasen*.

سيبدو لنا إذاً أن باستطاعتنا استمادة مفهوم «كلمة»، في اللسانيات العامة، بتحديدنا إياها على أنها سليمة ذو توابع (Satellites) نحوية مؤخرة. ولكن بمقدورنا أن نكون واثقين من الوقوع، من هنا وهناك، على مواقف تدفعنا الممارسة فيها إلى الكلام عن «كلمة» في المواضع التي لا ينطبق فيها تعريفنا. نفكر فوراً بالبادئة الصرفية الهندو-أوروبية، والمحتمل أن تكون ظرفاً في أول الأمر، ولكنها بالتأكيد صيغة في اليونانية الكلاسيكية، أي محدّد غير قابل للتحديد عائد للنواة الفعلية، تابع لنواته، وقابل للفصل بالتأكيد

يتأريخ قديم للغاية، ولكنها في النصوص مربوطة حسب الأصول بالمونيم أو بالمونيم المركب الفعلي^(*).

حالة أخرى متعذرة التبسيط هي تلك العائدة للفعل الباسكي، حيث تعتبر *da-*، المتواجدة في شكل مثل *dakar* (أنا أحملة)، صيغة ضميرية تابعة لجذر الكلمة *-kar-*، ولا تنفصل عنه. وقد مضى زمن سعى فيه بعض اللسانيين إلى معالجة تركيب فعلي فرنسي مثل (أعطيتهم إياه) *je le leur donne (allusion)* على أنه «كلمة واحدة».

يمكننا، ضمن هذه الشروط، أن نساءل إذا ما كان مرغوباً حقاً أن نحاول استعادة «الكلمة»، وحتى أن نحمل المصطلحية اللسانية عنصراً جديداً، هو السيليم، الذي أظهرت سابقته في كتاب النحو الوظيفي للفرنسية أن باستطاعتنا أن نعفي أنفسنا، كما نرغب، لدى معالجة الشكل المنطوق للألسن، وأن نعفي أنفسنا من متصوّر «الكلمة». من جهتي، سأسعى إلى استبقائه، بصورة تربوية، حتى لو لم يُستخدم في تقديم الألسن، وتُظهر التجربة، كل يوم، أن ما ليس بمقدوره سوى تعقيد البحث في حالة بضع بنى لغوية، يمكنه أن يصبح مصدراً للوضوح، في بنى أخرى، وبالتأكيد، فثمة ظروفٌ يستفيد منها النموذجُ الشخصي بالتركيب، الذي سبّته سيليماً، في أن يطابق ويُفرد، وعلى كلِّ مَثَلٍ أن يرى ما ينبغي أن يفعل به.

3.5 - المونيمية المركبة⁽¹⁾

ليس في الاستخدام الدولي مصطلح معترف به عمومياً للدلالة

(*) نسبة للفعل.

(1) نعت محاضرة أقيمت في أنقرة (جمعية اللسان التركي) في 10 تشرين الأول/أكتوبر، ونشرت مع ملخص بالتركية في : «*et la syntactique, Dithyrambe*, vol. VI (1981), Istanbul, pp. 84 - 98.

على ابتكار معجمي ناتج عن ائتلاف عدة وحدات معنوية. هذا المصطلح الذي سيوافق *Wortbildung* في الألمانية، سيغطي القولية (الفرنسية *jeune fille* الموازية لـ *jeune fille* الإنجليزية) تماماً كما تركيب الكلمات والاشتقاق. وقد اقترحت، لهذا المتصور، مصطلح «المونيمية المركبة»، المشتق بدوره من المونيم المركب الذي يدل على كل نتاج للنشاط المونيمي المركب. وفي *synthème* لدينا *syn-* كما في *syntagme*، مع القيمة العائدة لـ *avec* (مع)، واللاحقة *-me* التي تصبح *-mat*، كأساس للاشتقاق، وتدلّ على نشاط ما، وفي الوسط النواة *-thé-* (وضع) *mettre*. المونيم المركب هو إذاً نتاج لوضع عدة مونيمات معاً. وهو يفترض ائتلافاً أشدّ خصوصية للعناصر موضوع الخلاف في التركيب الذي تتضمن النواة *-tug-* فيه ترتيب الوحدات المحافظة على كيانها.

يستسلم المونيم المركب بسهولة كاملة كي يتحدّد مثل علامة لغوية يظهرها الاستبدال كمركب من اثنين أو أكثر من العناصر الذاتية المتميزة، ولكنه يمتلك تماماً التساوقات نفسها العائدة لبضعة رموز دنيا للسان، فالعلامة المعقدة (بزال) *tire - bouchon*، حيث يمكن استبدال *botte* بـ *bouchon* كي تعطي *tire - botte* (ساجبة الجرموق)، هي مركب من عنصرين لا يمكن تحديدهما دلاليّاً. ولكن المونيم المركب يحافظ، في العبارة، على العلاقات نفسها مع الأصناف المختلفة للوحدات الذاتية مثل العلامة غير القابلة للتحليل *bouchon*: ويمكن أن نحدّد بواسطة أدوات التعريف (*un tire - bouchon* مثل *un bouchon*) وكذلك بواسطة الجمع (*les tire - bouchons* مثل *les bouchons*) وبواسطة صفة ذات وظيفة نعتية (*un grand tire - bouchon* مثل *un grand bouchon*)، كما يمكنه أن يدخل في علاقات مختلفة نحويّاً مع فعل ما (*j'ai acheté un tire - bouchon*)، مثل (*j'ai acheté un bouchon*)... إلخ.

علينا أن نلج على أننا حينما نتحدث عن التساوقات ذاتها، فنحن نتحدث عن العلاقات من صنف إلى آخر وليس عن العلاقات بين الوحدات الفردية: فعادة *bouchon* ستكون غالباً محدّدة ومعينة بواسطة فلين *liège*، الأمر الذي لا يقبل الإدراك البتة في حالة *tire - bouchon*، فلنلاحظ أن *tire - bouchon de liège* ستكون صحيحة نحويّاً، على الرغم من أنها تُدرك بصعوبة كحقيقة ممكنة الإدراك. وما يكتسب أهمية في المونيمية المركّبة، كما في النحو، يكمن مثلاً لدى *bouchon* و *tire bouchon*، في حرية التصرف نفسها، أي في تلقي تحديد اسمي ممّهد بحرف الجرّ *tire bouchon de fer* مثل *bouchon de liège*، أو تحديد نعتي: (قديم) *vieux*، (جيد) *bon*، (سيئ) *mauvais*.

ومن جهة أخرى، فالطريقة التي تُظهر محدّات المونيم والمونيم المركّب، شكليّاً، في الكتابة أو في المشافهة، ليس لها هنا أي ملاءمة: فالجمع الذي يحدّد مونيم (ورق) *papier* يسيّب إضافة /-s/ إلى الشكل الكتابي لهذا المونيم *papiers*، في حين أن المونيم المركّب (مقطع ورق) *coupe - papier* لو تحدّد، فلن يؤثر إلا بكتابة الأداة المصاحبة *le coupe - papier*. ولكننا نملك في الحالتين البنية النحوية نفسها: تحديد لاسم ما بواسطة صيغة عددية. وهذه أيضاً البنية النحوية التي نفعّ عليها، مثلاً في (طبيو القلب) *les honhommes*، حيث تُدرج سمة شبيهة للجمع بين *bon-* و *home-* على الرغم من أن المجموعة تُكتب بشحطة قلم واحدة، ولا تتأثّر الوحدة السيمبائية *bonhomme* بذلك. والأمر نفّ في *les sucs à main*، حيث تُدخل الكتابة -s- غير ملفوظة في ما هو مركّب، في مستوى الانجليزية *handbag* نفسه، أو الألمانية *Handtasche*. وعبر هذه الأمثلة نرى أن الوحدة اللغوية للمونيم المركّب لا تتأثّر بإدراج عنصر غريب في المشافهة أو في الكتابة داخل المعقد. ثمة إذاً مونيمات مركّبة ذوات دالّ مقطع.

ما انتهينا من قوله يصدد موضوع علاقة المونيم المركب بالجمع، يتضمن بالطبع أن نقض النظر هنا كلياً عن مفهوم الكلمة المصنوعة كجزء من النص مفصول عن البقية بواسطة بياضين مطبوعين بسلوك منبسط ومختص. وتحليلنا هو نفسه بالنسبة إلى الفرنسية *le nez*، حيث الأداة والاسم قابلان للفصل *le grand nez*، وكذلك بالنسبة إلى الرومانية *nasus*، التي تحمل المعنى نفسه، حيث الأداة والاسم هما شكلياً غير قابلين للفصل. وما إن تصدى لمعاني وحدات المعنى في العبارة، فالتساوقات المتبادلة للأصناف التي تنتمي إليها هي وحدها التي ينبغي أن تلفت انتباهنا، أي قابلية مونيمات كل صنف لأن تتحدد بالتبادل. والطريقة التي تألف فيها مادياً، مؤثرة في شكل مجاورتها في السلسلة، ينبغي أن تُعزل في فصل مختص معروف بأنه هامشي جداً عندما يكون قصدنا أن نرى كيف يسمح اللسان بتحليل تجريبية كل ما كي يسعى إلى نقلها إلى الآخرين. هذا الفصل الذي نعالج فيه الضغوطات الشكلية التي تساوي بالنسبة إلينا التناوبات، والتساوقات والمزيجات، هو ما كان النحاة الأوائل قد دعوه دراسة الأشكال أو علم الصرف. وإذا احتفظنا، كما هو اقترح، بهذا المصطلح لهذه الغاية، تيقنا أن الصرف يعالج نقاطاً يفرض فيها التقليد اللغوي للجماعة على المتكلمين الشبان استخدام أشكال مختلفة للقيمة المعنوية ذاتها.

ومن الطبيعي ألا ينتهي التلقين اللغوي إلا حينما يصبح الولد معشداً على كل الشواذات التي تفرضها عليه، وكلنا يعلم أن المادة طبيعية ثانية. هذه الشواذات - منها في الفرنسية، *il ira - nous allons* - *il va* - ليس لديها أبداً في أول الأمر، في هذا اللسان، المقدار نفسه من معوقات نقل التجربة لغوياً.

ينبغي أن يكون واضحاً أن ما يهتم المونيمية المركبة هو تشكيل ما نسميه تقليدياً جذوراً جديدة. إن تصنيف هذه الجذور المعقدة في

عداد الجذور الموجودة سابقاً، البسيطة إن كانت مونيمات، والمعقدة إن كانت مونيمات مركبة، يحدث طبيعياً بالرجوع إلى تساوقاتها، أي إلى أصناف المونيمات التي تقيم معها علاقات محددة، ومن ضمن هذه الأصناف، ثمة أصناف المونيمات النحوية. ولو دخل واحد من جذورنا، في الفرنسية، في علاقة تحديد مع صنف مونيمات العدد، أو ذلك الذي يشتمل على الأدوات، فسنصنّفه بين الأسماء. وإذا كان قابلاً لأن يتحدّد بين المونيمات العائدة لأصناف الأزمنة، أو الهيئة، أو الصيغة، فسنصنّفه في عداد الأفعال. ولكن الرجوع إلى العناصر التي يمكنه أن يأتلف معها لا يعني أن هذه العناصر تشكل جزءاً من المونيم المركب، فلنأخذ المونيم الفرنسي (افتح) *ouvre /uvr/*. نرى فيه تقليدياً الشكل الأكثر بساطة لكلمة ما يمكن أن تؤمن أشكالاً أخرى، مثل *ouvrans /uvrɑ̃/*، *ouvrions /uvrijɔ̃/*، *ouvrir /uvris/*، *ouvrissent /uvrisɛ̃sɛ̃/*... إلخ. وبالنسبة إلينا، نحن الذين لا نشغل في النحو، بواسطة مفهوم الكلمة، فإن هذه الأشكال الأخيرة هي اختلافات مونيمات، فصيغة *ouvrions*، مثلاً، تؤلف بين المونيم */uvr/* من صنف الأفعال، وبين مونيم صيغة الاستمرار (الذي يتخذ هنا الشكل */vʁ/*) من صنف الأزمنة، ومونيم شخص المشكلم */du(z)...*، ذي الدال المتقطع، من صنف الضمائر الشخصية. يدخل المونيم *ouvre /uvr/* في المونيم المركب *entrouvre /ɑ̃truvr/* الذي سيكون بمقدوره الائتلاف تحديداً مع الأصناف عينها لمونيمات الأزمنة، والصيغ، والأشخاص، تماماً كما مع المونيم *ouvre*. بالنسبة إلينا، ليس ثمة كلمة *ouvrir* قابلة، بائتلافها مع حركات إعرابها، لأن تتخذ أشكالاً مختلفة، ولكن تجاه المونيم *ouvre*، ثمة عددٌ من التراكيب مثل *ouvrans*، *ouvrions*، *ouvrise*... إلخ.

تصنّف المونيمات المسماة بالنحوية، على الأغلب، بأنها محدّدات غير قابلة للتحديد: وفي قطعة العبارة الشجرة الكبيرة *le*

grand arbre يتلقى الاسم شجرة محققين، أو عنصرين يحددان بدقة القيمة التي يمتلكها بالنظر إلى ذلك. إنهما أداة التعريف *le* والصفة *grand* - هاتين المكونتين: أداة الاختلاف، والحفاظ - فالصفة *grand* قابلة للتحديد: (أكبر) *plus grand*، (كبير جداً) *très grand*، ولكن أداة التعريف *le* غير قابلة للتحديد. ونعني بالكيفيات المحددات غير القابلة للتحديد. ونشير إلى أنه من بين محدّدات الفعل توجد ضمائر الأشخاص التي ليست كيفيات، لأنها قابلة للتحديد: نحن، مواطني هذا البلد، نصرح بما يلي *Nous, citoyens de ce pays, déclarons* *que...*

ولا يهم كثيراً، بالنسبة إلى تفسير قيم العبارة، أن تظهر الكيفية في الكتابة مثل «كلمة» متميزة ومنفصلة عن بقية العبارة بواسطة بياضات أو فاصلة عليا (مثلاً أداة التعريف *le* العائدة لـ *le chemin*، أو ' العائدة لـ *l'animal*)، أو أن تشكل مع محدّدها مركباً كتابياً واحداً، مثل الأداة المؤخّرة الدائماركية *border* «الطاولة»، أو جمع طاولات في الإنجليزي *tables*. وفي الحقيقة، فهذه السمات الكتابية تتضمن، في الأغلب، في العبارة الشفهية أو الكتابية، القابلية للفصل أو اللاقابلية للفصل إلى العناصر موضوع الخلاف: يمكننا أن نقول: (الطريق الطويل، الحيوان الجميل) *le long chemin*، *le bel animal*، ولكننا لا يمكن أن ندرج شيئاً بين *table* وبين *-s*. ولو أردنا العمل بواسطة مفهوم «الكلمة» لأثبتنا بين *le nez* ونظيرها الروماني *nasul*، وبين *la table* ونظيرها الدائماركي *border*، اختلافاً جوهرياً يخفي الكيان الوظيفي الأساسي للمعقدات موضوع الكلام.

إن الاختلاف، وهو ذو أهمية، بين المونيم أو المونيم المركب من جهة، وبين «الكلمة» البسيطة، والمركبة أو المشتقة، من جهة أخرى، هو أن هذه الأخيرة تضمّ محدّداتها التحوية عموماً، بشرط

أن تتبعها: ففعل *ouvraient* مع محدّداته المؤخّرة يشكّل كلمة من العبارة، ولكن *les coupe - papier* مع محدّداتها التوابع تشكّل كلمتين منها، ويتّسم محدّد ما نفسه (*nous... ons*) إلى *nous* التي هي كلمة، و*ons*، وهي جزء من الكلمة. أما بالنسبة إلى الفونيم المركّب، فهو مضموع بغض النظر عن محدّداته المؤخّرة تماماً كما عن التوابع. ويصلح هذا بالطبع بالنسبة إلى المونيم. أكان المقصود إذاً شكلين فرنسيين: *il déposait*، *il posait*، أم مثيليهما اللاتينيين *ponebat* أو *deponebat*، فلدينا مونيم */ponel/* و */poz/*، ولدينا مونيم مركّب */depone/* و */depoz/*، ولدينا مونيم (صيغة) الاستمرار */ba/* و */ε/* وضمير الغائب */ā/* و */t/*. هذا الضمير هو «كلمة» بالفرنسية المحكية، و«علامة إعراب» باللاتينية، ولكن هذا الأمر لا يرتدي كبراً أهمية في تحليلنا التزامني الذي لا يسعى إلى عزل القطعات بل القيم المؤلفة لهذه العبارة.

إن التحليل إلى مونيمات ومونيمات مرّتبة يغضّ إذاً النظر عن التعقيدات الشكلية. ويتضمّن هذا أننا لا يمكن، في حالات عديدة، أن نطابق فونيماً بالرجوع إلى شكله الصوتي أو الكتابي: فالمونيم العائد لصيغة الاستمرارية الفرنسية يظهر إما مثل */ε/* في (*il était*) (هو كان)، أو مثل *[ā]* في (*nous étions*) (كنا)، ويمكن لصيغة المضارع المنصوب، في اللسان نقي، ألا تظهر، كما في *il chante* هو غنّى، أي اكتساب الشكل *[ā]* (في *nous chantions* نحن غنّا) الذي يلتبس مع ذلك العائد لصيغة الاستمرارية، أو بشكل قاطع أكثر، أن يُعرف من جزء شكل مختصّ بـ «الجذر» الفعلي (*il fasse*). علينا إذاً أن لا نتردّد في تسميته «مضارعاً منصوباً»، أي بالرجوع إلى مدلوله، في حين أن لنا كلّ الفائدة في استخدام الدالّ، بشكله الشفاهي أو الكتابي، حينما نعالج مونيمات مثل *château*، *avec* أو *chante*، التي نطابقها هكذا ومن دون عوائق.

علينا أن نفهم جيداً أنه إذا كانت الضرورة تقتضي أن نميز بين المونيم *œuvre* والمونيم المركب *entrauvre*، فذلك لأن العملية الأساسية، وهي الاستبدال، تكشف وحدانية الأول وثنائية الثاني. فإن المونيم والمونيم المركب لا يتضادان بالضرورة. وخلال تقدم الاتصال اللغوي، من المتواتر أن لا يقوم المتكلم والسماع بتحليل العناصر المتابعة للعبارة: قد (أحضر لي خفي)، *Apportez - moi mes pantouffles*، المكررة كل الأسميات وخلال ثلاثين عاماً، لا نفترض البتة شيئاً من هذا القبيل. وبالأولى حينما يكون المقصود مونيماً مركباً يوافق، بشكل طبيعي، عنصراً وحيداً في التجربة. وعندما نتحدث عن (هاتف) *téléphone* ليس لدينا في ذهننا *magnétophone* و *télévision* اللذان يتطلبان من اللساني التحليل إلى *phone* و *élé*. ولكن هذا لا يعني أن مستخدماً، على شيء من الجرأة وتحت ضغط الاحتياجات، لا يمكنه أن يستخدم هذه العناصر كي يشكل مونيمات مركبة جديدة. من الضروري إذاً أن نميز بين مونيم مركب ومونيم إذا رغبتا في أن نعرض اشتغالية اللسان. ولكن ثمة حالات عديدة لا يمكننا فيها أن نبدي رأينا. ويدل مونيم مركب شكلياً حديثاً، مثل تكوين صدر كلمة *siglaison*، أي ابتكار رموز، مثلاً للشركة الوطنية للسكك الحديدية (SNCF) أو المجلس الوطني للبحوث العلمية (CNRS) يدل على أن اللاحقة *-aison* هي متجفة. ولكن إذا كان تحليل (غوم) *floraison* لا صموية فيه، فتحليل (إزهار) *floraison*، على الرغم من أنه مدعوم من (زهري) *floral* تجاه (زهرة) *fleur*، هو أقل وضوحاً، وتحليل (حصاد الكلال) *feruison* تجاه (علف) *foin* لا يفرض نفسه إلا على علماء الاشتقاق. ولم نتردد في عرض (سندانة) *bouchon*، أعلاه، كمونيم، ولكن في حال تقريبه من (ممسحة) *torchon*، ألا يمكن أن نرى فيه مونيماً مركباً مؤلفاً من لاحقة *-on* بمعنى «غرض يصلح له» ومن جنر كلمة *boucher*، كما سنجد *torchon* في *torchon*؟ وألا

يمكن لتحليل مماثل أن يكون سوى فعل لساني دون أن يلامس أبداً
وعي المتكلمين العاديين؟

علينا أن ندعنا لهذه الشكوك التي توافق تماماً شروط استخدام
اللسان من قبل المتكلمين. ويبدو مفيداً أن يتوقف لنا مصطلح للإشارة
إلى قطعة من العبارة، نمتنع عن تقرير إذا ما كان المقصود منها
مونيماً أو مونيماً مركباً. مع ذلك فلا يبدو أن مصطلح (موضوع)
thème، المقترح منذ أمد طويل، قد صُلح لهذه الغاية. ونقول عموماً
«مونيماً مركباً» متى يكون ثمة إيهاء لتحليل ممكن.

أما والحالة هذه، إذا كان لدينا كل شيء كي نصل إلى أن
نبحث في فرض تضاد جلي بين مونيم مركب وبين مونيم، فمن
الضروري أن نميز تماماً بين مونيم مركب وبين تركيب ما. وقد يبدو
مفيداً التذكير بأن التمييز لم يُلحظ عند سوسير. وعندما يكون القصد
في دروس سوسير، توضيح ما هو التركيب، فما يبدو، في الأغلب،
هو مونيم مركب. كان لدى سوسير مسائل أخرى للتسوية. حتى أنه
لم يهتم بتحديد ما ينبغي أن يفهم بالتركيب، ومع ذلك، يمكننا
الاستدلال مما أسلفنا قوله، بأن تشكيل تركيب ما بمجموعة الكلبي
من وحدات بليغة دنيا (مونيمات) يُقيم بعضها مع البعض علاقات
نحوية أكثر خصوصية مما نقيمه مع بقية العبارة، يجعل، عند
الاقتضاء، في عداد التركيب، كل وحدة بليغة (مونيم أو مونيم
مركب) نصل هذه المجموعة بالبقية. ويتضمن هذا الأمر أن جملة ما
هي تركيب وأن هذا الأخير يمكن أن يشكل من عدة تراكييب. وفي
العبارة (بألوفة جميلة جداً تظلل الفناء) *un très beau chêne*
ombrageait la cour، نبتن إذاً تركيباً هو عبارة عن العبارة بمجملها،
والتركيب الآخر الذي تشكله *un très beau chêne*، المؤلف بدورها
من تركيبين *un... très beau* و *chêne*، وأخيراً التركيب *ombrageait*

والتركيب *la cour*، ومن دون شك، سيفترض بعض المنطقيين، الذين لا تتبعهم، علاوة على ذلك، تركيباً إستادياً *ombrageait la cour*. وفي عبارة (يعيش في غرفته) *il vivait dans sa chambre*، سنفترض أن حرف الجر *dans* الذي يصل القطعة *sa chambre* ببقية العبارة، يؤلف فونيماً مركباً معها. ومن الواضح، وفق التحديد المذكور أعلاه وبالتوافق مع استخدام *soûs*، فإن صفة (محجر) *pieux* التي تميز فيها بين النواة *-pierr* واللاحقة *-eux*، تشكل فونيماً مركباً في نفس مستوى (حجر ثقيل) *une lourde pierre*، أما والحالة هذه، فالتباعد يقوم هنا، ف محجر بالنسبة إلينا هي فونيم مركب وليس تركيباً، لأن لها تماماً تساوقات صفة غير مشتقة، مثل (صلب) *ardu* أو (عسرة) *raide*.

ربما سيؤاخذوننا أن المعقد *lourde pierre* يمكن أن يظهر في كل السياقات النحوية التي نجد فيها الوحيد *pierre*، وبالتالي علينا أيضاً اعتباره بمثابة فونيم مركب. ولكن هذا يعني أن نسي أن *lourde pierre* يمكن أن تظهر مع *très* (حجر ثقيل للغاية) *une très lourde pierre*، الأمر الذي لا يصلح مع حجر وحده. أما والحالة هذه، فليس ثمة توافقات متشابهة. وبدفنا هذا إلى تحديد أن العناصر المكونة للفونيم المركب ليست قابلة لاستقبال تحديدات مختصة ومنمىزة عن تلك التي تصلح للفونيم المركب بأكمله : وبإمكاننا أن نحدد المجموعة سكة حديد *chemin de fer* (سكة حديد اقتصادية، سكة حديد ذات سرعة كبيرة)، ولكن عندما نجازف بـ (طريق مفرغ من الحديد المطرق) *chemin creux de fer forgé*، الغربية، مع تحديد مميز لعنصرين معجميين، فالموضوع لا يعود أبداً سكة حديد.

إن تطبيق المعيار الوحيد للإمكانية تحديد مكونات الفونيم المركب يمكن أن يؤدي إلى تصنيف اتلافات الفونيم المركب مع

صيغة أو أكثر بين المونييمات المركبة، فلنأخذ الشكل *ombrageait* في مثلنا السابق. من الواضح أن العنصر *-ait*، دالّ لمونيم (صيغة الاستمرارية) ليس قابلاً لأن يتحدّد. ولتذكر أن هذا الغياب لتحديد ممكن يشكل جزءاً من تعريف الصيغ. وإذا بقيت *ombrageait* مونيماً مركباً، فهذا لأن هذه المجموعة لا تملك التساوقات نفسها العائدة لمونيم فعلي مثل *ombr-* (العائد لفعل *ombrer*)، أو لمونيم مركّب فعلي مثل *ombrag-* (العائدة لفعل *ombrager*): إنه مخالف لصيغة الاستمرارية (*ombrageait - ait*) أو لأي مونيم آخر من صنف الأزمنة.

ولا بغير التذكير أن صيغة ما لا تقبل للغاية التحديد، وإن تحديداً ما للنواة التي تتعلق بها لا يؤثر بها في أي حالة. وإذا ما أضفنا إلى *ombrageait* المحدّد *imparfaitement* بطريقة ناقصة، فهذا التحفظ ينطبق على الطريقة التي يؤمّن الظل بواسطتها، لا على الطابع السابق للظاهرة. وبالنسبة إلى اللاحقة *-age*، فهي لا تتأثر تحديداً بالمحدّد، ولكنها تتأثر بالطريقة نفسها لأساس *ombr-*، فما هو ناقص وغير تام، يتمثل بالطريقة التي تؤمّن الشجرة فيها الوظيفة التي هي التظليل، فـ *Ombrer/* (من دون *-age*) بدلاً من *Ombrage/r/* سترجع إلى شيء آخر مختلف كلياً.



إن كل تعريف لمتصوّر المونيم المركّب يشطب إذا (ثبتت معيارين: أولهما يعود إلى كيان التوافقات، وثانيهما للإمكانية تحديد المكونات).

ويمكن لبعض اللسانيين أن يسألوا إذا ما كان ممكناً تعريف، أو على الأقل الإحاطة بمفهوم المونيم المركّب بمصطلحات دلالية.

هل باستطاعتنا مثلاً القول إن المونيم المركَّب هو جزء من العبارة التي تحيلُ إلى عنصرِ التجربة المُدركة ككل؟ هل هذا على وجه التقريب ما قلنا به أعلاه بخصوص موضوع *téléphone*، فد (هاتف) هو هاتف وليس جهازاً يُصدر أصواتاً (*phone*) على مسافة ما (*télé-*) نقول إذاً، بمصطلحاتٍ ساذجة، إن علينا أن لا نخلط بين الكلمة ونعريفها. ولكننا نفكر في الحالات التي ليست استثنائية حيث يأخذ رأي مركَّب، يُبدى حول شيء ما، شخص ما، أو حدث ما، أقول يأخذ مباشرة شكل ابتكارٍ مونيمي تركيبي: وكي نستعيد مثلاً من سوسير، في موضع معين، يمكنني، لنقل ردة فعلي إلى الآخرين، القول: إن هذا المرة لا يمكن أن يُمنح وساماً من دون أن تحدث ضجة، تماماً كما أقول: هذا الشخص غير قابلٍ ليمنح وساماً. أما والحالة هذه، يمكننا توأ مستفيدين من بنية مونيمية تركيبيّة متاحة، والمتمثلة هنا بـ *... able*، أن نكتف، في مصطلح واحد، المنطقة السديمية للتجربة التي كان بإمكاننا أيضاً تقطيعها عبر سلسلة من العناصر المتتابعة. يمكننا إذاً القول إن خلق مونيم مركَّب في هذه الشروط، هو اختصار الكثرة إلى الوحدانية، فبالاستعانة ببنية لغوية موجودة قبلاً، نتم الوصول إلى إدراك ذهني شبه كلي لما يمكن لتحليل أشد تقليدية للتجربة أن يظهره تحت أقسام الوحدات المتتابعة.

لا يمكن أن يقوم شك في أن امتلاك مونيم مركَّب حيث كنا حتى الآن مكتفين بتركيب يسهل إدراك بعض الحقائق. وإذا كان اكتشاف ما، في العلوم أو في الشعر، هو التقريب غير المتوقع بين شيئين أو بين «كلمتين»، فابتكار مونيم مركَّب، أي «كلمة» جديدة، يمكن أن يرصف الطريق نحو اكتشافاتٍ مقبلة. وليس من الخطأ أن يحيط المونيم المركَّب بمطلوبٍ وحيد، ولكن علينا أن نعي جيداً أنه لا يمكن أن يحققه إلا بجعله مستحيلاً كل رجوع إلى ما سيمثله

واحد من مكوناته فيما لو كان معزولاً. وبهذا فإن التعريف الوحيد الصحيح للمونيم المركب هو ذلك التي يُرجع إلى استحالة تحديد مكوناته بشكل إفرادي. وكما هو الحال دائماً في اللسانيات، فمن الأسلم أن نجتنب الصياغات النهائية التي تدخل الاستيطان أو افتراضات منسوبة للسيرورات العقلية للمتكلمين.



سيبدو خطراً أن نتخيل المونيم المركب بالضرورة تحت أقسام مركب أو مشتق، بقدر ما نجعل غالباً من تركيب الكلمات فكرة مقصورة بعض الشيء.

فكثير من الفرنسيين الذين يثقون بالكتابة ميرفضون أن يروا في (بطاطا) *pomme de terre*، أو في (حقيبة يد) *sac à main*، كلمات مركبة، لأن عناصرها المكونة مفصولة، في الكتابة، بواسطة يابضات.

وقد أتاخ البحث في المونيمية التركيبية أن نعي نمط تركيب كلمات يسمى ائتلاف عناصر *Confixation*، حيث لا يرد أي من عناصره المؤلفة مثل مونيم جز: فـ (مثبت الحرارة) *thermostat* و(مهندس زراعي) *agronome* هما كلاهما مؤلفا العناصر *confixés* مؤلفان بواسطة ائتلاف عناصر *-agro-*، *-stai*، *-thermo-*، و *-nom*، القابلة جميعها للظهور في ائتلافات أخرى مثل ميزان حرارة *thermomètre*، منطاد *aéronaut*، زراعي - غذائي *agro-alimentaire*، وفلكي *astronome*.

ومن الواضح أن صدور الكلمات المهجلة، مثل [esensetf] و SNCF، أو المقروءة مثل [ynsko] UNESCO، تستوفي المعايير الموضوعية أعلاه لتعيين المونيمات المركبة. مونيمات مركبة أخرى

هي - مثلاً - أسماء الشوارع، والجاذات، والمؤسسات، والمطارات، التي تشتمل، كجزء مكمل للمونيم المركب، على المونيمات: (شارع)، (جاذة)، (مدرسة)، (مؤسسة): مثلاً شارع السلام، وجاذة الأوبرا، مدرسة البوليتكنيك، ومطار أورلي، أو أيضاً كرتقال نيس ومعرض باريس، ووزارة الحربية، ... إلخ. إن الاختصار المتواتر لم (مدرسة البوليتكنيك) إلى مجرد (بوليتكنيك) ليس مختلفاً عن الاختصار (مدرسة البوليتكنيك) إلى (مد)، أو (تلفزيون) إلى *télé*، والأمر نفسه بالنسبة إلى السيدة ديران (*Durant*)، والبروفسور ديبون (*Dupont*)، فهما أيضاً مونيمان مركبان، فضلاً عن أسماء العلم العائدة للأشخاص والتي تجمع الاسم والشهرة مثل هنري مارتان (*Henri Martin*)، أو جان ديبوا (*Jeanne Dubois*). إن اختصار هذين الأخيرين، من وجهة نظر حميمية، إلى المونيمين هنري وجان، مواز للاختصار الذي ندين له حذف (مدرسة) من (مدرسة البوليتكنيك).

إن إنتاج المونيمات المركبة يحدث قبل كل شيء انطلاقاً من نماذج موجودة من قبل تجمع عناصر لا يمكنها أو لم يعد بإمكانها أن تؤلف تراكيب طبيعية. تلك هي بشكل طبيعي حالة المشتقات التي تشتمل، بالسليقة، على عنصر لا يتدرج إلا في المونيمات المركبة. أما بالنسبة إلى المركبات، فتتمة بضع بنى مختصة مثل تلك التي تناسبنا: *tire-bouchon*، *pomme de terre*، و *sac à main* وربما كان المقصود، في زمن غابر، تراكيب عادية. أما اليوم، فالحالة لم تعد على هذا النحو، فالمركبات من هذا النمط تتحقق يومياً وفق نماذج لم يعد لها أي شأن مع التركيبة المعاصرة.

المصدر الآخر الهام للمونيمات المركبة يتمثل في القولية، أي الاختصار التدرجي إلى كل غير قابل للتفكك لما كان، في أول الأمر، تركيباً. إنها حالة (شابة) *Jeune fille*، المبوقة في الفرنسية

المتقنة بأداة تنكير الجمع *des* عندما تكون مونيماً مركباً (*des* = *jeunes filles* بالإنجليزية). وهذا الفرق في المعالجة لا يقوم سوى بتجسيد العبور، الممكن حدوثه في أي وقت كان، من صنف إلى آخر. وفي التعبير المتواتر جداً هي تبدو لطيفة، *elle a l'air gentille*، يدلّ توافق الصفة مع الجنس العائد لـ *air*، أقول ما يدل على أن *avoir l'air* قد صيغت مثل مونيم مركب ذي معنى مشابه لفعلني (بدا) *sembler* و(ظهر) *paraître*، الأمر الذي يستبعد تحديداً ما للعنصر *air*.

ومع ذلك، فلا تدل سمات شكلية على تغيير منزلة المعقد موضوع الخلاف إلا بالمصادفة. وما يسمح، في الأغلب، بإبداء رأي حول معنى القولية إلى مونيم مركب، فهذا الشعور بأن إضافة تحديد ما لأحد العناصر سيغير قيمة المجموع، ففي أفريقيا السوداء (*L'Afrique noire*)، التي تدل على فرع قارة في جنوب الصحراء، كل محاولة لتحديد الصفة بمعزل عن الكل سيعيد لأفريقيا حريتها، و«سيكسر» كما نقول المونيم المركب. ولكن، كما هو الحال دائماً حينما لا يمكننا الارتباط بمعنى أو بآخر. وقد أدت الحوادث الجارية منذ عدة سنوات إلى إنشاء مونيم مركب من القرن الأفريقي (*La Corne de l'Afrique*)، للإشارة إلى المناطق الصومالية، بشكل أمكننا فيه الاندهاش من الوقوع على تركيب مثل القرن الشرقي لأفريقيا (*La Corne Orientale de l'Afrique*) بالقيمة عينها، بأقلام بعض الصحفيين. ولكن هذه التباعدات كانت تؤثر بشكل واضح لتقلب المنزلة المونيمية التركيبية للمعقد.

يبقى علينا أن نعاين موقفاً سنحاول فيه الكلام عن مونيم مركب، لأننا نبين، للمعقد مؤلف من أساس ومن مونيم محدد، تساوقات تذكر بتلك العائدة إلى أصناف المونيمات القائمة، ولكن

حيث لا توجد مجموعة التساوقات العينة عند أي من هذه الأصناف.
أما والحالة هذه، فقد أكدنا أنه لا مونيم مركباً إلا عندما يكون ثمة
مونيمات لها التساوقات نفسها. والمقصود هنا هو ما نسميه، في حالة
الفرنسية «الفعل ذي الصيغ المبهمة»، صيغة المصدر واسم المفعول/
الفاعل.

وبغية التسهيل، فلن نعالج بالتفصيل إلا حالة «اسم المفعول»،
الذي سنشير إليه على الأصح كاسم مفعول تام وبسيط يتضمن حدثاً
منجزاً أو حالة مُدركة. إن دالّ مونيم اسم المفعول، بالنسبة إلى
أغلبية الأفعال الفرنسية هو *-e* أو *-ée* وما يهتما هنا ليس المونيم اسم
المفعول، بل التركيب الذي يشكله مع المونيم الفعلي، أي، مثلاً،
مُغنى *chanté, chantée*، وهي التي تشير إليها في ما يلي على أنها
«اسم المفعول».

والخصوصية في حالة اسم المفعول، لا تتمثل في أن بإمكانه
الاشتراك، حسب السياقات، مع تساوقات الأصناف المختلفة:
والأمر شبه متواتر حيث كان: فالصفات تساوقاتها الخاصة المختلفة
عن تساوقات الأسماء، ولكنها يمكن أن تنهض من دون صعوبات
بكلّ تساوقات الأسماء في سياق يختفي فيه اسم ما: فإذا اختفى اسم
أولاد (*enfants*) من جملة (صف الأولاد الصفار) (*la classe des*)
(*petits enfants*)، فإن (صفار) يمكنها أن تنهض بكلّ مسؤوليات
الاسم الغائب، وفي جملة (أنا أصوت من أجل الحلّ) (*Je vote pour*)
(*la dissolution*)، فإن حذف (الحلّ)، لأن الكل يعرف لماذا نصوت،
يؤدي إلى تغيير المنصر الوظيفي (من أجل) (*pour*) إلى ظرف. وفي
كل هذه الحالات، نتحدث عن انتقال من صنف إلى آخر.

وما بلغت انتباهنا، في حالة اسم المفعول، ليس حالات
الانتقالات المتوقعة، ولكن أن يتمكن اسم المفعول، في سياق

معين، من أن ينهض بدور صفة ما تماماً كما بدور بضعة تساوقات عائدة للفعل. وليكن اسم المفعول (متوقفة) (*bloquée*) في جملة (السيارة المتوقفة بسبب الثلج كانت لأصدقائنا) (*la voiture bloquée*) (*par la neige était celle de nos amis*) أما في جملة (السيارة التي توقفت بسبب الثلج لم تكن جاهزة) (*la voiture bloquée par la neige n'était pas disponible*) فلام اسم المفعول وظيفية البذل، وفي جملة (السيارة كانت متوقفة بسبب الثلج) (*la voiture était bloquée par la neige*)، فلهذا الاسم استخدام إسنادي (في فرنسا، نكلم تقليدياً عن نعت لصيق). يتصرف اسم المفعول في الجمل الثلاث مثل صفة، ولكنه، بالإضافة إلى ذلك، يتم بواسطة بسبب الثلج، وهذا ما ننتظره من فعل أوقف المستخدم بصيغة المبني للمجهول.

ذاك إذا معقد مؤلف من عنصرين قابلين للاستبدال - (*bloquant - bloqué, chanté - bloqué*) لا يمكن لأحدهما أن يُخَذَّ بمعزل عن الآخر، فكل تحديد منطبق على المجموعة ككل (صبي مغناج جداً مثل صبية هزيلة جداً) (*un enfant très choyé, comme une enfant très frêle*). ويذكرنا هذا الأمر تحديداً بما وجدنا في حالة المونيمات المركبة. ومضاد بوضوح اسم المفعول بالتركيب من صنف *mangeait*، حيث يلامس كل تحديد النواة الفعلية دون أن يؤثر بصيغة الاشتراكية. نسمى إذاً إلى رؤية مونيم مركب فعلي في اسم المفعول، معتبرين الوظيفة المؤمنة بواسطة تسمياته (أوقف بسبب الثلج، وقع من الشجرة) (*bloqué par la neige tombé de l'arbre*) غير حاسمة لكيانه. ولا نقرض وضع صفة (مجنون) *fou* و(جيد) *bon* في الصنف نفسه، على الرغم من أننا نقول (مجنون من الحب) *fou d'amour* مع حرف الجر *de*، و(صالح للخدمة) *bon pour le service* مع اللام *pour*.

هذا الحل الذي يمكن قبوله بالنسبة إلى اسم المفعول التام، لا يصلح لاسم الفاعل المنتهي بـ *-ant*، حيث علينا أن نميز بين الصفة المنتهية بـ *-ant* من نموذج متألف *brillant* (مع مطابقة تنتهي بـ *-ante*) نتيجة انتقال غير آلي، وبين اسم المفعول المتميز بوضوح والذي لا يعرف مطابقة ما. ويصلح هذا الحل أيضاً بشكل أدنى بالنسبة إلى صيغة المصدر، وهو ائتلاف للمونيم الفعلي والمونيم المصدر، التي تُشرك سلوكيات للاسم والفعل، وكذلك لصيغ اسم المصدر لألسن عديدة.

ينبغي علينا إذاً، ومن دون أدنى شك، أن ننظر في وجود وحدات لادنيا بليغة تُولف أصنافاً متناسبة وفق المعايير ذاتها العائدة لأصناف المونيمات التي حلت محلّ الأجزاء التقليدية للخطاب. ولا اعتقد أنه سيكون لنا مصلحة في مزجها مع المونيمات المركبة، كما يمكننا أن نسميها مونيمات مركبة محاذية *parasynthèmes*. ولا أعتقد أنه ينبغي علينا، بغية تمييزها عن المونيمات المركبة، أن نبرز أنها تتشكّل آلياً انطلاقاً من كل أسس ملاتم، وفي الحالة الراهنة من مونيم فعلي، لأن الطابع الآلي لإضافة لاحقة (مثلاً *-ment* للظروف الفرنسية) إلى هذه أسس لن يؤثر بمنزلة المونيم المركب للنتائج المحرر.

إن الاختيار الوظيفي للبنى اللغوية بعيدٌ عن أن يكون قد أُنجز. وعلى الرغم من أننا نتصرف بطريقة استتاجية انطلاقاً من تعريف نسبي لتصوّر اللسان، فدراسة أي لسان جديد قابلة لكشف بني غير متوقعة تُغني معرفتنا باللغة الإنسانية... ويمكن لتفكير أشدّ تنامياً أن يدفع بنا إلى اقتراح تقديمات جديدة، لبني معروفة، إذا لم نحفظ في النهاية، فيإمكانها أن تبرز حسنات الأطر التي تعمل بواسطةها. لن أقدم منها سوى مثل واحد، ذلك العائد للمسيّليم. اقترحت إطلاق تسمية «مسيّليم» (نتاج ما نتاوله بشكل جماعي) على

المجموعة المشكلة من نواة ممكن تحديدها، إضافة إلى مونيم أو مونيم مركب، مع الكيفيات التي تصاحبها، وعند الاقتضاء، مع العنصر الوظيفي الذي يصل المجموعة بباقي الجملة. وفي حالات عدة، يتوافق السيليم، المحدد على هذا النحو، بما نطلق عليه تقليدياً «كلمة» ما تعود للعبارة. ويصلح هذا الكثير من «كلمات» الألسن الهندو-أوروبية القديمة، للأشكال الداتماركية مثل *byerne* «المدن»، *handerne* «الأيدي»، أو الإيطالية *andiamo* «نحن نذهب»، *sarebbe* «سيكون». ولكن المدن *villes*، والطاولات *tables*، في الفرنسية، هما، بالطبع، سيليمان بدورهما. ومن جهتي، فأنا لا أعمل بواسطة السيليم، ولكنني استخدمه فقط كي أبرز استحالة مطابقة الاستخدامات العادية، كمصطلح «الكلمة»، مع تعريف علمي على نحو ملائم.

وختاماً، عليّ أن أهوّد إلى عنوان البحث نفسه، فينبغي أن يكون واضحاً أن التوسع المعجمي، في لسان ما، لا يتحدّد أبداً بالموارد الداخلية، أي بالابتكارات العائدة للمونيمات المركبة. ثمة دائماً تبادلات بين جماعة وأخرى، وتؤدّي هذه التبادلات على الدوام إلى مقترحات تعود للأشياء والمفاهيم ولمفردات اللغة. المقترحات هي إذاً مصدر لتجديد المعجم تختلف أهميته وثباته بشكل ملحوظ من لسان إلى آخر. ومن المتواتر أن تشترك دينامية المونيم المركب في طلب خدمة حذف بضعة مقترحات، وليس على لساني ما، بما هو لساني، أن يبدي رأياً حول مناسبة تطبيقات مماثلة، فاللساني يعاين الوقائع وينسّقها، ولكنه يمتنع عن إبداء أحكام تقويمية إلا حينما يكون الرهان بالطباع نجاح عملية التواصل. لقد تمثلت نتائجي في إظهار الدور الفاصل الذي تلعبه المونيمية التركيبية في دينامية اللسان ليس إلا.

4.5 - هل ينبغي التخلي عن مفهوم الفاعل⁽¹²⁾؟

إن عنوان هذا القسم ينبغي ألا يُفسَّر في أيِّ حال على أنه تركيزٌ مقدَّمة بطريقة دبلوماسية وبشكل استعهامي. وقد تساءلتُ، وأنا أكتبه، هل بإمكاننا أم لا أن نصل إلى وضوح أكثر في الصلات التي تربطنا، نحن اللسانيين، ببعضنا ببعض في ما لو قررنا أن نحكم على الأطباع الخاصة بكلِّ من الحالات التي نحن معتادون أو ساعون إلى العمل فيها بمفهوم الفعل؟ وهل سنحاول أن نتخيَّل مجموعَ مصطلحات جديدة وأقلَّ لبساً لكل مجموعة مختصة ذات معايير نحوية؟ ومع ذلك، وبما أن ثمة صعوبات متوقَّعة للوصول إلى مطابقة بين العلماء المعنيين كافة، ألا يعني ذلك أننا بهذه الطريقة نصنِّم اللبس الحالي بدلاً من إزالته؟

هذا الاقتراح سيذكرُ قراءنا باقتراح لـ شارل فيلمور (Charles Fillmore) يتضمن استبعاد الفاعل من كلياته الإعرابية. وعلى الرغم من أن موقفنا، أنا وفيلمور، يتطابقان، في نهاية الأمر، من تجربة لغوية مشابهة، موسَّعة أكثر من الحدود الضيقة التي تبتتها بور روبال (Port-Royal) ورسمتها MIT، فهما مختلفان أساساً. يدعم فيلمور رأياً مثبتاً بأن ثمة فاعلين فعلاً في البنى السطحية للسن عديدة، ولكنه يقترح أن نفكِّر كلها على أنها تجليات خارجية لحالات مختلفة في البنية العميقة.

أما الوظيفيون، أمثالي، الذين يعتقدون أنه ليس ثمة بنية عميقة بل درجات في الملاءمة اللغوية، وليس ثمة كليات لغوية خارج ما هو متضمن في تعريفنا «اللسان»، فسيتكفون متفقين تماماً مع تحفظات

«Should We Drop the Notion of «Subject»?» *La Revue Canadienne de* (12)

linguistique, vol. 17 (1972), pp. 175-179, traduction par l'UER de linguistique générale et appliquée. Université René Descartes, séminaire de 3^e cycle.

فيلمور بخصوص كلية «الفاعل»، ولكنهم سيتساءلون إذا ما كانت مطابقة ما ممكنة حول ما ينبغي أن يُطلب من وحدة لغوية كي تستحيل فاعلاً. وما نتظر إيجاده في أي لسان نعاينه هو تنظيم نحوي مختصر، يمكنه أن يمتلك أو أن لا يمتلك سمات مشتركة مع اللسان الذي ندرسه أو ذاك الذي سنخضعه للدرس. وما ينبغي تجنبه بأي ثمن لا يتمثل فقط في التأكيد العقيم علمياً والمنافي للعقل للكبان الأساسي لكل الألسن، بل في المحاولة المتفرعة ثنائياً لتثبيت بينين نحويين جوهريين لا غير بمجرد اكتشافنا وجود أبنية تسمى توافقية^(*) يمكن بصعوبة ردها إلى النموذج التقليدي قعل - فاعل - مفعول.

وفي ما يلي، سنرفض بإصرار أن نتجزأ لاعتبارات منطقية حول طبيعة الفاعل، بمنزلة عن وجود الوظيفة النحوية المشار شكلياً إليها، في لسان معين، إما بواسطة مؤشر وظيفي كعلامة الاعتراف مثلاً أو بواسطة الموقع في العبارة. ويمكن، من دون أدنى ريب، أن تختفي السمة الشكلية للوظيفة «فاعل»، في بضعة سياقات أو مواضع، أو أن تختلط مع تلك التي تعود لوظيفة أخرى. ثمة العديد من الألسن التي لا يُعتبر تحديد الفعل فيها، كما هو، ضرورياً، عن طريق الوسم أو عن طريق الموقع. وإذا كان فعل الرعي *paître* يتضمن مثلاً «بقرة» و«عشباً» كمشاركين، فذلك لأننا نفترض أن البقرة ترعى العشب وليس العكس. ولكن منذ اللحظة التي تكون فيها بضع وسائل شكلية لتحديد الفاعل جاهزة، ونقوم غالباً باستخدامها، فإن غياب التمييز شكل إذا حالة انطباق^(**) أو مجانسة لفظية وظيفية ينبغي ألا نجعلنا نستبعد الوجود الشكلي للفاعل.

(*) التوافقية هي اشتراك مفعول الفعل التمدي وفاعل الفعل اللازم في حالة اسمية واحدة، انظر: معجم للمصطلحات اللغوية (إنجليزي - عربي)، ص 176.

(**) تماثل كلمتين كانتا مختلفتي التصويت في مرحلة تاريخية سابقة، المصدر نفسه، ص 489.

إن مصطلح «الفاعل» المقترَض بالترجمة عن اليوناني *hupokeimenon*، يُستخدم تقليدياً للتأكد من نوع من العلاقة النحوية التي نصادفها في الألسن الكلاسيكية والهندو - أوروبية الغربية. ومن ضمن اللسانيين، فالجماعة التي أقتعها المنطقيون والرفقاء بأن كل عبارة بشرية مؤلفة بالضرورة من فاعل ومن إستادِي، هذه الجماعة تبحث بانقيادٍ عن فاعل في كل لسان يُدرَس، ولكن دون أن نصل بالطبع، في كثير من الحالات، إلى التوافق حول مَنْ ينبغي أن يتلقى هذه البطاقة. وبالنسبة إلى معظمهم، وللأكثر سذاجة منهم، فإن أقلية من المطلعين، ينبغي أن تطبّق المصطلح على كل ما هو موسوم تقليدياً على أنه المصاحب التلقائي للمُسند. وفي الأبنية المسماة توافقية، تتمثل عقبة المسعى الأول في أن ما يُسمى فاعلاً لفعل لازم يحملُ السمة ذاتها (أو غياب السمة) التي «للمفعول» العائد لفعل متعَد، في حين أن فاعل الفعل المتعدي يحملُ سمة إعرابية مختصة. أما عقبة المسعى الثاني، وهي من دون أدنى ريب الأكثر صِحة من وجهة نظر لسانية محضة، فتتمثل في أنها تثبت نهائياً معيار التواجد الإلزامي على أنه السمة القاطعة للفاعل، دون أن تقيم وزناً للشعور المتجذّر لدى المتكلمين الهندو - أوروبيين الذين يُعتبرُ الفاعلُ بالنسبة إليهم أولاً وقبل كل شيء «مَنْ يقوم بالفعل»، أو العامل.

ومن وجهة نظر وظيفية، فمعيار الحضور الإلزامي، الذي صنع منه فيلسوف حالات محدودة، هو من دون شك الأكثر إجرائية في ما يتصل بالألسن الهندو - أوروبية الغربية. ومن الواضح أن تحديد الفاعل على أنه «مَنْ يقوم بالفعل» لا يمتن أن ينطبق على حالة فاعل عائد لتكوين مجهول عموماً وحتى لو أمكن لجملة (جون يعاني) *John suffers* أن «تتحول» إلى (جون يعاني فعلاً) *John does (suffer)*، فمن الصعب أن نتصور جون فاعلاً في حالة مماثلة، ففاعلُ ما، بما

هو وحده إلزامية، يشكل العنصر الذي لا يمكن حذفه حتى ولو لم تتطلب الرسالة وجوده: ولدى سماعنا (إنها تمطر) *il pleut*، فلا أحد يتساءل من التي تمطر^(*).

وبخلاف معيار الوجود الإلزامي هذا، فقد واجهنا حقيقة أنه لا يمكن، في عدد من الألسن المعروفة جيداً، استخدام كثير أو كافة الأعمال المتعدية من دون «مفعول»: والمفعول يكون إذاً في هذه الحالة إلزامياً، ولن يكون هناك أي سبيل لتعيين الفاعل. ولكن الوضع مختلف كلياً بالتأكيد، لأن بضعة أفعال ولا سيما المتعدية، وبعض من ضمنها فقط، لا يمكن أن تشتغل من دون مفعول. إلى ذلك، وكما تبين بضعة ألسن مثل الفرنسي والإنجليزي، فحذف المفعول به أمر غير اعتيادي ولكنه ليس مستحيلاً كما يظهره المثل *Trenton makes*، *the world takes*، أو (هو يقول وأنا أفعل) *(il dit et moi je fais)*، في حين أن حذف الفاعل *Trenton* في «ترنتون يصنع آلات» *Trenton makes machines* ينثر العبارة ويجعل المماثلة مستحيلة.

إن الاستناد غالباً إلى استثناءات لإظهار أن جملاً من دون فاعل تقوم في «اللسن إسنادية» نادراً ما يكون قاطعاً. تتضمن *ambulat* اللاتينية فاعلاً ضميراً ظاهراً مثل ضمير الغائب المفرد العائد للألمانية *wird* في *hier wird getanzt* (هنا، نحن نرقص)، ويمكن أن تعتبر اللفظة الإسبانية *quiere* (هو يُحب). مثل جذع مجزء، إذا لم يستطع بناء مثل *quiere a su madre* (هو وهي تحب أمها) مع ضمير الغائب الملكي *su* أن يُبرز ضميراً غائباً للفاعل مندمجاً في *quiere*. وبالطريقة عينها، فضمائر المطاوعة (ضمير المخاطب) هي الشواهد على ضمير

(*) ملاحظة لتعريف الفاعل: تُعرّف المربية الفاعل بأنه من يقوم بالفعل أو يتصرف به، نحو: مشى الرجل (الرجل هو من قام بفعل المشي)، خزن الولد (الولد هو من خُصِف بالخزن).

المخاطب الفاعل في صيغة أمر بالفرنسية مثل (اذهب) *va-t'en*. ويمكن «للألسن الإسنادية» أن تطور مهارات بغية القيام بإسناد الوجود النقي والبسيط: في الإنجليزية (ثمة رجل) *there is a man*، وفي الفرنسية (ثمة رجل) *il y a un homme* ... وتتضمن طرق معادلة فاعلاً شكلياً يتمثل إما بالعنصر المسند وجوده، كما في الإنجليزية، وإما بواسطة ضمير «فارغ» كما في الفرنسية.

ومع ذلك، فالفرنسية توضح ضرباً من البنى النحوية يمكن فيه لفاعل ما، أي لتحديد إلزامي للمسند، أن يحذف في حالة ظهور مسانيد الوجود: وعلى الرغم من أن كتابة (ثمة) *il y a* في (ثمة رجل) *il y a un homme* المقابلة للإنجليزية *there is a man*، تُسمع مثل */ja/*، وهذه لن تكون الحالة إذا كانت *il y a* تعني *il* (مذكر) أو *il* (محايد) *a la* (لديه هنا)، كما في *il y a son argent (à la banque)* مائة هناك (في المصرف). وعليه، فإن ثمة */ja/ il y a* يمكن أن تزول كأداة نحوية لإنتاج عددٍ من ضروب المسانيد، محتفظة من منزلتها السابقة بإمكانية الكيفيات الزمنية والصبغية (كان ثمة *il y avait /javé/*، أو سيكون ثمة *il y aurait /jové/*).

إن حالة اسنفي الإشارة (هكذا) *voici* و(هكذاك) *voilà*، اللذين لا يستطيع أي متكلم للسان الأم الفرنسي أن يماثل بُعدَ فيهما فعل رأى *voir*، هي أكثر قطعاً أيضاً: فهي ليست سوى أداة نحوية لتحسين مفعول ما. ومع ذلك، فإذا كانت الوحدة المعروضة ضميراً، فهذا الضمير هو، في حالة الخفض والنصب (في الإعراب) ها أنذا *me* (*voici*). ويمكن لإسمي الإشارة (هكذا) *et voici* و(هو ذاك) *et voilà*، أن يُتبعاً بمقاطع يربط جملة تابعة (إذا به *voici que...*).

إن وجود مسانيد اسمية من دون أفعال في لسان معين، لا يستتبع ضرورة تقينا وجود فاعل في هذا اللسان. ولنا ملء الحق في

تعريف الفاعل على أنه المفعول الإلزامي للمسايد الفعلية. ولكن هذا يدل من دون أدنى ريب أن علينا أن نتوقع مختلف درجات أو طبائع وجود إلزامي للفاعل، ونرى هل بإمكاننا القول أين علينا أن نتوقف عن الكلام عن فاعل؟ ألن يكون من الأفضل إذاً أن نترك معاً مصطلح الفاعل ومفهومه لكي لا نحسب حساباً إلا لمقياس وجود إلزامي، ولكي نحل هذا الأمر بين تلك التي يمكن أن تسم وظائف نحوية بالنسبة إلى الأخرى، مثل درجة الاشتراك في الفعل، والتعميم أو الحد من بضعة سياقات، والطبيعة الشكلية للمؤشر الوظيفي أو للبعد النحوي بالنسبة إلى المستند؟

وللأسف، فهذا الأمر سيغدو، لا محالة، إلى فيض مصطلحي كبير، نادراً ما يحل، كما أثبتته تجارب أخرى، على الرحب والسعة.

ومن المفضل الإبقاء على مصطلح «الفاعل» بالرجوع إلى التمدد الإلزامي للمستند الفعلي المتوافق على الأغلب مع الفاعل/ العامل. وفي الحالة التي لا يقوم فيها توافق مماثل، سيكون مفضلاً استخدام مصطلح آخر للتمدد الإلزامي مثل «مفعول مركزي» أو «محذو أول» (للمستند). وهذا ما ستكون عليه الحالة في عديد من اللسان التي سنسبها بطريقة غامضة، «ألسناً توافقية». ومن الواضح أنه إذا لم تُتبع أي معالجة تفضيلية، في لسان ما، بوحدة من التوسيمات التي يمكن مماثلتها شكلياً، في ما يتصل بالحذف، فلا يمكننا أن نكسب شيئاً لدى استخدامنا مصطلح «فاعل»، كما أن تسميات مختصة، مثل: (عامل) *agent*، (خاضع) *patient*، و(منتفع) *bénéficiaire*، ينبغي أن تُستخدم من دون أن يتقاد التحوي لهذا الأمر بالرأي المسبق الهندو-أوروبي لصالح الفاعل الحقيقي كي يمنح هذا الأخير العنوان المخصص لـ «الفاعل».

5.5 - فاعل حقيقي أو مفعول به⁽¹³⁾

1.5.5 - رصيدان لغويان

حيثما تقارب مسائل النحو، من المفيد التذكير بأن علينا أن نستخدم رصيدين لغويين مختلفين، حسب ما إذا كنا نحيل إلى التجربة التي ستكون موضوع الاتصال أو إلى الشكل اللغوي الموافق. وعلينا أن نسعى للاحتفاظ بهما متعيزين حتى ولو رغبتنا، خلال البحث، في المزج بينهما.

الفاعل الحقيقي

فلنأخذ مصطلح الفاعل الحقيقي على سبيل المثال. إنه يُحيل، من حيث المبدأ، إلى سمة في التجربة المطلوب نقلها بواسطة اللغة، سابقة للفترة التي اخترنا فيها هذا اللسان أو ذلك للقيام بذلك. ولنفترض أن التجربة التي سنقلها تأتي من أن صيماً ما قتل عصفوراً بضربة نقّافة، فالصبي أدرك كفاعل حقيقي قبل أن نكون قد بحثنا... ووجدنا الكلمات لتنفّذ بهذه المباشرة. ووفق اللسان المختار، ووفق رغبة المقاتل في إبراز هذه السمة أو تلك من التجربة، فالكلمة التي تدلّ على الصبي ستظهر كفاعل: الصبي قَتَلَ العصفور، أو كـ «مفعول لفعل مجهول»: المصفور قُتِلَ بواسطة الصبي. نقول غالباً، في هذه الحالة الأخيرة، «مفعول به فاعلي»⁽¹⁴⁾ (عامل الفعل الحقيقي في صيغة المجهول)، ولكن بإمكاننا أيضاً الكلام هنا عن فعلٍ لازم متعد

(13) نُشرت في: *La Truthité et ses corrélats, cycle de conférences organisées* par Denise François-Geiger, UER de Linguistique, 1 (Paris: Université René Descartes, 1987).

(14) مفعول به تحوي يقوم بالفعل المذكور في الجملة، انظر: معجم المصطلحات اللغوية (إنجليزي - عربي)، ص 36.

(توافقي). وما ينبغي أن نحفظه جيداً، هو أن الصبي، في حقيقة الأمور، كما هي مُدرَكة، هو فاعلٌ حقيقي، أكان مُمثلاً لغوياً بواسطة فاعلٍ أو بواسطة فعلٍ لازم متعدّد (توافقي) - مفعول به فاعلي.

يُبين هذا المثلُّ الميلَ الطبيعي، ولكن الخطير، لاستخدام المصطلح نفسه، وهنا فاعل حقيقي، سواء كمرجع للحقيقة المُدرَكة، أم للشكل اللغوي الموافق.

التعدي

فلنقارب، الآن، مفهوم التعدي الذي يشارك في عنوان هذه السلسلة من الأبحاث. إنها ربما ليست نقطة الانطلاق الأفضل لما أرغب اليوم في معالجته.

قبل كل شيء، يلفت التعدي الانتباه إلى نمط خاص من علاقة المشاركة بالحدث، في حين أن القيم اللغوية لا تتواجد إلا عن طريق التضاد والتعارض.

ومن ناحية أخرى، يبدو أن التعدي يظهر كمفهوم لغوي، في حين أنه بالفعل مفهوم دلالي لا يمكن أن يحيل إلا إلى سمة من التجربة المعاشة: العمل الممارس على شيء ما، أتم التعبير عن العلاقة موضوع الكلام بواسطة حالة أو أخرى، عن طريق الموقع في العبارة: أن تُحب شخصاً ما، أو بواسطة حرف جرّ: مُلحِق الضرر بشخص ما.

هنا أيضاً سيكون مجدداً أن تضاداً، بشكل واضح، مجموع مصطلحات «تجريبية» لا تفرض أي تنظيم لغوي معين، وتحدث مثلاً عن فاعل حقيقي أو خاضع، في مقابل مجموع مصطلحات لغوية على نحو ملائم تحيل إلى وحدات لسان معين، كل وحدة مع

مدلولها ودالها، مثل «حالة المفعولية»، و«حالة الإضافة»، و«تام»، و«وسطى». وينبغي بالطبع إعادة تعريف كل من هذه الوحدات بالنسبة إلى كل لسان.

هذا التمييز المرغوب فيه إلى حد كبير، بين مجموعتي مصطلحات، يصعب جداً الحفاظ عليه، بفعل عاداتنا السيئة، وفي البحث الذي يلي، يمكننا من دون أدنى شك أن نصادف حالات لبس.

الفاعل

مفهوم آخر يشكو من أنه يحرص بقسوة على «تجوية» وعلى «لغوية»، هو مفهوم الفاعل، فالمعنى الأول، غير اللغوي، هو ذلك الذي يعود له لـ «ما نتكلم عنه»، مثلاً في فاعل هذه المحاضرة...

ومن وجهة نظر لغوية، فالفاعل، هو بصورة عامة، مفعول كغيره، ولكنه مفعول ضروري وجوه، الأمر الذي يعطي الانطباع بأنه فاعل الخطاب، وفي الحقيقة، ففاعل الخطاب، إذا كان عليه أن يوسم لغوياً بهذه الطريقة، فهو يُدخل بوضوح في الفرنسية، بواسطة إنه... الذي... c'est... qui...

وفي الحقيقة، فالفاعل يُدرك دالياً لا لغوياً، كفاعل حقيقي/عامل، وهذا ما يُحال إليه، من دون شك في أغلب الأحيان، وليس بشكل دائم، وكما نستج من قولنا (الإنسان يعاني) *l'homme souffre* وفي كل بناء مجهول، كما في (الطائر قُتل) *l'oiseau est tué*. ونرغب غالباً في القول بأن الفاعل موصوف بالمطابقة، أي التذكير بالفاعل الاسمي في الفعل. ولكن كثيراً من الألسن لا تعرف شيئاً من هذا القبيل، فلدينا في الداتماركية مثلاً *jeg ser* (أنا أرى)، *kan, du ser*... إلخ. وتعرف ألسن أخرى، كالباسكية مثلاً، المطابقة بين كل

المشاركين، وبعضُ الألسن أيضاً، كالأوبينخ *oubrych* (القوقاز)، تعرف المطابقة بين كلِّ المقاعيل، الأمرُ الذي سيذكرنا بعبارة «هي ستحملة إليه هناك، أمه، هذه الرزمة، إلى جان، إلى المحطة» *elle le lui y portera, sa mère, ce paquet, à Jean, à la gare*، الشيء لا تؤثر كونها مضحكة أو غير مستخدمة إلا بفعل الإشارة الواضحة إلى أربعة مشاركين أو ظروف وفعل التذكير بهم (المطابقة) في التركيب الفعلي^(*)، وفي حين أن اثنين بدل أربعة (حملته إليه، أمه، إلى جان) سيذكران كما في فرنسية شائعة جداً، من دون شك، ولكنها عادية.

وفي الحقيقة، فالفعل هو مفعول إلزامي له وظيفة محقق. ويعني هذا أن وجودَ فاعلٍ ما في التقاء مع المسند يؤكد، بالنسبة إلى السامع، ما يوحى به تتابع الفونيمات الممكن نعينها على هذا النحو، فما هو ناتج يعود فعلاً للغة، أي إرسال مزدوج الانبناء، فونيمات ومونيمات.

من البسيط إلى المعقد

وكي نحيط، بصورة أفضل، بحقيقة البنى اللغوية، سيكون من الأفضل ألا نستخدم مفهومَي «امتعة» و«لازم» اللذين يعطيان الانطباع بأن التعدي هو المميز وأن البناء اللازم هو شيء ما هامشي إلى حد ما. من الأفضل إذاً الانطلاق من البناء الأكثر بساطة، ذي المشارك الوحيد، ذلك الذي ندعوه «لازماً»، ونقتصر في ما بعد تلك التي تعرف اثنين أو ثلاثة مشاركين، سنجد من ضمنها ما يمكن أن نسميه البناء المتعدي.

(*) Verbal (فعل): نسبة للفعل.

2.5.5 - بناء توافقي وبناء مفعولي

حينما نبحث في تصنيف الألسن على أساس السمات الجوهرية العائدة لنحوها، نميل سريعاً لتمييز نموذجين: أولهما حيث المشارك الوحيد (م. و.) للفعل أو للحالة - الذي نشير إليه كـ «فاعل الفعل اللازم» - يمتلك الشكل نفسه، أو الموقع ذاته في العبارة، الذي يعود للفاعل الحقيقي/ العامل (فا) في بناء ذي مشاركين، يتضمن علاوة على الفاعل الحقيقي/ العامل، مفعولاً به (بناء متعدياً)، وآخر يمتلك فيه المشارك الوحيد الشكل نفسه الذي يمثله المفعول به (م).

النموذج الأول هو ذلك الذي نصادفه في اللاتينية حيث وظيفة الأسماء موسومة بواسطة حالة، وفي الفرنسية حيث هذه الوظيفة مبنية بواسطة الموقع بالنسبة إلى الفعل (ف)، فلنأخذ، في الفرنسية أولاً، العبارتين التاليتين:

الرجل ذهب *l'homme est parti* م + و + ف

الرجل رأى الحصان *l'homme a vu le cheval* فا + ف + م

ولنأخذ معادلتهما في اللاتينية:

uir perfectus-est م + و + ف

uir equo- m uidit مف + م + ف

مع مفعول به (مف) موسوم كهذا بواسطة علامة الإعراب *m* العائدة لحالة المفعولية، وفاعل حقيقي/ عامل ذي شكل مجرد مشابه لذلك العائد للمشارك الوحيد.

أما النموذج الثاني فيقوم في اللسان الباسكي حيث وظيفة الأسماء موسومة بحالة، وحيث المعادل للعبارتين السابقتين يمتلك الشكل:

gizona joan-da م + و + ف

gizona-k zaldia itxusi-du قا + م + ف

مع فاعل حقيقي، موسوم على هذا النحو بواسطة علامة الإعراب التوافقية -k، ومع مفعول به، ذي شكل مجرد مثل ذلك العائد للمشارك الوحيد.

منطقية البناءين

إن ردة فعل الأشخاص الذين يطبقون النموذج الأول هو أن الثاني لا منطقي، لأن الإنسان يقوم بالفعل في الحالتين. ورداً على هذه النقطة، فجواب أولئك الذين يطبقون النموذج الثاني يمكن أن يكون: إننا محقّقون في تعيين مشارك وحيد (م. و.) ومفعول به (مف). لأن المقصود في الحالتين هو المشارك الأشد ألفةً، والمتضمن مباشرة. وفي جملة (مَشَى الرجل)، فالرجل هو بلا شك فاعل حقيقي/ عامل، ولكن الرجل في التركيب المشابه هائي الرجل، ليس الفاعل الحقيقي، بل المفعول به. وهو في الحالتين متضمن بشكل مباشر، في جملة (قَتَلَ المزارعُ البطَّ) أو (غسلت المرأة الغسيل)، ينسحب الأمرُ أيضاً على المفعول به، المتضمن بشكل أكثر ألفةً: البطَّ في فعل القتل، والغسيل في الغسل، كما المزارع في حالة، والمرأة في الحالة الأخرى اللذين يتصف نشاطهما بالمرضية. والمعادلان بالمصطلحات الاسمية: قَتَلَ البط من قِبَل المزارع، وغَسَلَ الغسيل من قِبَل المرأة، يطبعان جيداً الاستفالية الفائقة للفاعل الحقيقي/ العامل.

وبالطبع، فكّل محقّق من وجهة نظره التي يملئها بالفعل بواسطة الأشكال التي يستخدمها.

شكل الأسماء المتضمنة

يُشار إلى النموذجين السابقين على التوالي بوصفهما البناء المفعولي (أو حالة المفعولية) والبناء التوافقي، الأمر الذي أتته تاريخ البحث، ولكن ضرره يكمن في أنه لا يتوّه بالجوهري، وهو الكيان، مع المشارك الوحيد للفعل اللازم، وللإسم الدال على الفاعل الحقيقي/ العامل في حالة ما، والمفعول به في حالة أخرى، أي تحديداً ذلك الذي ليس موسوماً كمفعول أو كتوافقي. وكما رأينا، فحالة المفعولية اللاتينية موسومة بـ *m* وحالة التوافقية الباسكية بـ *ba*، ومقابل هذ السمات لدينا في اللاتينية *sur* التي تمثل جذر الكلمة، وفي الباسكية *gizona* و *zaldia* من دون علامة إعراب. هذا الشكل الذي يُطلق عليه في اللاتينية حالة الفاعلية، أي الشكل الذي يُستخدم للتسمية، يستقبل غالباً، بالنسبة إلى الألسن ذات البناء التوافقي، اسم المطلق^(*).

موقع الأسماء المتضمنة

في ما يختص بالموقع التدريجي للعناصر، من المتوافر، في البناء التوافقي، أن يكون الشكل غير الموسوم العائد للمفعول به أكثر اقتراباً للفعل منه للتوافقي، إنها الحالة التي صادفتها في الباسكية. وفي التزوتويل (*tzutuhil*)، أو لسان المايا^(**)، فالبناء التوافقي، إذا كان المفعولان من الجهة ذاتها للفعل، فيكون الاسم الموافق للمفعول به أكثر قرباً للفعل من ذلك الذي يسم الفاعل الحقيقي العامل⁽¹⁴⁾.

(*) في وصف اللغات التي فيها حالة التوافق، مصطلح يشار به إلى فاعل الفعل اللازم ومفعول الفعل المتعدي معاً، المصدر نفسه، ص 25.

(**) شعب يطن هندوراس البريطانية وغواتيمالا الشمالية.

Martinet, *Syntaxe générale*, pp. 8-22.

(14)

الحالة الخاصة لللاتينية

إن ما أتينا على ذكره ينطبق بشكل سني على اللاتينية. ويتفق أن تكون *uir*، من دون علامة إعراب، الاستثناء بدلاً من أن تكون القاعدة. وتُظهر أكثرية الأسماء اللاتينية في حالة القاعدية علامة إعراب *a*، مثل *dominus* (سيد)، *civis* (مواطن)، *manus* (يد)، ولا تملك بعض حالات المفعولية مثل *mare* (بحر)، *tecur* (كبد)، *animal* (حيوان)، علامة الإعراب *-m*. وكل هذا بالتحديد هو عكس ما نتظره من لسان ذي بناء مفعولي. ومع ذلك، فهذا هو حال اللاتينية والألسن الرومانية الناشئة عنها، إذ طبقنا المعيار، المذكور أعلاه، للكيان الشكلي العائد للمشارك الوحيد وللممثل الفاعل الحقيقي/العامل. وينسحب الأمر أيضاً على الاسم المستخدم، في هذه الحالة، إذا لم يمتلك الشكل المجرد للجذر. وهذا الشكل مُنوع بالنسبة إلى فاعلية حقيقية مستخدمة لتسمية من خارج النحو أو لمُطلقي لا يملك، لجهة تعريفه، سمة إعرابية. ويصدد الموقع، رأينا في المثل أعلاه أن حالة المفعولية هي أكثر قرباً من الفعل، الأمر الذي يمكن أن يفسر الإلفة الشديدة لعلاقتهما. ويمكن لهذا كله أن يدل على أن الهندو-أوروبي الذي تُشتق اللاتينية منه، كان، في وقت غابر جداً، لساناً ذا بناء توافقي⁽¹⁵⁾.

إمكانات أخرى

لا يمثل النموذجان اللذان قدمناهما أعلاه الإمكانات الوحيدة، بالنسبة إلى فعل الجملة، لترتيب الممثلين اللغويين للمشاركين في الحدث، فنحن نجد ألسناً تميز فيها تحويلاً بين البناء المستخدم مع

(15) André Martinet, *Des steppes aux océans: l'Indo-européen et les indoeuropéens* (Paris: Payot, 1986), pp. 210 - 212, et 223 - 229.

أفعال لا تتضمن أي نشاط حقيقي مثل «مات» أو «رأى»، وبين أخرى، بالعكس، متعلّية أو غير متعلّية مثل «شاهد» أو «مشى»، نفترض تدخل الإرادة. ولكن الأبنية المستمدة مفعولية وتوافقية هي بلا مرء الأكثر تواتراً دون أن يكون بمقدورنا، للوهلة الأولى، أن نمنح كليهما الوسام، بمقدار ما تصادف نماذج متوسطة أو مختلفة، وعلى سبيل المثال، ذلك حيث تُظهرُ بضعة أفعال دائماً بناءً ما، وتُظهرُ أخرى دائماً البناء الآخر. ويجعلُ هذا بالطبع كلَّ تعدادٍ دقيقاً. ومن جهة أخرى، نرى كفايةً أية سابقة يمكننا افتراضها بالنسبة إلى النموذجين، بحيث أن اختيار هذا أو ذلك، في النهاية، هو، بطريقة ما، محصلة الصدف.

تعبير اختياري للوظائف

تقوم الحاجة، في كل لسان، لأن تكون دائماً وظائف تماثل الفعل، أي طبيعة علاقتها بالنواة الإسنادية، بينةً بوضوح. وأيضاً حيث يقوم نظام تماسك كلياً، ثمة دائماً ظروف أو استعمالات ظرفية، لا تتضمن مكاناً أو زماناً أو صيغة فحسب، بل الطبيعة المحلية، أو الزمنية، أو الصيغة لصلاتها مع الفعل، فـ (أمس) لا تعني «اليوم الذي سبق اليوم الذي نحن فيه»، بل اليوم من حيث هو زمن يجري فيه الحدث، وجافة سان - ميشال تعني شارعاً باريسياً رئيسياً، ولكن في السياق (اللقاء حدث في جافة سان - ميشال)، يدلُّ هذا الشكلُ نفسه، لا على الشارع الرئيسي بقاته، بل بوصفه مكاناً جرى فيه حدث ما. ويمكننا من جهة أخرى أن نحدد الأمر بقولنا (في جافة سان - ميشال).

ثمة ألسن تمتلك أغلب الكلمات الدالة فيها على المكان قيمة ظرف المكان دون إضافة مؤشر للوظيفة، فكلمة (غاية) مثلاً، تساوي في هذه الألسن (في الغاية). وفي ألسن أخرى، يمكن أن يمتد غياب

المؤشر عملياً إلى كل كلمات اللسان. وفي الواقع، ففي (عشب، بقر، رعى)، لا شك في أن الفاعل الحقيقي كان البقرة والمفعول به العشب، وفي جملة (ضربَ «بيار» «بول»)، إذا كنا نعرف «بيار» كموَلِّع بالضربات، و«بول» كمحتمل للآتي، فكل تعيين للوظيفة عديم الجدوى، أقلنا «بيار» «بول» ضربَ أو «بول» «بيار» ضربَ. وفي متحد لغوي ضيق حيث الكل يعرف بعضه بعضاً، ربما لا تقوم أدنى حاجة لتحديد من قام بالفعل، تلقائياً، أو من وقع عليه الفعل. وينبغي ببساطة أن نكون قادرين على تحديده في حالة أن يكون فيها جالوت الذي قتل داوود. وهذا يتطلب وجود أدوات اختيارية سنستخدمها حينما يمكن أن يقوم ليس ما.

تعبير إلزامي للوظائف

على كل حال، إذا امتد المتحد اللغوي، واكتسبت الصلات الاجتماعية مزيداً من التعقد، فيسجل يوم نميل فيه، بغية توفير كل رأي حول ضرورة استخدام *hic* و *non* لأداة ما، إلى استخدامهما تلقائياً. ولنفترض أن ثمة أداة لوُسم الفاعل الحقيقي وأخرى للمفعول، فقد يمكننا استخدام الاثنين بصورة منتظمة. والأمر مؤكد لدى الأسكيمو مثلاً. ولكنه سيكون أكثر وفراً أن نحدد الواحدة أو الأخرى. وإذا مثلنا أداة الفاعل الحقيقي بـ «فا»، وأداة المفعول بـ «مف»، فتجربة «بيار» الذي ضرب «بول» يمكن أن نتخذ واحداً من هذين الشكلين:

1 - «بيار» + فا + «بول» + ضربَ

2 - «بيار» + «بول» + مف + ضربَ

وفي العبارات التي لا يظهر فيها سوى مشارك واحد، مثلاً في يمشي «بيار»، لن تكون ثمة ضرورة لاستخدام أداة لتعيين الوظيفة،

ليس أكثر من أنه لن يكون ثقة ضرورة لـ «بول» في الأولى، أو لـ «بيار» في الثانية، وإذا كان الشكل الأول هو الذي برز في النهاية، فسيفظهر اللسان البناء التوافقي. وإذا كان الشكل الثاني، فستنتهي إلى بناء مفعولي.

العبور من نموذج إلى آخر

وكما رأينا أعلاه، لدى تصدينا لحالة اللاتينية، فالعبور من نموذج إلى آخر ليس مستحيلاً. ويمكننا، بهذا الصدد، أن نتبصر هذه سيرويات. ولكن ثقة واحدة يبدو أنها جارية على غرار التزوتوهيل أو لسان المايا، ففي هذا اللسان، نشير إلى المفعول بواسطة الضمير الشخصي، وإلى الفاعل الحقيقي بواسطة النعت الملكي: فـ «قُتلني» ستظهر مثل «أنا - خاصتي قُتل» (*moi-son tuer*)، وبشكل متوازٍ، «قُتل الرجل النمر الأميركي المرقط» تصبح «النمر الأميركي المرقط - قتل للرجل» (*le jaguar-tuer de l'homme*). ولكن إذا لم يدخل المفعول في الحساب، ويصبح الفاعل الحقيقي، بناء على هذا، المشارك الوحيد، فسيكون لـ «قُتل» منزلة اللازم، وستصبح «هو قُتل» (*il tue*) إذا «هو - فَعَلَ القتل» (*lui-tuer*)، وستصبح عبارة «الرجل يقتل» (*l'homme tue*) «الرجل - فَعَلَ القتل» (*l'homme-tuer*). ولكننا، وبعد عرضنا التجربة بهذا الشكل، إذا كنا نلاحظ، على كل حال، أن المفعول ليس لامبالياً إلى الحد الذي غتناه عليه، فتحة سبيل لإظهاره بواسطة أداة من نموذج «أما بالنسبة إلى» (*quant à*). فنصل إذاً إلى ما يشبه «الرجل - فَعَلَ القتل - أما بالنسبة إلى النمر الأميركي المرقط» مع معنى «الرجل قُتل النمر الأميركي المرقط»، إذاً إلى بناء من النموذج المفعولي، مع الفاعل الحقيقي في الموقع المركزي والمفعول مُقحماً بواسطة مؤشر وظيفي (Berthelot, 1986). ويتفق أن هذا النموذج من البناء، في لسان التزوتوهيل المستخدم حالياً، في

طور التكاثر. وبالنظر إلى ذلك، فتأثير الإسبانية، من دون شك، لدى سكان مزدوجي اللغة إلى حد كبير، أمر لا يمكن تجاهله. ولكن الأسلوب نفسه يخضع جيداً لبنية اللسان.

حالة الموقع كسمة

حيثما نميز في بناء متعّد، مثلما في الفرنسية، التعبير عن الفاعل الحقيقي من التعبير عن المفعول عن طريق الموقع المختص بعناصر الخطاب، المطلق - الفاعل قبل الفعل، والمفعول - المفعول بعد الفعل، فالمطلق فاعل لفعل لازم يأتي بدوره في المقدمة، ولهذا نصّفت الفرنسية في عداد الألسن ذوات البناء المفعولي. ولكن كما هو معلوم، فمن المتواتر أن الفاعل يتبع الفعل اللازم، الأمر الذي يمكن أن يحدث بالطبع من دون الوقوع في خطر اللافهم. ولكن في حال امتدّ هذا الخيار، ووجدنا في نصف الحالات مع فعل لازم الموقع المعاكس لذلك الذي كان متوقعاً، فمعيار الكيان الشكلي للمشاركة الوحيد وللفاعل الحقيقي (للتركيب المفعولي) أو للمفعول (للتركيب التوافقي) يمكن أن يبدو ذا صعوبة. ويبدو أن المسألة مطروحة بالنسبة إلى الصينية حيث التعبير عن المفعول به مؤخر عن الفعل، والتعبيري الفاعل الحقيقي (فا) تابع، والتعبير عن المشارك الوحيد (م. و.) هو غالباً مؤخر، ولكنه أيضاً تابع (مارنيه، 1985، ص 8 - 42). وفي هذه الحالة، فإن تعبير المفعول به وإمكانية اللاتعبير عن الفاعل الحقيقي هي التي يمكنها أن تخلص إلى تعيين (م. ف.) و(م. و.) وإلى تصنيف العبنة ضمن الألسن ذوات البناء للتوافقي.



الفصل السادس

المعنى

إذا كنا نعالج المعنى والوحدات البليغة، فذلك لأن هذه الأخيرة بحكم شكلها الممكن الإدراك، تحافظ على الصفة المتميزة الخاصة بالوحدات اللغوية. والمعنى نفسه حينما لا يكون مدلولاً متضمناً في دالٍّ، فهو يمتزج بالتجربة التي يمتلكها كلُّ منا عن العالم. إنه يشتمل، بالتأكيد، على كلِّ ما نرغبُ في نقله بواسطة لسانِ ما. ولكن السؤال الذي يُطرحُ بالنسبة إلى كلِّ منا هو في التوفيق بين عناصر تجربتنا الفردية والقيم المسئنة من خلال المتحد الاجتماعي إلى مونيماَت لسانه. وإذا كان المقصودُ تجربتنا اليومية، فهذا التوافق مؤمنٌ منذ أمدٍ بعيد. وحينما نرغب في نقل رؤية مبتكرة للعالم أو لبعض من مظاهره، كما هو حالُّ الشاعر، والباحث، أو أيِّ شخصٍ آخر في بضعة ظروف، فعندها يمكننا أن نعي لاملأمة الأداة اللغوية، فالمسافة بين لسانِ ما والحقيقة المعبوشة هي، إذا صحَّ القولُ، ما نبحث عن إبرازه في القسم الأول من هذا الفصل.

1.6 - لسان ما والعالم⁽¹⁾

إن ما أتويه هنا لا يتمثل في استعادة الفرضية التي مفادها أن رؤيتنا للعالم هي، في آخر المطاف، محدّدة بالبنية التحوية والمعجمية، للسان الذي تعلمناه في طفولتنا. هذه القضية التي تقدّم غالباً على أنها وجهة النظر الهمبولتية الجديدة^(*) (néo-humboldtien) أو مثل فرضية سابير - وورف (l'hypothèse Sapir-Whorf)، تستمر في استحقاق كل اهتمامنا. وينبغي، من دون شك، ألا نبالغ في أهميتها: ف رؤية العالم التي يفرضها علينا لساننا الأول لا تمنعنا أبداً، وجذرياً، من اكتساب رؤية جديدة عن طريق تعلّم لسان ثانٍ، فالترجمة من لسان إلى آخر لا تعني الخيانة، أو كي نستعيد مثلاً مشهوراً، فترجمة آثار أرسطو إلى لسان (فبائل) الهوبي (hopi) ليست قطعياً غير قابلة للتفكير. ولكن يبقى أن كل نقل من لسان إلى آخر يتطلب، كي يكون كافياً، إعادة تفكير، وينشج بالضرورة عن جهد فردي للإفلات من الضغط الفعّال جداً الذي يسيّبه التعلّم الأول للغة في متحد اجتماعي خاص. والتفكير الغربي لن يكون على ما هو عليه لو كان أرسطو قد صاغ آثاره بلسان الهوبي.

ونظراً أخيراً، ولكن ليس من دون عنايه، ثورة معنوية تفوّض التوازن القائم، ثورة تولدانية فطرائية وعمومية، تصادر الكيان الأساسي لكلّ الألسن. وبالنسبة إلى السنج، فالعالمية غالباً ما قدّمت على أنها منشاء مساواتية ترمي إلى اتباع الجدارة والمقام نفسيهما

Dilbâtin, vol. 5 (1980), pp. 1-12.

(1) نشرت مع ملخص بالتركية في:

(*) néo-humboldtien: نسبة إلى غيوم دو ميولت (Guillaume de Humboldt)

(1767 - 1820)، فقيه وفيلسوف لغوي وعلومسي ألماني درس مجموعة متنوعة من الألسن: السنسكريتي، والصيني، والهندي، والياباني، بالإضافة إلى الألسن الهندية الأميركية: تأثير الضعيف إثر موته تلمس مجدداً في القرن العشرين (كروم - تشومسكي).

لمحكيات المتحدات الاجتماعية ذوات الأحميات البسيطة والمجردة من الاعتبار كما للألسن الحضارية الواسعة الانتشار. ما كان مقصوداً، في الحقيقة، وبشكل لا واعي، هو في الأغلب عملية تسلطية تسعى إلى إقناع الجمهور بأن البنى المسجلة في «الألسن الواسعة الانتشار»، والإنجليزي خاصة، كانت تتلاقى، حيث كان، بأشكال مختلفة ظاهرياً. ولم تكن تطرح السؤال، مثلاً، لمعرفة إذا ما كانت البنية الأساسية للألسن المهيجنة، بواسطة فاعلي (فا) ومفعول (مف) مجتبعين حول فعل (ف)، حقيقة عالمية. كنا نؤكد عليها بهدوء، والخيارات الوحيدة المسلم بها تمثلت بالمواضع المختصة بالعناصر الثلاثة فا، مف، ف. وكي نحدد، في لسان معين، ما كانت فا، مف، ف، كنا ببساطة نترجم عبارات هذا اللسان إلى الإنكليزية، والفرنسية، أو الإسبانية، ونعين بمثابة فاعلي، ومفعولي، وفعل، ما كان ينهض في الترجمة، فعلياً، بهذه القيم أو هذه الكيانات.

أما والحالة هذه، فنحن نجد ألسناً لا نفرق فيها الأسماء من الأفعال، زكّض من الركض، عُمل من العمل، وحيث لا ينبغي إذا الكلام لا عن الفعل، ولكن عن نواة العبارة، ومن جهة أخرى، ثمة آلاف الألسن، عبر المعمورة، حيث تمتلك مفردة رجل في «الرجل مشى» (ثمة) «مشي للرجل» وفي «أنا أرى الرجل» (ثمة) رؤية للرجل من قبلي) يمتلك نفس الدور النحوي، ذلك العائد للمحدد المركزي للمعنى الذي يسم الحدث. وبالفعل، فالترجمة الفرنسية، في الحالة الأولى، فاعلي، وفي الثانية، مفعول، نعزو للثنيتين وظيفتين متميزتين. إن تأسيس تحليل للسان على الترجمة، والكلام، هنا، عن فا، وعن مف، هو أن نفرض بلا قيد وشرط، على اللسان الآخر سمّة من بنية الفرنسية. ولكوننا لا نعتقد أن هذا الاعتصاب اللغوي يتوقف عند عمليات اللساني داخل القاعة، ففي المناطق

الباسكية في أوروبا الغربية، تقترح مدروسات ناطقات بالإسبانية أو بالفرنسية يومياً على تلاميذهن التحليلات الخاطئة نفسها.

أن نسأل كما يفعل البعض منذ حوالي الخمسة عشر عاماً، معشقين كل الألسن على أساس الطريقة التي ترتب فيها فاء، مف، ف، فهذا بالطبع ليس فرضاً اعتباطياً لوحدات على السن لا يعرفونها، ولكنه أيضاً عدم تمييز بين مواقع ملائمة وأخرى هي ببساطة اعتيادية، فالمواقع المختصة بالفاعل وبالمفعول في الفرنسية وفي الإنجليزية هي ملائمة، لأن هذين الموقعين يسمحان بموضعة الوظيفتين في العبارة، أما الاعتياديتان ببساطة، والخاضعتان لعدة مصادفات، فهما تلك العائدتان للفاعل وللمفعول في اللاتينية، مثلاً، حيث هاتان الوظيفتان معنيتان شكلياً بواسطة علامات إعراب خاصة.

ينبغي، كما يبدو لي، أن تذكر، قبل أن نقارب الفاعل الحقيقي للبحث الحالي، إلى أي مدى تستطيع الألسن أن تتباين الواحد عن الآخر، وحتى عندما يتوجب عليها أن تستخدم لإيضاح الحقائق التي تميل في عالم يضيق كل يوم، إلى أن تتعين أكثر فأكثر.



وكما ذكرنا أعلاه في عبارات أخرى، فكل لسان يوافق تحليلاً خاصاً بمعطيات التجربة. ومعطيات التجربة هي ما نشير إليه في العادة على أنه العالم الذي نعيش فيه، ذلك الذي نعرفنا به حواسنا وامتداداتها التي تأخذ شكل آلات اخترعها الإنسان. والوحدة الأكثر مباشرة لهذا التحليل هي العلامة اللغوية، المتطابق بين انبناء صوتي معين ورقة فعلنا تجاه حقيقة ما مدركة، مثلاً، الناتج التصويتي / طاولة/ وإدراكنا للمشيء طاولة، أو أيضاً العبارة الأكبر (الطاولة كسرت)، ورقة فعلنا على الاستنتاج بأن الطاولة لم تعد صالحة

للاستعمال. إن عبارة من هذا النوع ممكنة التحليل إلى علامات دنيا تسمى «مونيما».

ولكن كل شيء ليس على هذه البساطة بالطبع، فالسطح يُظهر علامات دنيا تتحلل بدورها إلى فونيما، تشترك إذاً بتعيين الوحدة دون أن تحيل إلى حقيقة ما مدركة وخاصة. ويمثل كل من هذه الفونيما عادةً منطقية متميزة لا تتأثر، من حيث المبدأ، بما نسميه معنى المونيم أو العلامة الأكثر اتساعاً الذي يرد فيه: فنطق فونيم /v/ في الفرنسية، لن يتعدّل باستمرار في ضوء ردات الفعل الخاصة التي يمكن أن تثيرها، لدى المتكلم، الحقائق الموافقة للمونيما *vene* (هواء)، *violent* (عنف)، *vache* (بقرة)، أو *venin* (سُم).

وعلى صعيد المونيما، علينا أن نميّز بسرعة كافية بين قطبين: يعود الأول للوحدات التي تنطيق على أشياء أو مواقف خاصة جداً. وفي كل أولوية ثمة تلك التي نسميها أسماء العلم، والتي بما هي عليه، لا تدلّ إلا على وحدة معينة بشكل تام. ثم هناك كتلة المونيما التي توافق نموذجاً معيناً من الحقيقة، ثابت أو متحرك. إنها تلك التي تشكّل ما نلتجئ إليه حينما نتحدث عن المعجم. المقصود هو المونيما الوافرة إلى حد كبير، والتي يُعرف تواترها، المتوسط في العبارات، بأنه ضعيف نسبياً لأن كلاً منها لا يُظهر إلا حينما يكون الموضوع هو الموقف الخاص الذي يوافقه. أما القطب الآخر فيعود للمونيما التي انتهت، بمرور الزمن، إلى أن تدلّ على حقائق غير محددة بشكل جيد وفات تواتر كبير، مثل الحركة تجاه شيء ما أو الحركة انطلاقاً من شيء ما، وعلى سبيل المثال، في الإنجليزية *from* و *to*، أو تدلّ أيضاً، في خلد المتكلم، على الشك المتمثل بمونيم الصيغة الاجتماعية مقابل اليقين، وفي الأغلب من دون سمة واضحة في العبارة.

تعرفنا هنا على التضاد التقليدي بين ما هو معجم وما هو نحو اللغة .

سنجانب الحقيقة إذا أقمنا تضاداً فاصلاً إلى حد كبير بين المونيمات النحوية وبين تلك المعجمية. والأولى القول إن ثمة قطبين كما ذكرنا أعلاه. والتضاد بين عناصر وظيفية وبين عناصر غير وظيفية هو جوهرى إلى حد كبير حينما يكون المقصود تصنيف المونيمات، فالأولى مكلفة بوسم العلاقات، وتطالب، بغية الظهور، بوجود العنصرين اللذين يُراد أن تصل بينهما، أما الثانية فيمكن أن تظهر على شكل نواة مركزية للعبارة أو مثل محدّد لمونيم آخر. وإذا درّنا العنصر الوظيفي بواسطة و، والعنصر غير الوظيفي بواسطة أ وب، فسنقول إن شروط ظهور العنصر الوظيفي تتمثل بوجود العنصرين الآخرين أ وب، إذا أ + و + ب

(رأس [الـ] رجل *[l'] tête de l'homme*)، التي نتحقق بدورها بشكل أ+ب و: وفي اللاتينية (*caput hominis*)، أو ب و+أ وفي اللاتينية (*hominis caput*). وفي المقابل، يمكن للعنصر غير الوظيفي أن يظهر إما وحدة بشكل أ (أنت غنّ *chante*)، أو مصحوباً بعنصر واحد (محدّد) ب بشكل أ + ب (أ ب في اللاتينية *cantat*) أو ب + أ (هو يغني *il chante*). مثل آخر لـ ب + أ: الرأس، ولـ أ (+) ب: رؤوس (*heads*) في الإنجليزية.

وحينما يكون المقصود فهم العلاقات بين اللسان والعالم، فالرجوع ينبغي أن يكون إلى التضاد بين نحو اللغة والمعجم، فالوحدات النحوية، كما رأينا، هي تلك التي تنصف بثواتر مشوّط عالٍ: ومن بين حروف الجر الفرنسية، يمتلك من *de* ثواتر ملحوظاً في العبارات، أما *hors* (خارج)، فهو أكثر منه ندرة، ولكن كليهما يتعيان إلى هذا الصنف ذاته من حروف الجر، وما

ينبغي أن يستوقفنا هو التواتر المتوسط لحروف الجر⁽²⁾ ويمكن للموحدات النحوية أن تكون وظيفية، سواء أكانت مونيمات مثل حروف الجر، التي تفحصناها للتو، أم وظائف مثل الفاعل والمفعول في الفرنسية، والموسومين من خلال موقفهما في العبارة. ويمكنها أيضاً أن تكون غير وظيفية، مثل أزمنة الأفعال، وصيغها، أو أسماء العدد. وهذه الأخيرة هي عادةً صيغ، أي مونيمات تتصف بأنها لا يمكن أن نستوفي تحديداً ما⁽³⁾.

نقول غالباً إن الوحدات النحوية هي تلك التي تنتمي إلى أصناف صيغة التمام المحددة. ويصلح هذا للصيغ، ولكننا نستنتج في حالة العناصر الوظيفية، أن جديدات تظهر بثبات عن طريق قولبة التراكيب المختلفة، ففي الفرنسية مثلاً لدينا: (في أثناء) *au cours de* (وصف أو دراسة) (*histoire de...* (بحيث أن) *de sorte que* . (إن الصيغ والأزمنة والصيغ الفعلية والهيئات والأعداد... إلخ، تمثل عادةً أنظمة مغلفة تشمل على عدد محدد من الوحدات القصيرة بالتبادل.

وفي التقليد النحوي الأوروبي، نقيم، في هذه الحالة، أنظمة ملزمة مثل: إن كل فعل يمود بالضرورة «إ» زمن ما، «إ» صيغة فعلية ما، «إ» هيئة محددة ما، وإن كل اسم هو «إ» عدد ما. وعندما نعمل بواسطة مونيمات، أي وحدات متصفة باختلاف شكلي وقيمة مدلولية، فنحن لا نرى جيداً كيف يمكننا، في الفرنسية، مثلاً، أن

(2) كي نصل إلى هذه الشئ، سنكتشف كل حروف الجر التي صلاقتها هي هذا النص، وستقسم المجموع على عدد حروف الجر المميزة.

(3) نجد بالمقابل عناصر لا وظيفية ذات شدة عظيمة ومتوسطة، مثل الضمائر الشخصية في الفرنسية، التي لا تتغير صيغاً، يحكم أنها قابلة للتعبير عن طريق تضاد: هي، ابنة الآله.

نقيم مونيماً «في صيغة المضارع»، ومونيماً «في الصيغة الإخبارية»، ومونيماً «مفرداً»، لأن الاختلاف الشكلي، في كل هذه الحالات، الموافق لغياب علاقة الإعراب الفعلية أو الاسمية لا يترافق بأية قيمة إيجابية مضافة إلى تلك العائدة للمونيم الفعلي أو الإسمي، ففي: (هو) يغني (*il chante*)، لا يسبب الاختلاف الشكلي مع (هو) غنى (*il chantait*)، (هو) سيغني (*il chantera*)، فليغنى (هو) (*qu'il chante*)، أية قيمة مضافة إلى تلك العائدة لـ «فعل غنى»، فـ (هو) غنى تتضمن حدث الغناء دون انطواء على شك أو على لاوجود حقيقي («الصيغة الاحتمالية») ومن دون إشارة إيجابية للزمن (يغني الأسبوع المقبل في إسطنبول، في عام 1985، يغني طوال فصل الشتاء في السكالا). ويمكن أن يحدث، وأقله في بضعة سياقات، أن تستتبع قيمة مدلول إيجابية عن طريق غياب أي سمة ممكنة الإدراك: فمونيماً «حالة الإضافة» و«الجمع» في الروسية مثلاً، لا يمكن تعيينهما في الشكل *ryb* «سمك»، إلا من جزاء غياب أي عنصر إعرابي [راجع *ryba* (سمكة)، *ryby* (سمك)]، ولكننا لا يمكن أن نقيم مونيماً هنا حيث الدال صفر يوافق المدلول صفر⁽⁴⁾.

ولا يحول هذا كله من أن الموقع التقليدي، بهذا الصدد، يوافق جيداً شعور المستخدمين: فظهور فعل ما بالنسبة إلى متكلم فرنسي يفرض عدداً محدداً من القرارات المتعلقة بالزمن الذي ينبغي استخدامه وبالطابع الحقيقي أو الافتراضي لما قيل، فاستخدام صيغة المستقبل أو الصيغة الاحتمالية يغيّر كلياً اختيار ظرف أو مجموعة ظروف لتحديد قيمة الفعل. ثمة إرغام من جهة، وحرية من جهة أخرى.

(4) انظر: Jeanne Martinez, «Zéro c'est riche», dans: *Linguistique fonctionnelle. débats et perspectives* (Paris: PUF, 1980).

وعلى صعيد الوظائف التحوية، نجد التضاد نفسه بين إرغام وحرية: فمن جهة هناك، الالتزام باختيار فاعل وبصفة مفاعيل (يَضَعُ سيارته في المرأب) والقرار بتقديم أو لا تقديم، بعد فعل ما، مفعول أو مضاف، ومن جهة أخرى ثقة الخيار غير المحدود بالسياق في استخدام ظروف المكان والزمان والحال.

فلنعد إلى التضاد بين النحو والمعجم، بإمكاننا أن نصف الأول على أنه ميدان الخيارات المحدودة والمفروضة أكثر مما ينبغي. هذه الخيارات، على صعيد الاقتصاد العام للاتصال اللغوي، تنفسي إلى أتمنة تختصر عدد القرارات التي على المتكلم أن يأخذها. وبعبارة أخرى، فالعناصر التحوية للسان، تُقدّم - كما الفونيمات - كأدوات، مع أنها تحفظها، الأمر الذي يميزها عن هذه الأخيرة، بقيمة دالة ما.

وتجاه الكتلة الوظيفية الممثلة بالفونيمات ونحو اللغة، يمتدّ حشد العناصر المعجمية، التي سينبغي على المتكلم أن يعتمد إلى انتقاءات من بينها، كي ينقل إلى الآخرين، بقدر أقصى من السعادة، ردة فعله بالنسبة إلى العالم الذي يحيط به. سينبغي على كلّ المستخدمين، وفي كلّ لحظة، أن يلزموا أنفسهم بهذه المهمة الملتهمة للطاقة. وفي الحياة اليومية، نستسلم جميعاً لرغباتنا، إن بصدد المعجم وإن في حقل النحو والفونولوجيا، موجّهين بواسطة هذه الآليات. وتجاه مواقف متواترة تتوافق عبارات مكررة مئة مرة، البعض منها يتجندّ ويستحيل صيفاً. ويحفظ بعضها الآخر لمناصرة المؤلف إيمانية أن ترى نفسها، ليس فقط مستبدلة، واحدة فواحدة، بسواها من الصنف ذاته، ولكن محدّدة بدقة عن طريق إضافة محدّد ما. ولكن، هنا أيضاً، فتحنّ لن نقوم أبداً إلا بتكرار عبارات سُمعت سابقاً أو استخدمت في وقت لاحق.

وبالمقابل، فإلى جانب المواقف التي تمتلك فيها النتائج اللغوية كثافة إخبارية ضعيفة جداً يمكن لبضع إشارات، أن تؤدي بسهولة الخدمات نفسها، ثمة مواقف تكون فيها رغبتنا في مشاطرة آرائنا أو في فرض إرادتنا، كبيرة لدرجة أننا نجهد في البحث عن «الكلمة المناسبة». وهذه أيضاً طريقة للاتكاء على سوابق، أي أن ندمج نظرتنا الخاصة بنظرة الآخرين الذين سبقونا، ولكن أن ننسق بأسلوب مبتكر الوحدات التي تلقيناها عن طريق التقليد.

حينما نضع معاً، للمرة الأولى، العنصرين أ وب، يمكن لقيمة أن لا تكون محوّرة، بل محدّدة بدقة: وإذا تحدثت عن طاولة شبه منحرفة، فإضافة الصفة لن تحوّر في شيء، القيمة التقليدية لهذا الاسم، قيمة «الخشب المزينة الارتفاع». ولكنني إذا تكلمت عن أوقيانوس من الهموم، فأنا أخفي على أوقيانوس قيمة شديدة الاختلاف عن تلك العادية لـ «بحر لا يُحَدّ»، وعن طريق هذا القرار الشخصي، فأنا أهيئ تطوراً لقيمة هذا المصطلح نحو القيمة العائدة لـ «كتلة بلا نهاية». وسنسمى، بالتأكيد، لرؤية امتياز للشعراء في استخدامات معاكلة. ولكن ينبغي عندها أن نسلم بأن كل إنسان يمكن أن يكون شاعراً وفق أهوائه. ويكفي لذلك أن تجعله حيوية ذات فعله يشمر بالحاجة إلى صرف النظر عما يوفره له التقليد اللغوي ليه.

إن ابتكار سياقات جديدة هو المصدر، ليس فقط لتراكيب يمكنها أن تتطور إلى مونيمات مركبة من طريق القولة، ولكنه مصدر لتعدد الدلالات، لهذا الخيار، لكل عنصر معجمي في توسيع ميدان مراجعته تدريجياً، لدرجة أننا لم نعد نعرف إذا ما كان الأمر يتعلق بالمونيم نفسه أو بعدة مونيمات مجانسة لفظياً: فتجاه الأربع أو

الخمس قيم المتميزة للدالّ الفرنسي فريز⁽⁵⁾ (*fraise*) وعلى مرأى من الشكوك التأيلية، فتحن قلقون لإبداء رأينا. أما والمحاثة هذه، فلدى التفكير، لن يمكننا أن نرى بوضوح، من دون تعدّد الدلالات، كيف يمكن للإنسان أن يرضي احتياجاته التواصلية اللغوية، فرواية أشياء مختلفة بواسطة الأشكال عينها ووفق السياقات تشكل واحداً من أساسيات أي اقتصاد لغوي، فالعالم - ونريد بالطبع أن نقول الإدراك الحسي الذي نمتلكه عن العالم - هو لامتناه، ولا تسمح الوحدات القائمة بذاتها لتحليلاتنا أن تعرضه أبداً. ولكننا يمكن أن نميل إلى هذا المثال إذا كان كل مونييم، وحدة قائمة بذاتها كلياً بوصفها دالاً، قابلاً وفق مصادفات التوافقات غير المتوقعة، لأن يرى قيمته المدلولة تتلاءم مع احتياجات اللحظة.

وفي خط اللسانيات البنيوية الناشئة عن التفكير الفونولوجي، نفتر في هذه الظروف أن الباحثين الذين أصابوا نجاحاً أشاروا أيضاً طويلاً إلى أنهم عالجوا الوحدات التمييزية ونحو اللغة، وكان عليهم أن يتخلوا عن المناهج التي خدمتهم جيداً حالما رغبوا في مقارنة دراسة القيم المدلولة للميدان المعجمي.

ليس من السهل دائماً الإحاطة بسمات المعنى العائدة لبضعة مونييمات نحوية: وإذا وصلنا سريعاً إلى تحديد وإيضاح القيم الإشارية والمذكّية العائدة لبضعة محققات للاسم في الفرنسية، مثل:

(5) الفريز هو، بالطبع، نوع من الفاكهة، ولكنه أيضاً يالفة مئة من درجة القرن السادس عشر، وهو أيضاً أدلة يستعملها طبيب الأستان أو الخراط، وهو أخيراً الغشاء الذي يغطي الأمعاء ويربطها بالجدار البطني للعجل. ويظهر الشكل، علاوة على ذلك، في التعبير الأرغوني «هو يترّد الفريز خاصته»، الذي تفسره، من جهتي على أنه «ها هو يبحث في أن يفرض نفسه على...» وحيث يمكننا شرعاً أن نترّد في إلحاق «فريز» بواحدة من هذه القيم المدلولة السابقة.

(هذا) *ceci*، (ذاك) *cela*، (خاصتي) *mon*، أو (خاصتك) *ton*،
سنمضي بسرعة أقل عندما يكون ماضي الديمومة أو الصيغة
الاحتمالية هما المقصودين، وتجاه «الصيغة الشرطية»، بإمكاننا أن
نتساءل شرعياً إذا لم يكن علينا أن نقيم تزامنياً مونيمين مجانسين
لفظياً وسمييزين. وليس سهلاً كذلك أن نحدد كم من الوظائف
النحوية المختلفة يُعَبَّرُ عنها عادةً بواسطة حرف الجر (*de*) وحده.
ولكن إذا كان نحو اللغة يشتمل على مسائل معنوية صعبة الحل، فإن
إثارتها بوضوح على الأقل ممكنة دائماً.

ويختلف الأمر في ما يتعلق بالمعجم، وليس هذا فحسب، كما
شاهدناه لجهة الصفة المتغيرة الشكل للمدلولات التي تصادفها لديه.
وبالفعل، فلم نعد نعلم، هنا، السلوك الحقيقي الذي على المعالجة
أن تستند إليه. ويصدد الفونولوجيا ونحو اللغة، يمكننا أن نعمل
انطلاقاً من مدونة يمكن أن تكون قصيرة إلى حد ما في الحالة
الأولى، وأطول بعض الشيء في الثانية، ولكن بحيث ستتولد لدينا
بصفة حظوظ لاستنفاد الجوهرية. ويمكن لموضوع مختار كممثل
للاستخدام المدروس أن يوفر لنا كل الممطيات المرغوبة. ولا شيء
من هذا القبيل في ما يتصل بمفردات اللغة. ووفق معايير الجنس،
ودرجة الشفافة، ونوع المصالح، والمهنة، والفرد يستخدم هذا
المصطلح أو ذاك مميّزاً إياه بدقة عن سواه، أو هو يستطيع استخدامه
بطريقة سقيمة بعض الشيء، أو هو يعرفه أيضاً بشكل سلمي، ويمكنه
أن يماثله بوصفه متشعباً إلى هذا الميدان أو ذاك، أو هو في النهاية
سينجاهله كلياً. ويصدف أنني لا أصرف فحسب بأن الخضيرى
(*verdier*) طائر، بل أيضاً أن باستطاعتي أن أمثل واحداً من حينما
أشاهده. ولكن الخضيرى بالنسبة إلى أغلبية الناطقين بالفرنسية
سيكون، في أفضل الأحوال، ممثالاً بوصفه كلمة قائمة، أو ببساطة
بوصفه لفظة محتملة لا تتعلق بها أية قيمة محددة.

وبلا ريب، أليس هناك في كلِّ لسانٍ مفرداتٌ أساسية يمكن من خلالها أن تفكر أن كلَّ المستخدمين سيتوافقون على أن يعزوا القيمة ذاتها لكلِّ مصطلح. ولكن حالما ندفع بالتحقيق بعض الشيء إلى الأمام، وعلى شيء من التطلُّب، نلاحظ كم هو محدود الميدان المعجمي حيثُ التوافق هو في الحقيقة عمومي.

ويمكننا، بصدد مفرداتِ اللغة، أن نميِّز ذلك الذي نعرفه بخاصة عن طريق المقابلة مع شيءٍ محدَّد أو تجربةٍ منوارة موصوفة بشكل جيد، وذلك، الأكثر تجريداً، حيث في التحليل الأخير، سمحت سياقات لغويةً بتحديد قيمة كلِّ مصطلح، فمن جهةٍ لدينا، مثلاً، مؤز، ومن جهةٍ أخرى، ديمقراطية.

تبقى مفرداتُ اللغة، من ضربِ مؤزٍ تحت الارتباط المباشر لتجربة كلِّ منا: وقد استمرت كلمةٌ يرتقال لدى الأطفال الفرنسيين في الحرب العالمية الثانية، مثل أسطورة، ولكن عندما عاودت هذه الثمرة الظهور في الأسواق، لاقت ترحيباً مثل «تفاحة غريبة، غير مأكوفة». والمونيم، هنا، لا يبقى بقيمته الخاصة، في الحالة نفسها، إلا بقدر ما يمثل الشيء نفسه لأجلٍ طويل.

أما بالنسبة إلى القيمة المدلولة لمفرداتِ اللغة من ضربِ ديمقراطية، فهي أكثر ثقلأً، لأنها تخضع لارتباط السياقات حيث تصادفها، وفي غياب أي شيء ملموس ذي مرجع، فهذه السياقات قابلة لأن تتغير حسب الأفضليات ووفق مزاج كلِّ منا. ويمكن من دون شك، للموافقات التي تقوم أن تسمح بمراقبة بضعة سياقات. ولكن التضمينات الشخصية تستمر على المستوى الخلفي، وستكون قابلة دوماً لأن تظهر، بخجلٍ أولاً، ولكن بثباتٍ أشد في ما بعد، وسفرض في النهاية نفسها على تلك التي تصادف صدئ لديها.

ويغض النظر أكان ملموساً أم مجرداً، فالمعجم لن يمثل يتفع
 دوزة إلا إذا تلاءم مباشرة مع الظروف كي يؤمن كل الاحتياجات
 التواصلية. وبخلاف ذلك، يمكن أن نتظر من فونيمات ما ومن نحو
 اللغة أن تؤمن الاستمرارية في الزمن، فهي في الحقيقة الضامنة لكبان
 اللسان، فالفتاة السافواردية^(*) الصغيرة التي قالت: *abade bien les*
(plates pour camber le goillat)، تكلمت لا شك بالفرنسية لا باللهجة
 الفرعية المحلية التي اقترضت منها كل معجمها (*«abade»*: أنت أبعد
(écarte)، *«plates»*: فخذ *(jambe)*، *«comber»*: تخطى
(enjamber)، *«goillat»*: متنع (*flaque*)، باستخدامها تحديداً فونيمات
 ونحو اللسان الاعتباري⁽⁶⁾.

ومن دون شك، فالموضوع ليس أبداً أن ننفي إمكانية التصويت
 والنحو العائدين للسان ما في التعبير مع الزمن. وعلى كل حال،
 فاللسانيات الوظيفية، الأولى التي أظهرت أن احتياجات الاتصال،
 المسؤولة في التحليل الأخير، من تطور الأنظمة الفونولوجية، هي
 التي تبدو للوهلة الأولى الأقل تعقيداً لغضاً هذه الاحتياجات.
 والصيغة التي نطّر إليها طويلاً كنزوة «يتغير لسان ما لأنه يشتغل»
 تصلح جيداً على كل المستويات. ولكن هذا الأمر لا يبطل الاستنتاج
 بأن وظائف لسان ما تتطلب، حول نواة متبينة بدقة وثابتة نسبياً،
 وجود موارد معجمية أكثر مرونة وجاهزة دائماً كي تحاول أن تعكس
 التنوع اللامتناهي للتجارب الإنسانية.

ومن جهة أخرى، فوجود مفردات علمية للوحدات المحددة
 على وجه التمام لا يتضمن أن صلات لسان ما بالعالم ستكون شيئاً

(*) نسبة إلى مقاطعة السافوا في الألب.

(6) هلك، في التلويح الصوتي، ما تكون العبارة في اللهجة الفرعية المحلية:

[a'badde bje ɛ 'plo: d'po ka'bo ɔ go'la].

مغايراً لما عرضناه للتو. ولا يمكن لعلم ما أن يقوم بوصفه متميزاً عن تفكير ميتافيزيقي أو فلسفي، إلا في النطاق حيث نكون قد اخترنا له، ملاءمة ما، معياراً انتقائياً يسمح له بأن يعرض بدقة بضعة أحداث، ولكنه يتضاد مع كل ادعاء يمكن أن يقوم لديه في إظهار العالم بالكامل في تنوعه اللامتناهي.

إن اللسانيين هم الأفضل تسلحاً من الآخرين لمعالجة الصلات التي تقوم بين لسان ما والعالم، أي مقارنة المسائل المعجمية، وبصورة عامة، معايمة الطريقة التي يُمارس فيها الاتصال بين الناس، في الواقع، أخذين بعين الاعتبار الظروف كافة. ولكنهم سيجانبون الحقيقة إذا اعتقدوا أن المقصود هنا هو المطاف الأخير لأبحاثهم. إن جوهر اللغة الإنسانية يتمثل في النواة المتبينة والتي يصنع منها الطابع المتميز كلياً الأصالة تجاه الاستمرارية والتنوع اللامحدود لتجربتنا عن العالم.

2.6 - ما علينا أن نفهم من «التضمين»؟⁽⁷⁾

يعتبر تضمين⁽⁸⁾ ما *connotation* في الاستخدام المحض عالمي، مصطلحاً منطقياً يبدو أن قيمته الصحيحة تختلف حسب المؤلفين. وغالباً ما يُورن بـ «فهم» *compréhension*، وكما في هذا الأخير، فإن اللاحقة *con-* أو *com-*، تستنبع تشكيل مجموعة وليس استلحاق بضمة عناصر إضافية.

(7) مداخلة قُدمت في الحلقة الدراسية حول السيميائية الثموية المنعقدة في مكسيكو، في نوفمبر 1979، ونشرت تحت عنوان: «Qué debe entenderse por «connotation»» *Acta poética*, no. 3 (1981), Universidad Nacional Autónoma de México, pp. 147-161.

(8) ما يشير استعمال العناصر اللغوية، ولا سيما الكلمات، من العواطف والأفكار في نغم الفرد أو المجموعة، انظر: معجم المصطلحات اللغوية (إنجليزي - عربي)، رمزي بعلبكي (بيروت: دار العلم للملايين، 1990)، ص 115.

شاع لدى اللسانيين وبالتعميم، في لغة الفكر، استخدام لمصطلح يبدو مؤكداً، في الإنجليزية، منذ القرن السابع عشر، وبمقتضاه فإن «تضمين» تفيد قيمة دلالية مزيده تضاف إلى المعنى الأساسي المعروف بـ «الدلالة الذاتية»، وأقترض بضعة توضيحات من معجم أميركي جيد (*Thorndike Century Senior Dictionary*)، فالصفات الإنجليزية: *portly* (بدين)، *corpulent* (سمين)، *obese* (بدين)، تمتلك جميعها معنى «ضخم» لدى كلامنا عن شخص ما، ولكن *portly* (توحي بالكرامة)، و *corpulent* (بالكتلة)، و *obese* (بإفراط مؤسف)، والكلمة *home* (الديار) تدل على المكان الذي نعيش فيه، ولكن عدة تضمينات، مثل: الهدوء، والأمان، تُضاف إلى هذه الدلالة الذاتية.

ويُحتمل أن يكون ليونارد بلومفيلد (Leonard Bloomfield) هو الذي فرض على اللسانيات المعاصرة هذه القيمة المصطلحية، من خلال معالجته التضمين في كتابه اللغة (*Language*). ولكن لويس هيلمسليف (Louis Hjelmslev) هو الذي نشر التضمين على المسرح الأوروبي. والظروف التي أفضت به إلى هذا الأمر قد نستحق أن نذكر بها.

إن دراسة المنشورات الأولى «لحلقة براغ اللغوية» التي تعهد بها هيلمسليف في إطار لجنة سُمي زميلاً فيها من قبل الحلقة اللغوية بـ «كوبنهاغن»، هي التي دفعت، من خلال ردة فعل، إلى تطوير نظريته اللسانية المعروفة تحت اسم «اللغاة»، خلال الثلاثينيات والأربعينيات. إن قراءة لاجوهرية جريئة لـ «دروس» موسير فادنه إلى أن يأخذ بجرأة موقفاً سلبياً إزاء تعاليم ترويتسكوي (Trubetzkoy). وتظهر معالجته للتضمينات بوصفها جهداً لدفع تعاليم فيينا وبراغ المتعلقة بالبدائل، وبما دعاه ترويتسكوي الأسلوبية الصوتية

(Phonostylistique) (Lautstylistik) مظهراً هذه التعاليم بعبارة أخرى ومغرقاً إيها في إطار أكثر اتساعاً. وفي فرنسا، ألهمت تعاليم هيلمسليف، المتعلقة بالسيمياتيات التضمينية، رولان بارت (Roland Barthes) في جهده لاستخلاص الإيديولوجيات الكامنة في الاستخدامات اللفوية.

يغطي التضمينُ في الاستخدام المعاصر الأكثر رواجاً مجموع ما أشرنا طويلاً إليه، بطريقة غامضة كفاية، على أنها القيم التعبيرية للمناصر اللفوية. هكذا استخدم بلومفيلد المصطلح وهذا ما نتيهه خلف التقديمات المجردة لهيلمسليف. ولكن الاثنين يوسعان قيمة المصطلح إلى كل ما يكشفه الخطاب من هوية المتكلمين وشخصيتهم، ومن علاقاتهم المتبادلة، ومن الشروط المختلفة للتبادل اللغوي، وذلك أبعد ما نحمله الرسالة بحصر المعنى. هل كل ما نسمُ الطبقة الاجتماعية، والأصل الجغرافي، والمستوى الثقافي أو البوار، سيشكل إذا سمات تضمينية، أنزجمت الحقيقة، أم رغبة المتكلم في أن يُحسب ما ليس هو عليه.

يمكن أن نتساءلَ شرعاً: هل من المفيد، للبحث اللساني أو السيميائي، أن نجتمع في الفئة نفسها أحداثاً شديدة التنافر. ومن المؤكد أن الكلامَ عن عددٍ معينٍ من السيماتيات التضمينية، كما فعل هيلمسليف، يمثل، حول هذه النقطة، تقدماً بالنسبة إلى التعداد المنين بعض الشيء الذي قدمه إلينا بلومفيلد.

ولكن، من وجهة نظر اللساني الفاعلة، حينما يكون المقصود أحداثاً هو وحدة حنق في تعيينها بشكل صحيح، فمن الأفضل بالتأكيد أن تُصنّف كل هذه الأحداث وفق مقياس تدرجي يستلهم من ذلك الذي أقامه ترويتسكوي للسمات الصوتية وحدها مستلهماً مباشرةً من أعمال كارل بيهلر (Karl Bühler).

وعلى رأس المقياس، تقوم الوحدات المتميزة بذاتها أو، لو
رغبنا، الكلمات الجوامد في اللسان، وتأتي بعدها، ومن ضمن كل
سمات الخطاب الكاشفة لشيء ما، تلك التي تختص بلسان معين،
بزمرة ألسن، أو بلهجة ما.

وسنميز بنفع، من ضمنها، بين تلك التي تكون بمتناول المتكلم
كي ينوع عبارته ويظهر الفروق الدقيقة فيها، وتلك التي تفرض عليه
عن طريق العادات المكتسبة: فلنأخذ في الفرنسية المعاصرة الرأى
المهترزة الملفوظة بأسلة اللسان، فهي متى تستخدم طوعاً، على
المسرح، من قبل مغني الأوبرا أو الكوميدي الذي يقلد الاستخدامات
الريفية، تنتمي إلى الضرب الأول، وهي حين يتلفظ بها القروي غير
القادر على نطق الرأى المثلثية، تنتمي إلى الضرب الثاني.

تضاد الجوامد والبائس مجتمعة مع كل سمات الخطاب التي لا
تخص لهجة فرعية معينة، ولكنها تكون مشروطة بطبيعة الكائن
الإنساني، في حقيقته الفيزيولوجية أو بوصفه حيواناً اجتماعياً. إن
كفاءة اللسان لا تمتد إلى هذه الأخيرة بالتأكيد، إلا لتمييزها بشكل
سلبي بوصفها لا تنتمي إلى هذا الميدان. أن تكون التميزات
المقترحة هنا دائماً سهلة التطبيق فهذا لا يعني أن علينا أن نتخلى عن
إثباتها.

لدينا، تقليدياً، كي نشير إلى معايير البائس المختارة بحرية،
مصطلح الأسلوبية الذي يصلح أيضاً لأمر آخر. يبقى أن نعثر على
مصطلح لاختيار السمات المختصة بلهجة فرعية ما، والتي فرضت
على الفرد خلال تعلمه، والتي تسمح للسامعين أن يوضعوه في
الفضاء الاجتماعي أو الجغرافي.

لو رفضنا إذاً أن نصنف كل سمات الخطاب التي لا تندمج في
جوامد اللسان، على أنها تضمينية، فمصطلح التضمن يبقى جاهزاً

للإشارة إلى شيء آخر. المقصود هو سمات تهتم، بالطبع، اللساني مباشرة لأنها تشترك، بمعنى ما، في الدلالة على الوحدات اللغوية، ولكنها لا تشكل، بحصر المعنى، جزءاً من اللسان المُترك بوصفه نظاماً مشتركاً للاصطلاحات العائدة لكل أعضاء المتحد الاجتماعي.

إن المقصود هو كل ما تستدعيه، لفرد معين، هذه العلامة اللغوية أو تلك، وذلك أبعد من القيم التي يتوافق كل مستخدمي اللسان على نسبتها إليها. إن وجود تضمينات محددة على هذا الشكل يستوجب انتباهنا حالما نحاول أن نتمثل عقلياً ما يستدعيه هذا المصطلح أو ذاك بالنسبة إلينا، وعلى سبيل المثال، مصطلح ضريح (château) من الواضح أنه يمكن أن يكون رقبة لقصر ريفي متواضع ذي قرميد، ولبناء قروسطي على رأس الجبل، ولمقر ملوك فرنسا في شامبور (Chambord) أو سوى ذلك، إلى ما لا نهاية، وفق ما كانت عليه لتاريخه تجربتنا بهذا الصدد. إن ما يمتلكه مشاركة كل الناطقين بالفرنسية بالنسبة إلى قيمة هذا المصطلح، يلخص، من دون شك، في قولنا إن المقصود بناء ذو سعة تتجاوز بيتاً ما وأقل عظمة من قصر ما. إن هذا الحد الأدنى المشترك هو الذي يحمل اسم التضمن.

ينبغي علينا الاحتراز من الخطأ الذي ينص على مماثلة التضمن وضرب من الأشياء المحسوسة. يمكن، في الفرنسية للشيء نفسه أن يُسمى: *hagnole*, *voiture*، أو *tire* (سيارة). وعلى خط بلومفيلد وهيلمسليف سنقول إن *voiture* لن «توحي» بشيء، وإن *hagnole* «توحي» باللسان الشائع، وإن *tire* «توحي» بالاستخدام الأزغوي. وفي الإطار المصطلحي المقترح هنا، نواجه ثلاث دلالات ذاتية متميزة تمام التميز. سيتوافق كل مستخدمي اللسان كي يعلنوا بأن هذه المصطلحات ليست قابلة للتبادل، وأن المعاجم تدون لكل منها مستوى لغوياً مختلفاً. إن التضمنات لا علاقة لها بهذا الصدد.

وكما يقول إيتان بلومفيلد، فإن المعنى الذي يتخذه شكل ما بالنسبة إلى أي متكلم ليس سوى نتيجة المواقف التي سمع خلالها بهذا الشكل.

ويستتبع هذا، بالطبع، أنه في حال كانت المواقف مغايرة بالنسبة إلى متكلمين مختلفين، فالمعاني تكون متباينة. والأمثلة ملحوظة بشكل جيد: فالموقد الصغير *poêlon*، بالنسبة إلى فرنسي ما، يشير إلى وعاء من التراب ذي ارتفاع بسيط، وبالنسبة إلى آخر هو وعاء من المعدن. يشير إليه الأول على أنه قدر *casserole*، ومع ذلك، فبالنسبة إلى أغلب الكلمات، سيتخذ المعنى الناشئ عن المواقف عبر السياقات اللغوية التي وجدت فيها الكلمة. ولنا فعلاً على ثقة بأن لا نستخدم بالآلاف حينما نستخدم مصطلحاً مطابقاً مع سياقاته. وعلى هذا النحو نلّف دلائل ذاتية.

ولكن يبقى أنه تجاه السياقات اللغوية نفسها في متحد اجتماعي معين والتي تثبت الدلالة الذاتية، ثمة مواقف متغيرة بقدر ما هي عليه ظروف الحياة، والتي يسكنها، وفق الأفراد، أن تضفي على كل مصطلح حالة مختلفة. ويصلح هذا الأمر بخاصة في المواقف الأولى التي أدركت فيها الكلمة، تلك التي يمكن أن نتردد في تطبيقها على جزء أو على كل ما يتوافق لحواسنا: وإذا كنت قد مألئت وأنا صبي، للمرة الأولى، الدالّ حصان وأنا داخل إلى اصطبل، فقد استطعت أن أتردد للحظة حول كيان المرجع، ففي كل الأحوال، سيبقى حصان، بالنسبة إليّ، مرتبطاً نهائياً بالرائحة الخاصة بفراش الدواب، بالمتعة الجزئية لمرايل الأحصنة، وبالصوت الخشن لسائس ما. ولن يكون هذا الأمر، بالطبع، على هذا الحال لو كنت صادفت هذا الحيوان للمرة الأولى في مرج فسيح مستبح في الأفق بستارة من شجر الحور. إنها تلك المشاعر المختلفة التي ستكون منشأ التضمينات التي

ستمتلكها من الآن فصاعداً الكلمة «حصان» بالنسبة إليّ. وسأسمع، من دون شك، كلمة حصان في سياقاتٍ ستزغ إلى تحديد أفضل للمتصوّر المرافق. ولدى استخدامي المفردة حصان في سياقات مماثلة، سأكون على ثقة من أنني سأسمع من قبل أولئك الذين سيفعلون الشيء نفسه، أيّاً كانت التضمينات التي يستدعيها المصطلح بالنسبة إليهم وإلّا. يمكننا إذاً القول إن التضمينات تطابق غالباً ما لم يؤكّد، من الإدراك الأول للعلامة، في الاستخدامات اليومية للغة، على أنه مقبول من قبل المتحد الاجتماعي.

ونستنتج أنّ تجاه المفردة ثمة دلالة ذاتية، فالجمع الذي يظهر هو تضمينات، وإذا وضعنا تعدّد الدلالات جانباً، فثمة، في الواقع، لمصطلح معين، دلالة ذاتية وحيدة، ولكن على الأقل ثمة تضمينات بمقدار الأشخاص المتكلمين، وبالنسبة إلى الشخص نفسه، ثمة تضمينات يمكن أن تبدّل حسب الأحوال.

وبمقدورنا بالطبع أن نتساءل ما إذا كانت التضمينات المحددة على هذا النحو تنتمي إلى ميدان اللسانيات أكثر من الاستيهامات التي يمكنها أن تلازم كلّ منا. تُرى ألا تتعلق بالأحرى بالتحليل النفسي؟ وفي كل الحالات، أليس علماء النفس لامبالين كلياً بالمسألة. وبما أنه ليس ثمة علم إلا في إطار عمومي، فنسمى لتفصيل الأمر، مختصرين التضمينات إلى هذه سماتٍ كبرى مستخرجة عن طريق النضاد، كمثلي جيد تجاه ستي، وقوي تجاه ضميمف... إلخ وقد نتجت عن هذا الأمر مقاييس أوسغود (Osgood)، التي تحدّد درجات الإيجابي والسلبي. وقد خطي استخدام هذه المقاييس، في ما يختص بنا، بتأكيد وجود ما تشير إليها على أنها التضمينات، مظهرين ردات فعل مختلفة تجاه كلمة مثل أب من قبل أشخاص متفقين جميعاً على تضمينها كمكوّن مذكر. ولكنها لا تيلقنا شيئاً عظيماً لا ترتاب به: ثمة

أناسٌ يحبون أباهم على وجه التقريب، وآخرون يكرهونه، على وجه التقريب أيضاً. ويمكن، من دون شك، لتحقيقيات ما أن تسمح لنا بعض الشيء بوصف هذا التعلق وهذا الابتعاد ولكن الاختصار، في هذا الميدان، المُحدّد بدقة عن طريق الطابع الفردي لردات الفعل، إلى مراتب قائمة بذاتها تختبرها هذه المقاييس يمكن أن يبدو غير وافي بالفرض.

وفضلاً عن ذلك، فإذا كان على التضمينات أن تبقى بثبات دنيئة في أصاقي فرد ما، دون أي فرصة للظهور، وتختفي في النهاية معه، نفهم أنها قد استرعت قليلاً انتباه الباحثين. يمكن، بطريقة أفضل، أن ننظر في تكونها في إطار استبطاني بحصر المعنى: كيف يحدث أن مصطلحاً بعينه يشير لديّ هذه العاطفة، وتلك الاستحضارات، وفي أي ظروف علائقية أمكنها أن تقوم لديّ بين سمات، لا شيء، في العادة، يمكن أن يقرب بينها؟

ولا تتمثل الأهمية بالنسبة إلى لساني أو سيميائي في الأفضلية في انتقال المعلومة، فالتضمينات تبدو بخاصة جديرة بالفائدة في النطاق الذي نستطيع فيه أن تنتقل من فرد إلى آخر. إن اختبار سيرورات هذا الانتقال هي التي تبرز ذكرنا للتضمينات في حلقة دراسية مخصصة للشعرية.

فلنبين بادئ ذي بدء أن وجود التضمينات المتشابهة لدى أشخاص مختلفين يمكن تفسيره بالسهولة الأشد في العالم، وذلك بالكشف عن أنهم خضعوا جميعاً لشجرة بعينها: فكل شهود كارثة أرضية ما يمكن أن يقوا موسمين مدى الحياة بالصدمة التي تلقوها، والمصطلح الذي يدل على هذه الكارثة الأرضية - ثوران بركاني، هزة أرضية، انزلاق أرضي - يمكن من الآن فصاعداً أن يحدّد لدينا جميعاً تراجعاً ما، متلوّناً بلا ريب بمزاج كل منا، ولكنه متشابه للغاية.

ثمة أيضاً ردات فعل خاصة، تجاه بضعة مصطلحات، تتماثل عموماً، من قبل المتحدثات الاجتماعية، إن لم تتضارب وتنقسم بالإجماع، وتنقل ردات الفعل هذه عن طريق لغوي عادي، فلأخذ، مثلاً، ردات الفعل تجاه العدد ثلاثة عشر في المتحدثات الاجتماعية الغربية. إنها تذكر بالتضمينات في المعنى، وإذا كان الكل على علم بوجودها، فهي تختص ببعض أفراد في المتحدث الاجتماعي. ولندون أنها ليست مذكورة تحت ثلاثة عشر في المعجم، كما هو حال القيم «الشائعة» و«الأزغوية»، وسواها. إلا أننا نتردد في ترتيبها في عداد التضمينات لأننا يمكن أن نعريضها ونناقشها بعبارات لغوية عادية مثل الاعتقادات المختلفة. يمكننا أن نقول: إن العدد ثلاثة عشر نذير شوم، كما نقول المسيح هو ابن الله. علينا أن نميز هنا بين الإيمان بالطابع ذي التأثير المسيحي للعدد الذي يتأسس على «القبل والقال»، وبين ردات الفعل العنيفة بوجه خاص للعدد ثلاثة عشر والتي تعود لشخص ما تكيفت خبراته الشخصية حول هذه النقطة. وسنميز كذلك بين اعتقاد صافي بالوهية المسيح وبين الشطحات الصوفية لـ تيريز دافيللا (Thérèse d'Avila).

ثمة حالة محصورة هي تلك العائدة للمماثل الذي نتحدث عموماً عنه في الصين - أو يتبني القول بالصينية؟ - بين الجهات الأربع والألوان، فالجنوب مثلاً مشترك مع الأحمر. سيكون هناك، في هذه الحالة، امتداد على مستوى المتحدث الاجتماعي كافة لتضمينات أمكنها، منطلقاً، أن تكون مختصة ببضعة مؤلفين. ولا يشك في أنه ينبغي أن نصنف في عداد التضمينات الأساليب الشديدة الاختلاف التي يتصور كل فرد من خلالها بضع أفكار تجريدية. وإذا استطعت أن أسمح لنفسي بالإحالة إلى ردات فعل خاصة، سأقول إن الستة، بالنسبة إليّ، تظهر بشكل قاطع ناقص تقع بؤرة على محور

أفقي، الصيف في الأعلى، الشتاء في الأسفل، الخريف على اليسار، والربيع على اليمين، أما الجزء الذي يقع إلى يسار خط يصل نهاية آب/ أغسطس ببداية كانون الثاني/ يناير فيوجد في القل. أن تجد بضعة سمات من هذا التركيب التضميني، في الأحداث التي يمكن ملاحظتها، بدايةً لتبرير (منحنى بلا نهاية، ظلال الخريف التي تنزع نحو تبديد ثلوج الشتاء) فهذا لا يمنع أنها (أي السمات) خاصة بالنسبة إلي، كما استطعت إثباتها بواسطة استقصاءات من حولي. وفضلت أيضاً الجنوب الأحمر للصينيين، جزئياً، من الاعتبارية، ولكنه لا يحتفظ من هذه الاعتبارية بأقل من ميزة التضمين المعتم.

وفي النسق الفكري نفسه، سنذكر بالصوائت الملونة لريمبر (Rimbaud) التي قلنا عنها إنها كانت، من دون ريب، تعكس في جزء كبير الأكواد المخصصة لكل حرف في كتاب الألفباء خاصته. ولكن لا طائل في الأمر، فما أن يتوافر كثير من كتب الألفباء المختلفة حتى يستطيع كل ولد أن يؤسس حسه المتزامن الخاص على تجارب مختلفة إلى حد ما. وهنا أيضاً كشفت عدد استقصاءات عن تراكيب تضمينية مختلفة جداً، مصحوبة بتكرارات، وعلى الأقل بثواترات (أحمر أو صفراء)، يمكنها أن تفسر قيام صلات غير اعتبارية كلياً.

وحين أكلنا على أن التضمينات هي رذات الفعل الفردية، الخاصة واللاواعية على الأغلب للعلامات اللغوية، استطعنا أن نتطر منها أن تلعب دوراً في النشاط الشعري، إذا سلمنا بأن ما يفرق الشاعر عن الاستخدامات الأخرى للغة يتميز في أنه يبحث عن أن يتقل إلى الآخرين نقله ما لا يُعتبر عنه عن طريق الخطاب.

غير أنه ينبغي التذكير أولاً بأن المطابقة غير متحققة في ما هو خاص بالفن الشعري، فبعد أن ميّزنا طويلاً الشعر المحض من الشعر

بلا زيادة، الأول موصوف إلى حد كبير بشكل عروضي مختص
والآخر قائم بمعزل عن هذا الشكل، انتهينا، في فرنسا خصوصاً،
إلى عدم استخدام مصطلح الشعر إلا بالرجوع لما يشير، في بضعة
خطابات، ولأسباب خفية، انفعالاتاً ذات نوعية وذا شدة خاصة.

وقد أعادت مؤخراً ردة فعل صادرة عن الشكليين الروس، إلى
السمات الشكلية امتيازها، ولكن من غير أن تحمل، على الرغم من
ذلك، أجوبة دقيقة حول مسألة معرفة ما هي العلاقات من حلة إلى
معلول بين السمات الشكلية التي تبرز ميزاتها والانفعال الشعري
الخاص. وفي الحقيقة، إن كل واحد منا أي نحن الشكليين الذين
يهتمون بالشكل في ذاته، ومنطوق الجمال الذين يشكون في أن
انفعالهم سيتلاشى إذا كشفنا المكونات - يرغب في أن يرفض كل
تراجع. ولكن لا يمكن بالطبع أن ندفع بالمعرفة إلا إذا نجحنا في
فصل الانفعال نفسه، حينما يكون المقصود هو الإحساس بكل
بساطة به، واختبار تكييفه من قبل الباحث، إلى حين، يجب أن يدع
مسافة تجاه الهاوي الذي يمكن أن يكون وفق أهواله.

ودون أن ننحاز مع الفرضيات الشكلية، أو ضدّها يمكن أن
نفترض كأمر مكتسب أن الشاعر ينجح، بواسطة اللغة، بتمرير
رسالة، متوجّهاً، ليس إلى حكم جمهوره فحسب، بل إلى إحساسه،
وإن هذه الرسالة ستثير انفعالاتاً لدى السلقي كاشفةً إياها له، وموقظةً
ما كان هامداً لديه، أو مغنبةً، ظاهرياً، عالمه الحميم.

يرمي كل مستخدم للغة إلى نقل تجربته، والشاعر لا يشكل
استثناء. ولكن تجربة الشاعر تقلت من اليومي، فهي تمتلك شدة
خاصةً وقيمةً وحيدةً لا نرى فيها كيف بإمكان كلمات اللغة السائدة
أن تنقلها بواسطة قيمتها الدائمة. وهذه الكلمات التي تشكل نهاية
لاتبناء التجربة، تسعى بالثمن نفسه لإفقار ما، إلى تأمين اتصال

اقتصادي بين كل أعضاء المجموعة. وبالتأكيد، فالشاعر لا يمكنه أن يفعل شيئاً من دون كلمات اللغة. ومهما فعل، فإن رسالته ينبغي أن تظهر في النهاية على شكل نتاج لتتابع لعناصر التحليل هذه. ولكن هذه الكلمات لن تخونه، لجهة أنها تستوجب، بالنسبة إليه، شحنة تضمينية مهمة، وسيرتكر فقه على ترتيب عناصر الاستخدام العام هذه بطريقة يمكن فيها للتضمينات التي ترتبط بهذا المصطلح أو ذاك أن تُدرك من قبل المتلقين.

وكي نفهم كيف يمكن لترتيب الكلمات في الخطاب الشعري أن يشير الانفعال، علينا أن نتذكر أن اللغة الإنسانية متبينة، وهذا ما يميزها في الجور من وسائل الاتصال التي تستخدمها الحيوانات، فلنذكر أنها مزدوجة الانبناء، تنبني وحدات بليغة، هي المونيمات، التي نمثلها هنا بغية التسهيل بالكلمات، وهي تنبني أيضاً وحدات تمييزية، هي الفونيمات. ولكن وحدة الانبناء الأول مونيمات يسترعي انتباهنا هنا.

إن سر الهيمنة التي يمارسها الإنسان على هذا العالم تكمن في الانبناء الأول هذا. ويمكن لحيوان ما أن يتصرف بترسائية من الصرخات المختلفة يوافق كل منها موقفاً خاصاً. المقصود إذاً علامات، بالمعنى اللغوي للمصطلح، مع دالّ ومدلول، وعلى الأقل، لدى بعض الأجناس، وأعني نتاجات ثقافية مهمة، أي مكتسبة عن طريق التقليد. وإذا ظهر خطر ما أمام الحيوان، فسيمكنه بواسطة صرخة معينة، من إنذار الحيوانات المتجانسة معه بوجود هذا الخطر، وحش بطبيعته، شرط أن يوافق هذا الضرب من الخطر، بالطبع، في النظام السيميائي للمجموعة، نوعاً محلياً. ولكن إذا ارتسم في الأفق تهديد ما غير اعتيادي فهو سيتطلب، من قبل الكائنات المهددة، ضرباً خاصاً من الدفاع أو اللجوء إلى شكل ما للحماية، فالحيوان، وفي حدود معرفتنا، سيكون مجرداً إلى حد

كبير. سيمكنه على الأكثر، زيادة حجم صرخته أو تكرارها مرة بعد مرة. والإنسان في ظروف مماثلة سيعرف كيف ينوع «صرخته» مصاحباً إياها «بصرخة» أخرى على أمل أن يستطيع متلقي الرسالة استيعاب التأليف، أي تطويع قيمة كل «صرخة» مع قيمة الأخرى. وعندما يكون الإنسان هو المقصود بـ «صرخة» نريد بها «مونيماً»، أي «وحدة معنوية صغرى». وبتطويع قيمة صرخة ما لصالح قيمة الأخرى، نفكر بما يحدث، مثلاً، عندما نتكلم عن «فيل صغير»، فبالمقياس الإنساني، لا يكون فيل ما أبداً «صغيراً»، ولكننا نعلم جميعاً ما يتضمنه هذا المصطلح حينما يُضاف إلى «فيل». وكذلك الأمر، فإذا كان «أبيض» يفيد لون الثلج، فالنبيذ لا يكون أبداً «أبيض»، ولكننا نعلم جيداً ما هو «خمر أبيض».

إن الانبناء يمثل سمة أساسية للغة الإنسانية، لدرجة أن عبارة من مونيم واحد، في كثير من الألسن، لا يمكن أن تُقبل: وكي يُماثل إرسال صوتي رسالة ما، يتحتم وجود مونيمين على الأقل، عنصراً جوهرية يُعرف تقليدياً على أنه «المُسند»، وآخر يمكن أن يكون «فاعلاً»، مثل «جان» في «جان ينام»، أو عنصراً تقديمياً ما، في «ها هو جان». وهذا ما ندعوه بالتحقيق. وبوصفه قيداً، يلعب التحقيق دوراً هامشياً في الاتصال اللغوي. ولكن النطق الذي يُعتبر رمزاً له، يمثل مفتاح الاستخدام الشعري للغة حينما نستغل كل الموارد.

وفي الاستخدام اليومي للغة، نحن لا نقوم إلا بتكرار العبارات الجاهزة، دون أن نتخلى كثيراً عن عاداتنا القديمة، إلا حينما نقول: «اشتريت منفاً بدلاً من «اشتريت تفاحاً». وتجاه اللامتوقع، والاستثنائي، نظل صامتين، فالكلمات، كما نقول، تعوزنا للتعبير عن مشاعرنا أو عن اضطرابنا. وهنا سيعرف الشاعر كيف يقدم على

استعمال توافقات جديدة للمونيمات تتطلب من المتلقي جهداً لتطويع كل مونيم في سياقه الجديد. وسيرضى المتلقي بطيبة خاطر أن يبذل هذا الجهد إذا كان يقضي إلى إخراجِه من نمطه، وتحقيق كموناتٍ لديه، والكشف له عن أعماقٍ غير مشكوك فيها في داخله، إضافة إلى إقامة وحدة شعورٍ مع الشاعر وكافة قرائه ومستمعيه المحتملين. وسيبدل هذا الجهد من قبل قارئٍ مثقفٍ سيطابقُ بشكلٍ عابرٍ، توافقاتٍ صادفها سابقاً، وليس من دون لذةٍ قبل كل شيء، ولكن مع لاهتمامٍ مطردٍ، ومع غياٍ كريبٍ، سيفضي به إلى البحث عن اللامتوقع. وهذا اللامتوقع هو بالذات ما يسعى الشاعر لتأمينه له، وذلك بتنميته وتهذيبه وصولاً إلى الهرميتية (hérmetisme).

أن نقول، كما بمقدورنا أن نسمع، إن الشاعر يعمل بواسطة استخداماتٍ مجازية، فمعنى هذا أن نحكم على أنفسنا بالأندرك دينامية العملية وعلاقاتها التضمينية بغية إقامة الاتصال الشعري، فالشاعر الذي يتحدث عن الحب الأخضر لا يستخدم أخضر على سبيل الاستمارة: فالأخضر بالنسبة إليه هو تضمين يرتبط بالحب موضوع الكلام، ذلك أنه لا يفصله عن الحقيقة أو عن المتنزه اللذين شكلا إطاراً له.

سنكثفُ يعني، أن أخضر ليست هنا، ووفق كل احتمال بالنسبة للشاعر، تضميناً مستمراً للرمز «حب». ويمكننا الاعتقاد بأن الشاعر عرف أصنافاً أخرى من الحب لن يطبق عليها نعت أخضر. وبالطبع فالشاعر هو الإنسان الأخير الذي سنفكر في أن نطالبه بثبات في ارتباطاته وفي تضميناته. إن القدرة على الاتعمال بألفه النغم في العالم تضعف لدى الكثيرين متأ بعد الطفولة. ومن جهتي، فأنا متعسك جداً بتضميناتي الطفولية، وقابل، إلى حد ما، لأدع نفسي تبني تلك التي يوحى بها إلي الشاعر إذا لم تطعم وتزداد على تلك التي أملكها.

ولكن الشاعر هو تحديداً الشخص الذي يكون الإحساس لديه هو الأقل إنهاكاً. والذي نتظر منه أن يحقّد انقطاع عالمه العاطفي. وعلى الرغم من ذلك، فمن المؤكد، لدى قراءتنا بضعة مؤلفات، أن نلاحظ أن شعراء عديدين، ومن الأكثر شهرة، يتحركون في عالم التضمينات المستمرة التي ترتبط ببعض مفردات.

وفي مقابل الفرضية التي سيتمكن الشاعر بموجبها، عن طريق إقامة سياقات غير متوقعة، من أن ينقل ما لا يُعبر عنه وبخاصة التضمينات، فإمكاننا أن نروج أن ثمة عناصر معجمية بإمكانها وحدها أن تشير الاضطراب الشعري. نفكر قبل كل شيء في المصطلحات التي لا نجد لها مطلقاً إلا في الشعر، مثل، في الفرنسية: الموجة، الساحل الرملي، الغروب. وفي عداد هذه المصطلحات، ثمة قبل كل شيء تلك، التي بفعل إساءة استعمالنا لها، كمثل الموجة، حرمانها في النهاية من كل أثر حاسم، وأخرى مثل الساحل الرملي أو الغروب، التي صادفها كل فرنسي ذي ثقافة متواضعة، مئة مرة في قراءاته الشعرية، تحتفظ بالتضمينات التي كانت قد أوحى بها، من دون شك، النصوص التي صادفها كل منا، ومن جهتي، فالموجة يُنظر إليها والليل يكاد يسقط سدولة، والحياء تنساب بحركات وثيرة تُقبل لثمانق حصى ملساء، ويتراقص الغروب بالضرورة بسحب حمراء وبوزال أصفر.

ومع ذلك، فليس من المستبعد أن نشم، حول هذه المصطلحات، موافقة تضمينية ما، وذلك بقدر ما نقرأ في متحد اجتماعي معين، القصائد عنها.

وخلف هذا الرصيد اللغوي الخاص، ثمة تسميات للأشياء أو للأدب الدخيلة، غير المعروفة على الوجه الصحيح عموماً، لنقص الاتصال المباشر والسياقات الإعلامية، والتي لا تصف دلالتها الذاتية

إذا بالدقة، ولا تقوم مطلقاً إلا من خلال التضمينات المشتقة للقراءات أو للصور. ومن جهة أخرى، ينبغي ألا نؤغل، بالضرورة، بغية الوصول إلى الإغرابية، فهي بالنسبة إلى سكان المدن، غالباً ما تبدأ عند أبواب المدينة. أما بالنسبة إلى بعض الريفيين فهي موجودة في العاصمة المزينة بمفاتيح المجهول كافة.

يمكن للشاعر إذاً، في بضع حالات، أن يصل إلى غايته عن طريق استخدام بضع كلمات دون الرجوع إلى سياق ما، فالمصطلحات التي يقال عنها شعرية تتحقق ذاتيتها بهذه النظائر رأساً، ولا شيء يتدخل ليكبح تأويلها التضميني. والمصطلحات الدخيلة التي بإمكانها أن تظهر إلى حد ما حيث كان، وبخاصة في الأبحاث الإثنوغرافية، تتطلب من السياق الإشارة إلى أننا يمكن أن نستسلم للحلم. ولكن لا حاجة لهذا السياق أن يكون مطلقاً كي يكون مباشراً. يكفي أن يكون وزن الشعر، والقافية، وسمات النظم أو المعجم غير المتوقعة، قد أئذنتنا بأننا «سنوجد في الشعر»، هنا حيث يمكن للتضمينات وينبغي لها إذاً أن تتأكد.

رأينا أن الاتباء اللغوي للتجربة، عبر الإمكانية التي يوفرها لدى محاولة التعبير عما لا يُعبر عنه، ينبغي أن يؤخذ بعين الاعتبار حينما نتمسك بفهم طبيعة الرسالة الشعرية. ولكن هذا لن يجعلنا نعتقد أن التحليل الذي يشترطه لمعطيات المُدرك يصب مباشرة في هذه الرسالة. والأمر هو بخلاف ذلك. وقد استطعنا بحذافة الدفاع عن الفرضية المفرية إلى حد كبير والتي تقضي بأن غرض القصيدة يمثل في تصوير وتصحيح وحدة التجربة وكليتها. ولأن اللغة التي يستخدمها الشاعر، مع الشكل الخطي الذي ينبغي أن يؤمنه في الرسالة، فالشاعر لا يستطيع أن يتجنب إظهار كلماته على الأثر. ولكن، في حين أن النعت، في الشعر، يحمل للاسم المجاور تحديداً

إضافياً، فهو يصبح غالباً، في الشعر، من ضربٍ يقال له «هوميري». وبعبارة أخرى، فهو لا يظهر مثل إضافةٍ ضروريةٍ لتعيين ما قيل، ولكن مثل استعانةٍ لطابعٍ معروفٍ جيداً للشيء موضوع الكلام، فالنعتُ التضمينيُّ خضر لَمَثَلنا السابق لا يسعى بأي شكل إلى مقابلة حُبِّ أخضر بسوله، والملون بوجه آخر. إنه يأتي ببساطةٍ مثل إدراكٍ إضافي كان يمكن أن يصيب هدفه لو لم يكن مُدركاً كما هو عليه، بل مثل مُشبهٍ في تجديد الوحدة التي أحس بها الشاعر كنجربة فريدة.

هذا ما كان عليّ أن أقوله حول دور التضمين في إنتاج الرسالة الشعرية. سأشير، بالمقابل، إلى أن التضمين، مثلما هو مُذكّر، يلعب دوراً هاماً جداً في ظهور الإيديولوجيات وتطورها. وحول هذه النقطة أُلقي على الأرجح مع رولان بارت (Roland Barthes)، رغم أنه نُظِر في المسألة بطريقةٍ مختلفة كلياً. المفصود هنا، بالطبع، ضربٌ من التضمين المعتم. إنها بالتأكيد تضميناتٌ بما أنها لا تؤثر إلا بجزءٍ من المتحد الاجتماعي اللغوي وهي منشأ طائفةٍ من اللادراكات بين أعضاء هذا المتحد نفسه، وهي تمتلك، علاوةً على ذلك، سمةً فرديةً حتى ولو كان ثمة تعميمٌ على جزءٍ من المتحد الاجتماعي، تعميمٌ يظهر من خلال سلوكياتٍ متشابهة. ولكن هذا لا يمنع، في أي حالة، أنها تُظهر لدى كل شخصٍ إلى جانب العناصر المشتركة، طبيعةً خصوصيةً ملونةً بمزاج كل منا وسوابقه.

وأوردُ مثلين فقط: في عام 1968، وأثناء «الأحداث»، وخلال نقاش، أثرتُ غضبَ محبّثي الطلاب حينما تكلمتُ عن منحة (bourse) كلمةٍ كان لها بالتأكيد بالنسبة إليهم تضمينٌ مقيتٌ. كنا متفقين حول الأحداث، ولكن كان عليّ أن أقول راتباً طالياً (salaire étudiant) ولستين خلنا، تكلمتُ في حلقةٍ دراسيةٍ عن ملكات

(dons)، مَحْيلاً إلى الطريفة التي يمتلئها أشخاص مختلفون لتعلم
الأسن، فآثرت احتجاجات عيفة، وكان علي أن أقول طاقة وراثية
(potentiel génétique).

اسمحوا لي، في الختام، أن أعبر عن الأمل في أن لا يتردد
الباحثون في العلوم الإنسانية، حينما يجدون أنفسهم أمام جمهور
جديد، في أن يعاودوا تحديد المصطلحات التي سيستخدمونها بدقة،
ذلك أن تقدم فروعنا الدراسية يكمن في هذا الثمن.



الثبت التعريفي

أبجدية مقطعية (Syllabaire): أي نظام كتابي مبني على أساس المنقطع، حيث لكل مقطع ملفوظ علامته الخاصة به. وهي مجموعة الخرافيمات التي يمثل كل منها مقطعاً وتستخدم في الكتابة المقطعية، كما في كتابة اللغة اليابانية (معجم علم اللغة النظري، ص 276).

ازدواجية لغوية (Diglossie): يعني هذا المصطلح وجود أكثر من مستويين للغة، جنباً إلى جنب في مجتمع من المجتمعات، بحيث يُستخدم كل مستوى من مستويات اللغة في أغراض، ويسمى الوضع اللغوي في هذه الحالة «الازدواجية اللغوية». نلاحظ هنا أن أحد هذه المستويات اللغوية يكون أعلى مركزاً، ويسمى بـ «اللغة المعيارية» أو النص، ونستعمل في المكاتبات الرسمية والتعليم والعبادة. أما المستوى الآخر، فهو عادةً يعتبر أقل رتبة، ويشمله أفراد الأسرة في حياتهم اليومية وفي معاملاتهم الاجتماعية وفي مواقف الحوار المختلفة، ويسمى باللغة الدارجة أو المامة (معجم اللسانيات الحديثة، ص 39).

اعتباطية العلامة (Arbitraire du signe): سمة تميز اللغة عن كثير من الأنظمة السيميائية الأخرى، وتحديداً أن الرموز المستخدمة فيها لا

تمليها الحقيقة المعبر عنها. وتقضي اعتبارية العلامة بأن شكل الكلمة لا علاقة طبيعية له بمعناها: فلنكي ندلّ على شجرة، فليس مهماً إذا تلفظنا بـ «شجرة»، «arbre»، «tree»، «baum» أو «dervo».

ألفبائية فونيتيكية دولية (Alphabet phonétique international)

(API): يبلغ عدد الفونيمات في الألفبائية الدولية أربعة وسبعين فونيماً، في حين يبلغ عدد فونيمات اللغة العربية الفصحى ثلاثين فونيماً منها ثمانية فونيمات انفجارية وأربعة عشر فونيماً احتكاكياً وفونيمان أنفيّان، وأربعة فونيمات سائلة واثنان من أنصاف الصوائت.

تركيب (Syntagme): سلسلة من العناصر اللغوية تؤلف وحدة أكبر منها، ولا سيما في النظم، كالكلمات المتتابة التي تؤلف جملة. ويعني المصطلح تركيباً نحوياً يجمع بين وحدتين أو أكثر في لغة من اللغات، فمثلاً قد يحتوي على مورفيمين أو أكثر، مكوناً بذلك كلمة، أو كلمتين، أو أكثر، أو مكوناً شبه جملة أو جملة (معجم اللسانيات الحديثة، ص 138).

ترميز فونولوجي (Notation phonologique): الترميز الفونولوجي

يفترض كتابة معينة انطلاقاً من نص مكتوب، يُقترح لكل من عناصره كتابة أخرى.

تزامنية (Synchronie): هي المرحلة الزمنية المختارة لتحليل لغة

ما. وبإمكان دراسة تزامنية الطابع أن تؤثر لمعنى تطور اللسان إذ ما قابلنا السلوكات المتتابعة للأجيال المتوالية (Martinet, p. 378).

وهي فرع من علم اللغة بمعنى بدراسة لغة ما في إحدى مراحل تطورها، ماضياً أم حاضراً، دون النظر في مسألة التطور اللغوي. ويشمل هذا العلم أقساماً كثيرة بحسب موضوع، فدراسة الفونولوجيا من هذا المنطلق تدعى فونولوجيا تزامنية (phonologie synchronique)، ودراسة الدلالة تدعى علم الدلالة التزامني

(sémantique synchronique)، ودراسة النحو تدعى علم النحو التزامني (grammaire synchronique)، ودراسة النظم تدعى علم النظم التزامني (syntaxe synchronique) (معجم المصطلحات اللغوية، ص 489).

تعاقية (Diachronie): هي دراسة تطور الألسن عبر الزمن⁽¹⁾. وهي نوع من علم اللغة يعنى بدراسة تطور لغة ما أو مجموعة لغات من منطلق تاريخي. وهي تدعى أيضاً «علم اللغة التاريخي»، ولذلك تتطابق المصطلحات المتفرعة عن هذين المصطلحين الأساسيين، فدراسة الفونولوجيا من هذا المنطلق تدعى «فونولوجيا تعاقية/ تاريخية» (phonologie/ diachronique)، ودراسة الدلالة تدعى «علم الدلالة التعاقي/ التاريخي» (sémantique/ diachronique)، ودراسة النحو تدعى «علم النحو التعاقي/ التاريخي» (grammaire/ diachronique)، ودراسة النظم تدعى «علم النظم التعاقي/ التاريخي» (syntaxe diachronique) (معجم المصطلحات اللغوية، ص 146).

تلفظ مزدوج (Double articulation): يقول مارتينه إن اللغة الإنسانية تتميز عن الناجات الصوتية للحيوان بأنها ملفوظة أو منطوقة، فاللغة الإنسانية هي مزدوجة التلفظ، أي ملفوظة على مستويين اثنين. يظهر لنا المستوى الأول في الأقوال التي تلفظ بواسطة كلمات. وهو يطلق على هذا المفهوم تسمية التلفظ المزدوج. وهو ينص على أن كلاً من الوحدات الكلامية الحاصلة وفق تلفظ أول هي ملفوظة بدورها بواسطة وحدات من نوع آخر.

André Martinet, *Mémoires d'un Linguiste* (Paris: Quai Voltaire, 1955), p. (1)

في التلقظ الأول (صرخات). تحلل كل خبرة كلامية أو كل حاجة يرغب الإنسان في إيصالها إلى الآخرين غير تتابع وحدات كلامية تحتوي كل منها على صورة صوتية وعلى دلالة معنوية. أما التلقظ الثاني فهو يتمثل في إمكانية تحليل الصورة الصوتية إلى وحدات صوتية مميزة تحتوي على شكل صوتي، إنما لا تحمل بذاتها أية دلالة.

تمييزي (Distinctive): صفة لعنصر أو مَعْلَم يميّز وحدة لغوية ما عن وحدة أخرى، ولا سيما في الفونولوجيا. والسمة الفارقة أو المميزة تعني أن كل وحدة صوتية أو فونيم يحمل صفات تركيبية تميزه عن غيره من الفونيمات الأخرى للسان ما. هذه الصفة أو السمة الصوتية تميز فونيماً عن آخر في اللغة الواحدة، مثل الهمس أو الجهر أو الطول. والسمة المميزة في لغة ما قد لا تكون مميزة في لغة أخرى (معجم علم اللغة النظري، ص 77).

تواصل (Communication): اعتبر مارثينه أن الوظيفة الإنسانية للغة هي التواصل والتفاهم المتبادل بين متكلميها، في إطار المجتمع الذي تنتمي إليه، فاللغة مؤسسة إنسانية وهي الوسيلة التي تتيح للإنسان القيام بعملية التواصل بينه وبين مجتمعه.

خطية (تشابح خطي) (Litteraire): هي توالي العناصر اللغوية مرتبة على نحو خطي لتكوّن وحدات أكبر (كنوالي المورفيمات في الكلمة) أو لتمثيل التشابح في نطق هذه العناصر واحداً تلو الآخر (الفونيم الأول يمثل الصوت الأول، والثاني الصوت الثاني، والثالث الصوت الثالث... وهكذا) (معجم المصطلحات اللغوية، ص 284).

دالّ (Signifiant): هو أحد عنصري الوحدة اللغوية = العلامة.
إنه الكلمة المنطوقة أو المكتوبة التي تدلّ على الشيء أو المفهوم أو الشخص. وهو الإدراك التقساني للكلمة الصوتية.

رمز كتابي (lébogramme): هو رمز كتابي يمثل كلمة (فيسمى
إذّاك رمزاً كليّياً) أو رسالة يعبر عنها بالصورة (فيسمى إذّاك رمزاً
صوريّاً). (معجم المصطلحات اللغوية، ص 235).

سمات مميزة أو مفارقة (Traits distinctifs): يعني هذا
المصطلح أن كل وحدة صوتية أو فونيم يحمل صفات تركيبية تميّزه
عن غيره في الفونيمات الأخرى للغة ما، وطبقاً لهذا التصوّر فإنه
قابل للتحليل إلى ملامح أو سمات تمييزية، وهي ملامح وصفية
تتصل بنطق الفونيم وتتمثل في الجهر والهمس والثبوتية والأسنانية
والانفجارية والاحتكاكية وغير ذلك من الصفات الصوتية التي تميّز
فونيماً عن آخر. وهذا التصوّر التركيبي أو البنائي للفونيم يعود إلى
مدرسة بوانغ التي كان لها دور كبير مؤثّر في البحث اللغوي (معجم
اللسانيات الحديثة، ص 41).

علاقات أفقية أو تشابمية (Relations syntagmatiques): هي
العلاقة بين المكونات المتتالية في الكلمة أو التركيب، مثلاً العلاقة
بين أصوات الكلمة الواحدة أو بين الكلمات في التركيب (معجم
اللسانيات الحديثة، ص 492).

علاقات رأسية (أو جدولية) (Relations paradigmatic): هي
العلاقة بين أفراد الصف الاستبدالي في إطار معين. وأكثر ما يستخدم
المصطلح في العلاقة بين الكلمات، أي في النحو، إلا أنه قد
يستخدم لغير ذلك، كوصف العلاقة الجدولية، وهي هنا تقابل
جدولي (opposition paradigmatic) بين الأصوات، مثلاً «حـ»

و«ع» و«س» قبل «لِمَ» (لتأليف: حَلِمَ وَعَلِمَ وَمَلِمَ) (رمزي
بعلبكي، معجم المصطلحات اللغوية، بيروت، دار العلم للملايين،
1990، ص 357).

علامة لغوية (Signe linguistique): وفق تصوّر دي سوسير، فإن
العلامة هي الوحدة اللغوية التي تكون باتحاد الدال والمدلول.

علم الأصوات (Phonétique): هو دراسة الطبيعة الفيزيائية
لأصوات اللغة الإنسانية، وهو فرع من علم اللغة يعنى بدراسة
الخصائص المميزة للأصوات الإنسانية عند نطق المتكلم لها وانتقالها
عبر وسط (كالهواء) وإدراك السامع لها، وذلك في ثلاثة فروع
أساسية هي: علم الأصوات النطقي، وعلم الأصوات السمعي،
وعلم الأصوات الفيزيائي. وتعنى علم الأصوات أيضاً بتصنيف
الأصوات وبعيوب النطق، وهو يرتبط بفروع أخرى من المعرفة،
كعلم التشريح وعلم وظائف الأعضاء، ويتخذ منهاجاً تجريبياً من
خلال علم الأصوات التجريبي.

فونولوجيا (Phonologie): هي استخلاص وتبويب الأصوات
العائدة للسان ما حسب إسهامها في نجاح عملية التواصل. وهي فرع
من علم اللسانيات يعنى بدراسة النظام الصوتي للغة ما وتبويب
وظائف الأصوات في التفرقة بين الوحدات اللغوية الأخرى،
كالكلمات، أو المونيمات، وذلك بتصنيف الأصوات وحدات
تقابلية، كالفونيمات والمعاليم المميزة. ويتخذ علم وظائف الأصوات
من دراسة اللغات منفردة إلى النظر في النظام الصوتي ووظائف
الأصوات في لغات الناس جميعاً. وهي أيضاً استخلاص العادات
النطقية المختصة باستخدام لغوي معين. كما أنها تعتبر دراسة الطريقة
المبتكرة التي يستفيد بواسطتها كلّ لسان في الموارد التصويتية كي
يؤمن التواصل بين مستخلميها.

فونيم (Phonème): أصغر وحدة صوتية وظيفية يمكن بواسطتها التفريق بين المعاني في لسان ما.

كيان (Entité): مكوّن من مكونات اللغة، نحو: الوحدة النحوية أو الوحدة المعجمية.

لسان (Langue): هو وسيلة الاتصال المزدوجة التلفظ وذات السمة الصوتية. لا يتوافق مارتيته مع تعريف دي سوسير الذي يقابل بين اللسان (langue) والكلام (parole)، فمارتيته يريد به اللغة المتحققة والمتينة (Martinet, p. 376).

لغة (Langage humaine): هي اللغة الإنسانية التي لا تقوم إلا بشكل السن متحققة ومتمايزة، مثل اللسان الفرنسي، والإنجليزي، والعربي... ويريد بها مارتيته اللغة بشموليتها وعالمية سماتها وخصائصها (Martinet, p. 376).

لكسيم (Lexème): هو الوحدة التقابلية الصغرى في النظام الدلالي في لغة ما. واللكسيم أدق مدلولاً من الكلمة، إذ يراد به المستوى الدلالي فحسب، في حين أن «الكلمة» قد تستخدم لمستويات أخرى غير دلالية، كالمستوى النحوي أو المستوى الصرفي، كما يختلف اللكسيم عن الكلمة في أنه فكرة مجردة، إذ إنه العنصر الجامع لمشتقات مختلفة نحوياً comes, came, coming, وإلى ذلك قد يكون اللكسيم الواحد مكوناً من أكثر من كلمة واحدة (معجم المصطلحات اللغوية، ص 208).

لهجة (Dialecte): لهجة شخص بعينه وما يميزها في أصواتها، وكلماتها، ونحوها... إلخ، وسواء في ذلك لغته الأم، أو اللغة الأجنبية. وبذلك تكون اللهجة، من الناحية النظرية، تجزئاً لمجموع

اللهجات. واللهجة تعرف أيضاً باعتبارها لهجة شخص بعينه في سياق معين وفي زمن محدد. وضمن هذا التوجه اعتمدناها في دراستنا المنوّه عنها حول «محكية بيروت العربية».

مدلول (Signifié): هو الفكرة أو مجموعة الأفكار التي تفتنر بالذال.

مورفيم (Morphème): المورفيم أو الوحدة الصرفية هو أصغر وحدة لغوية لها معنى أو وظيفة صرفية في لغة في اللغات. (معجم اللسانيات الحديثة، ص 89). وهو الوحدة التقابلية الصغرى المجردة في النحو، وهي موضوع علم الصرف. وقد حلّ هذا المصطلح محل «الكلمة» (mot) (word) ...، وتمّ تقسيمه باعتبار وظيفة أو باعتبار علاقته بالمورفيمات الأخرى. والمورفيم هو البند الأول في الهرمية النحوية. (معجم المصطلحات اللغوية، ص 316).

مونيم (Monème): هو أصغر وحدة لغوية مجردة ذات مغزى.

هرمسيّة (Hermétique): جملة آراء قديمة تعود إلى «هرمس» الذي أطلق اليونان اسمه على الإله المصري «تحتوت»، وهي مبسطة في كتب مصرية ويونانية لا يُعرف تاريخها ولا أصلها على وجه اليقين. وأوضح ما تكون في السحر وصناعة الكيمياء، وبخاصة في العصر الهليني ولفرون الوسطى.

وحدات صوتية مميزة (Unités phonétiques distinctives): اللغة الإنسانية هي تنظيم لغوي يعتمد على التلّفظين الأول والثاني، ويمكننا تحليل عناصره مرة ثانية بواسطة وحدات صوتية مميزة، في حين أن التنظيم الاتصالي عند الحيوان هو تنظيم لغوي يعتمد فقط على التلّفظ الأول، ولا يمكننا تحليل عناصره مرة ثانية بواسطة وحدات صوتية مميزة.

هذه الازدواجية في بنية اللغة تفسر لنا لماذا تحتوي اللغة آلاف الكلمات أو المورفيمات، في حين لا يتعدى عدد القوّنيمات أو الأصوات في أفضل حال 74 قوّنماً، وذلك بعكس اللغة الحيوانية.

وحدة بليغة (Unité significative): المونيم أو العلامة الدنيا، هي النقطة من الخطاب حيث يتطابق معنى واختلاف شكلي ليؤلّفا وحدة لا يمكن تحليلها إلى وحدات معنى أصغر.

كبت المصطلحات عربى — فرنسى

Écart	ابتعاد
Syllabaire	أبجدية مقطعية
Subordination	اتباع
Constatation	إثبات
Ethnographie	إثنوغرافيا
Ethnologue	إثنولوجى (عالم)
Unilingue	أحادى اللغة
Potentialité	احتمالية
Hauteur mélodique	ارتفاع تناغمى
Postposition	إرداف
Argot	أزعة
Foncière	أساسى
Commuation	استبدال
Introspectif	استبطانى

Implication	استماع
Inductif	استقرائي
Adjonction	إستلحاق
Déductif	استنتاجي
Élimination	إسقاط
Phonostylistique	أسلوبية صوتية
Apical	أشلي
Gérondif	اسم المصدر
Participe	اسم مفعول
Participe parfait	اسم مفعول تام
Prédicatif	إسنادي
Fonctionnement	اشتغالية
Dérivation	اشتقاق
Conditionnement	إشراط
Arbitraire	اعتباطي
Déclinaison	إعراب
Flexion	إعراب/ نصريف الاسم
Casuel	إعرابي
Acronymie	انقطاع
Suffixation	إلحاق
Langues à ergatif	ألسن تواقفية
Alfonic	ألفونيك

Symptomatique	أعْمارَاتِي
Extension	إِمْتِنَاد
Prérogative	إِمْتِيَّاز
Orthographe	إِمْلَاء
Production	إِنْتِاج
Productivité	إِنْتِاجِيَّة
Déviation	إِنْحِرَاف
Gravité	إِنْخِفَاضُ التَّرْدَدِ
Occlusion	إِنْسِدَاد
Conjoint	إِنْضِمَامِيَّة
Synchrétisme	إِنْطِبَاق
Nasal	أَنْفِيّ
Conjonctures	أَوْضَاعُ / ظُرُوفُ
Combinaison	إِتْلَاف
Conflation	إِتْلَاف (عِناصِر)
Iroquois	إِيْرُكُوِيّ (لِسان)
Classe	بَاب
Patois	بَاتُوَا
Évidence	بِدَاهَة
Apposition	يَدْل
Allophone	بَدِيل صَوْتِيّ
Axiome	بَدِيهِيَّة

Significatif	بليغ
Construction	بناء
Construction accusative	بناء مفعولي
Structures de surface	بنى سطحية
Reliques	بواقي (آثار)
Intra-utérine	بياضوية (رحمية)
Préposé	تابع
Satellite	تابع (نحوي)
Étymologie	تأثيل
Interprétation	تأويل
Contrastive	تبايني
Paritif	تبعيض
Notificatif	تبليغي
Structuration	تبيين
Avatar	تجسد
Manifestation	تجل
Détermination	تحديد
Analyse componentielle	تحليل المكونات
Modification	تعوير
Actualisation	تحين
Spécialisation	تخصيص
Relationnel	ترابطي

Patrimoine génétique	تراث تكويني
ordonnancement	ترتيب
Reconstitution	ترسيب
Composition	تركيب الكلمات
Syntagmatique	تركيبي
Notation	ترميز
Synchronique	تزامني
Équivalence	تساوي
Compatibilité	تساق
Isomorphisme	تشاكل
Configuration	تشكل
Rebus	تشكيل فكري
Conjugaison	تصرف الأفعال
Conception	تصور
Phonique	تصوتي
Antinomie	تضارب
Connotation	تضمن
Coincidence	تطابق
Naturalisation	تطبيع
Adaptation	تطويع
Diachronie	تعاقية
Graphie	تعبير كتابي

Transitivité	تعَدّ
Pluralité	تَعَدّد
Polysémie	تَعَدّد الدلالات
Plurilinguisme	تَعَدّد اللّغات
Polysème	تَعَدّد المعاني
Infléchissement	تعديل
Identification	تعيين
Palatalisation	تغوير
Fléxion interne	تغير داخلي
Umlaut	تغير الصائت
Contraste	تقابل
Antériorisation	تقديم (صلة المتقدم بالتأخر)
Segmentation	تقطيع المتصل
Fluctuation	تقلب
Standardisation	تقييس
Réurrence	تكرار
Rappel	تكملة
Genèse	تكوّن
Siglaison	تكوين صدر كلمة
Adhésion	تماسك
Neutralisation	تعميد
Complément du verbe	تميم الفعل

Complément de lieu	تعميم المكان
Distinction	تمييز
Mélodie du discours	تناغم (الخطاب)
Mélodique	تناغمي
Détaccord	تنافر
Alternance	تناوب
Organisation	تنظيم
Intonation	تنغيم
Glottalisation	تهميز
Occurrence	تواردني
Combinabilité	توافق
Érgativité	توافق (لزوم وتعدد)
Tension	توتر
Homophone	تورية جناسية
Distribution	توزيع
Expansion	توسيع
Générative	تولداني
Stabilité	ثبات
Babli	ثغثغة
Bilingue	ثنائي اللغة
Bilinguisme	ثنائية اللغة
Prépositionnel	جاري (متعلق بحرف الجر)

Paradigme	جدول
Pardigmatique	جدولي
Radical	جذّر الكلمة (في التعريف)
Timbre	جرّس
Subordonné	جملة تابعة
Substantiel	جوهري / اسمي
Séculaire	جيلي (يحدث مرة كل جيل)
Présent de l'indicatif	حاضر الصيغة الدلالية
État	حالة
Génitif	حالة الإضافة
Datif	حالة الجز
Cas oblique	حالة الخفض أو النصب (في الإعراب)
État de langue	حالة اللغة
Accusatif	حالة المفعولية، حالة النصب
Nouveauté	حدثية
Omissibilité	حذف
Diagraphe	حرف ثنائي
Synesthésie	حس متزامن
Espace	حيث مكاني
Spécificité	خاصية
Basse	خفيض (صوت)
Dorsal	خلفي

Latitude	خيار
Signifiant	دالّ
Permanent	دائم
Allogène	دخيل (صفة لشعب وَقَدْ على بلد وأقام فيها)
Exotique	دخيل (غريب أو أجنبي)
Dénotation	دلالة ذاتية
À auxiliaire	ذو المساعد (شكل)
Connecteur	رابط
Copule	رابطة
Pictogramme	رمز ضوري
Idiogramme	رمز فكري
Idéographique	رمزي فكري
Pictographie	رمزية صورية
Résonance buccale	رنين فموي
Roman	روماني (السان)
Provincialisme	ريفية
Affixe	زائدة
Affixation	زيادة
Augment	زيادة استهلاكية
Préexistant	سابق الوجود
Savoyard	سافواري (السان)
Plan	سطح / مستوى

Celtique	سلتي (لسان)
Natif	سليقي
Traits distinctifs	سمات مميزة
Marque	بسمه
Marque casuelle	بسمه إعرابية
Singularité	بسمه المفرد
Vulgarisme	سوقية
Souletin	سولتاني (لسان)
Syllemme	سليم
Imperfection	شائية
Intensité	شدة
Globalité	شمولية
Bizarrie	شواذ
Code	شيفرة
Fréquence	شروع / تردد
Diphthongue	صائت مزدوج
Sigle	صدر كلمة
Bruit	صوت احتكاكي / نشوي
Vocal	صوتي
Formulation	صياغة
Indicatif	صيغة إخبارية
Effectif	صيغة التمام

Injonction	صيغة أمرية
Présent de l'indicatif	صيغة الحاضر الدلالية
Conditionnel	صيغة شرطية
Mode	صيغة (الفعل)
Prétérit	صيغة الماضي
Infinitif	صيغة المصدر
Présent	صيغة المضارع
Modal	صيغي
Variété	ضرب
Contrainte	ضبط
Caractère	طابع
Potentiel	طاقة
Accident	عارض
Conjonction	عاطف
Conjonction de coordination	عاطف نسقي
Universalisme	عالمية
Antécédent	عائد (إليه)، صلة
Locution	عبارة
Exposé	عرض
Épisodique	عرضي
Racial	عرقى
Métrique	عروضي

Signe	علامة
Désinence casuelle	علامة إعراب
Apostrophe	علامة الحذف
Morpho-syntaxe	علم تركيب البنى
Morphologie	علم الصرف
Phonématique (n)	علم القوّنيمات
Morphonologie	علم القوّنيمات الصرفي
Présentatif	عنصر تقديمي
Fonctionnel (n)	عنصر وظيفي
Gallo-roman	غالي - روماني (السان)
Téléologique	غائي (برهان غائي بحسب أرسطو)
Finaliste	غائي (قاتل بمذهب الغائية الفلسفي)
Finalité	غائية (مذهب فلسفي)
Voile du palais	غليصة
Nasalité	غنة
Gallois	غولتي (السان)
Muet	غير ملفوظ
Agent	فاعل حقيقي / عامل
Nuancer	فَرَّدَ (أظهر الفروق الفردية)
Démarcatif	فرزي
Hypothèse	فرضية
Dissocier	فَصَلَ

Redondance	فَضْل
Inaéiste (adj)	فَطْرَانِيَّة
Impersonnel	فَعْل ذُو صَيِّغ مَبْهَمَة
Suprasegmental	فَرْقَاطِي
Phonologique	فُونُولُوجِي
Phonématique (adj)	فُونِيمِي
Aptitude	قَابِلِيَّة
Séparabilité	قَابِلِيَّة لِلْفَصْلِ
Prélinguistique	قَبْلُفُؤِيَّة
Oargouillis	فَرْقَرَة
Exclusif	فَصْرِي
Segment phonique	فَطْع صَوْتِي
Segment	فُطْعَة
Enoncé	قَوْل
Figement	قَوْلَة
Analogique	قِيَاسِي
Axiologie	قَبِيْعَة
Patte de mouche	كُتَابَة رَفِيعَة مَخْرِشَة
Kalispel	كَسِيْ (لِسَان)
Acronyme	كَلِمَة أَوَّلِيَّة
Universaux casuels	كَلِمَات إِعْرَابِيَّة
Latence	كُفُون / اِسْتَار

Algonquien	كونكي (لسان مستخدم في الكيبك)
Entité	كيان
Modalité	كيفية
Suture	لأم
Non détermination	لاإمكانية تحديد
Monolithisme	لاتحلّد
Antisubstantialiste	لاجوهري
Désinences	لاحقات نحوية
Non minimal	لاذنباً
Intransitif	لازم
Langue	لسان
linguistique	لسانيات
Langage humain	لغة إنسانية
Vocable	لفظة
Lexème	لكسيم
Varonets (varones)	لهجة فانية
Idiome	لهجة فرعية
Idiolecte	لهجة
Passé simple	ماضي بسيط
Passé proche	ماضي قريب
Imparfait de subjonctif	ماضي مبهم لصيغة شرطية
Imparfait	ماضي الديمةومة / صيغة الاستمرار

A priori	ما قبلي/ سابق
Mandarin	ماندريني (لسان)
Néologisme	مبتكرة (لفظة)
Passif	مبني للمجهول
Divergent	متباعد
Annexe	مُشعّ نحوي
Série	متتالية
Communauté	متحد اجتماعي
Concept	متصوّر
Transitif	متعدّ
Irréductible	متعذر التبسيط
Dichotomie	متفرّع
Paires minimales	متقابلان أدنيان
Discontinu	متقطع
Enclitique	متكا
Locuteur	متكلم
Discret	متميز
Homonymie	مجانسة لفظية
More	مجتراً
Nu	مجرد (جنس)
Abstrait	مجرد (سياق)
Ensemble	مجموعة

Écho	محاكاة
Déterminant	محدد
Déterminé	محدد
Pré déterminé	محدد مسبقاً
Actualisateur	محقق
Vernaculaire	محكية دارجة
Incompatible	مخالف
Contour	مدار
Sémanème	مَذَلَّل (مداليل)
Signifié	مدلول
Grandeurs discrètes	مراتب مميزة
Synonyme	مرادف
Référent	مرجع
Syntagme	مركب
Lubrifiant	مزلق
Amalgame	مزيج
Égalitaire	مساوي
Future	مستقبل
Initial	مستهل
Écorché (français)	مشوه
Paralinguistique	مصاحبة (لغة)
Écholalie	مصاداة

Terminologie	مصطلحية
Sonante	مصوت
Subjonctif	مضارع منصوب/ صيغة النصب
Absolutif	مطلق
Observation	معاينة
Lexique	معجم
Complex	معقد
Jalon	معلم
Vécu	معيوش
Vocabulaire	مفردات اللغة (رصيد)
Patient	مفعول به
Complément d'agent	مفعول به فاعلي
Ablatif	مفعول فيه
Notion	مفهوم
Confrontation	مقابلة
Parallélisme	مقايضة/ موازنة
Emprunt	مقترض
Antéposé	مقدم
Échelle	مقياس/ نطاق
Reitéré	مكرر
Géniteur	مكوّن
Grasseyée	ملثوعة (الراء)

Monillé	مُلَيَّن
Comparable	مماثل
Déterminable	ممكّن التحديد
Diacritique	مميّز
Relais	مناوبة
Productif	منتج
Ponctuel	منتظم
Bénéficiaire	متّفع
Présent accompli	مُنْجَز الحاضر
Parfait	مُنْجَز (صيغة فعلية)
Courbe	منحني
Courbe mélodique	منحني تناغمي
Courbe intonative	منحني تنقيمي
Amalgamé	مندمج
Statut	منزلة
Parler (n)	منطوق/ محكية
Stylisté	منمنم (خط)
Vibrant	مهتزّ
Archaïsme	مهجور (لفظ)
Caractérisé	موصوف
Localiser	مَوْضَع
Situation	موضع

Thèse	موضوع
Position	موقع
Synthème	مونيم مركب
Parasynthème	مونيم مركب محاذ
Gérondif	مونيم مصدرى
Monématique	مونيماتى
Synthématique	مونيمية مركبة
Confixé	مؤلف العناصر
Indicateur	مؤشر
Nasalisé	مؤنّف
Dialectophone	ناطق باللهجة
Accent	نبر
Accent grave	نبر خفيض
Grammatical	نحوي
Soprano	ندى (صوت)
Calque	نسخ
Ordre	نسق
Appareusement	نسبي تكويني
Articulation	نطق / إنباء
Système	نظام
Équivalent	نظير
Épithète	نعت

Adjectif possessif	نعت ملكي
Ton	نغمة
Prosodie	نغمية
Tréma	نقطة الفصل
Ultime	نهائي
Registre	نوعية تصويت (مدى السلم الصوتي)
Nucléaire	نووي
Descendant	هابط
Hybride	هجين
Sourdisé	همسية
Unicité	وحدانية
Unité accentuelle	وحدة نبرية
Génétique	وراثي
Étiquetage	وسم
Instrumental	وسيلي
Fonctionnaliste	وظيفاني
Fonction	وظيفة
Fonction objet	وظيفة مفعولية
Fonctionnaire	وظيفي (نصير الوظيفة)
Fonctionnel	وظيفي
Fonctionnalisme	وظيفية
Pause	وقفة

قاموس المصطلحات فرنسي — عربي

À auxiliaire	ذو المساعد (شكل)
Ablatif	مفعول فيه
Absolutif	مطلق
Abstrait	مجرد (سياق)
Accent	نبر
Accent grave	نبر خفيض
Accident	عارض
Accord	مطابقة
Accusatif	حالة للمفعولية (النصب)
Acronyme	كلمة أوائلية
Acronymie	انقطاع هجائي
Actualisateur	عقن
Actualisation	تحين
Adaptation	تطويع
Adhésion	تماسك

Adjectif possessif	نعت ملكي
Adjonction	استحقاق
Affixation	زيادة
Affixe	زائدة
Agent	فاعل حقيقي / عامل
Algonquien	كونكي (لسان مستخدم في الكيبك)
Allogène	دخيل
Allophone	بديل صوتي
Alternance	تناوب
Amalgame	مزيج
Amalgamé	مدمج
Analogie	قياس
Analyse componentielle	تحليل المكونات
Annexe	منبع نحوي
Antécédent	عائد (إليه)، صلة
Antéposé	مقدم
Antériorisation	تقديم (صلة المتقدم بالتأخر)
Antinomie	تضارب
Antisubstantialiste	لاجوهرني
Apical	أسلي
Apparentement	نسبي / تكويني
Apposition	يدل

Aptitude	قابلية
Arbitraire	اعتباطي
Archaïsme	لفظ مهجور
Argot	أرعة
Articulation	تعلق / اتناء
Articulation (double)	اتناء / تلفظ (مزدوج)
Augment	زيادة استهلاكية
Avatar	تجسد
Axiologie	قيمة
Axiome	بديهية
Babil	ثغنة
Basque	باسكي (السان)
Basse	خفيض (صوت)
Béarnais	بيرني (السان)
Bénéficiaire	منتفع
Bilingue	ثنائي اللغة
Bizarrie	شواذ
Breton	بريتاني (السان)
Bruit	صوت احتكاكي / تشويشي
Calque	تنسخ
Caractère	طابع
Castillan	قشتالي (السان)

Castel	إعرابي
Celtique	سلتي (السان)
Classe	باب
Code	شيفرة
Coïncidence	تطابق
Combinabilités	توافقيات
Combinaison	اتلاف
Communauté	متحد اجتماعي
Comparable	مماثل
Compatibilité	تساق
Complément d'agent	مفعول به فاعلي
Complément de lieu	تيم المكان
Complément du verbe	تيم الفعل
Complémentaire	تكاملي
Complex	معقد
Composition	تركيب الكلمات/ نعت
Concept	مفهوم
Conception	تصور
Conditionnel	صفة شرطية
Conditionnement	إشراط
Configuration	تشكل
Confixation	اتلاف عناصر

Confixé	مؤتلف العناصر
Confrontation	مقابلة
Conjoint	اتضمامية
Conjonction	عاطف
Conjonction de coordination	عاطف نسقي
Conjoncture	ظرف
Conjugaison	نصريف الأفعال
Connecteur	رابط
Constatation	اثبات
Construction	بناء
Construction accusative	بناء مفعولي
Contour	مدار
Contrainte	ضغط
Contraste	تقابل
Contrastive	تبايني
Copule	رابطة
Corée	كورسيكي (لسان)
Courbe intonative	منحنى تنغيني
Courbe mélodique	منحنى تناغمي
Datif	حالة الجر
Dédactif	استتاجي
Démarcatif	فرزي

Dénotation	دلالة ذاتية
Dérivation	اشتقاق
Désaccord	تناقض
Descendant	هابط
Désinence	علامة الإعراب
Déterminable	يمكن التحديد
Déterminant	محدد
Détermination	تحديد
Déterminé	محدد
Déviation	انحراف
Diachronie	تعاقية
Diacritique	مميز
Dialectophone	ناطق باللهجة
Dichotomie	متفرع ثنائي
Digraphe	حرف ثنائي
Diphthongue	صاكت مزدوج
Discontinu	متقطع
Discret	منميز
Dissociation	فصل
Distinction	تمييز
Distribution	توزيع
Divergent	متباعد

Dorsal	خلفيّ
Écart	ابتعاد
Échelle	مقياس / نطاق
Écho	محاكاة
Écholalie	مصاداة
Éclaircir la gorge	ترقيق الحلق
Écorché (français)	مشوه (لسان)
Effectif	صيغة التمام
Égalitaire	مساوي
Élimination	إسقاط / حذف
Emprunt	مُقترض
Enclitique	متكافأ لاحق
Énoncé	قول
Enseignement	تعليم
Ensemble	مجموعة
Entité	كيان
Épisodique	عُرْضيّ
Épithète	نعت
Équivalence	نساوي / تكافؤ
Équivalent	نظير
Ergativité	توافق (لزوم وتعدّ)
État	حالة

État de langue	حالة اللغة
Ethnographie	إثنوغرافيا
Étiquetage	وسم
Étymologie	نأيل
Évidence	بداهة
Examen	اختبار
Exhasif	قصري
Exotique	دخيل
Exotisme	إغرابية
Expansion	توسيع
Expérimentiel	تجريبي
Finaliste	غائي (قاتل بمذهب الغائية الفلسفي)
Finalité	غائية (مذهب فلسفي)
Flamand	فلاندي (لسان)
Flexion	إعراب/ تصرف الاسم
Flexion interne	تغير داخلي
Fluctuation	تقلب
Foncière	أساسي
Fonction	وظيفة
Fonction objet	وظيفة مفعولية
Fonctionnaire	وظيفوي (نصير الوظيفية)
Functionalisme	وظيفية

Fonctionnaliste	وظيفاني
Fonctionnel (adj)	وظيفي
Fonctionnel (n)	عنصر وظيفي
Fonctionnement	اشتغالية
Formulation	صياغة
Francien	فرنجي (لسان)
Fréquence	شيع / تردد
Futur	مستقبل
Gallois	غالي (لسان بلاد الغال السلتية)
Gallo-Roman	غالي - روماني (لسان)
Gargouillis	فرقرة
Gaulois	غولي (لسان)
Généraliste	تولدانية
Genèse	تكوين
Génétique	وراثي
Géniteur	مكون
Génitif	حالة الإضافة
Gérondif	صيغة اسم المصدر
Globalité	شمولية
Glottalisation	تهميز
Grammatical	نحوي
Grandeurs discrètes	مراتب مميزة

Graphie	تعبير كتابي
Grasseyé	ملثوغة (الراء)
Gravité	انخفاض التردد
Hauteur mélodique	ارتفاع تناغمي
Homonyme	مجانس لفظي
Homonymie	مجانسة لفظية
Homophone	تورية جناسية
Hybride	هجين
Hypothèse	فرضية
Identification	تعيين
Idéogramme	رمزي فكري
Idiolecte	لهجة
Idiome	لهجة فرعية
Imparfait	صيغة الاستمرار
Imparfait de subjonctif	ماضي مبهم لصيغة شرطية
Imperfection	شائبة
Impersonnel	فعل ذو صيغ مبهم
Implication	استتباع
Incompatible	مخالف
Indicateur	مؤشر
Indicatif	صيغة إختيارية
Inductif	استقرائي

Infinitif	صيغة المصدر
Infléchissement	تعديل
Initial	مستهل
Injonction	صيغة أمرية
Ionéiste (adj)	فطرائية
Instrumental	وسيلي
Intensité	شدة
Interprétation	تأويل
Intonation	تنغيم
Intransitif	لازم
Intra-utérine	بيأمومية (رحمية)
introspectif	استبطاني
Iroquois	إيروكوي (لسان) (متعلق بشعب هندي يعيش في أميركا الشمالية)
Irréductible	متعذر التبسيط
Isomorphisme	تشاكلي
Jalon	مُغْلَم (معالم)
Jargon	أرغة
Kabyle	قبلي (لسان)
Kalispel	كسبي (لسان)
Langage humain	لغة إنسانية
Langue	لسان

Langues à ergatif	اللسان توافقية
Latence	كُمون
Latitude	خيار
Lexème	لكسيم
Lexical (adj)	معجمي
Lexique	معجم
Localiser	مَوْضِعْ
Locuteur	متكلم
Locution	عبارة
Lubrifiant	مزلق
Mandarin	مانداريني (لسان)
Manifestation	تجلى
Marque	بِئمة
Marque casuelle	بِئمة إعرابية
Mélodie	تناغم / تناغمية
Mélodie du discours	تناغم الخطاب
Mélodique (adj)	تناغمي
Métrique	علم العروض
Modal	صيغي
Modalité	كيفية
Mode	صيغة (الفعل)
Modification	تحويل

Monématique	مونيماتى
Monolithisme	لاآخذد
More	مجزا
Morphologie	علم الصرف
Morphonologie	علم القونيمات الصرفى
Morphosyntaxe	علم تراكيب البنى
Mouillé	ملين
Muet	غير ملفوظ
Nasal	أنفى
Nasalisé	مؤنف
Nasalité	غنة
Natif	صليقى
Naturalisation	نطبع
Néerlandais	هولندى (لسان)
Néologisme	مبتكرة (لفظة)
Neutralisation	تحييد
Non détermination	لاإمكانية لتحديد
Non minimal	لاأذنيا
Notation	ترميز
Notificatif	تبليغى
Notion	مفهوم
Nouveauté	حدائثة

Nu	محز (جزر)
Nuancer	فرد / أظهر الفروق الفردية
Oblique (cas)	حالة الخفض والتصب (في الإعراب)
Observation	معاينة
Occlusion	انسداد
Occurrence	تواردي
Omissibilité	حذف
Ordonnancement	ترتيب
Ordre	نسق
Organisation	تنظيم
Orthographe	إملاء (علم)
Oubikh	أوبيخ (لسان القوقاز)
Oxitan	أكسي (السان)
Paires minimales	متقابلان أدنيان
Palatal	حنكي
Palatalisation	تغوير
Paradigmatique	جدولي
Paradigme	جدول
Paralinguistique	مصاحبة (لغة)
Parallélisme	مقابلة / موازنة
Parasynthème	مؤنيم مركب محاز
Parfait	متجز

Parler (n)	محكية / منطوق
Participe	اسم المفعول
Participe parfait	اسم مفعول تام
Partitive	تبعيض
Passé proche	ماضي قريب
Passé simple	ماضي بسيط
Patsif	مبني للمجهول
Patient	مفعول به / خاضع
Patois	باتوا
Patrimoine génétique	تراث تكويني
Patte de mouche	كتابة رفيعة غريبة
Pause	وقفة
Permanent	دائم
Peul	بال (لسان)
phonation	عملية التصويت
Phonématique (adj)	فونيمتي
Phonématique (n)	علم الفونيمات
Phonique	نصوتي
Phonologie	فونولوجيا
Phonostylistique	أسلوبية صوتية
Pictogramme	رمز صوري
Pictographie	رمزية صورية

Plan	سطح / مستوى
Plurilinguisme	تعدد اللغات
Polysème	تعدد معاني
Polysémie	تعدد
Ponctuel	متنظم
Position	موقع
Possessif	(ضمير) الغائب الملكي
Postposé	مؤخر
Postposition	إرداف
Potentialité	احتمالية
Potentiel	طاقة
Prédeterminé	محدد مسبقاً
Prédicat	مُسند
Prédicatif	إسنادي
Préexistant	سابق الوجود
Prélinguistique	قَبْلُفَوِي
Préposé	تابع
Prépositionnel	جاري (حرف الجر)
Prérogative	امتياز
Présent	صيغة المضارع
Présent accompli	مُنْتَجِز الحاضر
Présent de l'indicatif	صيغة الحاضر الدلالية

Présentatif	عنصر تقديمي
Prétérit	صيغة الماضي
Productif	مشج
Productivité	إنتاجية
Prosodie	نغمة
Provincialisme	ريفية
Racial	عرقى
Radical	جذر الكلمة (في التصريف)
Rappel	تكملة
Rebus	تشكيل فكري
Reconstitution	فرسب
Réurrence	تكرار
Redondance	فصل
Référence	إرجاع
Référent	مرجع
Registre	نوعية نصوت (مدى السلم الصوتي)
Reitéré	مكرر
Relais	مناوبة
Relationnel	ترابطي
Reliques	بواقي/ آثار
Résonance buccale	رنين فموي
Roman	رومانى (لسان)

Sarde	سرديني (لسان)
Satellite	تابع نحوي
Savoyard	سافواربي (لسان)
Séculaire	جيلي (يحدث مرة كل جيل)
Segment	قطعة
Segment d'énoncé	قطع
Segment phonique	قطع صوتي
Sémantème	مذلل / مداليل
Séparabilité	قابلية للفصل
Série	متتالية
Siglaion	تكوين صدر كلمة
Sigle	صدر كلمة
Signe	علامة
Signifiant	دال
Significatif	بلغ
Signifié	مدلول
Singularité	بسة المفرد
Sonante	مصورت
Soprano	نذي (صوت)
Souletin	سولتاني (لسان)
Spécialisation	تخصّص / تميز نوعي
Spécificité	خاصية

Stabilité	ثبات
Standardisation	تقييس
Statut	متزلة
Structuration	تَبْيِين
Structuré	مُتَبَيِّن
Structures de surface	بنى سطحية
Stylisé	منمّم (خطّ)
Subjonctif	مضارع منصوب / صيغة النصب
Subordination	اتباع
Subordonné	جمله تابعة
Substantiel	جوهرى / اسمي
Suffixation	إلحاق
Suture	لأم
Syllabaire	أبجدية مقطعية
Syllemme	سيليم
Symptomatique	أماراتي
Syncretisme	انطباق
Synésthésie	جنس مترامن
Synonyme	مرادف
Syntagmatique	تركيبى
Syntagme	مرکّب
Synthématique	موتيعية تركيبية

Synthème	مؤنيم مركب
Téléologique	غائي (برهان غائي بحسب أرسطو)
Temporel	زمني
Terminologie	مصطلحية
Timbre	نجرس
Ton	نغمة
Toscan	توسكاني (السان)
Traits distinctifs	سمات مميزة
Transitif	متعد
Transitivité	تعد
Tréma	نقطة الفصل
Trigraphhe	الحرف الثلاثي
Trutuhil	تزوتوهيل (السان المايا)
Ultime	نهائي
Umlaut	تغير الصائت
Unicité	وحدانية
Unilingue	أحادي اللغة
Unité accentuelle	وحدة نبرية
Universalisme	عالمية
Universaux casuels	كليات إعرابية
Vannetais: (Vannes)	لهجة قانية عائلة لـ (Vannes)
Variété	ضرب

Vécu	معيوش
Vernaculaire (parler)	محكية دارجة
Vibrant	مَهْرَ
Vocable	لفظة
Vocabulaire	مفردات اللغة
Vocal	صوتي
Voile du palais	غلاصمة
Vulgarisme	سوقية



المراجع

1 - العربية

كتب

بركة، بسام. معجم اللسانية. لبنان: منشورات جزوس برس، 1985.

بعلبكي، رمزي. معجم المصطلحات اللغوية (إنجليزي - عربي). بيروت: دار المعلم للملايين، 1990.

حنّا، سامي عياد، كريم زكي حمام الدين ونجيب جريس. معجم اللسانيات الحديثة (إنجليزي - عربي). بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، 1997.

الحولي، محمد علي. معجم علم اللغة النظري (إنجليزي - عربي). بيروت: مكتبة لبنان، 1982.

المستدي، عبد السلام. قاموس اللسانيات (عربي - فرنسي، فرنسي - عربي). طرابلس: الدار العربية للكتاب، 1984.

للمعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات (إنجليزي - فرنسي - عربي).
الدار البيضاء: المنظمة العربية للترجمة والثقافة والعلوم، 2002.

دوريات

الفكر العربي: تشرين الأول/ أكتوبر - كانون الأول/ ديسمبر 1991.
----- : العدد 46، حزيران 1987.

مختار، أحمد. «المصطلح اللساني العربي وضبط المنهجية». * عالم الفكر:
العدد 3، تشرين الأول/ أكتوبر - كانون الأول/ ديسمبر 1989.

2 - الأجنبية

Books

Actes du 9e colloque international de linguistique fonctionnelle
(Fribourg-en-Brisgau, juin 1982). Paris: SILF, 1984.

Arrivé, Michel. *À La Recherche de Ferdinand de Saussure*. Paris:
PUF, 2007.

Grammaire fonctionnelle du français. École normale supérieure de
Saint-Cloud, centre de recherche et d'étude pour la diffusion
du français. Sous la direction d'André Martinet; rédaction
d'André Martinet ■ Jeanne Martinet à partir des recherches
de Fernand Bantolila et Colette Feuillard. Paris: Didier, 1979.

Kaiser, Louise (Ed.). *Manual of Phonetics*. Amsterdam: North
Holland Publication, 1967.

Langue formelle-langue quotidienne, quelques langues d'Asie:
journée d'études. UER de linguistique générale et appliquée,
Université René Descartes et l'Institut national des langues et
civilisations orientales, sous ■ dir. d'Alice Cartier. Paris:
Université René Descartes, UER de linguistique générale et
appliquée, 1980.

- Linguistique et sémiologie fonctionnelles. Séminaire de linguistique. Istanbul, 7-9 octobre 1980.* École supérieure des langues étrangères, Université d'Istanbul. Avec la participation de André Martinet et Jeanne Martinet; textes recueillis par Berke Vardar. Istanbul: École supérieure des langues étrangères, 1981. (Publications de l'école supérieure des langues étrangères de l'Université d'Istanbul; 2850-2855)
- Logos semantikos: Studia linguistica in honorem Eugenio Coseriu, 1921-1981.* Horst Geckeler [et al.]. Madrid: Gredos; New York: W. de Gruyter, 1981.
- Martinet, André. *Conférence donnée à l'occasion de sa promotion au Doctorat honoris causa de l'Université catholique de Louvain.* Louvain: Publications universitaires de Louvain, 1971.
-, *Dictionnaire de l'orthographe alphonc.* En collaboration avec Jeanne Martinet, société d'études et anthropologiques de France. Paris: SELAF, 1980.
- . *Éléments de linguistique générale.* Paris: A. Colin, 1960. (Collection Armand Colin; 349)
- . *Elements of General Linguistics.* Traduit par Elisabeth Palmer. Londres: Faber and Faber; Chicago: University of Chicago Press, 1964.
- . *Évolution des langues et reconstruction.* Paris: Presses universitaires de France, 1975. (Collection Sup. Le Linguiste; 15)
- . *Fonctions et dynamique des langues.* Paris: Armand Colin, 1989.
- . *Le Français sans fard.* Paris: Presses Universitaires de France, 1969. (Le Linguiste; 6)
- . *A Functional View of Language.* Oxford: Clarendon Press, 1962.
- . *Le Langage.* Sous la direction d'André Martinet. Paris: Gallimard, 1968. (Encyclopédie de la Pléiade; 25)
- . *La Linguistique synchronique.* 2nd éd. Paris: PUF, 1968.
- . ————. Paris: PUF, 1965.

- . *Mémoires d'un linguistique, vivre les langues*. Paris: Quai Voltaire, 1993.
- . *Phonology as Functional Phonetics; Three Lectures Delivered Before the University of London in 1946*. London: Oxford University Press, 1949.
- . *La Prononciation du français contemporain, témoignages recueillis en 1941 dans un camp d'officiers prisonniers*. Paris: E. Droz, 1945. (Société de publications romanes et françaises; 23)
- . *Sprachökonomie und Lautwandel: eine Abhandlung über die diachronische Phonologie*. Traduit par Claudia Fuchs. Stuttgart: Klett-Cotta, 1981.
- . *Des Steppes aux océans: l'Indo-européen et les Indo-Européens*. Paris: Payot, 1986.
- . *Syntaxe générale*. Paris: A. Colin, 1985. (Collection U)
- [et al.]. *Problèmes du langage*. Paris: Gallimard, 1966.
- ■ Henriette Walter. *Dictionnaire de la prononciation française dans son usage réel*. Publié par le Conseil international de la langue française. Paris: France-expansion, 1973.
- , Jeanne Villard et Jeanne Martinet. *Vers l'écrit avec Alfonic: Écoles maternelles et cours préparatoire*. Avec la collaboration de Denise Boyer, Albert et Gilberte Dominici. Paris: Hachette, 1983.
- Pariente, Jean-Claude et Gabriel Bès. *La Linguistique contemporaine*. Paris: Presses Universitaires de France, 1973.
- Pope, Mildred K. *From Latin to Modern French*. Manchester: Manchester University Press, 1934.
- Sragc, Nader. *Dialogue des langues: Réflexions de deux linguistes fonctionnalistes: André Martinet et Henriette Walter*. Paris: L'Harmattan, 2003.
- . *Étude sociolinguistique du parler arabe de Moussaythé*. Beyrouth: Département des publications de l'université libanaise, 1997.
- De Stemann, Ingeborg. *Manuel de la langue danoise*. Copenhague: E. Munksgaard, 1944.

Troubetzkoy, N. S. *Principes de phonologie*. Traduit par J. Cantineau. Paris: Klincksieck, 1976. (Tradition de l'humanité; 7)

Walter, Henriette. *La Dynamique des phonèmes dans le lexique français contemporain*. Paris: France-Expansion, 1976.

World Papers in Phonetics. Tokyo: [n. pb.], 1975.

Periodicals

Arrivé, Michel. «La Mort d'André Martinet.» *Le Monde*: 16/8/1999.

Dilbilim: vol. 4, 1979.

Durand, Marguerite. «Voyelles longues et voyelles breves.» *B.S.L.*: vol. 43, 1947.

Esperanto-Actualities: vol. 5, no. 379, Avril 1987.

«Evidence for Laryngeals, Work Papers of a Conference in Indo-European Linguistics.» *B.S.L.*: vol. 57, 1962.

«Fonologie Francouzstiny.» *Slov a Slovesnost*: vol. 4, 1938.

Forchhammer, Henri. «Le Danois parlé.» *B.S.L.*: vol. 39, 1938.

———. «Le Danois parlé.» *Revue germanique*: vol. 30, 1939.

Forge, Guy-Jean. «La Langue des américains.» *La Linguistique*: vol. 9, no. 2, 1973.

Fouché, Pierre. «Phonétique historique de français, introduction.» *Word*: vol. 9, 1953.

———. «Traité de prononciation française.» *B.S.L.*: vol. 52, 1956.

Fourquet, Jean. «Les Mutations consonantiques du germanique.» *Word*: vol. 5, 1949.

Gilbert, E. «Langage de la science.» *B.S.L.*: vol. 43, 1947.

«Glossaire des Patois de la Suisse romande.» *Word*: vol. 5, 1949.

Guillaume, Gustave. «L'Architectonique du temps dans les langues classiques.» *Acta linguistica*: vol. 43, no. 3, 1942.

- Hagege, Claude. «La Structure des langues.» *La Linguistique*: vol. 19, no. 2, 1983.
- Hammerich, Louis L. «Laryngeal before Sonant.» *Word*: vol. 6, 1950.
- Heffner, R.M.S. «General Phonetics.» *Word*: vol. 7, 1951.
- Heilmann, Luigi. «La Parlata di Moena.» *B.S.L.*: vol. 52, 1956.
- Heimer, Helge. «Mondial, Lingua internacional.» *B.S.L.*: vol. 52, 1956.
- Hjelmslev, Louis. «Prolegomena to Theory of Language.» *B.S.L.*: vol. 42, no. 2, 1946.
- Hoffmann, J.B. «Etymologisches Wörterbuch des Griechischen.» *Word*: vol. 6, 1950.
- Hoijer, Harry [et al.]. «Linguistic Structures of Native America.» *Lingua*: vol. 1, 1947.
- «Interlingua-English Dictionary and Interlingua Grammar.» *Word*: vol. 8, 1952.
- «Interview par Herman Parret.» *Discussing Language*: 1973.
- Jakobson, Roman. «Kindersprache, Aphasie un allgemeine Lautgestre.» *B.S.L.*: vol. 43, 1947.
- Johannesson, Alexandre. «Die Mediageminata im Islandischen.» *Revue critique d'histoire et de littérature*: vol. 66, 1933.
- Jones, Daniel. «Everyman's English Pronouncing Dictionary.» *Word*: vol. 13, 1957.
- . «The Phoneme.» *Word*: vol. 7, 1950.
- Keller, H.E. «Etudes linguistiques sur les parlers valdotains.» *Erasmus*: vol. 14, 1961.
- Knauer, Karl. «Vulgarfranzösisch. Charakterzüge und Tendenzen des gegenwärtigen französischen Wortschatzes.» *Word*: vol. 11, 1955.
- Koerner, E. F. K. «Ferdinand de Saussure, Schriften zur Linguistik.» *La Linguistique*: vol. 10, no. 1, 1974.
- Krahe, Hans. «Das Venetische.» *Word*: vol. 7, 1951.

- . «Historische Laut-und Formenlehre des Gotischen.» *Word*: vol. 6, 1950.
- Kronasser, Hans. «Vergleichende Laut-und Formenlehre des Hethitischen.» *Word*: vol. 13, 1957.
- Kurylowicz, Jerzy. «L'Accentuation des langues indo-européennes.» *Word*: vol. 9, 1953.
- Lado, Witold. «Linguistics Across Cultures.» *B.S.L.*: vol. 53, 1958.
Langues et Linguistique: 1978-1979.
- Lehmann, Winfred P. «Proto-Indo-European Phonology.» *Word*: vol. 9, 1953.
- Lepers, John-Paul et Leslie Lepers. «Docteurs fautes.» *Echo des savanes*: no. 24, 1985.
- Levy, Paul. «La Langue allemande en France: Pénétration et diffusion des origines à nos jours.» *Langage*: vol. 27, 1950.
- Lewis, J. Windsor. «A Concise Pronouncing Dictionary of British and American English.» *La Linguistique*: vol. 9, no. 2, 1973.
Linguistics Today: no. 2, 1954.
La Linguistique: vol. 1, 1967.
- Malmberg, Bertil. «Die Quantität als phonetisch-phonologischer Begriff.» *B.S.L.*: vol. 42, 1946.
- . «Le Système consonantique du français moderne.» *B.S.L.*: vol. 42, 1946.
- Marouzeau, Jules. «Lexique de la terminologie linguistique.» *Word*: vol. 9, 1953.
- Martinet, André. «Alfonic et l'écriture japonaise.» *Liaison alfonic*: vol. 1, no. 1, 1984.
- . «Autour du syllemme.» *Revue rouennaise de linguistique*: vol. 25, no. 5, 1980.
- . «Les Choix du locuteur.» *Revue philosophique de la France et de l'étranger*: vol. 156, no. 3, 1966.
- . «L'Enfant parle.» *Liaison alfonic*: vol. 4, no. 1, 1987.
- . «Langue parlée et langue écrite.» *Liaison alfonic*: vol. 3, no. 3, 1986.

- . «De la Morphologie.» *La Linguistique*: vol. 1, 1965.
- . «Le Mot.» *Diogenes*: vol. 51, 1965.
- . «Mot et syntème.» *Lingua*: vol. 21, 1968.
- . «Que Debe entenderse por «connotacion»?» *Acta poetica*: vol. 3, 1981.
- . «Qu'est-ce que la morphologie?» *Cahiers Ferdinand de Saussure*: no. 26, 1969.
- . «Remarques sur le système phonologique du français.» *B.S.L.*: vol. 34, 1933.
- . «Réponse à une question relative au bilinguisme.» *Almanach Flinker*: 1961.
- . «Réponses à «Systèmes et variations»» *Bulletin de la Section de linguistique de l'Université de Lausanne*: no. 4, 1981.
- . «Sémantique et axiologie.» *Revue roumaine de linguistique*: vol. 20, 1975.
- . «Se soumettre à l'épreuve des faits.» *La linguistique*: vol. 18, no. 1, 1983.
- . «Should We Drop the Notion of Subject?» *La Revue Canadienne de linguistique*: vol. 17, no. 2, 1972.
- . «La Synchronie dynamique.» *La linguistique*: vol. 26, no. 2, 1990.
- . «De la Synchronie dynamique à la synchronie.» *Diachronica*: vol. 1, no. 1, 1984.
- . «Syntagme et syntème.» *La Linguistique*: vol. 2, 1967.
- . «La Syntaxe fonctionnelle.» *Bulletin de la société polonaise de linguistique*: vol. 31, 1972.
- Reichstein, Ruth. «Études des variations sociales et géographiques des faits linguistiques.» *Word*: vol. 16, 1960.
- Weinreich, Uriel. «Exploration in Semantic Theory.» *La Linguistique*: vol. 10, no. 1, 1974.